م. ف. ألبيديل

سحر الأساطير

دراسة في
الأسطورة - التاريخ - الحياة

ترجمة

د. حسان ميخائيل اسحق



دار علاء الدين

م. ف. ألبيديل

سحر الأساطير

دراسة في

الأسطورة . التاريخ . الحياة

ترجمة

د. حسّان ميخائيل اسحق



منشورات دار علاء الدين

- **سحر الأساطير.**

دارسة في: **الأسطورة. التاريخ. الحياة.**

- تأليف: **م. ف. البيديل.**
- ترجمة: **د. حسّان ميخائيل اسحق.**
- الطبعة الثانية ٢٠٠٨.
- عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- **هيئة التحرير في دار علاء الدين:**

- الإدارة والإشراف العام: **م. زويا ميخائيلينكو.**
- التدقيق اللغوي: **صالح جاد الله شقير.**
- المتابعة الفنية والإخراج: **أُسامة راشد رحمــة.**

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص. ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy



مُقدِّمة

يتحدث هذا الكتاب عن العجائب التي لا عدّ لها والتحولات التي لا مثيل لها، والقصص المحيّرة؛ ولكنه يتحدّث في الوقت عينه عن القيم الخالدة والحكمة الأزلية. ويعين الكتاب القارئ: تلميذ المدرسة، وطالب الجامعة، ومن أنهى تعلّمه على مقاعد الدراسة، يعين هؤلاء كلهم على مواربة باب عالم الأساطير الساحر اللا نهائي، وليس هذا سوى عالم كامل يعيش وفق قوانينه الخاصة وبالكاد تستطيع أن تعثر في هذا الكتاب على شخصيات معروفة، أو محاور معتادة، أو أشياء عادية. فأنت لن تقابل فيه سوى الآلهة الجبّارة، والوحوش العدوانية، والكائنات التي لا تشبه شيئاً مما نراه في حياتنا، إضافة إلى الأقزام، والعمالقة، والأبطال، والناس العاديين تماماً، إلاّ أنهم مع هذا لا يشبهوننا. ويري الكتاب كيف تخرج النباتات من البشر، وكيف تنبت الأشجار الحية وتمشي، وكيف تتحوّل الحيوانات إلى بشر والبشر إلى حيوانات، وكيف تتحوّل الشمس والقمر والكواكب إلى كائنات حيّة تتجوّل في كبد السماء كما نفعل نحن على الأرض. فحتى الأشياء العادية تماماً يمكن أن تسلك فيه سلوكاً لم نعرفه فيها، ويمكنها أن تفعل ما يحلو لها، وغالباً ما تؤثر على حياة الناس، وتقف وراء

هذا كلّه مشاهدات أكدتها تجربة مئات الأجيال ورصدت خلالها حركة العالم الذي نعيش فيه ومكانة الكائن البشري فيه.

وثمة في هذا الكون عوالم مختلفة. وهي تتجاور بعضها مع بعض، أو تتحد بطريقة تعبيرية غير مألوفة، ولذلك يغدو من الممكن التجوّل فيه بأكثر الوسائل غرابة. لكن هذا ليس بمتناول أيّ كان، بل ميزة خاصة لبعضهم وحسب، وحتى هؤلاء كان يجب أن ينالوا إعداداً خاصاً. وبدورهما لم يكن الزمان والمكان عاديين في الكون الأسطوري هذا، مثلهما مثل ما تبقى كله. فقد يظهر الزمان مثلاً أو يختفي، وقد يمتدّ أو يتقلّص، وقد يمدّ يد العون للإنسان أو يسبب الأذى له. كما يمكن أن يكون المكان بدوره جيداً أو سيئاً، محليّاً أو غريباً، بشرياً أو إلهياً. وكان يمكن أن تقع الأحداث عينها في الآن عينه في أماكن مختلفة وشروط متغايرة. ويظهر الماضي والمستقبل بالدرجة عينها من الواقعية، ولا يمضي الماضي في أثناء ذلك إلى أيّ مكان، بل يبقى قائماً في مكان ما على مقربة من الحاضر، وقد تكون العودة إليه ممكنة.

قصارى القول أنه لا يمكننا بحال من الأحوال أن نحصي المعجزات التي تحدث في الكون الميثولوجي. فالفيل مثلاً يسافر ممتطياً ظهر فأر دون أن يشعر أيّ منهما بالضيق؛ وللجبال أجنحة تحلّق بها وتحطّ لتأخذ قسطاً من الراحة؛ والأرض تستقر وادعة على ظهر سلحفاة وتتحدّث بصوت بشريّ؛ ويظهر الأموات للأحياء، ويجول الأحياء في مأوى الأموات؛ وينطلق السهم من القوس يبحث عن هدفه بنفسه؛ وللرزّ روح يتجول في الحقول، و...... ويحدث هذا كله لأنه ثمة حقيقة عليا ما تروي الأساطير عنها، وهي تعلن عن نفسها ككل مباشر كثير الوجوه يمكن الإشارة إليه أكثر مما يمكن تسميته.

عن هذا كله وعن كثير غيره يروى في أساطير مختلف شعوب العالم. ولهذا بالذات كرّسنا هذا العمل. وغني عن البيان أننا لا نستطيع أن نروي الكثير عن هذا الكون الواسع في كتاب واحد، لكنّ ما سنورده فيه كاف كما نأمل للتعريف بما هو موجود. فالقارئ يستطيع أن يطلّع فيه على العلاقة بين الأساطير والتاريخ، ويتعرف على مختلف ضروب الأساطير وما يرون فيها، كما يستطيع أن يعرف كيف ظهرت الأساطير ومتى ظهرت، وكيف تبدلت مع الزمن ووصلت إلينا.

ولكننا قبل أن نلج إلى عالم الأساطير الساحر هذا، ينبغي أن نبيّن أهميّة معرفة الأساطير القديمة بالنسبة للإنسان المعاصر. وقد تبدو هذه المسألة للوهلة الأولى عديمة الجدوى ولا طائل منها. ولكن أصداء الأساطير دائمة الحضور في حياتنا اليومية. فكثير منا يتناول

كلّ صباح عصيدة جريش الشوفان «عصيدة هرقل». وندعو عالم النبات باسم «فلورا»، وعالم الحيوان باسم «فاونا». وأطلقنا على السفينة الشهيرة التي ارتبطت بتحوّل العام ١٩١٧م، اسم «أفرورا»، كما دعونا الطائرات باسم «انتيوس»، وبعض الأحواض باسم «نبتون». ونبحث ليلاً في السماء عن كوكب جوبتر، وفينوس أو ساتورنوس، وعن مجموعة اندروميدا، وبرسيوس، وسنتاورا. وماذا تسمّى الأشهر في تقويمنا؟ يناير (كانون الثاني. م): شهر جانوس (= حارس أبواب السماء)، ومارس (= آذار. م): شهر مارس (= إله الحرب عند الرومان)، وشهر يونيو (=حزيران. م): شهر جونو (إلهة الحب عند الرومان). وهذه كلها أسماء آلهة وشخصيات ميثولوجية.

كما يعج أدب القرون الماضية بالأسطورة. فلنأخذ أيّ ديوان من أشعار أ. س. بوشكين ولنقرأ أي قصيدة كانت على سبيل المثال لا الحصر، وسوف تلقانا فيها أبيات مثل:

تتراقـــــــص أمـــــواج فليجيتـــــــون

وتـــــــرتعش قبـــــب تارتـــــاروس

جيـــــاد بلوتـــــون الـــــشاحب

تـــــسرع إلى حوريـــــات بيليـــــون

ومـــــن هـــــاديس تحمـــــل الإلـــــه

ففي كل شطر من هذه الأبيات أخذ الشاعر الأسماء والتسميات من الأساطير. وكيف نستطيع نحن أن نفهم مغزى القصيدة إذا كنا لا نعرف معاني هذه الكلمات؟ وقد يعترض أحدهم قائلاً: هكذا كتبوا في القرن التاسع عشر م. وحسب. لكننا نعرف أن هذا ينسحب على كتاب القرن العشرين أيضاً. فقد كتبت مارينا سفيتايفا مثلاً:

بيقظـــــة المحقـــــق في الزنزانـــــة

يتـــــبختر القلـــــب مـــــع مورفيـــــوس

وهذا البيت الشعري أيضاً يصعب إدراك مغزاه العميق والإحساس بجماليته الحقيقية إذا كنا لا نعرف أن مورفيوس هو إله الحلم.

ويمكننا أن نشاهد في المتاحف والألبومات الفنيّة كثيراً من اللوحات والمنحوتات التي تمثل مختلف الموضوعات والمحاور الميثولوجية. وكان كلّ من اللوحات والمنحوتات سيبقى صامتاً بالنسبة إلينا إذا كنا لا نعرف الأساطير، والمشاهد التي تمثلها، والشخصيات الأسطورية التي صورتها اللوحات ومثلتها التماثيل.

ولنلاحظ أخيراً تعابير نستعملها في حديثنا اليومي. فالأماكن الشديدة القذارة نصفها بقولنا: إنها كاصطبلات «اوجياس»، ونصف الخروج من الحالات العويصة بأنه خيط اريادني، ومصدر الرزايا بأنه صندوق باندورا، والجهود العبثية بصخرة سيزيف، والآلام الممضّة بآلام تانتالوس. ونقول عن الماضي البعيد الذي غاب واندثر أنه «غاص في ليتو»، وعندما تغمرنا السعادة وتفيض نقول: إننا في السماء السابعة. وهذه التعابير مأخوذة كلها من الأساطير.

لا شك أن بمقدورنا مضاعفة مثل هذه الأمثلة، إلا أن ما سقناه منها كاف لإقناعنا بأن الأساطير القديمة لا تزال تعيش معنا، وموجودة في حياتنا اليومية على هذه الصورة أو تلك. إذن ليس من قبيل الترف أن نعرف هذه الأساطير، لا لكي نفهم مغزى الشعر فقط، بل لندرك مغزى حديثنا اليومي، ونحسّ جمالية اللوحات والتماثيل، ونلتقط مغزى كثير من الأسماء والتسميات التي تحيط بحياتنا اليومية.

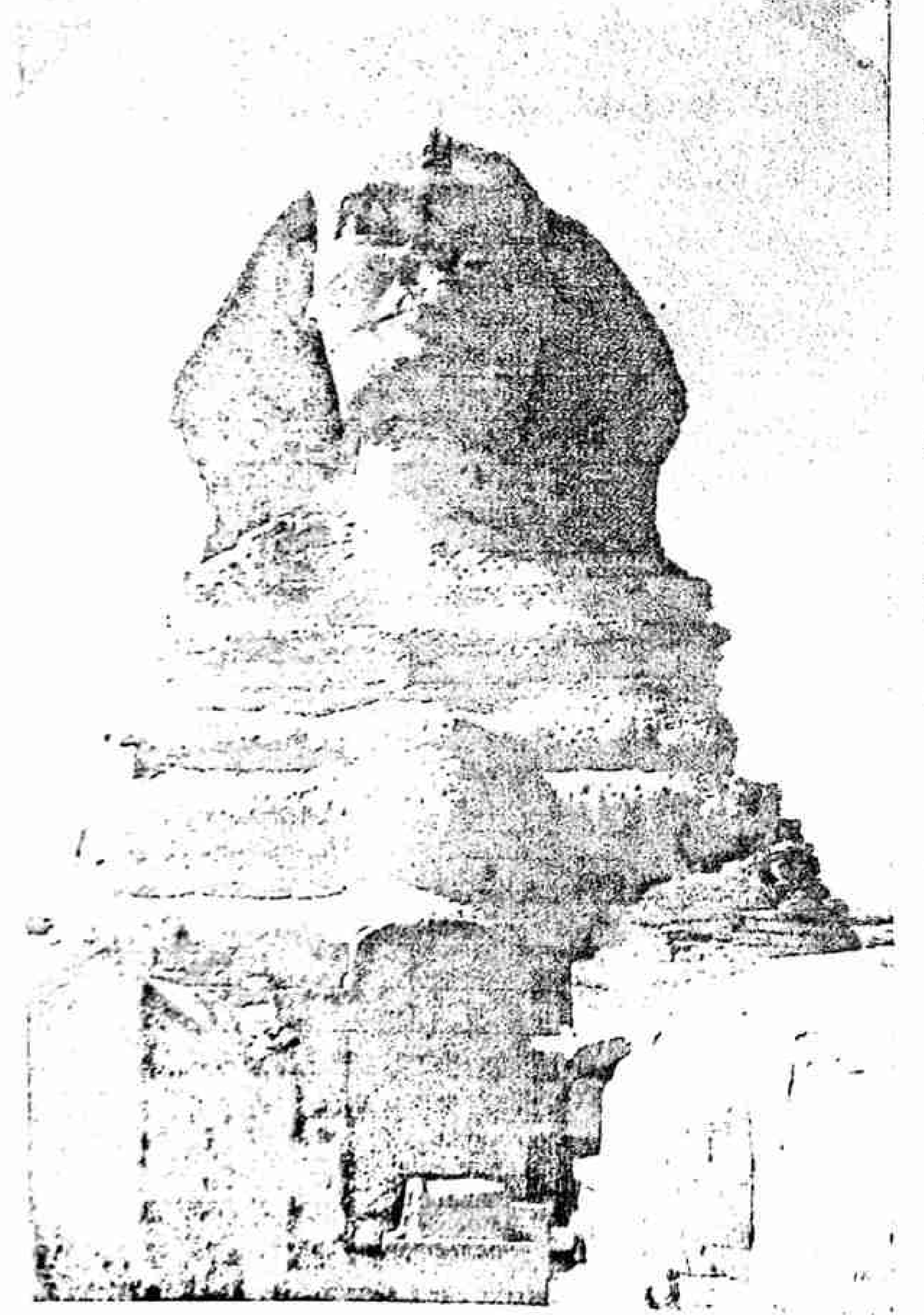
وأخيراً لا نقول جديداً إذا قلنا إن كثيراً من الحكمة العميقة يكمن في الأساطير، ولذلك فإن قراءتها ممتعة بحدّ ذاتها ومفيدة.

ولا ينبغي علينا أن ننسى في آخر المطاف أن الإبداع الميثولوجي لم يتوقف في أي زمن من الأزمنة، بل اتخذ أشكالاً مختلفة وحسب، وهو كخزان المياه الجوفية يتغذى بالشعر، والأدب، والفن، بل بالثقافة كلها. وليس من قبيل المصادفة أن تلتفت الشخصيات الثقافية دوماً إلى التقاليد الميثولوجية لتستلهمها وتنهل من معينها المادة الضرورية لتجديد أشكال الفنّ التي أهملها الزمن. وفي الأساطير تنعكس الموضوعات الكبرى، وتطرح المسائل الأزلية، ولذلك بالكاد تجد من لا يهتم بها.

الباب الأول

عَفَرُ سفينة القرون

ما هو التاريخ



أبو الهول

نصف إنسان ونصف وحش، له لبدة أسد. يرقد منذ آلاف السنين، ومستعدّ ليرقد آلافاً أخرى لا عدّ لها، يرقب حركة الزمن بهدوء. جعل منه جنود نابليون نيشاناً لرميهم، وهو الآن محط فضول السياح.

وخلافاً للزمن الهلنستي لم يكن أبو الهول (سفينكس) في مصر القديمة شخصية ميثولوجية بل مثّل فرعون بعينه أو إله عبادة الشمس.

يتراءى أن الإجابة على هذا السؤال سهلة. فكلمة «تاريخ» تتردد دوماً في حياتنا اليومية. ففي المدرسة يدرسون التاريخ، وتقع لنا كل يوم حوادث وقصص، فما الذي يستحق التفكير في هذا كله؟ إن كل شيء واضح هنا: التاريخ ليس شيئاً آخر سوى التاريخ نفسه! ولكن مع ذلك ينبغي أن نمعن التفكير في هذا كله. مثلاً: هل للفراش تاريخ؟ وهل لخمائل الليلك تاريخ؟ هل للقواقع، والديدان، والدببة، والحجارة، والبعوض تاريخها؟ ففي واقع الحال أن الأرض مسكونة بشتى ضروب الكائنات: الحشرات، والطيور، والأسماك، والوحوش، كما يعيش عليها كائن آخر متميّز، هو الإنسان. وهو متميّز لا لأنه قادر على أن يتكلم، ويفكر، ويخيط الثياب ليرتديها، ويفعل كثيراً مما لا تقوى على فعله الطيور، والأشجار، والوحوش وسواها من الكائنات الأخرى. فإحدى الميزات الرئيسة التي تميز الإنسان عن الكائنات الأخرى كلها، هي أنه كائن تاريخي. فلكل إنسان تاريخه الخاص به، وتنصهر مجموعة هذه التواريخ لتؤلف تاريخ شعب، ثم تتجمع هذه التواريخ لتؤلف بدورها التاريخ المشترك للبشرية كلها.

إن المجتمعات البشرية خاضعة كلها الآن للدراسة أو للرصد في أقل تقدير، وليس هناك شعب في وقتنا هذا لا يقيم علاقات أو صلات مع الشعوب الأخرى، مهما كان هذا الشعب بعيداً أو متخلفاً. وقد كان لكل مجتمع على اختلاف إيديولوجياته، وعاداته وأخلاقياته التي تطورت على امتداد آلاف السنين بمختلف الطرق، تأثيره على الآخر، وعلى الحضارات التي اعتدنا أن نصفها بالمتطورة. فهذه الأخيرة كانت تجم دائماً عناصر التفكير ونمط العيش المنصرمين. زد إلى هذا أن هذه الحضارات قامت على قاعدة بدائية مغرقة في القدم.

ويكفي أن نتخيل كم من الأجيال عاش على الأرض قبلنا وكم سيعيش منها عليها بعدنا!! لقد مهدت أجيال الأسلاف لنا طرق الحياة السعيدة الغنية، فبنوا المنازل، وزرعوا الغلال، وربوا الأطفال، وحاربوا، وحلموا، وعاشوا بالأمل، وفرحوا، وتألموا، وكذلك نفعل نحن وكذا سوف يفعل أحفادنا الذين نشق الطريق لهم نحن الآن. لقد كان كلهم ابن زمانه. كما نحن الآن أبناء زماننا. والتاريخ إنما يدرس هذا العالم المتبدل الذي يرتدي ألوان الحياة كلها، فلكل فرد تاريخه، ولكل عائلة تاريخها، ولكل شعب تاريخه.

ومن الملائم أن نشير في هذا السياق إلى ان لكلمة «تاريخ» عينها تاريخها أيضاً، الذي يكاد يبلغ الألفي عام الآن. وخلال هذا الزمن طرأ على محتوى هذا المصطلح أكثر من تبدل. وحدث أن تجادل بعضهم حول ما إذا كان التاريخ علماً، أو أدباً، أو فناً؟ ويجب أن نضيف إلى هذا أن الشعوب على اختلافها فهمت تاريخها بطرق مختلفة أيضاً. بل حدث أن الشعب عينه وضع في كلمة «تاريخ» مغزى مختلفاً تبعاً للعصر الذي عاشه. إذن لقد كانت الرؤى حيال التاريخ متبدلة على طول حياة الجنس البشري. فقد رأوا في عصر من العصور أن التاريخ يعلم الفلسفات بتقديمه العبر، واعتقدوا في عصر آخر أنه وسيلة لتمجيد الإله الخالق. وتحول التاريخ في عصر ثالث إلى مدرسة تعلم الحكمة.

ولكن حدث أيضاً أن عده بعضهم «تجسيداً للغباء والحماقة البشريين»: ولهذه الرؤية حقها في الوجود أيضاً.

ففي القرن ١٨ م كان الفيلسوف والمؤرخ الإنكليزي ديفيد هيوم يجادل مؤكداً أن العمل بالتاريخ «يلطف المخيلة، ويصقل العقل، ويرسخ فعل الخير». ويؤكد المؤرخ الروسي «ف. أو. كليو تشيفسكي» أن دراستنا للأسلاف تجعلنا نفهم أنفسنا، وفي الحال المغايرة فإننا سنغدو مجرد دمى آلية فارغة لا نعرف كيف جئنا إلى هذا العالم ولماذا، وما هو هدف حياتنا، وما الذي سيحدث لنا فيما بعد. وهكذا بما أن التاريخ كان موجوداً دوماً عند الشعوب كلها، لذلك كان من البدهي أن ينهض السؤال التالي: ما هو التاريخ في واقع الأمر؟

ولعل السؤال الأصح هو كيف نفهم نحن التاريخ؟ إن الطريقة التي اعتدنا أن نتعامل بها مع التاريخ، مثلها مثل أشياء أخرى كثيرة في حياتنا، كان قد طرقها الإغريق القدماء من قبل. فنحن نرى في هيرودوت (٤٩٠- ٤٢٨ ق. م) «أباً للتاريخ». وكان هو نفسه أول من وضع أول بحث تاريخي مكتوب في أوروبا: كتابة الشهير «التاريخ» بأجزائه التسعة.

وقد كتب هيرودوت قصصه ورواها لينقذ أعمال الناس من غياهب النسيان. والحقيقة أن هيرودوت أظهر معجزة المواظبة والغيرة في جمع المعطيات التاريخية، عبر تجواله في بلاد الإغريق، وبلدان الشرق، ثم روى مشاهداته على الجموع. لقد أراد هيرودوت أن يطبع آثار التاريخ في ذاكرة الناس في حضرة الطبيعة الأزلية وآلهة الإغريق الخالدين.

ولكن هيرودوت لم يصف يوماً كل ما رأى وسمع. فمادة التاريخ عنده، أي ما يستحق أن يبقى في الذاكرة، هو فقط «الأعمال العظيمة التي تثير الدهشة». ومنذ زمن هيرودوت ترسخ عبر القرون في التقليد التاريخي الأوروبي مبدأ إبراز الأحداث السياسية والحروب في المقام الأول، وربط بعضها مع بعض برابطة رئيسة تتلخص في كون الأحداث المعنية وقعت في

الزمن عينه، واعتقدوا أن واحدها كان يلد الآخر، وأنها مع بعضها مجتمعة كانت تفضي إلى نتائج بعينها.

ولكن كثيراً من الشعوب يفهم التاريخ فهماً مغايراً، ولا يرى في هيرودوت «أباً للتاريخ» بأي حال من الأحوال. وفي خارج أوروبا كانت رؤية كثير من الشعوب للتاريخ مغايرة. «فابو التاريخ الصيني» صيم سيان الذي عاش في القرنين ٢- ١ ق. م كانت له نظرة في جوهر التاريخ مغايرة تماماً لما رآه هيرودوت. لقد ثمن صيم سيان في المقام الأول القدرة على «تحليل عمق العلاقات بين العام والإنساني، وحسن إدراك جوهر التحولات التاريخية». ويمكننا أن نقرأ في «مدوناته التاريخية» التي تتألف من مئة وثلاثين فصلاً، وخمس مئة وستة وعشرين ألفاً وخمس مئة هيروغليف ما يلي: «في أعمال الملوك طور نهوض: بداية، ونهاية، وطور ازدهار، وطور سقوط». ونقرأ فيها كذلك: «يرتبط قوت الشعب بالفلاح... فالصانع يصنع كل شيء له. والتاجر يحمل تلك المصنوعات إليه حيث يقيم. فكيف يمكن أن تتدخل الدولة في هذا بالتعليمات، والأوامر، والقيود؟». وقد أورد صيم سيان في «مدوناته التاريخية» سير حياة الشخصيات التاريخية، ولم يقتصر ذلك على الملوك والقادة العسكريين، بل شمل أيضاً الأطباء، والتجار، والمنجّمين، والموظفين، والشعراء؛ وساق كذلك معطيات في أصول السلوك الاجتماعي، والموسيقى، والتقويم السنوي، وعلم الفلك، والجغرافيا، والري، ومختلف الطقوس، وكثير مما شابه ذلك.

ولكن كيف نستطيع أن نميز تاريخ شعب ما إذا كان متنوعاً هذا التنوع كله؟ فنحن لا نستطيع أن نرى الماضي بالعين المجردة! فما الذي يمكننا أن نعتمد عليه للحصول على معطيات يركن إليها، ونكوّن رأياً قريباً من الواقع الفعلي. لا شك أن ما يمكن أن نعتمد عليه، هو أولاً وقبل كل شيء، المصدر التاريخي.

ما هو المصدر التاريخي



تسانتسنري

الشخصية الخرافية التي نسب إليها ابتكار الكتابة الهيروغليفية الصينية.

لقد احتفظت الشعوب القديمة كلها بأساطير وخرافات عن الأصل الإلهي لكتاباتها.

وفي العصر القديم كان الموقف تجاه العمل الكتابي والكلمة المكتوبة يتسم بعمق وجداني كبير : لقد رأوا فيهما تجلياً للنعمة الأسمى.

فباللفيفة أو الكتاب كان يمكن إبراء الإنسان، أما أداة الكتابة فقد قوّموها رمزاً للاتصال بالمعارف الإلهية.

يعد المصدر التاريخي بالنسبة إلينا شيئاً مألوفاً إلى حد ما. ولكن كان ثمة زمن كانت هذه المصادر قد بدأت تظهر وتستخدم فيه لتوها. وكان هذا قد حدث منذ زمن ليس بالبعيد، لأن التاريخ بصفته علماً بالمعنى المعاصر لهذه الكلمة، بدأ ينشأ في أوروبا ابتداء من القرن ١٧ م فقط. وقد كان ذلك العصر عصراً خاصاً: بدأ عصر التنوير، وأخذ العقل يحقق الانتصار تلو الآخر. ففي ذلك الطور بالذات فارق الإنسان الإيمان القرسطوي الأعمى بجبروت الإله الخالق، وأحس كما لم يحصل من قبل، بقوة المعرفة التجريبية. ويصعب علينا أن نتخيّل أن كثيراً من الحقائق المدرسية البسيطة الآن، كانت في ذلك الزمن اكتشافات صاعقة. ولكن ينبغي علينا ألا ننسى أن الذين كانوا يتعرفون على تلك الاكتشافات كانوا أناساً يؤمنون إيماناً راسخاً بوجود وحيد القرن، والحوريات، والأشباح، والتنانين فما بالك بالآلهة، والعفاريت، والملائكة؛ إن وجود هذه الكائنات كلها لم يكن موضع شك من قبل أيّ كان. وفي الخلف كان عصر الاكتشافات الجغرافية الكبرى، وتدفقت المعلومات من مختلف أصقاع الأرض عن كل شيء يحيط بالإنسان، وأخذ الإنسان يراقب، ويقارن، وينسّق المعارف الجديدة. ويبدو غريباً بالنسبة إلينا الآن أن نتصور إنسان القرن ١٧ م مشغولاً بمسائل مثل: من أين يأتي «الأ بوراس» الذي يخرج منه الضفدع؟ أو هل يولد الزنجي أبيض البشرة ثم تسود بشرته بعد ذلك؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هو السبب: هل يصبغونه بصباغ ما؟

ولكن في رحم ذلك العصر المتناقض كانت تنضج رويداً رويداً منظومة فكرية جديدة، كما كان قد دخل الحياة الأوروبية البارود، والأسلحة النارية، والبوصلة، وسفن مجهزة بتجهيزات جديدة، والمضخات الهوائية، وأفران صهر الحديد. لقد انطلقت في أوروبا الثورة العلمية التي رمت برؤى الماضي التي كانت تعد من المسلمات التي لا يعلوها الصدأ. فلم تعد الأرض مركز الكون، وانحدر الإنسان من أعلى هرم الخلق ليصبح جزيئة صغيرة على واحد من كواكب الكون اللا متناهي. لقد «أرغم» كوبرنيكوس الأرض الرابضة على مسندها دون حراك، أن تدور بقوة حول محورها، وتحلق كالبعوضة حول الشمس! وسكبت اكتشافات غاليليو، وجوردانو برونو، وكيبلر، ونيوتون، وتعاليم ديكارت في الرياضيات

العامة وما شابه من العلوم الأخرى، الماء على الطاحونة عينها، فتبدل أسلوب التفكير، وتغير تغيراً جوهرياً منهج المعرفة وأخلت لوحة العالم الساكنة المكان للدينامية الجامحة. لقد كان بطل ذلك الزمان هو روبنزون كروزو بطل رواية دانييل ديغو، الذي بدا كأنه أثبت بسلوكه بما لا يدع مجالاً للشك، أن قوة العقل المتنور والمعرفة التجريبية لا تقهر.

كما تبدل التاريخ الذي كان حتى ذلك الوقت موجوداً بصفته فناً أدبياً روائياً. فقد حظي الآن بقاعدة اجتماعية تمثلت في وثائق ومواد أرشيفية، وحوليات، ومختلف القرائن والشهادات التاريخية. لقد أخذوا يستخدمون هذه بالذات كمصادر تاريخية، وبدا وكأن الأمر في غاية البساطة: ادرس المصدر ثم اكتب التاريخ على أساسه. ولكن هل نستطيع أن نركن إلى صحة المصدر التاريخي دائماً؟ يبدو أن الإجابة على هذا السؤال، هي لا، ليس دائماً، فالمصدر للمصدر خصم.

فلنأخذ الشهادات المدونة مثالاً، إذ من المعروف أن النصوص المصرية لم تخلد سوى مآثر الفراعنة وانتصاراتهم، وتصمت تماماً عن إخفاقاتهم وهزائمهم. وغني عن البيان أن هذا لا يعني أن الفراعنة لم يعرفوا الهزائم وأن انتصاراتهم كانت متواصلة. زد إلى هذا أن نصوصاً لا عد لها لا تنقل الأحداث مثلما وقعت فعلاً. ففي القرون الوسطى خاصة في القرون ٨- ١٢ م اجتاح أوروبا وباء حقيقي من تزوير الوثائق وتحريف النصوص، ووصل إلينا من تلك الحقبة غير قليل من مختلف ضروب الشهادات والإرادات البابوية، وسوى ذلك من الوثائق المزورة. فكيف يمكننا أن نثق بها؟ وكيف يمكننا أن نسترجع الصورة الواقعية للماضي على أساسها؟

وإذا ما تركنا التقليد التاريخي الأوروبي، فسوف نرى أن مفهوم المصدر التاريخي بحد ذاته يختلف من شعب لآخر. فعند المسلمين مثلاً مفهوم «خبر». وهو يعني «الواقعة، الحدث الوارد في الحديث أو الرواية». ولا يحلل المؤرخ الإسلامي الشهادات المأخوذة من الحياة، بل يعتمد على الرواية أو القصة التي تواردت متواترة في التقليد الشفهي أو المدون عبر شاهد عيان. ولذلك فإننا لن نتعجل الإجابة على السؤال المتعلق بماهية المصدر التاريخي الصحيح. فهو في أوروبا مغاير تماماً لما عليه الحال في باقي بلدان العالم.

ولكن هل من المفيد أن نبالغ في أهمية الشهادات التاريخية المدونة؟ والحقيقة أننا اعتدنا أن نرى أن التاريخ يعتمد اعتماداً رئيساً على المصادر المكتوبة. ولكننا بالنسبة للتاريخ القديم لا نعثر عليها دوماً وفي كل مكان، علاوة على هذا أنه غالباً ما يحدث أن تصل إلينا النصوص القديمة في حالة سيئة، ومن الصعب فهمها، بل قد يكون فهمها غير ممكن إطلاقاً إذا كانت مدونة بلغة غريبة وحرف غير معروف. وحتى إذا ما نجحنا في فك مثل هذه

الطلاسم، أي إذا ما تمكنا من قراءة النصوص المعنية، فإن فهمها فهماً صحيحاً يبقى مسألة نسبية جداً، وهذا ما حصل فعلاً بالنسبة لمحاولاتنا مع النصوص الايتروسكية.

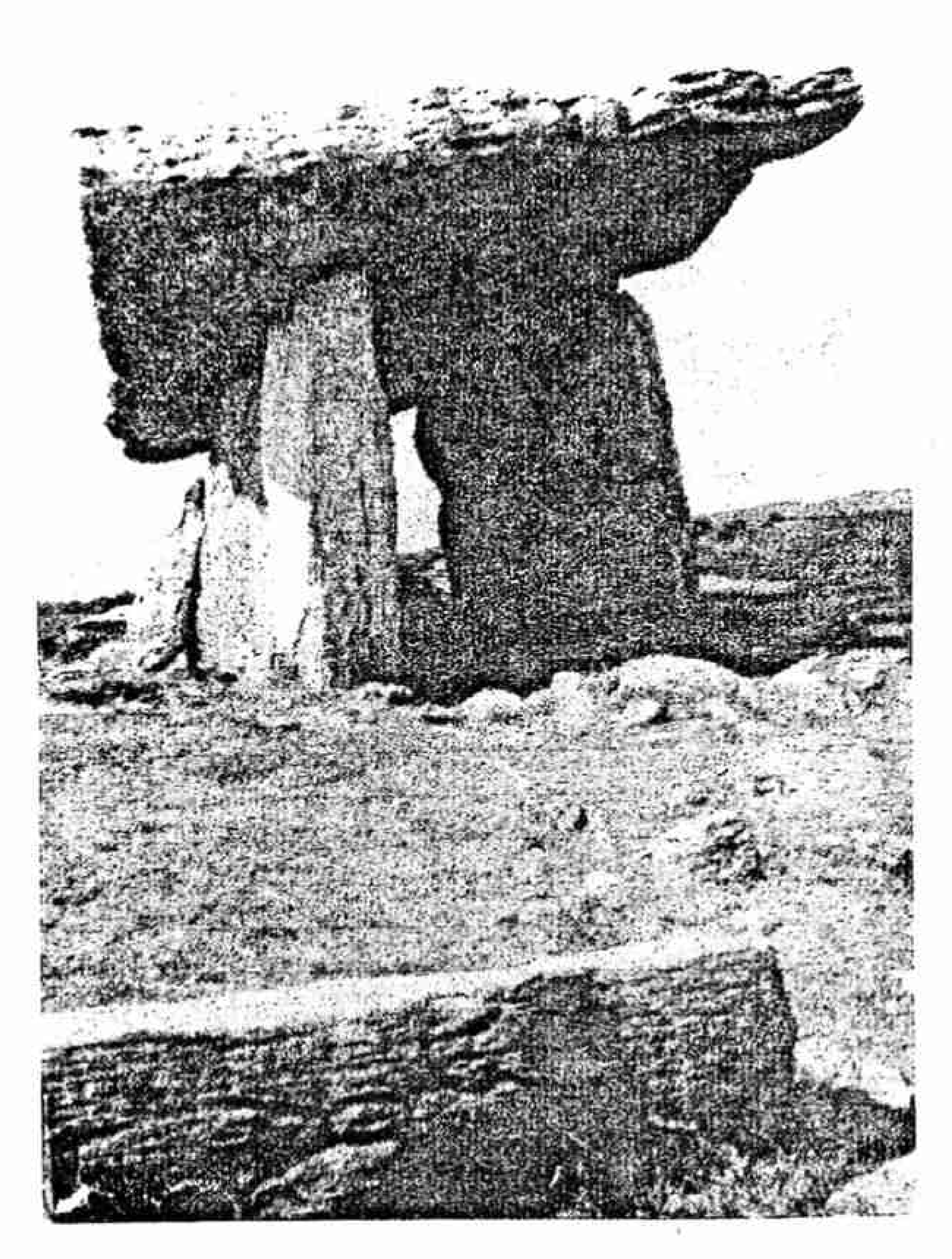
فليتخيل قارئي النبيه نفسه أمام نص مكتوب باللغة المجرية التي لا يعرفها. إنه بطريقة ما سوف يقرأ النص لأنه على إطلاع على الأبجدية اللاتينية، لكن هل سيفهم ما قرأ؟ إنه أمر مشكوك فيه!

أما بالنسبة للتاريخ البدائي فليست ثمة مصادر مكتوبة أصلاً، لكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أنه لم يكن ثمة تاريخ وقتئذ.

ومن المعروف أن حقبة التاريخ المكتوبة قصيرة جداً بالمقارنة مع الامتداد الزمني الهائل الذي لم تكن فيه كتابة. فالزمن البدائي يمتد على أكثر من ٩٠٪ من الزمن التاريخي، وهو زمن خال تماماً من أي مصادر مكتوبة كما كان خالياً أيضاً من كلّ شكل من أشكال الكتابة. فما الذي يمكن أن يمثل المصدر التاريخي في مثل هذه الحال؟ وهل لتلك الأزمنة السحيقة مصادر؟ نعم هناك غير قليل منها. وتتمثل هذه في مختلف آثار النشاط الإبداعي الإنساني الواعي: بقايا المساكن والموجودات المنزلية، والرسومات الصخرية، ونظم حساب السنين، والتقويم السنوي، والتقاليد، والسمات القديمة التي عاشت طويلاً، وآثار الإبداع الشفهي.

ومن بين كم الشهادات الهائل الذي وصل إلينا من أعماق الماضي تشغل الأساطير والحكايات والخرافات مكانة مهمة جداً. فهي أيضاً تساعدنا على أن نتسلل إلى الماضي البعيد، بصرف النظر عن كونها لا تشبه الوصف التاريخي المعتاد في شيء. زد إلى هذا أنها تمثل بالنسبة لبعض الحقب الزمنية وبعض الشعوب الشهادة التاريخية الوحيدة، لأن أي قرائن أقرب لم تبق على قيد الحياة.

الأساطير و التاريخ



الدولمينات

من الآثار المبهمة لعصر ما قبل التاريخ.

جاءت تسميتها من الكلمتين البريتونيتين tol = «منضدة» و men = «حجر».
وهي فعلاً تشبه مناضد حجرية ضخمة. يتركز وجودها أساساً في الأقاليم الساحلية من أوروبا، وتتواجد أيضاً على سواحل آسيا وشمالي أفريقيا

إذن إلى أن ظهر التاريخ الذي نعرفه الآن، كانت الأساطير موجودة عند الشعوب كلها: وكانت هي نفسها تاريخ الشعوب، ولكن ليس تاريخها العادي، بل تاريخها المقدس. وكانت الأساطير وحدها التي تمثل أهمية، لأن الآلهة خلقوها في الأزمنة الغابرة. وعندما انتهى العصر البدائي، انتقلت المجتمعات البشرية إلى الحضارات الزراعية القديمة، ولكن الأساطير لم تندثر تبعاً لذلك لو لم تستبدل بها المؤلفات التاريخية. لقد بقي كثير منها يواصل حياته وإن في صيغة مختلفة، بل هناك أساطير بقيت حتى أيامنا هذه. وعندما ظهرت الكتابة نسخت الأساطير غير مرّة، وعولجت وتغيرت تغيراً كبيراً حتى باتت في بعض الأحيان لا تشبه نموذجها الأصلي في شيء.

لنأخذ على سبيل المثال لا الحصر الأساطير الإغريقية القديمة؛ فقد قرأها كثيرون. إنها تمثل على أغلب الظن أعمالاً أدبية أكثر بكثير من كونها أساطير مبكرة في نموذجها الأقدم: لقد أعاد الرواة، والفلاسفة، والشعراء صياغتها غير مرّة قبل أن يدونوها: وقد وصلت إلينا في حلتها الجديدة التي ترتديها الآن. ولكنها حتى في تنويعتها «المهذبة» هذه تتميّز عن كل الأعمال الأدبية المتأخرة التي نعرفها، من قصص، وروايات، وحكايات. ولعل كل من قرأ هذه الأساطير تساءل: هل كل ما جاء فيها حقيقة؟ هل حقاً كان هناك كائنات أنصاف بشر وأنصاف جياد، وساتيروس، وحوريات، وهل كان بمقدور الإنسان أن يتحول إلى زهرة أو شجرة، وهل عاش الآلهة فوق جبل الاوليمب وكانوا يهبطون إلى البشر بين الحين والآخر، وهل تختفي عميقاً تحت الأرض مملكة هاديس الكئيبة، وهل حقاً خرجت أثينا البالادية من رأس زيوس الذي فلقه هفستوس بالفأس؟

ونحن نخمن أن من طرح على نفسه هذه الأسئلة لم يدرك على أرجح تقدير أنه وضع أمامه بذلك مسألة علمية ذات أهمية خاصة، انشغل بها حتى الآن أكثر من جيل من العلماء. وكان كل جيل قد عرض فهمه عن الأساطير، التي تعد واحدة من أكثر ظاهرات الثقافة الإنسانية تعقيداً، وطرح كل جيل نظريته أو نظرياته بصددها، فتشكّل نتيجة لذلك نسق لا نهاية له من التأويلات. وقد قال العالم الروسي ي. غ. كاغاروف في هذا الصدد: «ليس ثمة

علم من العلوم ساد فيه مثل هذا الكم من الفرضيات والرؤى كما حصل في ميدان الميثولوجيا». ولكن مهما تنوعت الطرائق التي طرحها العلماء لفهم الأساطير، فإن موقفهم يختلف اختلافاً جوهرياً عن موقف القدماء الذين عاشوا في عالم الأساطير بصفته عالمهم الأم. لقد آمن هؤلاء بالأسطورة ولم يدرسوها، ولم يروا فيها اختلافاً، أو وهماً، أو غباء. كانت الأساطير بالنسبة للقدماء واقعاً حقيقياً لا يدانيه أيّ واقع آخر، وفيه سارت حياتهم كلها. فبمساعدة الأساطير بالذات اختبر هؤلاء العالم المحيط بهم، وحاولوا أن يفهموا كنهه، ويعبروا عنه بالكلمة، والصوت، والرسم وسوى ذلك من الوسائل التي توفرت لهم.

لم ير القدماء في الأساطير اختلاقاً وهمياً أو سخافات خيالية منافية للعقل يمكن أن تخضع للتأويل. وكان العالم الروسي أ. ف لوسيف الذي كرس حياته لدراسة الأساطير الإغريقية قد أشار في حينه إلى أن الأسطورة عملية وحيوية، ولا تعد اختلاقاً وهمياً، بل مستوى ضرورياً من مستويات الوعي والواقع، و «نتاجاً حسيّاً وشيئياً للواقع».

ولم يطرح القدماء أسئلتنا، على أنفسهم في أي يوم من الأيام: ما الحقيقة وما الاختلاق في الأساطير؟ لقد آمنوا بصحة الأسطورة إيماناً مطلقاً لا تحده حدود، وكل ما روت عنه الأساطير كان بالنسبة إليهم حقيقة كاملة مطلقة. ولم يأت إيمانهم هذا لأنهم كانوا أغبياء ونحن أكثر ذكاء منهم، بل لأن الأساطير كانت ترسم لهم الطريق التي يجب عليهم أن يتبعوها.

وأقرب مثيل للأساطير في ثقافتنا المعاصرة، هو الشعر الكلاسيكي. وكان أو ماندلشتام قد أشار في حينه إلى أن هذا الشعر يفهم بصفته يحتوي على مستوى إلزاميّ، وتظهر «صيغة الأمر واضحة» فيه. إن الشعر الكلاسيكي «يفهم كشيء يجب أن يكون، لا كشيء كان وانتهى».

وعن هذا عينه كتبت الباحثة في ميدان الثقافة والميثولوجيا القديمتين أو. م فريدنبرغ: لقد كانت الأساطير بالنسبة للقدماء «تعبيراً عن المعرفة الوحيدة الممكنة التي لا تطرح أي سؤال عن صحة موضوع الإدراك، ولذلك كانت تبلغها».

كما لم يعرف الزمن القديم سؤالاً عمن أنشأ الأساطير. لقد اعتقدوا أن الأسلاف نقلوا الأساطير للبشر، وأن الأسلاف أنفسهم تلقوها من الآلهة. ومعنى هذا أن الأساطير تحتوي على الوحي الأول، وأنه ينبغي على الناس أن يحافظوا عليها في ذاكرة الأجيال، دون أن يحاولوا تغييرها أو إضافة أي جديد عليها. وكان الآلهة بالنسبة للقدماء كائنات واقعية بالضبط، ولذلك لم تظهر لديهم أي دوافع للشك في هذه الحقيقة.

لقد تراكمت في القصص الأسطورية تجربة أجيال كثيرة ومعارفها. وكانت الأساطير بمثابة موسوعة الحياة التي كان يمكنهم العثور فيها على إجابات لأهم مسائل حياتهم. وعندما نريد نحن الآن أن نتلقى إجابات مماثلة فإننا نبحث عنها في التاريخ؛ أما القدماء فقد بحثوا عنها في الأساطير وعثروا عليها فيها.

لقد روت لنا الأساطير عن ذلك العصر الأقدم في تاريخ البشرية، الذي سبق وجوده وجود الأزمنة كلها. ولم يكن ذلك مجرد ماض، بل زمناً مضى عليه أزمنة غير معروفة، إنه زمن الخلق الأول الذي سنتحدث عنه في صفحات آتية من هذا الكتاب. لقد كان ذلك زمناً مليئاً بالأحداث والأعمال البدئية التي حققها الآلهة، ولذلك بات المنبع البدئي الكوني لكل شيء موجوداً في العالم الآن. ففيه خلقت الأرض، وما يخرج منها ويعيش عليها، أي خلق عندئذٍ نظام كوني محدد. ولم يبق للناس سوى أن يحافظوا عليه، ولتحقيق ذلك كان ينبغي عليهم أن يلتزموا بما جاء في الأساطير، ويقيموا الشعائر التي كانت متلازمة مع هذه الأساطير، بمعنى آخر كان على البشر أن يكرروا ما كان قد فعله الآلهة. إذن لم تكن الأساطير مجرد إبداعات حية وحسب، بل كانت علاوة على ذلك أمثلة إلهية يكررها البشر. وهل كان ثمة ما يعبر عن أهمية الحياة الإنسانية أكثر من مشاركة الآلهة أعمالهم؟ وهكذا يكون الناس قد صنعوا تاريخهم بمواصلة تاريخ الآلهة المقدس. ولهذا بالضبط سبقت الأساطير تاريخ كل الشعوب التي نعرفها الآن: التي لا تزال موجودة وتلك التي اندثرت.



رأس إله في متحف دلفي قد يكون أبوللون.

لقد اعتقدوا أن معبد ابوللون في دلفي، هو أوّل المعابد الاغريقية على الإطلاق. لقد بني على طراز خلية النحل الذي لا يعرف من أين جاءت به نحلات أبوللون.

كان أبوللون «يقيم» في هذا المعبد تسعة أشهر من كل عام؛ ثم «يقيم» فيه ديونيسيوس الأشهر الثلاثة الأخرى.

من البدهي أنه يمكننا إعطاء إجابات مختلفة على هذا السؤال. ونحن كنا قد نوهنا سابقاً إلى أن التاريخ الثقافي للبشرية لم يعرف سوى قلة من الظاهرات التي أثارت آراء متباينة، وأحياناً متضاربة. فبعضهم يرى أن الأساطير، والحكايات، والخرافات ظاهرة واحدة، بينما يرى آخرون في الأساطير ظاهرة مختلفة عن كل ما عداها من الظاهرات الثقافية الأخرى. وحسب بعضهم أن الأساطير مهمة وضرورية لكنّ بعضهم الآخر يعدّها عديمة الفائدة، وغير ضرورية، ومعيقة لتقدم العلم. ويفترض فريق أن الأساطير صنو الأحلام، لكن فريقاً آخر لا يرى أي مشترك بين الظاهرتين. قصارى القول، إن الأسطورة هي كما قال الباحث الأوروبي ميرتشا ايليادي، «واحدة من أكثر الحقائق الثقافية تعقيداً، وهي ظاهرة يمكن دراستها وتأويلها بشتى الوجوه».

فما هي الأسطورة إذن؟ إن كلمة أسطورة عينها (ميثوس) من منشأ إغريقي، ولها معان كثيرة. فالإغريق غالباً ما استعملوا كلمة أسطورة بمعنى الحكاية القديمة، أو القصة الخرافية؛ ونحن سوف نستخدم هذا المصطلح بالمعنى عينه. إذن فالأسطورة هي حكاية تروي عن الأزمنة التي كانت قبل بدء البدايات كلها، وعن الأحداث التي مضى على حدوثها زمن غير معروف، وعن الآلهة والأبطال، وظهور السماء والأرض، والبشر والوحوش، والنباتات والطيور، والحياة والموت. والأسطورة أيضاً الحكمة الشعبية، وفلسفة الشعب، وشتى أنواع المعارف التي تراكمت عبر القرون. والأسطورة أقدم صيغة من صيغ الانفعال، والإدراك، وتأويل العالم، التي اتصفت بها المجتمعات البدائية والمجتمعات القديمة؛ وهي الصيغة التي خرجت منها وانفصلت عنها فيما بعد أشكال المعرفة الأخرى كلها. وأخيراً، فإن الأسطورة هي عالم غني بالصور، والرموز، والخيال الشعري اللا متناهي الذي لا يمكن إلا أن يدهشنا وينال إعجابنا. قصارى القول، إن الأسطورة هي بحق معين لا ينضب، تنسكب فيه طاقة الكون التي في الثقافة البشرية.

أما مصطلح ميثولوجيا فهو يطلق عادة على مجموع أساطير هذا الشعب أو ذاك، أو على دراسة الأساطير. وعلى وجه العموم فإن مختلف العلوم تشتغل بالأسطورة: التاريخ، والدراسات

الأدبية، والاثنوغرافيا، وعلم النفس، والفلسفة، وعلوم كثيرة أخرى. وكل علم يدخل الأسطورة حقل أبحاثه، يعطيها تعريفه الملائم. لكننا نرى أن أحداً لم يوفق حتى الآن في تعريف الأسطورة تعريفاً نال قبول جميعهم، علماء كانوا أو مهتمين عاديين.

ويتشكل تصورنا عن الأساطير والميثولوجيا بصورة أساسية لدى اطلاعنا على أساطير الإغريق القدماء. هكذا نشأ وتكون التقليد الأوروبي في أقل تقدير، فقبل القرن ١٩ م. لم يكن القارئ الأوروبي يعرف سوى الأساطير الإغريقية والرومانية القديمة، ولكن مع بداية القرن التاسع عشر م. عرف العلماء أولاً ثم القارئ الفضولي العادي في أوروبا أساطير الشعوب الأخرى: الإيرانية، والهندية، والصينية، والجرمانية، وأخذوا يقارنون بعضها ببعضها الآخر. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر م. اتسعت دائرة الميثولوجيات المعروفة، فاشتهرت أساطير شعوب أفريقيا، وأمريكا، واستراليا، وأوقيانوسيا. وقد تبين أن الأرض لم تعرف شعباً لم ينشئ ميثولوجيته، وأن كل ميثولوجيا تشبه الأخرى في شيء ما، وتتميز عنها بخصوصية محلية أصيلة. أضف إلى هذا أن الميثولوجيا بالذات شكلت الأساس الذي قامت عليه ثقافة كل شعب.

وفي المجتمعات القديمة، ثم في المجتمعات التقليدية التي عاشت قبل عصرنا الراهن، كانت الأساطير تغزو ميادين حياة الناس كلها. وقد تشكّلت هذه في منظومة من الرؤى تجاه العالم انعكست في كل ما كان يحيط بالإنسان. ولم تكن الحكاية، والأسطورة- القصة سوى واحد من مظاهر الميثولوجيا؛ واندرج هذا المظهر في العالم الميثولوجي اللا متناهي. وقد دخلته أيضاً الطقوس، والشعائر، والمراسم، والمنشآت الطقوسية، والأدوات الشعيرية، والحلي، والأقنعة، والوشم، والرقصات، والأغاني، قصارى القول كثرة متنوعة من شتى الأشياء والظاهرات.

ومن البدهي أننا لا نستطيع أن ندعو القصص، والحكايات القديمة كلها أساطير، أي قصصاً مقدسة لم تعد لكلّ من شاء أن يعرضها في أي مقام، فالأساطير نصوص مقدسة كان يحرم عرضها في غير المكان والزمان المكرسين بصراحة شديدة. وتتميز الأساطير عن الحكايات السحرية وسواها من قصص تزجية الوقت، فشخصيات هذه الأخيرة ليسوا من الآلهة والأبطال، بل بشر عاديون وكائنات سحرية، وأدوات وأشياء مسحورة. علاوة إلى هذا تحمل الأساطير في غالب الأحيان طابعاً تفسيرياً، فهي تروي قصص نشوء هذا أو ذاك من الأشياء أو الظواهر: كيف نشأت ومن أين جاءت؛ ولماذا جاءت هذه الأشياء أو تلك على هذا الشكل بالذات ولم تأت في صورة أخرى.

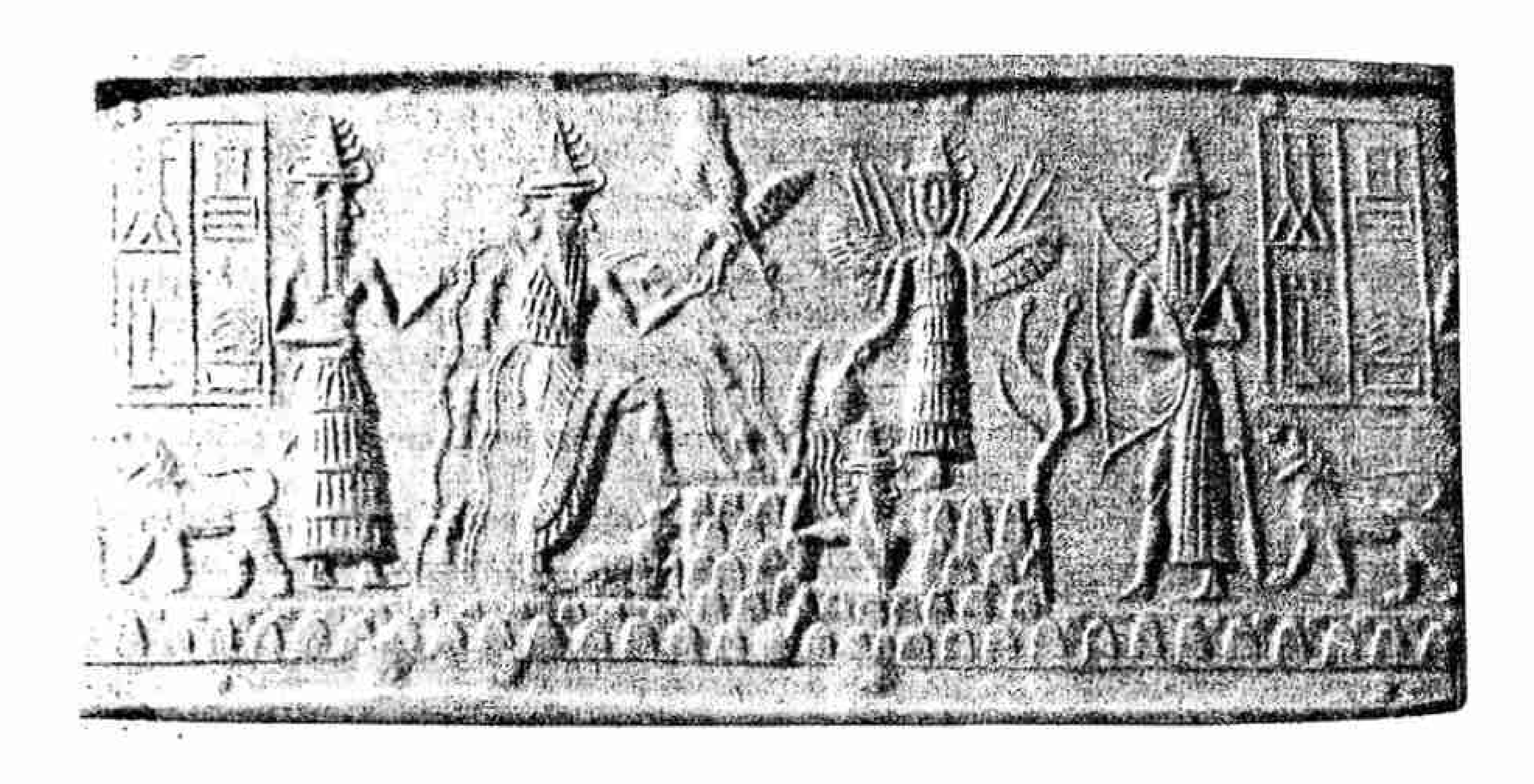
فسكان إحدى جزر أوقيانوسيا يميزون مثلاً بين الناناسا (الأساطير المقدسة)، والفيلاوا (= ضرب من ضروب الخرافات)، والسيفيلاغيلا (= القصص الخيالية) التي أكثر شخصياتها من الحيوانات والطيور الناطقة. وثمة حالة أكثر تعقيداً عند التروبر يانسيين سكان الجزر التروبريانية في أوقيانوسيا: لم يخلط هؤلاء يوماً بين الكوكوانيبو (= حكايات سحرية لتزجية الوقت)، والليبوغفو (قصص الزمن الغابر)؛ وقد قسموا هذه الأخيرة إلى فئتين: القصص التاريخية، والأساطير. كما ميزّت الشعوب الأخرى بدقة بين الأساطير التي كانت تؤمن بها إيماناً مطلقاً، والحكايات وسوى ذلك من قصص التسلية التي كان يمكن أن تكون من بنات الخيال.

وهكذا خلقت الأساطير طريقة متميزة تماماً لفهم العالم والتعامل معه؛ وغني عن البيان أنها طريقة تختلف عن طريقتنا التاريخية التي نأخذ بها في عالمنا المعاصر. كما يختلف التفكير الميثولوجي بدوره عن تفكيرنا المعاصر؛ فقد كان هذا في الحقب القديمة تفكيراً محدوداً، ونظاماً هادفاً جداً، وثابتاً ومستقراً، لكنه لم يكن تفكيراً ساكناً غير متحرك.

ونحن يمكننا أن نشرح هذا الاختلاف بخطوطه العامة استناداً إلى كلمات كتبها الفيلسوف وعالم الرياضيات الإنكليزي ألفرد نورث وايتهيد الذي كان قال في حينه: إنه ثمة مفهومان رئيسان يقومان في أساس أي تجربة بشرية كانت: مفهوم الواقعة (= السابقة)، وهي تمثل مادة إدراكنا؛ ومفهوم المغزى أو الأهمية الذي به نميز، نفرق ونربط كل المدرك. وعلى وجه العموم فإن ثقافتنا تطور عبادة التفكير العقلاني وتميل أكثر نحو استخدام الوقائع. أما الأساطير فهي تتجه أول ما تتجه نحو الإحساس، والحالة الانفعالية، نحو «المغزى»، وليس نحو المظهر الخارجي. وإذا كانت الطريقة الأولى وحدها التي تأكّدت بأفضليات ثابتة بالنسبة للإنسان الغربي، فإن الإنسان الميثولوجي رأى أن الطريقتين متلازمتان وتكمل واحدتهما الأخرى دون أن يكون بينهما تناقض.

ومعنى هذا أن الأساطير متحررة من أعباء كثير من تناقضاتنا، فهي تحتوي على ذخيرة لا تنضب من شتى وسائل التعبير، ومختلف ضروب التنويعات البديلة: مختلف أنماط العالم، والإحساس بمشروطيتها، وعدم الرغبة في اعتماد خيار صارم، وتفضيل شيء ما بعينه، أكان ذلك هو الموت أو الحياة، والنوم أو اليقظة. قصارى القول، إن الأساطير تحتوي على إبهام خفي ما، هو صنو السر الداخلي لحياة الإنسان.

ولهذا فإن الاطلاع على الأساطير ليس أمراً شيقاً وحسب، بل هو أمر شديد التعقيد أيضاً.



محور ميثولوجي على ختم من وادي الرافدين

لقد عاشت على أراضي وادي الرافدين دول شتى، تعاقب بعضها مع بعض، واقتبس ميثولوجيته.

فقد نشأ كثير من الأساطير الأكادية على أساس التنويعات السومرية الأصل.

لقد باتت أساطير مختلف الشعوب بمتناول أيدينا الآن. وتدهشنا كثرتها وتنوعها. ولكن ما يثير الذهول، هو أن الموضوعات والمحاور عينها تتكرر فيها، ولهذه الموضوعات نكرس كتابنا هذا. فما هي هذه الأخيرة؟

تؤلف الأساطير نواة أي ميثولوجيا كانت، وهي تروي قصة انبثاق النظام الكوني الذي دعاه الإغريق كوسموس، من الخراب الكوني (= الكاوس، الذي تختلف صوره بين ميثولوجيا وأخرى). وتدعى هذه الأساطير بالأساطير الكوسموغونية: «كوسموغونيا» كلمة إغريقية تعني «نشوء العالم». ولكن لماذا عدت هذه الأساطير الأساطير الأهم؟ لأنه حسب المنطق الميثولوجي الذي لا يشبه منطقنا نحن، إن جوهر أي ظاهرة أو شيء يكمن في منشئه بالذات، وأن هذه المعرفة هي وحدها التي يمكن أن تقدم مفتاح الفهم الحقيقي للظاهرة أو الشيء. وقد عدوا مثل هذه المعرفة ضرورية ولا تقدر بثمن. وللسبب عينه لم يكن وصف العالم ممكناً إلا بوسيلة واحدة: أن نروي قصة خلقه. وعندما نعرف كيف جرى خلق العالم، أو كيف بني العالم، يغدو من السهل أن نحدد وجهتنا فيه. لهذا كانت الأساطير الكوسموغونية (= أساطير نشوء العالم. م) تحظى بأهمية خاصة عندهم. وتشبهها شبهاً كبيراً أساطير نشوء الشمس، والقمر، والكواكب الأخرى، وقد أُطلق على هذه الأساطير اسم الأساطير الشمسية.

كما كانت هناك أساطير أخرى لا تتحدث عن بداية الكون، بل عن نهايته، أو نهاية الحقبة الكونية. وقد دعيت هذه بالأساطير الايسخاتولوجية (= الآخروية، أساطير نهاية الكون م). وتمثل أساطير التقويم السنوي مكانة وسطاً بين أساطير النشوء وأساطير النهاية: وفيها تموت الطبيعة موتاً مؤقتاً وليس موتاً نهائياً، ويعد هذا الموت الدوري بمثابة تجديد دوري منتظم للطبيعة.

وتمثل فكرة الخلق محوراً لكثير من الأساطير التي تروي قصص ظهور مختلف الأشياء، والقيم الثقافية والخيرات المادية. فنقرأ فيها عن «النار التي روضت»، كما نقرأ عن النباتات الزراعية، وابتكار الحرف وأدوات العمل، وتأسيس الأعراف الاجتماعية، وضوابط

الزواج وما إلى ذلك. ويعزى الفضل في إنشائها عادة لشخصيات ميثولوجية خاصة: ديميورغوس، أو بطل ثقافي، أو سلف مؤسس.

ومن مجمل مثل هذه الروايات التي تنتمي إلى شعب واحد، نشأت النظم الميثولوجية القديمة: المصرية، والصينية، والهندية، وسواها من ميثولوجيات الشعوب والبلدان الأخرى. وفي هذه الدائرة الواسعة من الأساطير نبتت الإرهاصات الأولى للدين، والفلسفة، والعلم، والفن. وكانت تلك المعارف التي تراكمت على مر القرون في الأساطير وعاشت زمناً طويلاً فيها مؤلفة كلا لا يتجزأ، قد تفككت فيما بعد وصار كل منها إلى ميدان ومستقلّ، وولد منها بالذات في خاتمة المطاف: الفن والأدب، ومختلف العلوم الأخرى.

وكانت الأساطير البدئية الأولى بسيطة المحتوى وموجزة العرض، ولم يصل منها إلينا إلا النذر اليسير. ثم أخذت تنشأ بعدها أساطير أكثر تعقيداً وفيها كثرة من الشخصيات، والرموز، والمحاور التي يتداخل بعضها مع بعض تداخلاً بديعاً ليؤلف سلسلة رحبة.

وقد دونت الأساطير القديمة: المصرية، والسومرية، والهندية، والحثّية، والصينية وسواها، منذ الأزمنة القديمة، فكتبوها على أوراق البردى، والألواح الطينية، وأوراق النخيل، ولفائف من الحرير. وبذل العلماء جهوداً مضنية ليقرأوها ويترجموها، ونحن علينا أن نتذكر دوماً أننا نتعرف إلى الأسطورة بالنص المكتوب، وعبر وسيط مترجم يرى في النصوص لغته الأم، ومفاهيمه المعتادة، وشخصياته المحببة، ولذلك تدفعه عوامل نبيلة إلى ملاءمة النص مع إدراكنا الراهن. أما في العصور القديمة، عندما ولدت الأساطير وكانت لا تزال إبداعاً حيّاً ومؤثراً، فإن أحداً لم يدونها أو يقرأها، لأنه لم يكن ثمة كتابة، كما لم يكن ثمة ما يكتب عليه أو به.

عندئذٍ لم يكن ممكناً قراءة الأساطير، كان يمكن سماعها فقط، وحتى سماعها لم يكن بمتناول جميعهم، كما لم تكن تلقى دوماً وفي كل مكان، أو عند الطلب. فلنأخذ الاستراليين مثالاً لهذا. فعند هؤلاء لا يسمح لأفراد القبيلة كلهم حضور الطقوس كلها وسماع الأساطير كلها. ومنذ القدم، وحتى في زمن أحدث، لم تكن القبيلة كلها على معرفة بصيغ الأساطير المقدسة، لقد كان ذلك حكراً على الرجال الكبار ذوي الهيبة والنفوذ. وقد لا يكون هؤلاء أنفسهم يعرفون الأسطورة كاملة، بل بعض أقسامها فقط؛ وحافظ جميعهم على هذه المعرفة بعيداً عن النساء، وصغار السن. لقد كانوا يحافظون على معرفتهم بالأسطورة أو بعض أقسامها، كما نحافظ نحن الآن على أي كنز من الكنوز العائلية بعيداً عن أعين الآخرين.

وغالباً ما ارتبطت الأساطير عند الشعوب القديمة بمكان بعينه وطقوس محددة. لذلك لم يكن يسمح إلا لرجال الأرض المعنية الذين يحافظون على الأساطير التي تنتمي إلى هذه الأرض أن يرووها، ويشاركوا في تأدية طقوسها. أما الرجال الذين ينتمون إلى أراض أخرى فقد كان عليهم إذا ما رغبوا في إقامة تلك الطقوس، ان يستأذنوا مالكي الأساطير الحقيقيين. ولكن حتى إذا كانت الأسطورة معروفة لجميعهم، فإن صيغها المقدسة لم تكن معروفة إلا لبعض أفراد القبيلة، وعادة ما تكون هذه الصيغ مسهبة وتفصيلية تعج بكثرة كثيرة من التفاصيل المحجوبة عن الآخرين بصرامة شديدة. وفي أكثر أنحاء استراليا بل ليس في استراليا وحدها، لم تكن الأساطير تروى رواية بل تؤدى في صيغة أغاني لم تكن تعلو فيها سوى الكلمات أو الجمل الأساسية.

هل نستطيع نحن أن نفهم مثل هذه الحالة؟ نعم نستطيع. تخيل إنني أنطق الكلمات: «قبعة حمراء»، «الذئب الرمادي»، «الجدة»، «طبق من الفطائر»؛ وأنت تشاهد في الأثناء عينها عرضاً إيمائياً صامتاً تظهر فيه فتاة ترتدي قبعة حمراء وتحمل طبقاً من الفطائر وتسرع في الغابة حيث تلتقي الذئب الرمادي. إنها حكاية خرافية معروفة جيداً، ولذلك فهي تنهض في المخيلة دون عناء، الأمر الذي يعفيني من كل ضرورة لراوية تفاصيلها.

وهكذا كانت الأساطير- الأغاني المؤلفة أساساً من الكلمات الرئيسة، تؤدى أثناء إقامة الطقوس التي كانت تقام في مكان بعينه، ووقت محدد تحديداً صارماً، وتترافق إضافة إلى هذا باستخدام مواد خاصة مقدسة، ورموز، وشعارات. وعادة ما كانوا يختارون قطاعاً خاصاً من المكان تجرى فيه الطقوس، وكان هذا يتميز عادة بتفصيل ما ذي دلالة: ينبوع ماء، أو صخرة غريبة الشكل، أو مكان غريب الهيأة، أو حجر أو شجرة لهما شكل مميز.

إذن يجب أن نتذكر لدى قراءتنا هذا الكتاب، أن الأساطير كانت موجودة في الحياة اليومية للناس في صيغة شفهية، ولم يكن يقرؤها أحد.



مشهد تقديم الذبيحة عند

الأولميك الأمريكيين

لقد استخدمت هذه الأشكال المنحوتة من الحجر أثناء إقامة طقس نقل الفتيان إلى فئة الرجال.

لقد كان الرجال ينقلون للفتيان معرفة الأساطير بصفتها كنزاً مكنوناً، أثناء إقامة طقوس التكريس الاحتفالية التي كانت تجري عند نقل هؤلاء الفتيان من فئة المراهقين الصغار إلى فئة الرجال البالغين. وكانت مثل تلك الشعائر تبدو للفتيان والفتيات مختلفة، وغالباً ما كانت تؤدى بعد فترات انقطاع قد تستمر عدة سنوات، لكن اجتياز الطقس كان لزاماً على الأطفال والفتيان في سن ١٢- ١٦ سنة، وأحياناً بعد ذلك. لقد كان على الفتيان والفتيات أن يودعوا الطفولة والشباب ليلجوا عبر الباب المؤدي إلى عالم البالغين.

ولكن ذلك العبور لم يكن بالأمر السهل. فقد كانت طقوس التكريس ترتبط كقاعدة بمعاناة نفسية قاسية، وأحياناً بمعاناة فيزيائية لم يكن بمقدور جميعهم أن يصبر عليها. وكان ذلك كله من حيث جوهر الأمر امتحاناً عسيراً لمدى قدرة الفرد على العيش في شروط المجتمع التقليدي الشديدة الصعوبة. فقد كان يتأتى للمراهقين أن يعيشوا في بعض الأحيان، معزولين عن المجتمع لمدة قد تتجاوز الشهر. وفي أثناء ذلك كان يحرم عليهم اللعب والضحك، كما كانوا يقتاتون بالأعشاب، والجذور، ويخضعون لتجارب مريرة، ويؤدون مهمات خطرة، كأن يعبروا المقبرة فرادى في ليلة مظلمة غاب قمرها، أو يخترقوا الأدغال إلى القرية المجاورة، أو يدخلوا كهفاً مشتعلاً ليلتقطوا منه أشياء ما. وكان عند بعض الشعوب في طقوسها عناصر ضمنوها مغزى خاصاً، مثل القدرة على تحمل الألم، أو أذية بعض أعضاء الجسد. فكانوا يقتلعون أسنان الفتيان بزعم أن الوجه سيكون بعد ذلك شبيهاً بالسحب الماطرة. كما كانوا يثقبون لهم مقدمة الأنف بعظمة حادة، ويعلقون لهم في الثقب حلية من الخشب أو العظم. ويحدثون لهم على اليد أو في مكان آخر من الجسد، جرحاً عميقاً ينبجس الدم منه، ثم يمسحون بهذا الدم على المشاركين في الطقس، وكانوا يشربون منه في بعض الأحيان، لاعتقادهم بأنه يثبت القوة. وكانوا يستخدمون المغرة الحمراء بدلاً من الدم في بعض الأحوال. ويحدثون جراحاً أو خدوشاً عميقة على مختلف مواضع الجسد، ثم يمسحونها بالرماد كي تبقى آثارها واضحة.

كما كانت شائعة عندهم شعائر نقل قوة البالغين إلى الفتيان المكرسين، سحرياً ولتحقيق ذلك كانوا يعضون المكرسين من رؤوسهم، أو يقذفون بهم عالياً في الهواء، ويلتقطونهم، أو يجلدونهم. وقد عدت النار واحداً من مصادر القوة وناقلاً من ناقليها. وتمثلت مراسم الشعائر هنا في جلوس المشاركين كلهم حول نار متوهجة ناظرين إليها دون انقطاع، مظهرين رجولة فائقة في تحمل وهجها. وقد كانت هذه الحركات كلها أسراراً سحرية. وكان مغزاها الرئيس، هو تحويل الفتى المكرس إلى رجل قوي بالغ، وصياد ماهر.

وعندما كانوا يقودون الفتيان من المستوطنة إلى الغابة، كانت النساء تبكينهم بمرارة كما لو كنّ يودعنهم إلى القبر. وكانت تتناهى من أعماق الغابة أصوات صافرة توحي بأصوات وحش أسطوري مخيف يتهيأ لافتراس الفتيان.

وفي مثل هذه الأجواء التي كانت ترافق طقس التكريس، كانوا يعرفون الفتيان إلى كل ما هو ضروري لحياة البالغين التي سيعيشونها من الآن فصاعداً، وكانت الأساطير من أهم عناصر تلك المعارف.

لم تكن أشكال طقس التكريس واحدة عند الشعوب كلها، بل اختلفت من شعب لآخر، لكن جوهرها كان دائماً واحداً: كان الفتى يموت في أثناء الطقس موتاً رمزياً، ثم يبعث من جديد رمزياً أيضاً، بيد أنه بات الآن شخصاً مختلفاً، قادراً على أن يتحمل أعباء حياة البالغين وصعوباتها كلها. وقد انعكس هذا الموت الرمزي المؤقت وذاك البعث الرمزي في حركات تظهر افتراس وحش ما للفتى: ثعبان على سبيل المثال، فعلى شكل هذا الأخير كانت الساحة الطقوسية أو الكوخ الذي كان بابه يبنى في صورة شدق الثعبان. وبعد أن «يمضي» الفتى وقتاً ما في جوف الوحش، «يعود»، يقذف من هناك. فثمة عند الزولوسيين الأفارقة قصة تتحدث عن ولدين ابتلعهما فيل. ويبتلع البطل الايرلندي فين ماك كول وحش لا شكل له. وابتلعت البطل البولينزي المحبب جدة جدته هاينوي-تي- بو: سيدة الليل العظمى. فعندما دخل هذا إلى بيتها ورأى أنها نائمة، رمى ثيابه عنه بسرعة وقرر إن يدخل جسدها العملاق. وكان ثمة طيور ترافق موي، وقد منعها عن الضحك إلى أن انتهى من مغامرته. وبقيت الطيور صامتة أيضاً عندما سار موي في جسد جدة جدته. ولكنها لم تستطع أن تتمالك نفسها عندما رأته يخرج من فمها، فأفسدت بذلك الأمر كله.

كما شاع عند كثير من الشعوب المحور الميثولوجي الذي يتحدث عن الحوت أو السمكة العملاقة اللذين يبتلعان الفتى؛ ويقضي هذا بعض الوقت في جوف الحيوان. ويروي الهنود الحمر الياغانا الذين يستوطنون أرض النار، أن حوتاً مهولاً ظهر يوماً عند شواطئهم. وكان قتله بالحربة أمراً مستحيلاً. عندئذٍ رأوا أنه ينبغي على أحدهم أن يجرح هذا الوحش من الداخل، فانبرى شخص يدعى السنونو لفعل ذلك. فقفز إلى شدق الحوت، وغاص به هذا الأخير إلى عمق البحر. ومضى الوقت ونسي أفراد القبيلة السنونو. وفي أثناء ذلك كان هذا يقطع أحشاء الحوت، وعندما اقترب هذا من الشاطئ طعنه السنونو الطعنة القاتلة. ولما ظهر الحوت المقتول جروه إلى الشاطئ وتركوه هناك وقد قرروا إقامة طقس التكريس طالما أنه توفر لهم هذا المصدر الكبير من القوت. أما السنونو فقد بقي قابعاً في جوف الحوت. وكان قد أصابه الصلع، وتكور، وأضحى نحيل الجسم. ولكن حدث مرة أن تسلل من كوخ طقس التكريس اثنان من الفتيان وجاءا إلى الشاطئ ليحتزّا قطعة من جسد الحوت، فعثرا على السنونو هناك. وعاش الرجل مع الفتيان، و استعاد وعيه، وعافيته، وأخذ يشارك في مبارياتهم ويتغلب عليهم. ولما انتهى طقس التكريس عاد الرجل إلى الديار.

ومن المناسب أن نتذكر في هذا السياق قبعتنا الحمراء التي ابتلعها الذئب الرمادي: والحقيقة أن تلك لم تكن أسطورة، بل حكاية سحرية، لكن أصداء طقس التكريس تتردد فيها.

لقد اشترط كل من الأسطورة والطقس أحدهما الآخر؛ فغالباً (ولكن ليس بالضرورة) ما نجد في الأسطورة وصفاً لطقس حقيقي يعيد المشاركون فيه إنشاء الأسطورة. وعادة ما يروى في مثل هذه الأسطورة كيف يقترب الفتى المكرس بهذه الطريقة أو تلك من حافة الموت، فهو إما مريض، أو حبيس في مكان لا يستطيع الخروج منه، أو يجد نفسه في العالم الآخر. ولكنه يستعيد بعدئذٍ قواه، ويكتسب مواهب لامعة. ومن هذا القبيل مثلاً أسطورة مدمر الأعشاش، الشائعة كثيراً في جنوبي أمريكا. ففيها يروى كيف يقع الفتى في الفخ وهو في أعلى الشجرة أو الصخرة، ولا يستطيع أن ينزل من هناك إلا إذا تلقى مساعدة. ويصعد هو إلى هناك تنفيذاً لأمر قريب له اكبر منه سناً طلب منه أن يأتيه بفراخ الطير أو بيضه. لكن هذا القريب عينه يرفع السلم جانباً ويترك المكان ويمضي. بيد أنه يتبين أن للفتى حارساً خارقاً، هو الجاغوار (= النمر الأمريكي. م)، سيد النار، أو الهلال الذي يحميه من الشمس آكلة البشر. فهما اللذان يساعدانه ليتخلص من الفخ أولاً، ثم ليعود إلى المنزل، ويهبانه مختلف الخيرات.

ولكن كيف كانت تجري إقامة طقس التكريس للبنات؟ لنأخذ مثالاً لنا «عيد الفتيات» عند الهنود الحمر في جنوبي أمريكا. فعندما تصل الفتيات سن البلوغ ينتقلن إلى حجر صغيرة داخل البيت المشاعي الكبير الذي يدعى باللغة الأسبانية «مالوكا» ؛ وتدعوه لغات الهنود الحمر بأسماء مختلفة. وكانت لهذه المنازل أشكال مختلفة: مستديرة أو مستطيلة. وفي القرن ١٩ م. رأى أحد الرحالة واحداً من مثل هذه المالوكات: طوله ٣٠ م، وارتفاعه ٣٠، وعرضه ١٠ م. وقد خصص القسم الخلفي منه للنساء، والأمامي للرجال. وتقوم على امتداد جدران المنزل أنساق من الأعمدة تفصل القاعة المركزية عن القطاعات العائلية: كانت العائلات تشغلها وفق قواعد محددة.

أما حجر الفتيات في المالوكا فكانت تزدان برسم الشمس، والقمر، وسوى ذلك من الرسومات. وعندما كان يبدأ العيد كان الرجال يحملون الآلات الموسيقية إلى الفناء ليلاً، وكانت هذه تخبأ نهاراً في مياه النهر. لقد كانت الآلات توجه صوب الحجر حيث تجلس فتاة، وينفخ بها بقوة وحشية. وكانت الفتاة تعتقد أنها تسمع أصوات الأرواح التي ستمزقها إذا ما خرجت من مخبئها.

وكان الرجال يدخلون إلى الغابة، يتنكرون هناك ثم يهرعون إلى المالوكا ويضربون على سقفها بالعصيّ، وبعدها يقتحمون المنزل كأنهم يريدون خطف الفتيات. لكنهم في المنزل يقدّمون «للأرواح» لحماً مشوياً ومشروب الايتشا «مشروب مسكر يصنع من الذرة)، فيهب أقارب الفتيات للدفاع عنهن ضد المتطاولين.

وفي أثناء الاحتفال بالعيد يقتلع شعر الفتيات حتى آخر شعرة، فالنسوة الأكبر تنتف شعر الفتيات كلهن إلى أن تغدو كل منهن صلعاء تماماً. أما الضفيرة الأخيرة المصبوغة باللون الأحمر فتترك لعم الفتاة كي يقتلعها هو. وبعد أشهر ينمو الشعر من جديد، فتغدو الفتاة امرأة بالغة لها حقوق البالغات كلها. ومن المعارف الأخرى الضرورية لحياتها الجديدة تتلقى الفتاة من بين ما تتلقى معرفة الأساطير.

ولم تكن الأساطير تسمع أثناء إقامة طقس التكريس، فقط، بل في أحوال أخرى كذلك، وفي كل مرة تؤدى فيها كانت تعرض في جو معيّن: أثناء تأدية الحركات الطقوسية، وعند التآم اجتماعات الرجال في مساكنهم، و... وبنى بعض شعوب غينيا الجديدة «أكواخ القص» الخاصة التي يذكرنا شكلها بالخلايا الأسطوانية. وكانوا ينقلون هذا الكوخ معهم من مكان لآخر تبعاً للموضوع الميثولوجي الذي سيعرضه الراوي، الذي كان يصور الروح أحياناً بتلوين جسده بالألوان التي تعطي الصورة المطلوبة. لقد كان متعارفاً لدى

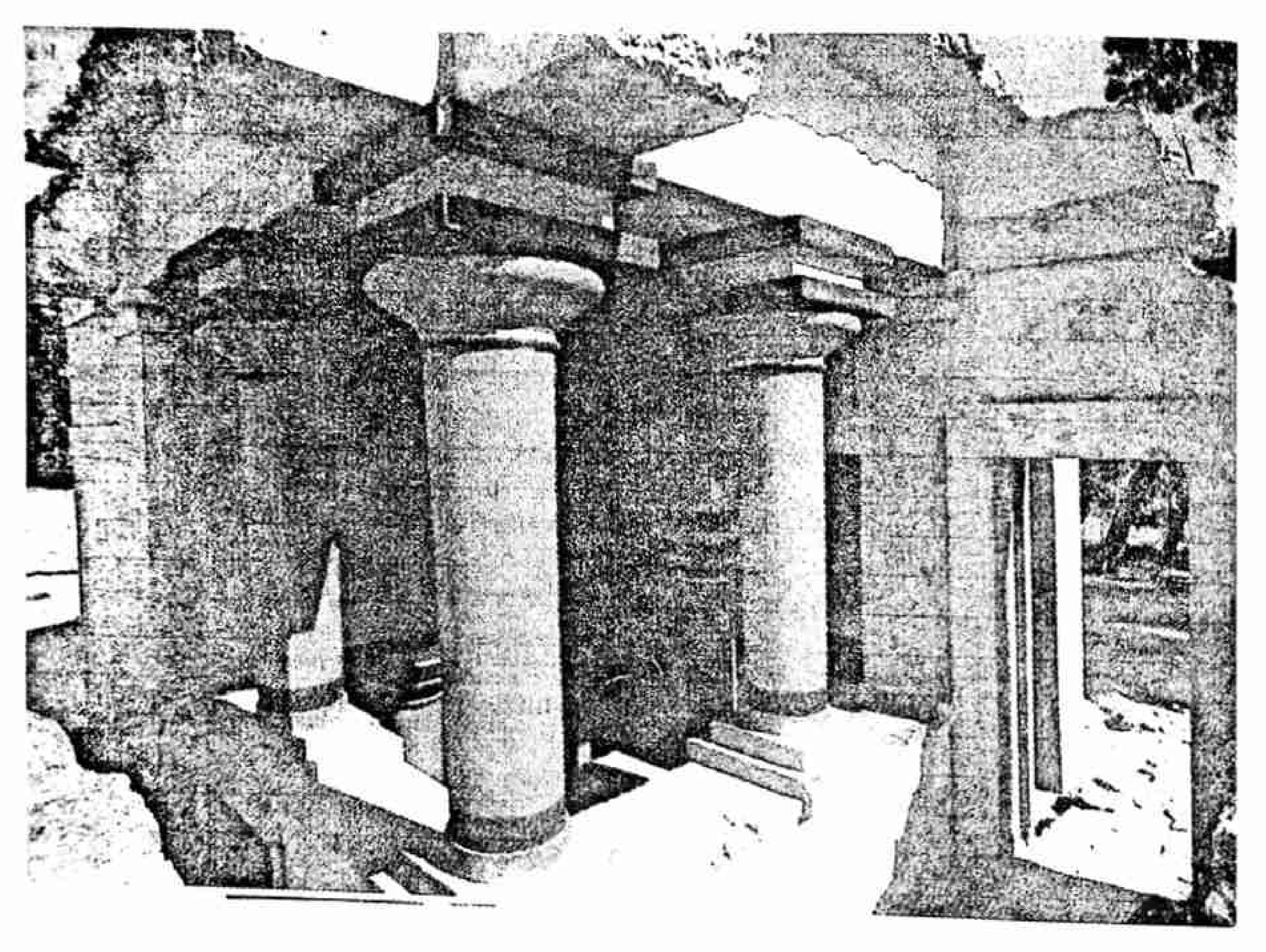
بعض الشعوب أن تروى الأساطير مع بدء موسم الأمطار، في مساكن تبنى في البساتين. وقد فعلوا ذلك لدواع سحرية الهدف منها تسريع نمو المزروعات.

كما كانت وتيرة رواية الأساطير نفسها خاصة تماماً في غالب الأحيان. فحسب مشاهدات العلماء أن الاسترالي من قبيلة ماريند- أنيم عندما كان يشرع بالحديث عن الإله- الديما، كان يخفض صوته لدرجة الهمس، ويدقدق بابتهاج، ويتخذ كثيراً من الأوضاع ذات المغزى، ويأتي بحركات تعبيرية متنوعة. وثمة تفاصيل لا يمكن عرضها أصلاً، بل تنقل بالحركات فقط. وربما تكون القصة عينها أشبه بالإلقاء الغنائي، وتترافق أحياناً كثيرة بحواش غنائية. لقد عدوا إنه بقدر ما يكون الإلقاء مفعماً بالشعور، بقدر ما يكون تأثيره أقوى. ومرة قال أحد سكان جزر الفيليبين: إن الرواية الأسطورية يجب «أن تعلو وتهبط كأنغام قيثارة الخيزران».

الباب الثاني

الإرادات الخفية الوسنى

كيف نتسلل إلى الحقب



أطلال قصر كنوسوس في كريت

كانت مساحة القصر هكتارين ونصف الهكتار، وتوضعت حجره واستراحاته وممراته في نظام عجيب، وكان من السهولة بمكان أن يتوه فيه أي زائر، وترد إلى ذهنه صورة التيه وساكنه المينوتاوروس- الإنسان- الثور الذي قتله ثيسيوس.

لقد ولدت الأساطير منذ أقدم الأزمنة، ولذلك ينبغي علينا أن نرحل إلى هذه الأخيرة أولاً لكي نعرف بعض الأشياء التي تساعدنا على فهم الأساطير بصورة أفضل. ولكن كيف نفعل ذلك؟ فالأزمنة البدائية والقديمة انصرمت منذ دهور وطواها الزمن! ولا تفصلنا عنها مئات بل آلاف السنين.

وفي غضون ذلك جذبت الحقب القديمة كثيراً من المهتمين. فقد تساءل الشاعر والعالم الألماني يوهان- فولفهانغ غوته يوماً:

«كيف نتخيل النظام القديم؟» وأجاب:

كبقايـــــا كركـــــر مـــــدفون،

وبعـــــضها محـــــزن أكثـــــر-

كدميـــــة في خيمـــــة قديمـــــة.

وحـــــسب بعـــــضهم أن أســـــلافنا

لم يكونـــــوا بـــــشراً، بـــــل دمـــــى...

عندما كتب غوته هذه الكلمات، أي منذ أكثر من قرنين، تصوروا النظام القديم معتمدين على الخيال اعتماداً أساسياً. أما الآن فإن المؤرخين يحاولون أن يعرفوا ذلك النظام على أساس دراسة المصادر التاريخية التي كنا قد نوهنا إليها سابقاً؛ وقد باتت هذه المصادر الآن كثيرة ومتنوعة. فبين يدي المؤرخين الآن مدونات تاريخية، وحوليات، وشهادات شهود عيان، ومصنوعات حرفيين، ورسومات صخرية، وكسرات أواني، وهياكل عظمية بشرية، وكثرة أخرى لا عد لها من القرائن. ويروي كل من هذه حكاية التاريخ القديم «بلغته».

ولكن كيف نتمكن نحن من «قراءتها» ؟ تخيل أنك خرجت في ساعة متأخرة من مساء يوم ما، أو في ليلة ما إلى الشارع ونظرت بعيداً لترى شكلاً ما مبهماً تماماً: إنه وحش، وربما إنسان، أو قد يكون شجرة. ولكن إذا ما كان بين يديك ضوء كاشف، وكلما كان هذا أقوى كلما كان أفضل، أما إذا كان بين يديك أكثر من كاشف فإنك تستطيع أن ترى الشيء المعني من مختلف جوانبه وتتبيّن ماهيته.

وهكذا تقريباً يفعل المؤرخ الذي يدرس التاريخ القديم: إنه يدرس المعطيات المتوفرة كلها ويلقي بمساعدتها «ضوءاً كاشفاً» ينفذ به إلى أعماق الأزمنة. أما تعدد «الكواشف الضوئية»، فهو نفسه تنوع المصادر التاريخية. وسوف تكون الحال أفضل إذا ما توفر شيء من الشهادات المدونة عن الحقب العهيدة: ينبغي عندئذٍ تعلم اللغة القديمة، ثم ترجمة تلك النصوص ومحاولة فهمها. ولا شك في أن هذا سيكون «كاشفاً» جيداً، بيد أنه لا يضيء كل شيء، وقد لا يضيء أي شيء.

وثمة «ضوء كاشف» آخر لدى الآثاريين. فعلم الآثار، هو العلم الذي يدرس الماضي استناداً إلى البقايا من المساكن، والقرى، وكسرات الآنية، وبقايا الأشياء المنزلية الأخرى، والألبسة، والأسلحة، وأدوات العمل، وما إلى ذلك. ويعمل الآثاريون كما تعمل فرقة الاختراق تقريباً. فعلى أساس مؤشرات بالكاد تكون ملحوظة، يحدد هؤلاء مواقع القرى القديمة المدفونة عميقاً في الأرض: خلال قرون تكون قد قامت في المكان عينه مدن أخرى، أو دفن التراب القرى والمدن القديمة نفسها. فها هو موقع الحفريات الأولى قد تحدد. وبات ينبغي الآن تعيين ساحة العمل، ودق الأوتاد لتحديدها، ثم رفع الطبقة العليا و... البدء بتحريك الماضي بالمعنى المباشر للكلمة. وبتقليبهم الأرض طبقة إثر طبقة يعبر الآثاريون التاريخ عصراً إثر عصر، لأن كل طبقة من طبقات الأرض تمثل طوراً من أطوار الزمن المتتابعة. ويستطيع الآثاري خلال عدة أيام من العمل أن ينفذ قروناً في عمق الماضي ويرى بام عينه، وليس بخياله، المساكن التي عاش الناس فيها، وأي أواني استخدموا في حياتهم اليومية، وأي الحلي حملوا وبأيَ الأسلحة قاتلوا. ولكن الآثاري يستطيع أن يرى ويلمس بيديه ما انطبع على الحجر أو دق في الطين، أو رسم على الصخور وجدران الكهوف وحسب. وليس هذا كله سوى مقاطع طارئة أفلتت من حياة مضت منذ زمن بعيد. فقد باد واندثر كثير مما كان يستخدمه القدماء ولم يصل إلينا، لأنه صنع من مادة سريعة التلف: الخشب فني، والجلود تحللت، وصار العظم إلى رماد، وما صنع من التراب والطين عاد إلى مادته التي أخذ منها.

وفي بعض الأحيان تتحول الأساطير القديمة إلى خيط أريادني نفسه بالنسبة لعلماء الآثار. فهنريخ شليمان كان له من العمر سبع سنوات عندما وضع لنفسه مهمته التاريخية: «عندما أكبر سوف أجد طروادة، وأعثر على كنوز الملك!». وغالباً ما كان والده يروي له أساطير أبطال هوميروس وخرافاتهم، ومرة في عيد الميلاد أهدى الوالد ابنه كتاب «التاريخ العالمي للأطفال». وبينما يتصفح شليمان الصغير صوره ولوحاته، لم يشأ أن يصدق أبداً أن طروادا قد دمرت، وأن أحداً لا يعرف المكان الذي كانت تقوم عليه المدينة.

لقد كانت حياة شليمان تشبه رواية من روايات المغامرات. ففي الرابعة عشرة من عمره كان عليه أن يترك المدرسة ويعمل صبياً في حانوت، ثم جند بحاراً وأبحر إلى فنزويلا، لكن

عاصفة ضربت السفينة في الطريق، ووجد البحار نفسه ملقى في المشفى. وبعد أن تعافى وجد شليمان لنفسه عملاً في مكتب تجاري في أمستردام، وحسب منهج ابتكره هو نفسه أخذ شليمان يعلم اللغات. وقد كان ناجحاً في أعماله أيضاً، ففي العام ١٨٤٧ م أنشأ بيته التجاري الخاص. وفي زمن قياسي جمع شليمان ثروة أسطورية من أعماله التجارية، لكنه ترك التجارة وعاد إلى حلم طفولته، ففي السادسة والأربعين من عمره توجه إلى إيثاكا. لقد كان شليمان يرتاب في صحة نظريات العلماء المعاصرين له، لكنه كان يثق ثقة مطلقة في كل كلمة قالها هوميروس، وقد عثر على طروادا. ولم يكن شليمان الوحيد الذي صدق بما جاءت به الأساطير، ولذلك سار على الطريق الصحيحة.

ولكن لنعد الآن إلى «أضوائنا الكاشفة». فعلم الآثار يتيح لنا أن نتسلل إلى الماضي ونعرف أشياء كثيرة عن حياة القدماء. فكيف بدا مظهر هؤلاء؟ هذا سؤال أجابت عنه الانثروبولوجيا (= علم السلالات البشرية. م)، فبين أيدي الانثروبولوجيين «الضوء الكاشف» الآخر. ومن المعروف أن الانثروبولوجيين يهتمون بالمقابر القديمة خاصة. وبالجمجمة والهيكل العظمي وأي بقايا عظمية أخرى يستطيع هؤلاء إعادة تركيب المظهر الخارجي للبشر الذين غادروا الدنيا منذ الأزمنة السحيقة.

وهناك «كواشف ضوئية» أخرى يمكن أن نتبين بمساعدتها «النظام القديم» بدرجة أفضل. فما هو الدور الذي تؤديه الأساطير في هذا السياق إذن؟ إنها «كاشف ضوئي» آخر، لكنه جبار جداً. وكما أشرنا سابقاً، فإن للأساطير مكانة مرموقة جداً، فهي كالكريستال السحري تبين كيف كان يعيش الناس في الأزمنة الأولى، وكيف أدركوا العالم المحيط بهم، وكيف أدركوا أنفسهم فيه. فنحن نعرف على سبيل المثال أن الأرض كروية، وأنها مغطاة بطبقات الجو، وتدور حول الشمس، وأنه ثمة في مجرتنا كواكب أخرى غيرها. كما نعرف أيضاً أن الشجر ينمو فوق سطح الأرض، وأن الصخور ثقيلة وساكنة، وأن الأنهار تجرى من المنبع إلى المصب، وأن في صدر الإنسان قلب، ورئتان، وكبد، وشرايين تنقل الدماء، وأن الناس يعيشون عائلات، وأن دولاً كثيرة يدير شؤونها رؤساء، وما إلى ذلك. إن هذه المعارف المتنوعة تنخرط كلها في اللوحة التي كوناها عن العالم، ونحن نظن أن الأمر كان هكذا دوماً. ولكن البدائيين. وكذلك القدماء رأوا أنفسهم والعالم المحيط في صورة مغايرة تماماً. فالأرض، والكواكب، والشجر، والصخور كانت كلها بالنسبة إليهم كائنات حية تملك أرواحاً؛ ولذلك كان إدراكهم لها مغايراً لإدراكنا نحن لها. وهذا ما تساعدنا الأساطير على رؤيته. والحاصل أن القدماء، عاشوا حياة مختلفة، في زمان ومكان مختلفين.

هل كان الزمن متماثلاً دائماً



طراز الساعة الفلكية الصينية

سو سون. العام ١٠٩٢م.

بعد قرنين من هذا التاريخ قامت المبادئ الأساسية لبنية هذه الساعة في أساس أول الساعات الآلية التي صنعتها أوروبا.

دعونا نفكر الآن، ما هو الزمن؟ إننا نعيش فيه، ودائماً نتحدث عنه. نقول مثلاً: «ليس لدي وقت أبداً»، أو العكس، «لدي كثير من الوقت». بيد أننا لا نفكر به، ومن حيث جوهر الأمر قلما نقول عنه شيئاً معقولاً واضحاً؛ بينما هو في الواقع أعظم الألغاز التي لم ينجح الإنسان في فك إبهامها حتى الآن. إن حياة كلّ إنسان منّا ترتبط بالزمن ارتباطاً؛ وليس من قبيل المصادفة أن يقال: نحن أبناء زمننا. فنحن يمكننا أن ننتقل إلى مدينة أخرى أو بلاد أخرى؛ لكننا عاجزون عجزاً مطلقاً عن أن ننتقل إلى قرن آخر، أو شهر آخر، بل حتى إلى يوم آخر. وما يثير الاهتمام أن تصوراتنا عن الزمن كانت تتبدل على امتداد التاريخ البشري كله، هذا التاريخ الذي لم تكن رؤيتنا له ثابتة يوماً.

فكيف حصل هذا؟

... المكان، مدينة كيلن، الزمان ٢١ أيلول من العام ١٩٠٨م. يقدم عالم الرياضيات الألماني هيرمان مينكوفسكي تقريراً أمام مؤتمر علماء الطبيعة. فيقول فيه: «منذ الآن يمضي الزمان بنفسه، والمكان بنفسه إلى مملكة الظلال، ولا يبقى موجوداً وجوداً مستقلاً سوى ما يشبه اتحاد هذين المفهومين».

وقد أثارت هذه الكلمات كما التقرير كله ضجة كبيرة في الأوساط العلمية، وقال مينكوفسكي هذا استناداً إلى النظرية النسبية التي كان قد اكتشفها ألبرت اينشتين منذ برهة قصيرة. لقد كان مفهوم وحدة الزمان والمكان التي لا تنفصم عراها لا يزال مفهوماً جديداً تماماً. لقد بدد اينشتين ومينكوفسكي الفهم السابق المعتاد والمستهلك للزمن، ذلك الفهم الذي لم يتغير منذ القرن ١٧ م. وكان قد صاغه وقتئذ في العام ١٦٨٦م اسحق نيوتن البروفسور في جامعة كمبردج: «إن الزمن الراهن المطلق والرياضي يجري بنفسه وحسب طبيعته، مستقلاً عن كل ما يحيط». لقد ترك هذا الفهم النيوتني للزمن طابعه على كل الفكر العلمي للعصر الحديث، بما في ذلك الفكر التاريخي. وقد ظهر أن هذا المفهوم كانت له قدرة قوية على الاستمرار: فنحن لا نزال حتى

الآن وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها اينشتين ومينكوفسكي، نرى أن الزمن لا علاقة له بنا، وأنه يجرى متماثلاً من الماضي إلى المستقبل، وينقسم في غضون ذلك إلى نهارات وليال، وأيام وأسابيع، وأشهر وسنوات. إننا نثق ثقة تامة بأننا نعيش في مثل هذا الزمن، ولا يستطيع أحدنا أن يتخيل أن الزمن قد يسير يوماً إلى الوراء، وأننا قد نجد أنفسنا فجأة في الماضي البعيد. وإذا استطعنا فعلاً أن نتخيل، فهل يمكن أن يحصل هذا فعلاً؟

ومنذ أيام نيوتن ساد الاعتقاد بأن الأحداث التاريخية كلها، وكذلك حياتنا تسير في مثل هذا الزمن المطلق، الخطّي وذي الاتجاه الواحد. وبهذه الطريقة يمكن أن يستعرض العالم ويحسب بدرجة أفضل. فهو يشبه بشيء ما آلية الساعة: من وقت لآخر يدوره الإله- الخالق، أو أحد آخر، أو شيء آخر.

ويرتبط التاريخ ارتباطاً وثيقاً بالزمن، ولذلك فإن الزمن التاريخي المختلف عن الإدراك الميثولوجي للعالم والزمن الذي يجرى فيه، لم يتشكل إلا منذ وقت غير بعيد نسبياً: في عصر النهضة الأوروبية. ففي هذا العصر بالذات بات زمن حياة المجتمع البشري يدرك في أوروبا لأوّل مرة، بصفته زمناً تاريخياً. عندئذٍ باتوا يدركون أن تيار الحياة ليس متبدلاً، وأن الزمن الراهن، أي الزمن القرسطوي، قد سبقه زمن آخر منصرم، قديم. وفي تلك القرون عينها تقريباً تشكل مفهوم اللحظة الراهنة، الجارية، وعندئذ ظهرت الساعة في أوروبا لأول مرة. فحتى تلك الأثناء كانوا يقيسون الزمن تقريباً بأكمام الورود التي تفتح وتنطبق، وقرع أجراس الكنائس، واحتراق الشموع وسوى ذلك من الوسائل المساعدة.

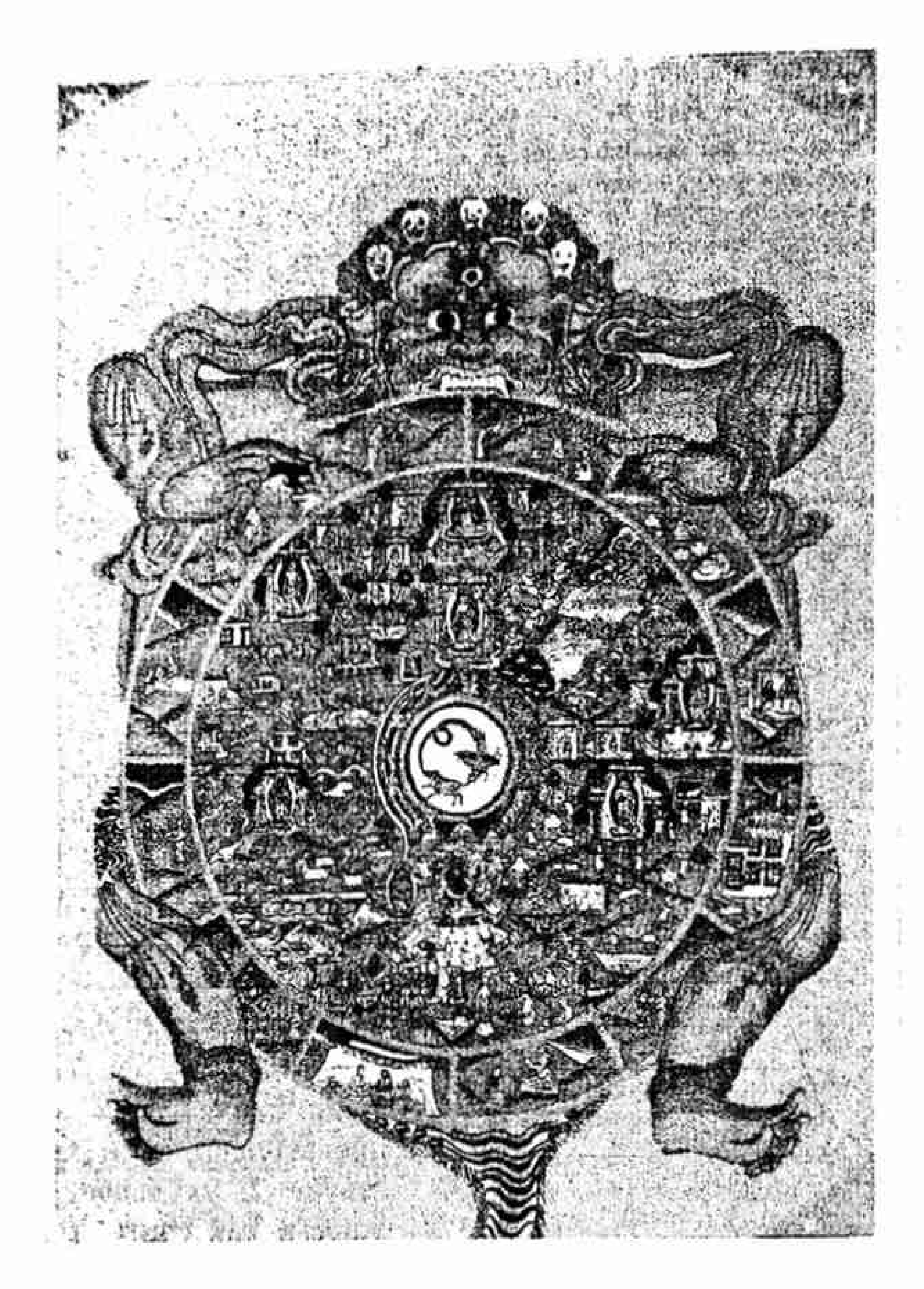
أما الآن فإننا نرى الأمر في غاية البساطة واليسر، ولكنه لم يكن في ذلك العصر من الأمور البدهية قط. بل حتى الزمن نفسه بات يدرك بشكل مغاير عما كان عليه قبل ذلك: لقد انقسم إلى ماضي، وحاضر، ومستقبل، وبات من الواضح أن الحياة البشرية متجذرة في الزمن، زد إلى هذا أن جريانها فيه سريع، عابر، طارئ. ورأوا وقتئذٍ تعاقب الزمن وصلته متحدين كحلقات سلسلة واحدة. وحتى ذلك الوقت لم يكن بمقدور أحد أن يفهم مغزى تعبير: «انفرط عقد الزمن»، بل لم يكن لمثل هذا التعبير أن يظهر أصلاً.

لكن القرون الوسطى أعقبت التاريخ القديم. وكان الزمن عندئذٍ مختلفاً، وبمعنى أدق أن إدراك الزمن كان مختلفاً. فقد حددته أولاً وقبل كل شيء إيقاعات الطبيعة: تعاقب الليل والنهار، وتوالي فصول السنة، وتكرار الدورات السنوية، ولهذا قامت فكرة

دوران الدائرة في أساس إدراك العصر الإغريقي- الروماني (= العصر القديم. م) للزمن. وكان من الطبيعي تماماً أن يفهموا الزمن بصفته جملة من الأدوار المتواترة، أي أنه كان دورياً. وعندما نقول: «كل شيء يعود إلى دائرته»، فأننا نقصد بذلك إلى هذا الزمن الدوري.

والآن دعونا نسترجع ما نردده نحن أنفسنا عن الزمن. فنحن نقول عنه: «يسير»، «يحبو»، «يطير»، «يتدحرج»، «يعدو»، «يدور». وقد نقول: «يومي هذا سيء» (أو العكس)، «لقد حلت بي أوقات عصبية»، وما إلى ذلك. ألا يعني هذا كله أننا نتحدث عن الزمن كأنه كائن حيّ؟ كأنه يستطيع أن يأتينا بما هو سيء أو جيد؟ وهكذا تقريباً كان موقف القدماء منه: ككائن حيَ مزاجه ليس مزاجاً وديعاً دائماً. وهذا ما تشهد به أساطيرهم.

كيف يمكن أن يكون الزمن



الرسم التيبيتي لعجلة الزمن والحياة

يعدّ الزمن الميثولوجي رمز خلق العالم، يلد كل شيء ويبتلع كل شيء، وهو أزلي لم يخلقه أحد.

وحسب تصورات القدماء إن الزمن الإلهي الأزلي يتجلّى في عالم البشر متناهياً ومقطوعاً.

تترك الأساطير انطباعاً أن الزمن في العصور القديمة كان يسلك بشكل لا يمكن التكهّن به. فلم تكن الأحداث تتعاقب وفق تتابع محدد، كما اعتدنا أن نراها، بل كان يمكن أن تتراكم وتتجمع واحدها فوق الآخر، أو تتعايش واحدها إلى جانب الآخر، أو يبتلع واحدها الآخر. إذن كيف يمكن قياس مثل هذا الزمن وفق التسلسل التاريخي المعتاد؟ إننا لا نجادل في حقيقة كون سلم القياس المعتاد ملائماً جداً، كما هو ملائم أيضاً التقويم السنوي المشترك بين البلدان كلها، ولكن تطبيقه لا ينسحب على كل الميادين والأشياء.

ولكن الحقب القديمة لم تعرف مثل هذا التأريخ المشترك، كما لم تعرف تقويماً. ولن ننسى أيضاً أنهم لم يعرفوا الساعة، ولم يحسبوا الوقت بالثواني، والدقائق والساعات، بل بوحدات زمنية أخرى: بالليالي، والنهارات، والفصول، والشتاءات، والصيفيات وما شابه. لقد كان الزمن مرتبطاً عندهم بالطبيعة وأحداث الحياة الإنسانية، ولم يكن مجرداً عنها كما هي الحال بالنسبة إلينا الآن. ولننظر مثلاً في الأساطير الاسترالية: إننا لا نرى فيها، وكذا في الأساطير الأخرى، إشارات إلى تواريخ دقيقة، بل نرى شيئاً آخر: «لقد كان هذا في الزمن الذي لم يكن يملك السود فيه النار».

أنه من الصعب كثيراً على الإنسان المعاصر المعزول في الزمن الحاضر، أن يعقل كيف يمكن أن يستمر الماضي موجوداً غير مبارح، وأن يكون للزمن رسوخ مادي، ولا ينتهي بالموت، بل يتواصل في العالم الآخر و... وما يجدر قوله هو أن كل شيء كان هكذا بالضبط في الحقب التاريخية القديمة..

وكما أن لكل منا الآن زمنه الذي يعيشه سيكولوجياً، كذلك قديماً كان لكل بلاد زمنها، الذي كان يقاس بوحدات تختلف من مكان آخر. فقد اعتقد قدماء الهنود على سبيل المثال، أن الكون اللا متناهي ينقسم إلى كثرة من العوالم التي لكل منها زمن بدئه، وزمن ازدهاره، وزمن اندثاره. ومثلما ينام الإنسان ليلاً ويصحو نهاراً، كذلك يتعاقب في حياة العالم السكون والنشاط. فعصر النشاط، أي نهار براهما، يعقبه عصر السكون، أي ليل براهما، وحياة براهما، هي زمن وجود العالم، ومع موته تغرق المعمورة في الخراب الكوني العظيم (= في الكاوس).

ولكن نهارات براهما تقاس باليوغات أو المهايوغات وتتألف كل مهايوغا (أو مهاكالبا)، من أربع يوغات سميت بمصطلحات تستخدم في لعبة النرد: «كريتا»، «تريتا»، «دفابارا»، «كالي»؛ وهي تتوافق في حجارة النرد مع النقاط أربع، وثلاث، واثنتين، وواحدة، وكل يوغا أقصر من سابقتها بمقدار الربع، ويدل هذا التقليص للزمن على تردي حال العالم. ويرى الهنود الآن أننا نعيش الكاليوغا الأخيرة وهي الأسوأ التي يجب أن تليها نهاية العالم، أي ليل براهما.

وتتألف اليوغا الإلهية الواحدة من اثني عشر ألف يوغا بشرية والألف يوغا إلهية تساوي كالبا واحدة، أو نهاراً واحداً من نهارات براهما، أي أربعة مليارات وثلاثمئة وعشرين مليون سنة. وبراهما نفسه ليس خالداً بالمعنى المطلق للكلمة. ومهما كانت نهاراته عظيمة فإنها في نهاية الأمر نهارات معدومة. فهو يعيش مئة عام معدودة وفق الحسابات الإلهية، ثم يموت.

إن مثل هذا الموقف من الوقت جعل الهنود لا مبالين تماماً تجاه الترتيب الزمني الذي نهتم نحن به هذا الاهتمام كله، ولذلك فإن تاريخهم لا يشبه تاريخنا في شيء. فحساب الزمن هناك يجري حسب عهد حكم هذا الملك أو ذاك. وفي بابل أيضاً ربطوا الزمن باسم هذا الملك أو ذاك (كان الملك المعني دلالة على حقبة زمنية معينة، ومقياس يقاس عليه)، أو بهذا الحدث المهم أو ذاك: بالطوفان على سبيل المثال: لقد عرف هناك زمن ما قبل الطوفان وما بعد الطوفان. وفي الحياة اليومية اكتفى البابليون باستعمال إشارات مبهمة مثل: «في الأيام الخوالي»، «في أيام جدي الخامس»، ولهذا بالذات يعد تاريخ المجتمع القديم لغزاً محيراً بالنسبة للمؤرخين المعاصرين. فمهما حاولت، ومهما بذلت من جهد فإنك لن تجد فيه تواريخ محددة. فلم تحمل إلينا أي وثيقة من وثائق التاريخ المصري القديم أي إشارة زمنية معتادة من مثل: «حكم الفرعون توتموس الثالث من العام ١٤٩٠ إلى العام ١٤٣٦ ق. م»، أو «في العام السابع من حكم سنفرو شن المصريون حملة عسكرية ضد النوبة». فمع اعتلاء كل فرعون جديد العرش كان يبدأ طور جديد مستقل عما قبله، ولم يكن حساب السنين هنا متواصلاً. لقد انعكس ألق شخصية الفرعون المؤله انعكاساً مباشراً على الزمن.

ولم يعرف القدماء أيضاً موقفاً كموقفنا نحن من الزمن بصفته شيئاً ما مجرداً ليس له شخصية. فقد بجلوه في غالب الأحيان في صورة إله له السلطة على الكون كله. ومن هذا القبيل على سبيل المثال، الإله الهندي كالا الذي وصفوه ورسموه في صورة محيط الخلق القديم العظيم الذي يحتوي في داخله على كل الكائنات الحية، وهي كلها تخرج منه وإليه تعود. ويروى في واحد من المشاهد الميثولوجية عن إنسان لدغته أفعى فمات. وقد أصرت الأفعى على براءتها وقالت، إنها لم تكن سوى أداة بيد إله الموت، وهذا بدوره عد نفسه بريئاً ولا صلة له بموت الشخص المعني، وألقى بالمسؤولية كلها على عاتق إله الزمن كالا، لأنه خضع لإرادته هو بالذات.

أما الزمن- كالا فهو يلهو بمصير الناس كما تلهو الريح بالأعشاب الدقيقة الهشة. فيرغمهم على أن ينضجوا كما تنضج الثمار على الشجرة؛ إنه يخبز الكائنات الحية تماماً كما يخبر الخباز الخبز في الفرن، وهو نفسه الذي يضع الناس على لائحة الموت: قبل أن يسقط الجندي في ساح القتال، يكون الزمن الذي لا يرحم قد قتله. فكيف يمكن أن نصف هذا الزمن- الإله، فما بالك بقياسه! هذا الأمر لم يخطر لأحدهم مجرد خاطر. ؟ فلهكذا زمن يمكن أن تسجد وحسب، يمكن أن تعظم وتقدم القرابين متوسلاً رحمته ورضاه كي لا يكون قاسياً أكثر مما يجب.

ولهذا لم يقس القدماء سوى الزمن المعتاد، اليومي، «البشري»، فوضعوا لبلوغ ذلك التقاويم والنظم التأريخية المعقدة. أما الزمن الميثولوجي الذي كان يقيم في مكان ما على مقربة مباشرة من الزمن اليومي المعتاد، والذي يعد نسيب أزليتنا، فإن أحداً لم يحاول قياسه، بل ولم يكن هذا ممكناً من أصله، لأنه ليس لهذا الزمن امتداد. لقد كان هذا الزمن الميثولوجي موجوداً منذ زمن بعيد، قبل بدء الأزمنة البشرية كلها، بل قبل البدايات كلها، قبل أن يظهر البشر على الأرض. وقد عد هذا الزمن الذي انصرم منذ عهود لا عد لها، ذا أهمية غير عادية، لأن الأرض وما عليها قد خُلقت زمئذٍ بالذات. ويقع هذا الزمن خارج حدود الذاكرة البشرية، وهو محاط بهالة من الأسرار والقدسية. وقد دعاه بعض الشعوب بأسماء خاصة، فقد أطلق عليه الاستراليون مثلاً اسم: «زمن الأحلام والرؤى».

ويعد الزمن الميثولوجي متميزاً أيضاً لأنه يبقى ماضياً مقدساً مقيماً لايبارح أبداً. ويصل ألقه السحري إلى الحاضر الراهن عبر طرق مختلفة: عبر الأحلام، والطقوس، والشعر. ولهذا عدت الطقوس واحداً من أهم أشكال النشاط الإنساني: تسترجع فيها الأحداث الأسطورية، وأعمال الآلهة والأبطال، وفيها يشعر المشاركون بإقامة الطقوس أنهم يشاركون الآلهة أعمالهم. وكأني بهم عندما يؤدون الطقس يتذكرون السابقات المقدسة التي أشار الآلهة بها، ثم يقلدونها في حياتهم اليومية.

وهكذا يبدو كأن العصور القديمة عرفت زمنين: زمناً مقدساً، ميثولوجياً، وزمناً معتاداً، واقعياً. ويتداخل الزمن الميثولوجي في غضون ذلك مع الحياة اليومية مشكلاً قوة إبداعية جبارة.

ويرتبط الزمن الميثولوجي ارتباطاً وثيقاً بالمكان، تماماً كما في نظرية اينشتين- مينكوفسكي. وهناك شعوب استخدمت كلمة واحدة للدلالة على الزمان والمكان: «مدة طويلة»، و «مسافة طويلة»، اللذين كانا بالنسبة إليهم تعبيرين لهما المعنى عينه. ولم يكن العالم الميثولوجي يتوضع خارج أفق الزمن البشري وحسب، بل خارج المسافات أيضاً. فقد كان في هذا المكان أمكنة مختلفة تماماً، مليئة بالقوة المقدسة المعطاءة، بل كان ثمة عوالم بكاملها تخضع لهذه القوى.

الحياة البدائية، حياة مختلفة



مشهد لطير وانسان برأس طير.

من كهف لياسكو «فرنسا»

لقد ترك رسامو العصر الحجري القديم وراءهم أعمالاً فنية عالية المستوى، رسموها على جدارن الكهوف.

وكانت الوحوش هي أبطال تلك اللوحات.

ومنذ عهد غير بعيد أثارت هذه الرسومات فرضيات عن سكان كواكب أخرى، لكن التاريخ البدائي اكتسب الآن مشروعية وجوده.

لقد عاش القدماء في زمان- مكان مغاير للزمان- المكان الذي نعيش نحن فيه، وكان العالم المحيط بهم عالماً آخر أيضاً. فلم يكن فيه كل الأشياء التي اعتدنا نحن عليها هذا الاعتياد كله، ولعله ليس بمقدورنا الاستغناء عنها: فهم لم يعرفوا المترو، ولا الترامواي، ولا الحافلات، ولا أي آلات على الإطلاق. كما لم يعرفوا الطرقات المرصوفة المكسية بالإسفلت، ولا خطوط الطاقة الكهربائية، بل لم يكن هناك نقود أصلاً؛ فلم تظهر هذه إلا في زمن متأخر. لقد عاش الأوائل دون خبز، أو زيت، أو حليب، أو بطاطا، أو جبنة، أو شاي، أو بن، أو.... وإذا كان يصعب علينا أن نتخيل حياتنا الآن دون هذه المواد، فإن الأوائل لم يفكروا بها أبداً.

وكنا قد أشرنا أيضاً إلى أن الأوائل لم يعرفوا الكتابة، كما لم يعرفوا الكتب أو المكتبات، أو التلفزيون، أو الكومبيوتر، أو.. لقد كانت المعلومات الضرورية تحفظ كلها في الذاكرة، وعلينا أن نعترف بأن هذه الأخيرة كانت منظمة عندهم أفضل بكثير مما هي عندنا الآن.

ولكن بالمقابل كانت عند البدائيين طبيعة بكر، نقية، لم تفسدها غازات العوادم، ولا النفايات الشعاعية؛ لقد كانت لديهم الطبيعة التي نفتقر نحن إليها الآن افتقاراً تاماً تقريباً. فحديقة صغيرة في وسط المدينة لا تثير الأحاسيس عينها التي تخلقها الغابة الطبيعية، ولا يفتح البناء المؤلف من عشرة طوابق أو خمسة عشر طابقاً، الأفق عينه الذي ينبسط أمام العين من قمة مرتفع من الأرض أو جبل، وحتى الإبحار في السفينة لا يشبه الخروج إلى عرض المحيط في رحلة على متن طوف. وأنت لا تستطيع أن ترصد نجوم السماء كما يجب إذا كان دخان المصانع يملأ طبقات الجو، ولا تبدو لك القبة السماوية والأفق من وراء أبنية المدينة. قصارى القول، إن حياتنا المعاصرة تختلف اختلافاً جذرياً عن الحياة التي عاشها أسلافنا الأوائل: البدائيون.

فقد عاشوا على ما كانت تقدمه الطبيعة لهم وحسب: كان الرجال يصيدون الوحوش البرية والأسماك؛ وكان الصيادون يعيشون زمنئذ في جنتهم الحقيقية. لأن الأرض تعج بوفرة من الماموث، ووحيد القرن، والثيران، والأيائل وكثرة كثيرة أخرى من الحيوانات التي بادت. كما كانت الأنهار، والبحيرات والأحواض المائية تعج بكثرة لا تحصى من الطيور المائية، والأسماك، ولم تكن البحار أقل ثراء بمختلف الحيوانات والأحياء البحرية. أما النساء والأطفال فقد كانوا يجمعون أنواعاً من النباتات، والجذور، والثمار، والفواكة، والأعشاب، والأوراق، والفطور، والزهور البرية الصالحة للأكل، كما كانوا يلتقطون مختلف الزواحف، والرخويات، والحيوانات الصغيرة، وبيض الطيور.

وفي سعيهم وراء الحيوانات، والنباتات والثمار الصالحة للاستهلاك، كانت الجماعات البشرية تنتقل من مكان لآخر، أي كانت تعيش حياة البداوة، ولذلك لم يبن الإنسان في تلك الحقب مساكن ثابتة. وحيث عاش أسلافنا الأوائل كان المناخ دافئاً، ولذلك اكتفوا ببعض السواتر التي كانت تقيهم من الرياح والأمطار. وقد بنوا مثل تلك السواتر من الأغصان، والأوراق، والقش. وكان كل ساترين نصف مستديرين يؤلفان كوخاً مستديراً، وكل ساترين طويلين مستقيمين يولفان «منزلاً» مستطيل الشكل.

كما لجأ الأوائل إلى السواتر الصخرية، والمغاور، والكهوف اتقاء الأمطار والرياح. وأخذ إنسان العصور الحجرية الأولى يقيم فيها عندما كان المناخ يتبدل تحت تأثير الامتدادات الجليدية. ومع أننا ندعو الإنسان البدائي بنبرة لا تخلو من الهزء، بإنسان الكهوف، إلا أن الكهف في واقع الحال مسكن مريح وملائم، إنه قصر حقيقي بنته الطبيعة لإنسان العصور الحجرية الأولى. فجدرانه السميكة الثابتة تحمي الإنسان من تقلبات المناخ، وحرارته في الداخل ثابتة. علاوة على هذا إنه دائماً ثمة في الكهف نفسه أو على مقربة منه مصدر مائي: جدول، أو بحيرة. ومن البدهي أن الإنسان لا يستطيع أن يصبر طويلاً على غياب الماء والقوت.

أما الملابس فلم تكن لهم بها حاجة في المناخ الدافئ، ولكنهم خاطوها في المناطق الباردة من جلود الحيوانات بابر من العظم، ولم ينسوا أن يصنعوا الحلي من القواقع، والحجر، والعظام، وبذور النباتات، والزهور، ثمّ بعدئذ من المعادن.

لقد اجتازت البشرية في مسيرة تقدمها ثلاثة عصور كبرى، ثلاثة تخوم مفصلية: العصر الحجري، والعصر النحاسي، والعصر البرونزي. وقد كان العصر الحجري أطول هذه العصور زمناً. كما كان مليئاً بأحداث ذات أهمية عظيمة كان لها آثار لا تمحى على حياة الجنس البشري كله؛ ولذلك كان هذا العصر بحق عصراً مدهشاً. ففيه تحققت كثرة من الابتكارات التي عرفها المجتمع لأول مرة في تاريخه: أول رمح، وأول سكين، وأوّل، وتر؛ وفيه أطلق أول سهم، وشيد أول منزل، وخيطت أول ملابس. وفيه أنشئت أُولى الأساطير التي روي لنا فيها عن هذا كله.

بطل الزمن البدائي



رسومات على الصخور

تمثل مشاهد صيد

إنها ترفع الحجاب عن أزمنة انصرمت منذ حقب، وتخدم كمصادر تاريخية مهمة.

لقد كان الصياد هو الشخصية الرئيسة في العصر الحجري. وكان الصيد واحداً من أقدم ميادين النشاط الاقتصادي التي عرفها الإنسان. ويعتقد أن هذا الميدان بالذات ساعد الإنسان على أن يتجاوز صعوبات طريق التطور التي قطعها حتى بلغ في آخر المطاف طور ظهور الإنسان العاقل. ويبدو أن بطل الزمن البدائي أولى اللهو اهتماماً خاصاً. وربما تكون الشعائر الإنسانية قد ظهرت من اللهو، من لهو الحيوانات. فلا يزال بعض الشعائر يشبه اللهو حتى يومنا هذا: الرقص والغناء بالحلقات، والرقص بالأقنعة والحفلات التنكرية. وحسب سلوك القردة، أن أسلاف الإنسان كانوا ميالين للهو طول العام، وقد كان لذاك الميل أهمية كبرى في عملية صيرورة الإنسان إنساناً. ولا شك في أن الشاعر الألماني فريدريك شيللر كان محقاً عندما قال: «لا يكون الإنسان إنساناً كاملاً إلا عندما يلهو». والحقيقة أن اللهو نشاط جدي جداً: لقد ساعد على تطوير اللغة، والرمزية، ومهد طريق الانتقال إلى العمل، وثمة ابتكارات كثيرة ابتكرها الناس للتسلية وهم يلهون.

ومن حيث التخصص كان أسلافنا الرجال صيادين، والنساء لاقطات. ونادراً ما كان الصياد يخرج إلى الصيد بمفرده. وغالباً ما كان الصيادون يجتمعون في مجموعات الأمر الذي يسر لهم تعقب الحيوان، وخداعه، وتنظيم مطاردته أو محاصرته. وبما أنهم لم يكونوا قد ابتكروا السلاح الناري بعد، فقد كانت عدة صيدهم تتألف من الهراوات الثقيلة، والرماح، والمزاريق، والحراب، والبوميرا نغي، والأقواس والسهام، والحجارة من مختلف الأشكال والأوزان. لقد كانت الطرائد دائماً على مقربة، وكانت زمنئذ تجوب الأرض قطعاناً كبيرة. وكان ينبغي على الصياد أن يكون شديد اليقظة والحذر، مع أنه كان على معرفة بعادات الحيوانات وخصائص سلوكها في مختلف فصول السنة، وكان يعرف قراءة كتاب الطبيعة معرفة جيدة. لقد كان الصياد البدائي خبيراً ماهراً باقتفاء آثار الحيوانات، إذ يكفي أن يترك أحدها شيئاً من صوفه على قشرة الشجرة، حتى يتمكن من أن يحدثك عن كل ما يتعلق به، بما في ذلك نوع الوجبة التي تناولها الحيوان صباحاً. كان

الصياد البدائي ماهراً مهارة خاصة في تنظيم صيد المطاردة وإدارته، وما يجدر قوله أن ذلك كان يتطلب من المعارف والقدرات ما لا يقل عما تتطلبه إدارة مصنع أو معهد. فالحيوانات السريعة العدو كالبيزون (= الثور الأمريكي. م) ، والظباء، والأفراس وسواها من الحيوانات التي تعدو بسرعة سيارة حديثة، لم يكن صيدها ممكناً إلا باستخدام إحدى خصوصيات سلوكها: عندما تعدو أمام الذي يطاردها فإن هذه الحيوانات ترسم نصف دائرة، ولذلك كان الصيادون يعدون إليها عرضاً ليقطعوا طريقها ويسوقوها منهكة تماماً إلى المكان المطلوب. وعندما كان الصياد يقتل الحيوان كان يحاول تدمير المواضع الحساسة في جسده؛ ويبدو أنهم كانوا يعرفون جيداً كم عددها وأين تتوضع. ويعرف صيادو الفيلة المعاصرون حوالي العشرين من هذه المواضع، ولم يعرف القدماء عدداً أقل، بل ربما كانوا يعرفون منها عدداً أكبر.

إذن يجب أن لا نتخيل الصياد البدائي متوحشاً أو شبه حيوان يرتعد فرقاً أمام قوى الطبيعة الغاشمة. فقد كان هذا من سكان الكون المحنكين، الذي امتلك كل إمكانات التوجه في العالم المحيط به. لقد كان الصياد البدائي حاضر البديهة، حاد الذهن، فطناً، ومبتكراً. ونحن في آخر المطاف مدينون له بكل أشيائنا، وتقنياتنا المتطورة التي تستمد أصولها الأولى من نجاحاته البدئية وتعتمد على تجاربه التي استمرت آلاف السنين. فهو الذي ابتكر العتلة (= الذراع)، والعجلة، والمثقب وكثيراً من الاختراعات الأخرى التي كان من المستحيل على أي آلية من آلياتنا المعاصرة أن تعمل بدونها.

ففي ذلك الزمن السحيق ارسيت قواعد كثير من العلوم. ألم يكن الإنسان القديم في واقع الحال جيولوجياً مجرباً؟ على امتداد ملايين السنين تعلم الناس أن يعثروا على أنواع الحجارة اللازمة لصناعة أدوات العمل والأسلحة، وامتلكوا فنون تصنيفها. أو لم يتوصل البدائيون إلى معرفة أسس علمي الأحياء والتشريح عندما درسوا في أثناء الصيد سلوك الحيوانات الكبيرة منها والصغيرة دراسة دقيقة، وعندما كانوا يقطعون أجساد الطرائد؟ وكم من أنواع الحيوانات، والأسماك، والنباتات عرفوا! لقد كان أسلافنا رحالة شجعاناً أيضاً. أو لم يبدأوا يراكمون مختلف ضروب المعارف الجغرافية أثناء استيطانهم أراض جديدة وامتلاكهم مناطق بكر لم يطرقها أحد قبلهم؟ ومن المفيد أن نشير إلى أنهم هم أول من اكتشف الجزر الأولى، والقارات كلها بما فيها أمريكا.

وأخيراً لا نقول جديداً إذا قلنا أن إنسان العصر الحجري أتقن قراءة صفحة السماء المزروعة بالنجوم، وتفكر في قانونيات الرياضيات والهندسة وأدرك كنهها. فبمعرفتهم أطوار نضج الثمار والغلال، ورصدهم لسلوك الحيوانات، ربط البدائيون تبدل اللوحات في حياة الطبيعة بأطوار دورة الشمس والقمر، وإيقاعات حركة مجموعات النجوم على صفحة السماء. وهكذا ظهرت التقاويم الأولى التي صنعوها من العظام والقرون، ولم تكن تلك التقاويم تشبه تقاويمنا المعلقة على الجدران والموضوعة على المكاتب. قصارى القول، إن الجزء الأعمق والأكثر رسوخاً من أساس ثقافتنا كان قد أرسي زمئنذ بالذات، أي في العصر الحجري. وقد انعكست تلك الثقافة انعكاساً ساطعاً في الأساطير.

الإنسان و الوحش



لوحات جدارية من تاسيللي - آجر

لقد أشتهر امتداد تاسيللي - آجر الجبلي بصفته أكبر مجمَع للوحات المرسومة على الصخر في إقليم الصحراء العظمى. فقد حفروا على الصخور هنا صور الحيوانات التي لم يعد لها وجود في تلك المناطق الخالية من المياه منذ آلاف السنين. وتتمة حضور لآثار الفن الصخري في القارات كلها، ولكن «متاحف» لوحات ما قبل التاريخ الطبيعية تلك، لم تبق لنا إلا في إقليم الصحراء الكبرى وبعض أقاليم أفريقيا الأخرى.

لقد اندغمت الطبيعة بالوحش بالنسبة للصيادين البدائيين. ولذلك كان هذا الأخير نفسه الشخصية الرئيسة في كثير من أقدم الأساطير والطقوس. فكانت طقوس الصيد السحرية الأولى تقام لكي يكون الصيد وفيراً، ولكي تتكاثر تلك الحيوانات التي شكلت مصدر قوت الإنسان وتثمر. في تلك الحقب كان الإنسان يكرس كل جهده ومسعاه ليقيم علاقات طبيعية متوازنة مع الطبيعة، مع الأرض المطعمة التي يجوب أرجاءها. وكانت علاقات الناس مع مملكتي النبات والحيوان تتحقق دورياً أثناء إقامة الطقوس، لذلك كان لهذه الأخيرة أهمية حيوية، لأن رخاء الناس كان يرتبط بها. ولم يساور الشك أحداً في أهمية تلك الصلات؛ فأسسها كانت راسخة في تصوراتهم ومعتقداتهم عن التفاعل الوثيق بين الصيادين والحيوانات، وبين اللا قطات والنباتات، وعبر هؤلاء كلهم مع الطبيعة المحيطة كلها.

واصطلح على تسمية هذه الرؤية للعالم بالطوطمية. وقد اقتبست هذه الكلمة من لغة الهنود الحمر الأمريكيين من قبائل الأجيبوي: «أوت- اوتيم» (= «ot- otem»)، ومعناها هو «عشيرته». وقد ترددت هذه الكلمة لأول مرة في أوروبا في أواخر القرن ١٩ م. ففي ذلك الوقت بالذات أصدر الرحالة جون لينغ كتابه: «رحلات المترجم والتاجر الهندي وأسفاره»، وروى فيه روايات عن طواطم قبيلة الهنود الحمر الأمريكيين الشماليين الاجيبوي. والطوطمية ظاهرة شديدة التعقيد لا يزال علماء العالم يعملون حتى الآن على سبر متاهاتها. لكن الأمر المهم بالنسبة إلينا، هو أن الطوطمية بسماتها العريضة، هي نظرة خاصة تجاه العالم ترى أن الإنسان ومجتمعه جزء لا يتجزأ من الطبيعة.

فالأوبوريغين الاستراليون يرون مثلاً، أن النباتات، والحيوانات، والبشر لم تكن لهم في «أزمنة الأحلام» التي كانت قبل بدء البدايات، الأشكال التي يتسمون بها الآن. لقد كان بمقدورهم أن يتخذوا أي صورة يريدونها ثم يبدّلونها متى شاؤوا لأنهم كانوا يمتلكون جوهراً حيوياً مشتركاً، وكان هذا هو عينه لدى البشر، ولدى الحيوانات التي يصيدونها، ولدى الشجر الذي يجمعون أوراقه، ولدى النجوم التي تضيء في السماء. ويبدأ كثير من أساطير الاستراليين هكذا: «لقد حدث هذا في الزمن الذي كانت لا تزال الوحوش فيه بشراً...».

فالاوبوسوم مثلاً كان بإمكانه أن يظهر اوبوسوماً عادياً، أو إنساناً إذا شاء ذلك، بل كان يمكنه وهو يتحول إلى إنسان أن يقف في منتصف الطريق ويبقى نصفه وحش ونصفه إنسان. وفي الزمن الميثولوجي كان مثل هذا الاندغام بين الإنسان والحيوان والنبات يشكل الأساس الراسخ للتقارب بينهم في الواقع. وهكذا أقامت الطوطمية تواصلاً بين البدائيين والماضي، وبينهم وبين أرضهم الأم والظاهرات الطبيعية كلها.

لقد كانت العلاقات بين الناس والطبيعة شديدة التوتر. وللمثال فقط يكفي أن نلقي نظرة على التقويم الأليوتي القديم لنقرأ فيه أسماء الأشهر: شهر آذار يدعى فيه «الوقت الذي ترغمهم الحاجة على ابتلاع الأحزمة» ؛ وشهر نيسان: «يلتهمون الأحزمة لآخر مرة». ولذلك ليس غريباً أن شاع لدى الصيادين كلهم الاعتقاد بالبخت الصيدي السعيد. وقد اعتقدوا أن هذا الأخير كامن في مختلف أقسام أدوات الصيد، أو في أجزاء معينة من جسم الحيوان. فالدولغان السيبيريون ظنوا أن حظ صيد الأيل البري كامن في رأسه، ولذلك لم يكن الصياد يتخلى عن هذا الرأس لأي كان. وفي الأزمنة الماضية عندما كان الصيادون يبيعون جلود الثعالب كانوا يقطعون أنوفها ويحتفظون بها عندهم مشبوكة بخيط، ظناً منهم أن حظ صيدها كامن في أنوفها.

لقد كان لكل صياد بدائي طوطمه، ولكل لاقطة بدائية طوطمها، وربما كان لكل منهما أكثر من طوطم. ومن الوجهة العلمية كان يمكن أن يكون الطوطم أي ظاهرة من ظاهرات الطبيعة: الشمس، أو القمر، أو الريح، أو المطر، أو حتى ابتسامة طفل، أو.. ومن البدهي أيضاً أن الطوطم كان يمكن أن يكون أي حيوان، أو نبات. لقد كان الطوطم بالنسبة إليهم الجد الأول، والحارس، والنسيب الأكبر؛ وكانت الصلات بينه وبين العشيرة البشرية معقدة ومتشعبة. فقد كان يمكن للطوطم أن يؤدي دور المعين مثلاً. وإذا كان أحدهم يحسن الغناء أو مداواة الآخرين، فإنه لن يتفاخر أو يتباهى، بهذا يوماً، وإنما سيقول إن طوطمه هو من علمه ذلك. وكان للنساء طواطمهن، وللرجال طواطمهم، ولأجزاء معينة من القبيلة، أو أقسام من الأرض طواطمها الخاصة. كما كان ثمة طواطم للأحلام، تأتي الشخص في أحلامه أو تظهر في أحلام الآخرين. وكان يمكنها أن تتخذ صورة أي حيوان أو ظاهرة طبيعية. وبعد ذلك كان الشخص يؤمن أن ارتباطه بهذا الطوطم عينه أقوى من ارتباطه بأي شيء آخر.

وانعكس التماثل بين الإنسان والطوطم في علاقات خاصة تمثلت قبل كل شيء في تحريم قتل الطوطم وأكل لحمه. ولكن من جهة أخرى كان من الضروري أكل شيء من لحم الطوطم أثناء إقامة بعض الطقوس، لترسيخ الصلة السحرية معه. ووصل الطوطم الناس

بعالم الأساطير، «بزمن الأحلام»، وعالم الأسلاف. وبهذه الصورة امتد العالم أمام الإنسان البدائي دائرة مترامية من صلات القرابة والنسب التي كانت تربطه بها كلها أواصر راسخة.

ولا تزال الطوطمية حاضرة حتى يومنا هذا عند بعض الشعوب: عند الاستراليين على سبيل المثال، ولذلك اشتهر غير قليل من الأساطير الطوطمية، على الرغم من قدمها الزمني. ويروي أكثر هذه الأساطير عن ترحال الكائنات الأسطورية، الأسلاف الأوائل في أرجاء الأرض إبان «أزمنة الأحلام» البعيدة. وقد اجترح هؤلاء في طريقهم مختلف البطولات وأدوا مختلف الأعمال: شقوا مجاري الأنهار والجداول وملؤوها بالأسماك، وأدخلوا النار ميدان الاستخدام، وصنعوا البشر، وأعطوهم العصاة الحافرة، وأحزمة الريش وغيرها من أشياء الزينة، وسلحوهم بالأسلحة، وعلموهم الطقوس والمراسم السحرية الضرورية.

لقد كان الأسلاف يتوقفون في الطريق: إما ليولموا وليمة، أو لكي يقيموا طقساً ما. وبعد أن يأخذ الإنهاك منهم كلّ مأخذ في آخر الطريق، ينزلون تحت الأرض، أو يتحوّلون إلى صخور، أو مياه، أو حجارة وما شابه ذلك من أشياء الطبيعة وظاهراتها. وأثناء الترحال كان هؤلاء يسلكون على وجه العموم سلوك البشر، لكنّ تصرفاتهم كانت تفضي إلى نتائج بعيدة وغير متوقعة: المحارة ترمي القرش بالبوميرانغ فتظهر لهذا الأخير زعانف؛ وبعد عراك حامي الوطيس بات رأس الضفدع مسطحاً وبقي كذلك إلى الأبد؛ وأشعل الشغف الجنسي للديما حريقاً هائلاً لفحت ناره ساقيّ اللقلق وجناحيه فاسودّ لونها ولا يزال على حاله حتى الآن.

ودعي هؤلاء الأسلاف الطواطم عند مختلف الشعوب بأسماء شتّى. ونقف عند الاستراليين وحدهم على كثرة من مثل هذه الأسماء يصعب عرضها: قبيلة مونكان تدعوهم «البولفاي»، وقبيلة ديبري تدعوهم «مورا- مورا»، وتدعوهم قبيلة ماريند- أنيم «ديما»، و... ولكن كائنة ما كانت الأسماء التي دعي هؤلاء بها، فقد كان بمقدورهم أن يتخذوا أيّ مظهر يريدون، ولذلك فإن الأساطير الطوطمية هي عالم من التحوّلات التي لا نهاية لها.

ففي أسطورة القبيلة الاسترالية ماريند- أنيم يتحوّل الديما- اللقلق إلى فتى، ثم يتحوّل ثانية إلى لقلق: «عندما كان في النهر غطّى الريش يدي الفتى، وتطاول أنفه كالمنقار، وصارت قدماه دقيقتين، ثمّ تحوّل إلى لقلق». لقد كانت الحدود بين الإنسان والحيوانات مفتوحة، ولا نستطيع أن نميّز دائماً عمّن يجري الحديث: عن الإنسان أم عن الحيوان. أحياناً ما يكون البشر وحوشاً وقتذاك، وأحياناً ثالثة نصادف كائنات «بشرية وحشية»، كما عند الهنود الحمر في أمريكا الشمالية. فما إن يخلع الطير «ملابسه» حتى يتحوّل إلى إنسان؛ وإذ يرتدي الإنسان فراء يتحوّل إلى دبّ. ويكفي أن يتزيّن الرجال بأي زينة حتى يتحوّلوا إلى طيور

وحيدة القرن؛ وتحطّ الطير على الشجرة فتتحوّل إلى زهور. يضاف إلى هذا كلّه أن بعض أعضاء جسم الإنسان يسلك سلوكاً مستقلاً عن الأعضاء الأخرى كأنه كائنات قائمة بذاتها، كما أدوات العمل مثلاً أو أي موادّ أخرى. ولكن هذه التحوّلات المدهشة التي تبدو للوهلة الأولى غير منطقية، تقف وراءها منظومات شاملة من تصنيفات شتى الظاهرات الطبيعية والاجتماعية، وكذلك إدراك حقائق أهم مواقف الحياة إدراكاً رمزياً مجازياً.

لقد كانت الأساطير والطقوس الطوطمية ترتبط كلّها تقريباً بقطاعات محددة من المكان. وكان كلّ من القطاعات المعنية يتميّز بميزة ما: صخرة شكلها غريب، أو شجرة مثنية بشكل غير مألوف، أو مصدر مائي، أو ما شابه. وبما أن معتقدات الاستراليين ترى أن التكوين الطبيعي كلّه من صنع الأسلاف الطواطم أثناء ارتحالهم، لذلك كانت القارّة كلّها مغطاة بشبكة من «الدروب» المقدّسة، ورأوا أن عناصر المكان كلّها مقدّسة.

فأسطورة السلف القديم نغورونديري على سبيل المثال تقول: بينما كان هذا يبحر يوماً في نهر مورّيه على متن قاربه المصنوع من لحاء الشجر، طارد سمكة قدْ عملاقة. ولمّا كانت السمكة تحاول التخلّص من تلك المطاردة لتنجو بحياتها، كانت تضرب الماء بذيلها فاتسع مجرى النهر إلى حدوده الحالية. وعندما أنهكت المطاردة نغورونديري وتوقف ليأخذ قسطاً من الراحة، دخلت السمكة مياه البحيرة. عندئذٍ تذكّر نغورونديري نيبيل شقيق زوجته وأخذ يناديه بأعلى صوته ليدرك السمكة. ولمّا وصلت هذه إلى نيبيل طعنها بالرمح وتركها في مكان مياهه ضحلة. وإذ وصل نغورونديري إلى القدّ أخذ يقطعها قطعاً ويرميها في الماء مانحاً كلاً منها اسم السمكة التي يجب أن تصيره. وعندما رمى القطعة الأخيرة قال: «ابقي قدّ نهر مورّيه!». وهكذا امتلأ النهر بمختلف أنواع السمك.

ثم واصل نغورونديري إبحاره حيث كانت تنتظره مغامرات أخرى. وكان كلّ منها يرتبط بعنصر من عناصر تكوين المكان: حوّل إنسانين إلى طيرين أزرقين مغنيين، ورفع قاربه إلى السماء حيث تحوّل هناك إلى مجموعة درب اللبن؛ وفي المكان الذي انحنى عنده ليشرب الماء، تشكّلت صخرة؛ وارتفعت الجبال في المكان الذي قذف رمحه إليه. وعلى هذا المنوال عينه فسّروا التكوين الطبيعي المحيط بهم، فهو في الأسطورة نتيجة للنشاط اليومي الذي كان يقوم به الأسلاف الميثولوجيين.

لقد صوّر الاستراليون في طقوسهم مشاهد من حياة أسلافهم الطواطم. وهو ما روته أساطيرهم، وكرر الناس الأحداث التي وقعت في «زمن الأحلام». وكان بعض الطقوس يمتد أكثر من شهر واحد. وغالباً ما كانت تلك الطقوس تكرّس لحيوانات: البانديكوت،

والولابي، والكنغر؛ كما كرسوها لنباتات وزهور وسوى ذلك من موجودات العالم الطبيعي. وفي أثناء إقامة تلك الطقوس كانت الناس تقلّد الحيوانات، وتتقنّع بأقنعتها، أو ترسم صوراً رمزية للزهور، والنباتات، والشجر التي اجتمعوا من أجلها.

وارتبطت بعبادة الطواطم أيضاً طقوس التكاثر التي عرفها اوبوريغين أستراليا كلهم. وكان الغرض من إقامة هذه الأخيرة ضمان الكمّ الكافي من الحيوانات أو النباتات التي ربط أتباع الطوطم المعني أنفسهم بها. فيروى في واحدة من الأساطير مثلاً، عن المرأة- الطير البني اللون. ففي «أزمنة الأحلام» كانت هذه تجمع الثعابين في جراب من الجلد. فامتلأ الجراب وتمزّق وخرجت الثعابين منه؛ وفرّت المرأة- الطير البنّي هاربة. وتشكلت في المكان الذي سقط الجراب فيه هوّة، وتحوّلت الثعابين إلى حجارة كبيرة وكثرة من الحجارة الصغيرة المبعثرة في المكان.

وتأتي إلى هذا المكان النسوة اللواتي تعد المرأة- الطير البنّي طوطمهن المقدّس، وتكررن حركات الأمّ الأولى الميثولوجية. ويعتقد هؤلاء النسوة أنهنّ بطقسهن هذا يخفن أرواح الثعابين. فتعدو هذه الأخيرة هاربة وتدخل في الثعابين الأمهات اللواتي يلدن بعد ذلك ذريّة كثيرة.

ومن أهمّ الطقوس التي يؤدّيها الاستراليون، طقس استعراض التشورينغ، وهي أدوات مقدّسة مصنوعة من الحجر أو الخشب. فبهذه الأخيرة تتحد أرواح أسلاف القبيلة وأفرادها الذين على قيد الحياة. والتشورينغات هي بمثابة الصنو لكلّ منهم، هي صور مقدّسة. والإيمان بصلة التشورينغ بالإنسان قويّ إلى درجة أنه إذا ما أصاب التشورينغ ضرر أو تلف كان الشخص المعني يقع مريضاً. وغالباً ما كانت التشورينغات تحمل رموزاً تصوّر أعمال الأبطال الميثولوجيين والأسلاف الطواطم. وكانت التشورينغات تحفظ عادة في مكان مقدّس، بعيداً عن العين، ولم يكن الفتيان يرونها إلا أثناء طقس التكريس.

ومن الرموز المقدّسة الأخرى، مشاهد منقوشة أو ملوّنة مرسومة على الأرض تذكّرنا باللابيرينتيوم (التيه. م». وكانوا يرسمونها عادة للطقوس الطوطمية، ولكن رسمها كان بحدّ ذاته جزءاً من طقس معقّد.

وما يثير الاهتمام أن رواسب الطوطمية لا تزال موجودة حتى يومنا هذا في مناطق شتّى من العالم عند بعض الشعوب الصغيرة التي لا تزال تمارس الصيد واللقط. فالبيرهوريون الذين يعيشون في مقاطعة بيهار في الهند، يبجلون إله القردة، وإله الذئاب، وإله النمور، وإله الدببة. وتحمل عشائرهم أسماء طيور، وأسماك، وحيوانات، ومعادن، و... ولا تزال تحفظ في قرى الاوراونيين الذين يعيشون في المقاطعة عينها، الشعارات العشيرية الشبهية التي تمثّل الحيوانات الطوطمية.



بيس

راعي العائلة والأمومة

وهو الحافظ من قوى الشر في مصر القديمة.

يشبه هذا القزم المشوه الوحش بعض الشيء والإنسان بعضه الآخر. وقد عثر على حجب في صورة بيس منتشرة في كثير من مواقع المستوطنات القديمة، بما فيها مستوطنات في الأورال، وسيبيريا، وآسيا الوسطى وشمالي البحر الأسود.

على أغلب الظن أن اللغات القديمة لم تعرف في الأول أسماء خاصة بالحيوانات، بما فيها تلك التي كانوا يصيدونها. فقد أطلقوا عليها تسمية عادية بسيطة: «الوحش-الطريدة». وعرفوا منها «الوحش- الطريدة الطائر»، و «الوحش-الطريدة الذي يعوم في الماء»، و... ويطلق الايفينكيون الذين يعيشون في سيبيريا كلمة «بييون» على الحيوان الكبير والحيوان الصغير. فلم يكن مهماً بالنسبة للصياد أن يفرّق بين الوحوش، بل الجمع بينها بما يجعلها ذات نفع بالنسبة للإنسان: أن تكون طريدة.

لقد رأى الصيادون البدائيون في الحيوانات، بل في سكان مملكة الطبيعة كلّهم، كائنات تشبه الإنسان في كلّ شيء. وعدّوها تشبهه حتى في المظهر الخارجي، ونمط العيش، وتفهم لغته أيضاً. ويبدو أن هذه المعتقدات كانت راسخة جداً. فمنذ زمن قريب نسبياً كان فلاحو ارخانغلسك يقولون: «النمل حكيم، وهبت له نعمة فهم اللغات كلّها إلاّ لغته هو، لأنه كثير الصمت والاستماع». وقد ارتبطت بهذه المعتقدات عند كثير من الشعوب مختلف محرّمات الصيد، مثلاً: تحريم النطق باسم الحيوان الذي يذهبون لصيده.

كان الدبّ هو الطريدة الرئيسة عند كثير من شعوب الشطر الشمالي من الكرة الأرضية. أفلا يشبه هذا الحيوان الإنسان؟ فجسده يذكر بجسم الإنسان بشيء ما: يقف ثابتاً على طرفيه الخلفيين، بل تشبه آثار أخفافه الآثار البشرية، أما جثته المسلوخة فهي تذكّرنا كثيراً بشكل الجسد النسائي ولذلك عدّه بعض شعوب سيبيريا، كالنفهيين مثلاً، كائناً بشرياً جبلياً خاصاً يرتدي بين الحين والآخر إهاب وحش وينزل إلى عالم البشر. وقد أطلقوا عليه أسماء مثل: «الجدّ»، و «قريبنا الشيخ»، و «الأخ الأكبر»، و «عمّنا المفضّل»، و «ابن العمّ»، أي بما كانوا ينادون به أقاربهم.

وتروي واحدة من أساطير النفهيين ان صياداً ضلّ طريقه يوماً، وإذ رأى آثار دبّ أراد أن يقتله. فمشى طويلاً إلى أن وصل إلى وجر الدب.

حاول الصياد أن يخرج الدب من هناك بالرمح، ثم بشجيرة شربين ساقطة، لكنّ الوجر كان عميقاً جداً. فدخل الصياد الوجر وسار فيه حتى وصل إلى منطقة مضيئة وعلى مقربة منها مسكن بشري يعجّ بالناس، وقد تعامل هؤلاء معه بودّ ظاهر.

وهنا عرف الصياد أن مختلف عشائر النفهيين ترسل ضيافة منتظمة من الحساء، والرزّ، والتبغ إلى مختلف قرى هؤلاء «البشر- الأرواح الجبلية»، كما يرسلون إليها الكلاب التي يقدّمونها ذبائح.

لقد قدّم له مضيفوه اللحم، وكانت عندهم منه كمية وافية، وقالوا له، إنهم لن يقدّموا له أي طعام من المواد التي تأتيهم من الأرض «السفلى» أي من أرض النفهيين، لأن ذلك يعدّ إثماً.

مع حلول الربيع كان سكان المسكن ينتظرون مجيء سكان الأرض السفلى. وقد اقترحوا على واحد من صغارهم الذي لم يكن يسمح له أن يُضاف من قبل، أن يخرج إلى الناس، فرفض لأنه خاف الألم: لقد قال، إن البشر سيدوّرون الرمح في جوفه.

عندئذٍ أخذت زوجة أخيه الأكبر إهاباً فارتدته وتحوّلت إلى دبّة. ونزلت إلى مخرج الوجر وطرقت أطرافه، وعندما استعدّ النفهيون برماحهم خرجت إليهم. فأخذوا يطعنونها، لكنّ رماح بعضهم تكسّرت، وظهر أن الدبّة صلبة. عندئذٍ أمرها زوجها من الوجر أن تستسلم، ففعلت.

فقتلوها ثم قطعوها وشووا لحمها وأكلوا.

وبطريقة ما رأى البطل هذا المشهد، وفكّر في نفسه: إن الدبّ إنسان أيضاً وإن النفهيين يأكلون لحم بشر يشبهونهم. وبعد أربعة أيام صعدت تلك المرأة إلى الجبل ومعها كلاب وصرّة كبيرة. وشرحت الأمر للبطل قائلة: إنه لم يضلّ طريقه، لكن سكان الجبل توّهوه عن عمد لكي يأتي إليهم ويطلع على شرائعهم. وقالت: على الرغم من كونهم دببة، سكان جبل، ولكن يجب ألاّ يعدّوا بشراً مغايرين.

ودعت الرجال إخوته الكبار، ونفسها زوجته. وأمرته أن يهبط إلى قريته ويروي كلّ ما رآه. ومنذئذٍ عرف الناس أن «الدبّ إنسان جبليّ»، وأن لكلّ عشيرة بشرية عشيرتها الصنو من ناس الجبال. ومن تلك الأثناء صار البطل إلى صياد طرائده وفيرة دوماً.

ما هو مغزى هذه الأسطورة؟

لقد بيّنت الأسطورة:

أولاً، من هي الدببة.

وثانياً، لماذا ابتسم الحظ للبطل.

كما شرحت الأسطورة الطابع الطوعي لعلاقات التبادل بين عالم البشر وعالم الحيوان.

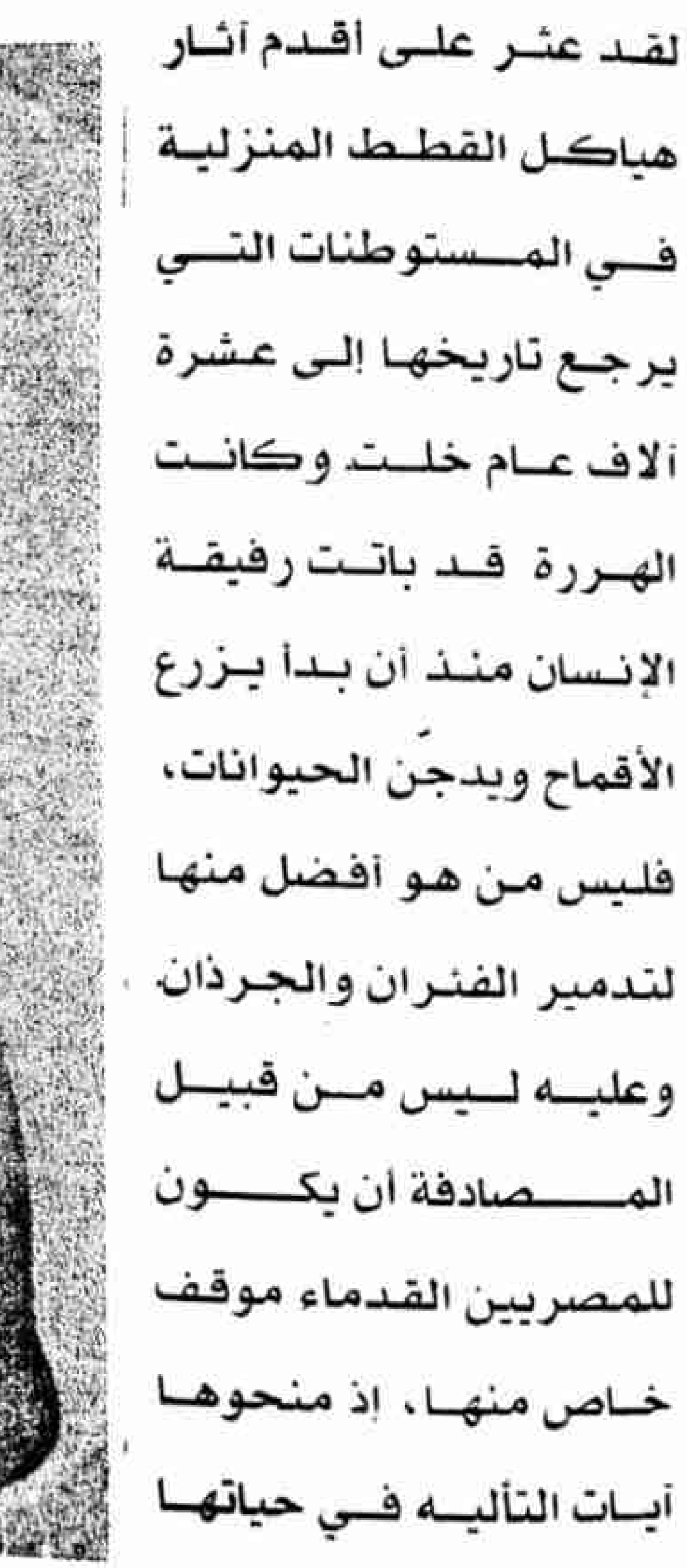
الباب الثالث

في حضرة الإله الصّارم

أولى الثورات

باستيت، إلهة المرح المصرية القديمة، رسموها في صورة هرّة.





لقد عثر على أقدم آثار هياكل القطط المنزلية في المستوطنات التي يرجع تاريخها إلى عشرة آلاف عام خلت وكانت الهررة قد باتت رفيقة الإنسان منذ أن بدأ يزرع الأقماح ويدجّن الحيوانات، فليس من هو أفضل منها لتدمير الفئران والجرذان وعليه ليس من قبيل المصادفة أن يكون للمصريين القدماء موقف خاص منها، إذ منحوها آيات التأليه في حياتها وبعد موتها.

... في تلك الأزمنة لم يكن الناس يعرفون الرزّ. كانوا يقتاتون بثمار شجر الغابات، والجذور، والسمك، والطرائد. ولم يكن الناس وقتذاك يعرفون حراثة الأرض وتربية القطعان. وعندما كان المكان الذي يقيمون فيه يخلو من الجذور أو الثمر، ويتعذر فيه صيد الأسماك أو قتل وحش، كانوا يتركونه وينتقلون إلى مكان آخر. لقد كانوا يعيشون عيشة راضية. فبينما الرجال والكلاب يصيدون في الغابة، كانت النساء والأطفال يصيدون الأسماك، ويجمعون الثمر، أو يطاردون الطرائد بالقوس والسهام. وكان كلّ ما يُحصل عليه يوزّع على جميعهم.

ولكن حدث يوماً أن هام عدد من الصيادين في الجبال بينما كانوا يطاردون خنزيراً بريّاً. ولمّا أخذ التعب منهم كلّ مأخذ قرروا أن يأخذوا قسطاً من الراحة في ظل شجرة كبيرة. وفي تلك الأثناء كانت الشمس قد ارتفعت حتى بلغت كبد السماء، وأحس الصيادون بشيء من الجوع. وقبل أن يجف عرق أجسادهم، إذا بجماعة من الرجال والنساء يهبطون إليهم من قمة الجبل. لقد كان هؤلاء مختلفين: وجوههم جميلة وقيافتهم فيها كبرياء، ويشع النور منهم. فأحس الصيادون بالوجل، وسرعان ما أدركوا إن القادمين آلهة يقيمون على الجبل. فنهضوا وحيوهم باحترام. وأعجب الآلهة بذلك؛ ودعوا الصيادين إلى وليمة يولمونها.

ورأى الصيادون فوق على القمة كيف يعد خدم الآلهة الطعام، ورغبوا في مساعدتهم. فقطعوا الطرائد التي كانت معهم ورموا القطع كومة في النار. عندئذ تقدم أحد الآلهة منهم، وتناول عوداً من الخيزران وراح يغرز قطع اللحم فيه واحدة إثر الأخرى وأرى الصيادين كيف يجب شيّها.

وبعد ذلك رأى الصيادون أن الخدم يأخذون كعوب الخيزران من النار ويكسرونها لتنسكب منها حبوب بيضاء. فوضعوا هذه الحبوب على أوراق الموز المفروشة على طاولة من الخيزران. ثم وضع خدم الآلهة إلى جانب كل كومة من الحبوب قطعاً من اللحم المشوي على

عيدان الخيزران، إضافة إلى بعض الجذور والثمار، وبعض الأواني الخيزرانية التي كانت مليئة بخمرة الآلهة.

ولما رأى الصيادون الحبوب البيضاء قالوا: «نحن لا ناكل الديدان!». فابتسم الآلهة وأجابوا: «ليست هذه الحبوب البيضاء ديداناً. هذا رز حبوب نباتية نزرعها هنا». وقال أحد الآلهة: «جربوا طعام الآلهة، وبعد ذلك قرروا ما إذا كنتم ستأكلون الرز أو لا!» فتذوق الناس الحبوب الصغيرة وأعجبهم طعمها كثيراً.

وأعطى الآلهة كلا من الصيادين كيساً من الحبوب الذهبية، وقالوا لهم: «هذا رز غير مقشور. ضعوا عدداً من الأكياس في الجرن ودقوه بالمدقه وذروه جيداً. ثم اغسلوا الرز المدقوق وضعوه في قدور من الخيزران، وصبوا الماء فوقه ودعوه يغلي إلى أن يغدو الرز ليناً كالرز الذي أكلتم عندنا هنا. وعندما يأكل المرضى من الرز تتحسن حالهم، ويفرح به أهلكم. وأما ما يبقى من الحبوب فازرعوه في تربة معزوقة عندما يهطل المطر، واجمعوا محصولكم في فصل الصيف. وابذلوا جهدكم كي تجمعوا المحصول كله حتى آخر حبة، وليرَ أصدقاؤكم الحبوب ويعزقوا الأرض ويزرعوا الرز فيها. وإذا ما نجحتم في هذا كله فإن حياتكم ستغدو أكثر هناءة واستقراراً، وستتمكنون من العيش في مكان واحد. ومن ذلك الحين بدأ الناس يعزقون الأرض، ويربون الماشية، ويبنون المساكن..

وتروي الأسطورة التي دونها الاثنوغرافيون عن شعب الايفوغاو الذي يعيش في الفيلبين، قصة أول ثورة عرفها تاريخنا. وكانت قد وقعت منذ ١٠- ١٢ ألف عام خلت، وأثرت على كل الجنس البشري الذي كان يستوطن المعمورة القديمة. وقد بدأ كل شيء في الأماكن التي تقوم عليها الآن تركيا، وإيران، والعراق، وسوريا، وفلسطين؛ هنا زرع البطل البدائي الذي تعرفنا عليه سابقاً، أوّل سنبلة، ثم حصدها وأخذ يخبز الخبز. فعند ذلك الوقت كان لقطة العصر الحجري قد راكموا تجربة عمرها آلاف السنين في التعرف على النباتات. إذ كانوا يجمعون حبوب الغلال البرية: الرز، والقمح، والشعير، والشوفان، وعرفوا أوقات نضجها. وكانت البدائيات تخبزن من هذه الحبوب أرغفة طيبة الطعم ومغذية. وربما كن يطبخن أيضاً وجبة من تلك الوجبات التي نعرفها اليوم معرفة جيدة: العصيدة. ولتسخين الماء كن يرمين حجارة محماة على النار في حفر مغطاة بجلود الحيوانات، أو في قدور خشبية أو مجدولة مليئة

بالماء. وكانت طريقة «الطبخ بالحجارة» هذه معروفة منذ القدم عند بعض قبائل الهنود الحمر الأمريكيين على سبيل المثال.

لقد كانت اللا قطات البدائيات على معرفة واسعة بخصائص نمو الغلال البرية، وكانت هؤلاء تمتلكن تجربة غنية ومستوى عالياً من دقة الملاحظة، ولذلك سرعان ما لاحظن أن النباتات التي تقتلع من حولها الأعشاب والنباتات الضارة تنمو أسرع وأفضل، وأنه يمكنهن بذر الحبوب بأنفسهن وعدم انتظار الريح أو الطيور لتفعل ذلك. وهكذا تعلم البشر زراعة الغلال بأنفسهم. وقد ارتبطت زراعة بعضها بالإنسان ارتباطاً وثيقاً جداً جعلها تفقد إمكانية نموها من غير مساعدته. وفي العصر الحجري بالذات بدأ الناس يزرعون ويعملون بالزراعة. وكان ذلك التحول تحولاً ثورياً له أهميته التاريخية الفائقة.

ولكن ذلك التحول لم ينته مع الانتقال إلى العمل الزراعي: لقد روض البشر الحيوانات البرية أيضاً. ويبدو أن الأمر قد وقع هكذا: عندما كان يحل الجفاف في الأماكن التي يقيم الناس فيها، كانت الحيوانات تتجه شمالاً باحثة عن الماء ويندفع الناس في أثرها. فتجمعت نتيجة لذلك أعداد كبيرة من الحيوانات والبشر عند المجمعات المائية، ويبدو أن هذا التعايش جعل الحيوانات تعتاد الإنسان رويداً رويداً، وبدوره أخذ الإنسان يحمي الحيوانات العاشبة من أذى الكواسر.

وفي أماكن أخرى لم يكن الصيادون يقتلون الحيوانات كلها، بل يلتقطون صغارها ويمسكونها عندهم في حظائر ويطعمونها؛ فاستأنست الحيوانات بهم وصارت إلى حيوانات منزلية. وكان ذلك ملائماً جداً للإنسان: إذا ما كان الصيد غير موفق، فتحت يده احتياطي من اللحوم الحية. ولا يزال هذا ديدن بعض شعوب آسيا، وأفريقيا، وأمريكا، واستراليا.

كما اعتادت على وجود الإنسان تلك الحيوانات البرّية التي كانت تجد قوتها على مقربة من قرى الفلاحين: الخنازير، والبط، و... لقد جرى تدجين مختلف الحيوانات في أزمنة مختلفة باختلاف أقاليم الكرة الأرضية. ففي غربي آسيا مثلاً دجنت الماعز والأغنام في وقت مبكر جداً، ودجنت الخيل في أوروبا الشرقية بعد ذلك ببعض الوقت، ودجن الجمل في شبه جزيرة العرب في الوقت نفسه تقريباً، ثم دجنت اللاما في أمريكا. وهكذا

مع مرور الزمن ظهرت الحيوانات المنزلية. وكان أولها الكلب، والهر، والشاة، والمعزى، والبقرة، والخنزير.

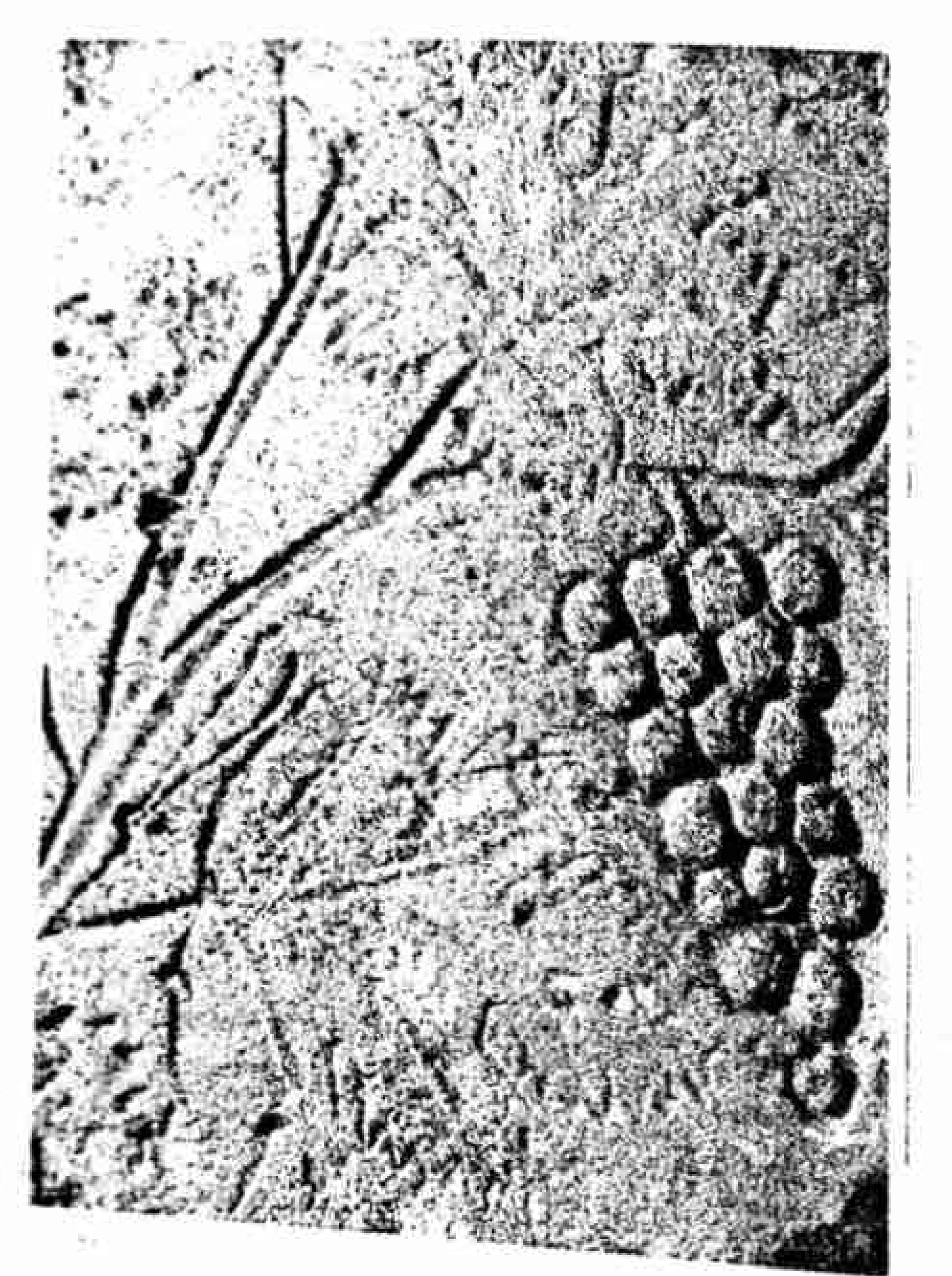
وبعد أن زرع الناس النباتات، ودجنوا الحيوانات البرية، حدثت في حياتهم تبدلات جوهرية بلغت من العمق درجة جعلت العلماء يطلقون عليها اسم: ثورة العصر الحجري الحديث. ولكن تلك الثورة لم تلغ الصيد واللقط من حياة الناس، وبقي هذان النشاطان زمناً طويلاً آخر يوفران للإنسان القوت ومختلف مواد الاستخدام والاقتصاد المنزليين. بيد أن القبائل التي تحولت إلى العمل الزراعي وتربية الحيوانات، وجدت نفسها في وضع أفضل، لأن ارتباطها بتقلبات الطبيعة بات الآن أضعف.

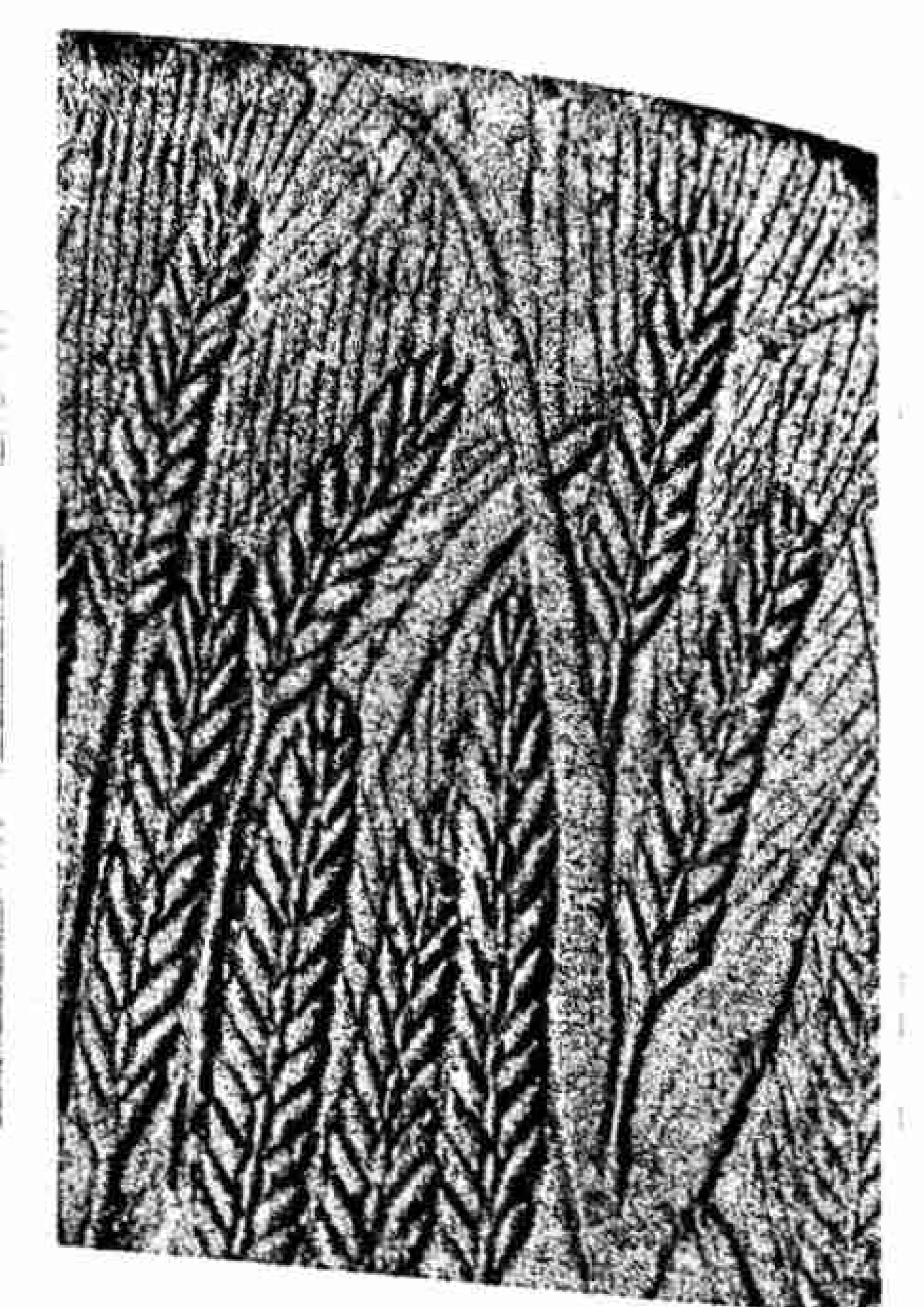
لقد أثارت ثورة العصر الحجري الحديث سلسلة من التغيرات المتتالية في حياة الناس. فلم تعد بهم حاجة للانتقال وراء الطرائد، واستبدلوا بنمط الحياة المتنقل نمط العيش المستقر؛ فقد أخذوا يقطنون قرب الحقول. وظهرت حاجتهم لخزن الفائض وطهي الطعام، فابتكروا الفخار. وكان تنظيف الغابة عملاً لا بد منه لزيادة مساحة الأرض الزراعية، فابتكروا فؤوساً حجرية أكثر فعالية، وتطورت تقنية التصنيع تبعاً لذلك. وأفضت زراعة الكتان وتربية الأغنام إلى ظهور الغزل والنسيج، ثم أخذت تظهر الصناعات الحرفية واحدة إثر الأخرى. لقد أخذت تنمو قرب الحقول مساكن دائمة ما لبثت أن تحولت إلى قرى، وهذا ما أشعل في نهاية المطاف ثورة أخرى: الثورة المدينية. وبالتوازي. مع هذا كله تطورت أيضاً وتنوعت الثقافة المادية التي ارتبطت بالمسكن والحياة المنزلية اليومية. فيوماً بعد يوم كانت المساكن تغدو أكثر ملاءمة للعيش، والحياة أكثر هدوءاً، وبات بمقدور النساء تربية عدد أكثر من الأطفال، فتضاعف عدد سكان قرى الأقاليم الزراعية: في الألف ٥ ق. م ارتفع عدد سكان الأرض إلى ٢٠ مليون نسمة، بل ظهرت زمنئذ مشكلة الفيض السكاني، وبات ينبغي على جزء من السكان أن يبحث عن أراض جديدة يقيم فيها ويستثمرها.

وحسب الآثاري الفرنسي تيار دي شاردين أن العصر الحجري الحديث أعظم أزمنة التاريخ البشري. وكتب يقول عنه: «ليس الزمن التاريخي سوى امتداد مباشر للعصر الحجري الحديث». إنه أكثر تعقيداً... لكنه زمن.. يتطور من حيث الجوهر بالاتجاهات عينها وعلى المستوى عينه...». وفي واقع الأمر أننا نعيش منذ عشرة آلاف عام تقريباً، على الابتكارات التي تحققت في العصر الحجري الحديث، فكل ما تقتات به البشرية الآن كان قد

اكتشف عملياً في ذلك العصر بالذات. ويثير فينا بطل العصر المعني، أي فلاح العصر الحجري الحديث الذي خلف الصياد البدائي، شعوراً عميقاً بالإعجاب. فتحويل النبات البري إلى نبات زراعي، والحيوان البري إلى حيوان منزلي داجن، والكشف عن خصائصهما الغذائية والتقنية، وصناعة آنية صلبة من الطين، والخيوط من صوف الحيوان، هذا كله لا يحتاج إلى فراسة وحضور بديهة وحب التجربة فقط، بل يحتاج كذلك إلى بنية عقلية علمية حقيقية.

إذن مع ظهور العمل الزراعي وتربية الحيوان تغير نمط الحياة، وإيقاعها، كما تغيرت الأساطير دون شك.





رسم

ودالية العنب

لنسابل القمح

في معبد رمسيس الثاني في هيرموبوليس «مصر».

كان القمح والعنب مادتين غذائيتين في كثير من بلدان العالم القديم.

لقد كان مصير الصيادين مرتبطاً بالوحش- الطريدة، ولذلك كانت الوحوش هي الموضوع الرئيس لاهتمام الإنسان والاتحاد الصوفي الخاص معه. أما الفلاح فقد أناط هذا الدور بالنبات والأرض التي تنمو عليها هذه الأخيرة.

وتروي لنا أساطير الزمن القديم المستجد، زمن ما بعد ثورة العصر الحجري الحديث، روايات شتى عن وقوع النباتات في حوزة الإنسان. وقد تعرفنا سابقاً إلى واحدة منها، ولكن ثمة تنويعات ميثولوجية أخرى عرضت ذلك الحدث العظيم. ومن أطرفها محور الفتاة هاينويكي الذي دون في غينيا الجديدة ومناطق أخرى.

... في قديم الزمان كان يعيش رجل اسمه أميتا؛ ولم تكن له امرأة ولا أبناء. وذهب أميتا يوماً إلى الصيد حيث قابل خنزيراً برياً. وحاول هذا أن يتخفى عن أميتا، فعدا هارباً وغرق في البحيرة. فانتشله أميتا من المياه، ووجد جوزة هند على نابه، ولم تكن شجرة جوز الهند قد نبتت في الأرض. وبينما أميتا نائم جاءه في الحلم أمر بزراعة حبة جوز الهند في الأرض. وبعد ثلاثة أيام ظهرت في المكان نخلة باسقة، وبعد ثلاثة أخرى أزهرت النخلة. فتسلق أميتا الشجرة ليقطف زهورها ويصنع منها شراباً. لكنه جرح إصبعه وسقطت قطرة من دمه على زهرة من الزهور. واكتشف بعد ثلاثة أيام أخرى أن دم إصبعه امتزج مع عضو التأنيث النباتي، وأن فتاة صغيرة تجلس على الزهرة. فأخذها أميتا ولفها في ورقة من شجرة جوز الهند. وخلال ثلاثة أيام غدت الطفلة الصغيرة عروساً. فدعاها أميتا باسم هاينويلي (= «غصين شجرة جوز الهند»). لقد كبرت هاينويلي بسرعة كبيرة، لكنها لم تكن تشبه البشر العاديين: كانت تتبرز جواهر.

وفي أثناء الاحتفال بأحد الأعياد الكبرى، جلست هاينويلي في وسط الساحة التي كانوا يرقصون فيها، ووزعت الهدايا طول الليالي التسع. وفي اليوم العاشر حفر الرجال حفرة في وسط الساحة ورموا الفتاة فيها وواصلوا رقصهم. ولما لم ترجع هاينويلي إلى البيت أدرك أميتا أنهم قتلوها. فبحث عن جثتها ورفعها من تحت التراب وقطّعها قطعاً ودفنها في أماكن مختلفة، وأبقى يديها له. وبعد حين نبتت من القطع المدفونة نباتات لم

تكن معروفة من قبل، وهي النباتات التي باتت الغذاء الرئيس للناس؛ ونبت من معدنها قدر.

لقد لعن أميتا الناس، وأعطى يدي هاينويلي لساتيني، المرأة التي خرجت عند خلق العالم من قرن الموز قبل أن ينضج، وكانت تحكم البشر وقتذاك. فغضبت على الناس غضباً شديداً لأنهم ارتكبوا جريمة القتل. وذهبت إلى ساحة الاحتفال فرسمت عليها خطاً حلزونياً من تسع ثنيات ووقفت في الوسط. ثم بنت بوابة من يدي هاينويلي وجمعت الراقصين كلهم، وقالت لهم: «أنتم قتلتموها، وأنا لا أريد أن أعيش هنا بعد هذا. سأترك هذا المكان اليوم وامضي، ولتحاولوا الاقتراب مني عبر هذه البوابة. ومن ينجح في عبورها يغدو إنساناً، ومن لا ينجح سيكون لي معه شأن آخر». ومن عبر البوابة صار إنساناً، أما من عجز عن عبورها فقد تحول إلى حيوان أو روح. وأعلنت ساتيني بعد ذلك أن الناس لن يروها ثانية إلا بعد موتهم، ثم اختفت عن وجه الأرض.

وهكذا وضع مقتل الكائن الإلهي على أيدي أسلاف البشر المعاصرين نهاية أحد العصور، عصر الصيادين واللقطة، وبداية عصر آخر هو عصر الزراعيين. ولكن وجود الكائن الإلهي المقتول يستمر في النباتات والحيوانات. والذي يحصل أن اقتيات الناس بالنباتات والحيوانات التي خرجت من جسد الإله، يعني إنهم يقتانون بالإله نفسه.

ويعد مثل هذا المحور الميثولوجي واحداً من أكثر المحاور شيوعاً في العالم، لكن أبطاله ليسوا آلهة بالضرورة، بل بشر أيضاً. فثمّة محور شائع عند الاندونيسيين مثلاً، يتحدث عن ظهور الرز من أجزاء جسد إنسان مقتول، وغالباً ما يكون القتيل امرأة أو فتاة: يقطع جسد البنت المقتولة إلى أجزاء، فينبت الرز من دمائها، وشجرة جوز الهند من رأسها، وشجرة اللبان من أصابعها، وأوراق نبات السيريخ من أذنيها، والذرة من أنفها، وقصب السكر من بلعومها، والتارو من ركبتيها. وهناك أسطورة أخرى دونت في غينيا الجديدة أيضاً، تروي قصة شجرة جوز الهند هكذا: لقد صادت امرأة أسطورية سمكة من رأسها هي، فسحبتها ووضعتها في قاع النهر كسلة لصيد الأسماك. ومرة اختلس رجل النظر إليها وراقب حركاتها، ثم أخفى الرأس بحيث عجزت المرأة عن العثور عليها فماتت. وفي تلك الأثناء كانت الرأس قد نبتت وصارت إلى شجرة جوز الهند، وظهرت الثمار عليها. وسرق الطير باوكا واحدة من الثمار وحملها إلى الناس وعلمهم كيف يزرعونها.

وأحياناً ما كان الإله يحكم على نفسه بالموت طوعاً، لكي يمنح الحياة لنبات ما. وهذا ما فعلته في أسطورة الآرابيش في غينيا الجديدة، المرأة التي اتخذت صورة الكازوار وأخذت تتصرّف كالطير. ومرّة قالت لأبنائها إن قتل الكازوار أمر ممكن، وشرحت لهم كيفية فعل ذلك. ثم اتخذت صورة الكازوار، وسقطت في الفخ وماتت؛ لكن أبناءها عرفوا والدتهم، فدفنوها حسب الطقس المعتاد. وبعد مضي بعض الوقت أخرجت عظامها أفراخاً نباتية أنتجت ثمار اليامس.

وحسب بعض الأساطير أن البذور المعدة للبذار قد سرقت، على الضد من إرادة الآلهة. وثمة عند التوارجيين في اندونيسيا أسطورة عن فتى صعد إلى السماء على قوس قزح. لقد تراءى له أنه رأى هناك ذهباً، ولكن الذي رآه في الواقع كان رزاً، ولم يكن قد رأى الرز قبل ذلك قط. وقد هم الفتى أن يحمل معه قبضة من حبوب الرز ليزرعها في الأرض، لكنهم منعوه. فحاول عدة مرات أن يخفي شيئاً منه، لكن أمره كان يكشف في كل مرة. وأخيراً نجح في إخفاء بعض الحبوب في جراحه التي كانت تخفيها قدماه، وحملها إلى الأرض.

وفي بعض الأحيان كان النبات الزراعي يصل إلى البشر وفق الأساطير، هدية من الآلهة، أو الأسلاف، أو أي كائنات ميثولوجية أخرى، وهو ما حدّثتنا عنه أسطورة الإيفوغاو التي عرضناها سابقاً.



تمثال من العصر الحجري الحديث

يصوّر امرأة تحمل على رأسها قدراً وتجسد عنصر الخصب الأنثوي.

تترك الأساطير انطباعاً بأن النباتات التي صار الإنسان يزرعها، امتلكت روحاً كتلك التي للإنسان. وفي الأحوال كلها يوصف الطرفان فيها بأنهما أقارب مقربون. فالإيبانيون مثلاً، وسواهم من شعوب اندونيسيا يعتقدون أن الإنسان والرز خرجا من الأرض، وأن لهذا وذاك روحاً، وقد دعوها بالاسم نفسه. والرز كالإنسان يفرح ويحزن: ويطالب بأن يعتنى به، وقد يغدو مشاكساً، فيحرد ويرفض أن يؤدي أي عمل، وقد يصاب بالزكام أيضاً؛ فروح الرز ناعمة وواهنة، ولذلك ينبغي التعامل معها برقة وحذر شديدين.

ويروى في أسطورة الداياكيين الاندونيسيين أن الناس لم يكونوا سابقاً على علم بأن للرز روحاً. لكنهم بينما يجمعون المحصول يوماً، تركوا سنابل لم يجمعوها، وعندما جاؤوا في اليوم التالي وجدوا أن السنابل التي كانوا قد حصدوها بالأمس عادت ونمت من جديد، فاضطروا لحصدها ثانية. ثم تكررت القصة في اليوم التالي. واستمرت الحال على المنوال عينه عدة أشهر عجز الداياكيون خلالها عن جمع محصولهم. فعزموا على أن يتبينوا حقيقة الأمر. وتسلح الرجال بالسهام المسمومة وأنابيب قذف السهام واختبأوا على أطراف الغابة. وفجأة رأوا شيئاً ما يصعد ببطء في وسط الحقل حيث تُزرع عادة نبتة الرز التي تدعى «أم الرز»، ويتخذ صورة إنسان. وشرع ذلك الشكل يتجول في الحقل ويلوح بيديه فوق الأماكن التي جمع المحصول منها، وعلى حين غرة طار سهم أصاب هدفه. فأخذت روح الرز الجريحة تصرخ متألمة وتلعن البشر قائلة: «لن تحصلوا على بركتي بعد اليوم! وبقدر ما تبذرون بقدر ما تجمعون!». واختفى الشكل البشري مع نطقه بهذه الكلمات، ولم يظهر بعد ذلك قط، واختفت معه محاصيل الرز الخارقة.

إن الإطلاع على هذه الأسطورة يجعلنا نفهم سر العناية الملفتة التي توليها للرز النسوة الاندونيسيات اللواتي تعد زراعة الرز عملهن الرئيس. «فروح الرز» التي تتجسد في حزمة تعداد شتولها إحدى وعشرين نبتة، تزرع في وسط الحقل تماماً، وبوضع على مقربة منها ماء في ماعون من الخيزران أو في دورق خاص لكي تبقى التربة مبتردة، وينصبون هنا أيضاً «رأساً» من أشعة الشمس اللافحة. وتعمل النسوة جاهدات على أن تكون روح الرز راضية مكتفية: يمرحن حولها، ويتبادلن رواية الطرف، ولا يأتين أي أحاديث فظة هناك. وبينما الرز ينضج يتعامل كلهم معه كما مع المرأة الحامل: فلا صخب، كي لا تخاف روح الرز، ولا حديث عن الموت، بل يطعمن الرز من الطعام الذي يعد نافعاً لأمهات المستقبل، كما تؤدّى طقوس حماية نمو روح الرز. وعندما يبدأ زمن نضوج الحبوب يتعامل جميعهم مع الحقل كأنه طفل رضيع. ومع حلول وقت جمع المحصول يحطن روح الرز بمختلف الشارات والرايات، ويدخنها بالأطياب، ويحصدنها في الأول أو في الآخر مرددات التعاويذ المعتادة، وبعد ذلك يضعنها في نسيج أصفر ويخزنها في العنبر بعيداً عن باقي الرز. وتقدم لها القرابين بين الحين والآخر، ويوضع دائماً على مقربة منها قدر مليء بالماء تستطيع أن تروي ظمأها منه متى شاءت.

لقد تكونت عند بعض الشعوب الاندونيسية شخصية مثيرة لإلهة الرز. فدعاها الجاويون ديفي سري، ودعاها آخرون بأسماء أخرى. وحسب بعض الأساطير أن الرز ظهر من جسد إلهة الرز المقتولة أو المتوفاة.

ونقف في أساطير شتى الشعوب على موقف متميز تجاه النباتات ككائنات ممنوحة روحاً. فالحكايات اليابانية القديمة تروي قصة شجرة التوت العتيقة التي اتخذت صورة بشرية وأقامت علاقة صداقة مع صياد السمك المدعو كوكاكي ساميدون الذي معناه «سيد القرش». لقد كان ساميدون يمضي كل ليلة إلى البحر ليصطاد السمك، ويوماً جاء البحر شخص غريب لا يُعرف من أين أتى. فتصادق الصياد مع الغريب وأخذا يصيدان الأسماك معاً. لكن إهاب الشخص كان يتغير أحياناً، بل تراءى لساميدون أن لغته غريبة هي الأخرى. ولذلك قرر الصياد أن صديقه ليس من

البشر. وفي إحدى الليالي تظاهر ساميدون أنه عائد إلى بيته، لكنه تبع الشخص الغريب. وقد توجه هذا مباشرة إلى الجبل وتحول هناك إلى شجرة توت.

وبذا لم يبق ثمة شك في أن الفلاحين القدماء كانوا يرون في النباتات التي يزرعونها كائنات حية.



فينوس

العصر الحجري القديم. كهف لوسيل «فرنسا»

رسم امرأة بأبعاد مضخمة تحمل قرناً بيدها اليمنى: قد يكون هذا القرن هو النموذج الأصل لقرن الوفرة المعروف لنا جيداً؟

غالباً ما كان القرن يستخدم في التعاويذ والشعائر ذات الصلة بزيادة خصوبة الأرض وإنجاب الذرّية ولكن العلماء لم يفلحوا حتى الآن في تحديد أهمية «فينوسات» العصر الحجري القديم ومغزاها تحديداً تاماً.

يرفض الهندي الأمريكي الأحمر من قبيلة أوماتيلا التي اعتادت أن تصيد الأسماك، وتجمع النباتات الصالحة للأكل، وتصيد الحيوانات يرفض رفضاً قاطعاً أن يحرث الأرض. لقد قال، إنه ليس بمقدوره أن يقطع، أو يجرح، أو يمزق أو يخدش أُمّنا المشتركة: أنه لن يغرز السكين في صدرها، لأنها عندئذٍ لن تقبله ثانية بعد أن يموت. وقال: إنه لا يستطيع أن يحفر الأرض ويرمي الحجارة، لأنه لا يمكنه أن يسبب لجسدها هذا الأذى كله فيظهر عظامها: إنه لن يستطيع عندئذٍ أن يدخل جسدها ويولد من جديد. وهو لن يحشّ أعشابها ويحصد قمحها: كيف يجرؤ على أن يقص شعر أمه؟

ومع أن الهندي قال هذا في القرن ١٩ م. إلا أن كلماته تنقل إلينا صورة قديمة جداً لشخصية الأرض الأم التي نقابلها عند شعوب الأرض كلها. لقد عبر الهندي عن رأي شائع عند القبائل الصيادة، وكانت الأرض بالنسبة لهؤلاء كائناً له حصانة مقدسة لا يجوز التطاول عليها، أو التسبب لها بأي أذى.

ولكن الموقف من الأرض تبدل بعد ثورة العصر الحجري الحديث، بيد أنه حافظ على أساسه القديم. فقد باتت الآن إلهة الخصب، والإلهة الأم، وإلهة النباتات والمحصول؛ ولكن أصداء الموقف القديم منها بصفتها أما مشتركة بقيت حاضرة. فيعتقد الالطائيون مثلاً، أن حشّ الأعشاب إثم كبير، لأن الأرض تتألم كما يتألّم الإنسان عندما يقتلعون شعره. ويؤمن التشيرميسيون بأن الأرض غالباً ما تمرض، ويحاولون ألا يجلسوا عليها كي لا يتسببوا بإقلاق راحتها. أما البايغا الذين يقطنون وسط الهند، فإنهم لايزرعون في الأرض كي لا يبقروا بطنها بالمحراث، بل في الرماد الذي يخلفه احتراق الأشجار في القطعة المعدة للزراعة.

وكان الوثنيون السلاف يسجدون «للأرض الأم الطرية»، ولم يكن سلوكهم هذا مجازياً، بل واقعاً حياً. وحتى بعد أن اعتنق هؤلاء المسيحية حافظوا لزمن طويل على علاقة خاصة مع الأرض بصفتها كائناً حياً، ومن كان «يستلقي على الأرض على بطنه»، كأنه «يداعبها»، كان الكاهن ينزل به عقاباً: ايبيتيم. لقد كان هذا الإثم مساوياً لإثم عدم احترام الوالدين. ومن المفيد أن نتذكر في هذا السياق وصف «اختبار الفؤول» في «حكاية مجزرة

ماماي«: وضع الأمير ديميتري بوبروك أذنه اليمنى على الأرض ثم قال، كأنه سمع الأرض تبكي: «جهة تبكي أولادها كما هللينا، والجهة الأخرى كعذراء تنوح بمرارة، كالمزمار، لقد كان سماعها أمراً مؤلماً».

لقد كانت الأرض بالنسبة لإدراكهم، وكذلك الماء والسماء، كائنات حية بالمعنى الواقعي للكلمة. ففي كثير من الأساطير تفتح الأرض فمها، فتلعن، وتمنح القوى أو تسلبها. وتضمن تعبير «الأرض الأمّ» مغزى عميقاً ومحدداً في رؤاهم: على امتداد زمن طويل بقي كثير من الشعوب يؤمن أن الكائنات البشرية ولدت من الأرض، بل حتى نحن ندعو أنفسنا الآن أناساً أرضيين. لقد عبد كيتيو حوض نهر ينيسي الأرض الأم تحت اسم بانغام، وعدوها الوالدة الأولى للبشر، والوحوش، والطيور، والنباتات، وسوى ذلك من الظاهرات الطبيعية، إضافة إلى سكان العالم المحيط غير المرئيين. واعتقد الكثيرون أن كل ما ولدته الأرض له سرة، وأنه ثمة سرة خفية تربط هؤلاء كلهم بسرة الأرض التي بدورها تعد كائناً أنثى، وأحياناً أقنوم بانغام نفسها.

وظنوا أن المرأة تحمل عندما تقترب من المكان الذي تختبئ فيه الأنفس، إذ تدخل نفس الطفل الجسد الأنثوي. وهكذا يبدو الأمر كأن المرأة تتلقى الطفل من أمه الحقيقية: الأرض الأم، ولا يتبقى لها سوى أن توصل هذا المخلوق الأرضي إلى كماله التام. وعند الطاجيق ينبغي على المرأة التي تتجّم بخصوص الأطفال، أن تأخذ قبضة تراب من قبر وتتحقق مما إذا كان فيها كائن حي. وإذا ما كان هذا موجوداً هناك، فإنه يمكن للمرأة أن تأمل عندئذٍ بأنها سوف تلد مولوداً.

وارتبطت بهذه المعتقدات عينها عند السكندينافيين، والألمان، واليابانيين وسواهم، من الشعوب الأخرى، عادة وضع المواليد الجدد على الأرض مباشرة بعد غسلهم ولفهم بالأقمطة. وكانت النساء عند كثير من الشعوب يضعن مواليدهن على الأرض مباشرة، وقد عد أولئك المواليد آتين من الأرض. وفي مصر القديمة كانت كلمة «تضع المولود، تلد المولود» تعني: «الجلوس على الأرض». وفي القرى الروسية كانت النساء تلدن على الأرض بعد فرشها بالقش، الذي يعد رمزاً من رموز العنصر الإنتاجي للأرض.

ولهذا السبب لم يقتلوا الأطفال المرمين بل تركوهم يستلقون على الأرض: كانت الأم الأرض (أو الأم الماء)، هي التي تقرر ما الذي ستفعله بهم. ويعرف التاريخ كثيراً من مثل هؤلاء المرمين الذين كان قد أعد لهم مستقبل عظيم: سرغون الاكادي، وموسى التوراتي، والرومانيان ريموس ورومولوس؛ وشارك هؤلاء المصير نفسه كثير من الآلهة: بوسيدون وزيوس، وديونيسيوس، وسواهم.

لقد آمنت شعوب بكاملها أنها خرجت من الأرض. فرأى البوشمين الأفارقة مثلاً، أنهم خرجوا من ثقب في الأرض بين جذور شجرة عملاقة كانت تغطي بلادهم كلها. ثم خرجت في أعقاب البشر مباشرة حشود من شتى الحيوانات. وقد سارت هذه في الماء ثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، وأحياناً قطعاناً بكاملها. وفي ذلك الازدحام والتدافع وطأت الحيوانات بعضها الآخر. وكان جمع الحيوانات يزداد كثافة، وباتت هذه لا تخرج من تحت جذور الشجرة فقط، بل من أغصانها كذلك. ولما غربت الشمس توقف خروج الحيوانات، ومنح أولئك الذين خرجوا نعمة الكلام.

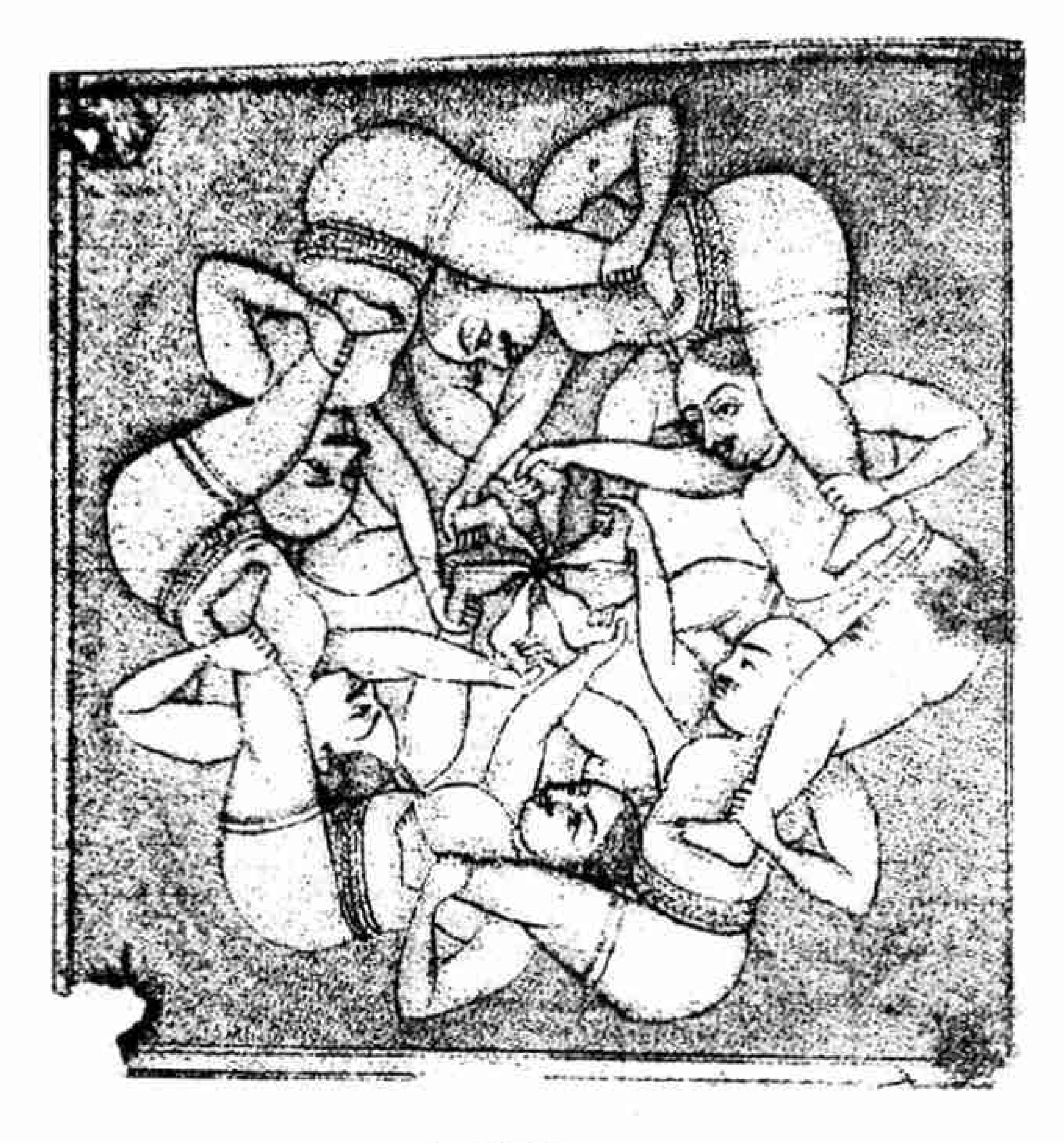
وإذ حل الليل قيل للناس ألا يشعلوا ناراً قبل شروق الشمس. وجلس الناس طويلاً هكذا، بينما الحيوانات غفت حولهم بسلام. ولكن البرد تسلل إلى عظام الناس، فحاولوا أن يشعلوا ناراً على الرغم من تحريم ذلك عليهم. وفي اللحظة عينها هبّت الحيوانات هلعة وعدت صوب الجبال، والسهوب، وقد أفقدها الخوف نعمة الكلام. ومنذ تلك اللحظة والحيوانات تهرب من الإنسان. ولكن بعض الحيوانات بقي إلى جانب الناس ولم يهرب؛ وقد صارت هذه إلى حيوانات منزلية.

وتسمع في هذه الأسطورة أصداء الرؤى القديمة التي رأت في الأرض كائناً حياً وأماً حقيقية. وهي تشرح في الوقت عينه كيفية تدجين الحيوانات، أي كيف حدثت ثورة العصر الحجري الحديث.

لقد كانت الشعوب الزراعية القديمة ترى في دخول الملك أملاك أي بلاد كانت، زواج هذا الأخير بالأرض الزراعية. وبقي مثل هذه المعتقدات زمناً طويلاً في أوروبا، فعندما كان الأمراء يعتلون العرش، كان عليهم أن يضمنوا جمع محاصيل وفيرة. تقول إحدى الساغات إن الملك السويدي دومالدي قتل بتهمة شح المحصول. ولهذا السبب عينه كان على الإمبراطور الصيني أن يحرث الأرض عند اعتلائه العرش: لقد ألقيت على هذا وذاك مسؤولية سحرية خاصة عن خصوبة الأرض، ومثل هذه الأمثال لا يعد ولا يحصى.

وفي زمن متقدم باتت إلهة الخصب: الأرض، تعبد بصفتها زوجة السماء. وفي أساطير كثير من الشعوب تظهر الأم الأرض والأب السماء أول زوجة وزوج خرج العالم كله منهما. لكننا لن نتحدث عن هذا الآن بل في الفصل القادم. أما الأمر المهم بالنسبة إلينا الآن، فهو أن نتذكر أن الأمومة البدئية التي اتسمت بها الأرض، وقدرتها التي لا تنضب على طرح الثمر قد ظهرتا في الأساطير أول ما ظهرتا في صورتها الأرض الأم، ثم في صورتها أم العالم وكثرة كثيرة من الإلهات المحليات.

نطاقات المكان - الزمان



عجلة الزمن

منمنمة هندية

من القرن التاسع عشر الميلادي

حقاً إنه من الصعب موائمة مثل هذا التصور عن التعاقب الدوري للزمن مع سلّم التسلسل الخطي للزمن الذي اعتدناه نحن.

نعود الآن إلى تبدلات لوحة العالم لدى الزراعيين القدماء. لقد كانت تلك التبدلات شاملة واسعة، لكنها طالت أوّل ما طالت المكان- الزمان، وبمعنى أدق طالت إدراكهم له. وعاش كل من الصياد والزراع تلك التبدلات بطريقة مختلفة. ونؤكد هنا على أنهما عاشاهما ولم يقيساهما كما نفعل نحن.

فكيف إذن عاش الصياد المكان- الزمان؟ لقد كان هذا في حركة دائبة مطارداً الوحوش، ولذلك تألف مكانه بشكل رئيس من ممرات الصيد ودروبه ومطاردة الحيوانات. ولكن وضعاً مغايراً نشأ مع التحول إلى نمط العيش المستقر: لقد ارتبط الفلاح بالحقل والمنزل، وبات كأنه ساكن لا يتحرك، وأنشأ حوله نطاقات مركزية ثابتة في مكان العيش، نطاقات امتدت حتى حدود العالم الذي كان معروفاً له، وتميزت بخصائص مختلفة. وقد تشكل مثل هذا الإدراك للعالم بصورته النهائية، في زمن متأخر، في عصر الثقافات القديمة، لكن تشكله كان قد بدأ منذ آلاف السنين السابقة.

لقد انقسم المكان إلى «مكاني» الذي امتلكته ولذلك فأنا أعرفه جيداً (الأرض الأم)، و «مكانه» الغريب الذي يتوضع خارج حدود «مكاني» ولذلك فأنا لا أعرفه، وهو على أغلب الظن معاد لي. إن مكاني هو مسكني وقريتي. لقد كان الإنسان القديم يرتبط بأرضه الأم، والمكان الذي يعيش فيه بكثرة لا تحصى من الصلات غير المرئية، لكنها راسخة. ففي هذا المكان الحميم القريب يوجد الحقل الذي يزرعه، وفيه تجري حياته كلها، وهنا دفن أجداده، وسوف يدفن هو نفسه. وعانقت سماء الصيف هذه الأرض بأشعتها الحارة، أما الأرض المروية بأمطار السماء والمدفأة بدفئها فسوف تعطي محصولها، ومعه القوت والحياة للفلاح. وهكذا أدرك الناس المكان الذي عاشوا فيه، عاطفياً، وفي صور محددة.

أما العالم المتوضع خارج حدوده فقد تصوروه عالماً يسوده الخراب والفوضى، وليس له حدود معروفة، تسكنه كائنات مؤذية وأخرى طيبة. فهناك يقطن الأموات، ومن هناك تأتي الحيوانات البرية، كما خرجت النباتات من هناك أيضاً، وتنتمي إلى ذلك العالم الأرض المثمرة التي تأتي المياه منها على شكل أمطار، قصارى القول، إن المكان الغريب الموحش كان في الآن عينه مصدراً لكلّ ما هو ضروري لحياة البشر.

لقد كان كل من هذين المكانين ذا كثافة سكانية عالية، وقد توافقت مع كل منهما أنماط مختلفة من السكان: في العالم الذي تم امتلاكه عاش الجنس البشري، وسكنت أرواح المنزل وأرواح مختلف الأشياء المنزلية، أما العالم الغريب ففيه الحيوانات البرية وشتى ضروب الأرواح.

ويروى في الملحمة السومرية عن انكيدو صديق جلجامش، الذي كان يعيش (انكيدو) في حالة بدائية. وكان ذا قوة عضلية خارقة، يسير عارياً، جسده مكسو بالشعر. لقد كان انكيدو يتجول مع الحيوانات في البراري، يرضع حليب الوحوش، يقتات بالأعشاب، ويشرب الماء من مجاريها. ويساعد الوحوش على النجاة من الصيادين. يكسر المصائد، ويطمر الحفر-الفخاخ. ولكنه وقع بعد ذلك بين الناس، وأخذ يأكل الخبز، ويشرب الجعة، ويرتدي الثياب و..، أي أخذ يعيش عيشة بشرية. ففدت الوحوش تنفر لدى رؤيته، ولم تعد قادرة على التواصل معه بهدوء، أما هو فلم يعد بمقدوره اللحاق بها والعيش معها عيشة واحدة. لقد بات الآن كأي راع يحمل السلاح دفاعاً عن الحيوانات المنزلية ضد أذى الوحوش.

ويبدو أن الموقف المتميز من وحوش البرية بقي حاضراً لزمن طويل آخر. وليس من قبيل المصادفة أن تكون لأكثر آلهة الزمن القديم صور وحوش، أو سمات ورموز وحشية. فقد عد الهندوأوروبيون وحوش البرية على وجه العموم حيوانات آلهة؛ وعرفت النصوص الحثية تعبير «عالم الآلهة الحيواني». ومن المعروف أن الملوك القدماء، ملوك دول الحضارات المبكرة، أقاموا في ممالكهم حدائق كاملة من الحيوانات البرية: من الواضح أنه كان لهذا الأمر مغزى عميقاً أشار إلى قربهم من عالم الحماة الميثولوجيين.

ومع تحول الجماعات البشرية إلى ممارسة العمل الزراعي أخذت تتبدل بالتدرج معتقدات الناس عن صلات القرابة التي تجمعهم بالحيوانات والنباتات، وظاهرات الطبيعة الأخرى. وأخذت تقوى وتترسخ في الوقت نفسه صلتهم بالأرض، بالديار الأم وديار الأرواح التي أخذت تتشكل منها فيما بعد شخصيات آلهتهم؛ لكن هذا لن يحصل ألا في عصر الحضارات الأولى.

أما كائنات العالم الآخر فقد دعوها عادة: سادة الطبيعة أو أرواح الطبيعة؛ وكانت هذه تشارك الناس حياتهم اليومية المعتادة. وقوامها عند كلّ شعب متنوع تنوعاً مدهشاً. وكان بعضها يتميز عن بعضها الآخر بالعلامات الخارجية، وأماكن تواجدها، وقدراتها، ومواقفها من الإنسان. فعند قبيلة الارابيش على سبيل المثال، تحمل الكائنات الخارقة كلّها اسم «مارسالاي». وهي تعيش عادة في أماكن معزولة لا تصلح لسكن الإنسان، وأشكالها متنوعة كثيراً؛ لكنها غالباً ما تأخذ صور عظاءات أو ثعابين ألوانها مختلفة ولها رأسان أو ذيلان؛ وبعضها يبرق كالنحاس. وثمة

بينها كائنات مشوهة تبدو كحيوانات ذات طرف أو ثلاثة أطراف في الظهر، كالخنزير الذي له كتلة في ظهره، أو كالكنغر ذي الراسين، أو... وقد عدت هذه الحيوانات عادة، حارسة أرض الجماعة العشيرية المعنية، ولذلك كانت نسيبة الأسلاف؛ وأحياناً ما كانت هذه تتصرف كما الأسلاف، فتنزل العقاب بالناس إذا ما انتهكوا المحرمات التي أقرها هؤلاء. وعلاوة إلى هذا كله، كانت لهؤلاء القدرة على إنزال المطر، وإثارة الريح، بل الأعاصير أيضاً، ونشر الأمراض، وسلب العقل، وتضليل الرجل عن طريقة، والتسبب بالأذى للنساء وقت الحيض وما إلى ذلك.

وهناك كثرة من القصص الميثولوجية التي هي عبارة عن حكايات تحكي عن الصدامات التي تقع بين البشر و «السادة»، وهي في غالب الأحيان عن علاقات «السادة» مع النساء؛ تتزوج الفتاة المارسالاي دون أن تساورها أي شكوك، لكنها لا تلبث أن تكتشف حقيقة الأمر وتبدأ معاناتها، فتحاول أن تتخلص مما هي فيه بالهروب أو قتل الزوج أو... وإذا ما نبذت الجماعة الفتاة فإنها هالكة لا ريب. وفي أسطورة الارابيش أن فتاة أنجبت افعوانين من مثل هذا الزواج، لكن جدتها- السلف أنقذتها: عملت الفتاة بنصائح الجدة، وتمكنت من قتل الزوج والولدين، وأضرمت النار في الكوخ الذي كان مخزن جلود أرواح الأفاعي: ثم وصلت منزل ذويها. ولم يقبلها هؤلاء في بادئ الأمر، فسقطت كالميتة، وعندما انتزعوا عنها جلدها بعقار خاص، عادت لها الحياة من جديد.

ولم يكن نادراً أن يربطوا بين المدى الأرضي وجسد الإنسان، فللمكان الأرضي عظامه أيضاً: الصخور والحجارة؛ ودمه: المياه، وعروقه: جذور الشجر، وشعره: الأعشاب وآمنوا بأن الجسد الإنساني قد خرج من الأرض- الأم وإليها يرجع بعد الموت.

أما فيما يخص الزمان فقد توجه فلاحو العصر الحجري الحديث، مثلهم مثل الصيادين البدائيين، نحو الماضي الميثولوجي المقدس الذي تواصل في حاضرهم خلال إقامة الطقوس. بالتالي فإن الزمان مثله مثل المكان، لم يكن متماثلاً ومتواصلاً. فالزمان الكوني كانت تقطعه الأعياد المقدسة التي تسترجع خلالها الأحداث التي وقعت في بدء الأزمنة. وحسب لغتنا نحن كان القدماء يعيشون في قياسين للزمان: لقد جرت حياتهم الرتيبة الراكدة في سياق الزمن التاريخي، أما أثناء إقامة الطقوس فقد كانوا يلامسون الأزل. ومن البدهي أنه لا وجود هنا لأي مستوى من مستويات انفصام الشخصية، بل في الغالب أن الأمر، على العكس تماماً، إذ كان اتصال الإنسان بعالم الأعمال الإلهية وكمالها، يمنحه السند والثقة في واقعه اليومي الذي يعشه. وليس متعذراً على المؤمن المعاصر أن يدرك ذلك، فثمة شيء مشابه يحدث عندما يدخل هذا إلى الكنيسة ليشارك في إقامة القداس الإلهي، فيتحول زمنه المعتاد، التاريخي إلى تجسيد مقدس لشخص الابن الإلهي.

المرأة و الخصب



شكل نسائي من موقع شطل - هيويوك «تركيا».

العصر الحجري الحديث

تشبه هذه المرأة «فينوس» العصر الحجري القديم، تجلس على عرش، وقدماها على جمجمتيَ إنسانين، ويداها على راسي حيوانين. قد تكون هذ إلهة الخصب القديمة.

يروي الملك جاناكا في الملحمة الهندية القديمة «الرامايانا»، أن الآلهة تأخروا كثيراً في منحه ذرية. فعزم عندئذٍ على استرضائهم بذبيحة كبيرة. فاختار مستشاروه الكنهة- البراهمان العظام الذين يحيطون بكل شيء، مكاناً خاصاً: حقلاً، لبناء مذبح وأمروه أن يحرث المكان بالمحراث. وعندما مشى هو الملك نفسه وراء المحراث، خرجت له من الثلم على حين غرة فتاة. لقد كانت تلك هي سيتا ابنة الملك التي وهبتها له الأم الأرض. واسم سيتا معناه «الثلم». ويقول أحد الأناشيد الهندية: «سيتا أيتها السمحاء، نحن نمجدك، لكي تأتينا بوفرة وفيرة من الثمار».

ومن الواضح أن هذه القصة تحمل أصداء المعتقدات الميثولوجية القديمة التي تشبه المرأة بالأرض المحروثة. وكانت تلك المعتقدات قد ظهرت بعد ثورة العصر الحجري الحديث التي غيرت من بين ما غيرت دور المرأة. فقد باتت هذه الآن تدعى الأرض المطعمة. وكانت تلك رؤية طبيعية تماماً، فالأرض والمرأة ماهيات مشتركة: تلدان، وتطعمان، وتُنشآن. ولذلك ليس غريباً أن يفهم حمل المرأة في طقوس الشعوب الزراعية بصفته رمزاً لبذرة الحياة الكامنة، ولادتها ونموها.

وشبه المرأة بالأرض الزراعية كل من الهنود، والإغريق، والرومان وكثير من الشعوب الأخرى. وظن كثير من القبائل الإفريقية أن بإمكان المرأة أن تمارس تأثيراً سرياً على نمو النباتات، ولذلك كان عقم الأنثى يمثل خطراً على الحقول، أما المرأة الحامل التي تبذر الحقل فأنها تضمن بذلك جمع محصول جيد. وعندما كان الفلاحون الهنود يريدون استنزال المطر، كانوا يرشون الماء على نساء عاريات، أو كانت النساء تحرثن الحقل ليلاً وهن عاريات، أو كن يرقصن أمام صورة إله المطر، بل كانوا يقدمون إليه إحدى الفتيات زوجة. وكان المغزى الميثولوجي لهذه الطقوس كلها يكمن في الآتي: عندما يرى إله المطر تلك النساء فإنه ينزل المطر فتخصب الأرض وتطرح موسماً وفيراً.

ولدى معرفتنا بمثل هذه الرؤى فإننا نستطيع أن نفهم لماذا كانت المرأة هي التي تزرع الرز، وهو أقدم محصول غذائي، وكان الرجل يساعدها في هذا العمل وحسب. لقد كانت النساء تخترن حبوب الرز، وتهيئن التربة، وتحفرن حفر البذار، ثم تعتنين بالرز وتجمعن

المحصول. وحتى فرخ الرز نفسه شبهوه بالجنين الذي في رحم المرأة، وكما تربي الأم ولدها وتطعمه، كذلك كانت تعتني بالرز.

لقد كانت قوة الخصب الأنثوية تنقل سحرياً إلى الحقل عبر قتل المرأة طقوسياً، وكذلك الرجل. وكان يقام هذا الطقس غالباً في موسم البذار؛ ثم يدفن جسداً المقتولين في الحقل المحروث: جرت العادة عند بعض قبائل الهنود الحمر التي كانت تعمل بالزراعة منذ القدم، أن تقدم لآلهة النباتات امرأة ذبيحة، وكانت هذه عادة من عداد الأسيرات، وكانوا يلطخون أدوات العمل الزراعي بقطع جسدها. لقد كانت جثة المرأة المقتولة تقطع إلى قطع يحملونها إلى الحقل في سلال تقطر منها دماء الضحية في أرجاء الحقل المبذور والهدف: ضمان جمع محصول وفير.

وكان الاستيك الأمريكيون يقيمون «عيد المكنسة» في الخريف على شرف الإلهة تيتيوينان؛ وكان هذا في الوقت عينه احتفاء بموسم جني محصول الذرة؛ وارتبط اسم العيد بكون المكنسة أحد رموز الإلهة التي تنظف بها الأرض. وأثناء الاحتفال بالعيد كانوا يختارون امرأة في الأربعين أو الخامسة والأربعين من العمر ويعلنونها أما الإلهة وحارسة لتيتيوينان. وكانت هذه تقود «الهجوم» الأول في معركة اللهو التي كانت تقيمها الساحرات الشابات والساحرات العجائز على مدى أربعة أيام. بعدها يمضي جميعهم إلى ساحة السوق حيث كان كهنة إلهة الذرة تشيكو ميكواتل يستقبلون الإلهة تيتيوينان. وعندما ينتصف الليل ترتدي تيتيوينان أبهى حللها وتتوجه إلى المعبد برفقة سكان المدينة كلهم، حيث يقدمونها هناك ذبيحة: يحملها أحد الكهنة على ظهره، وآخر يحتز رأسها بالسكين. وبعد ذلك يسلخون جلدها ويدثرون به أطول الكهنة وأقواهم بنية، وابتداء من تلك اللحظة يغدو هذا نفسه تيتيوينان ويمضي إلى معبد آخر، وهناك يأخذ جلد المرأة الذبيحة ويغطي به وجه الفتى الذي يؤدي دور ابن تيتيوينان، إله الذرة سينتيوتل.

ثم يمضي الكاهن ومرافقوه إلى معبد ثالث، فيخرج للقائهم جنود يحملون مكانس ملطخة بالدماء، كأنهم جاهزون للمعركة، وتلحق بهم كاهنة ترتدي جلد المرأة الضحية، تمثل دور الإله. ويجتمع الموكب كله في معبد إله الشمس، فتتجه الإلهة صوب صورته وتلد من جديد إله الغلال سينتيوتل. وبهذا فإن الطقس يكون قد تضمن مشهد موت إله النبات وبعثه، وهو ماروت قصّتة الأسطورة ذات الصلة.

لقد شكلت فكرة خصوبة الأرض والمرأة محور كثير من الطقوس الزراعية. وتجسدت في شتى الشخصيات الطقوسية الميثولوجية: في أمهات الأقماح، وفتيات الدخن، وذئاب القمح

وما شابه. واندغمت المرأة بالنبات مثلها في هذا مثل الإلهة: لقد كان ذلك أمراً طبيعياً بالنسبة للفلاحين، كالمقارنة بين المرأة والأرض.

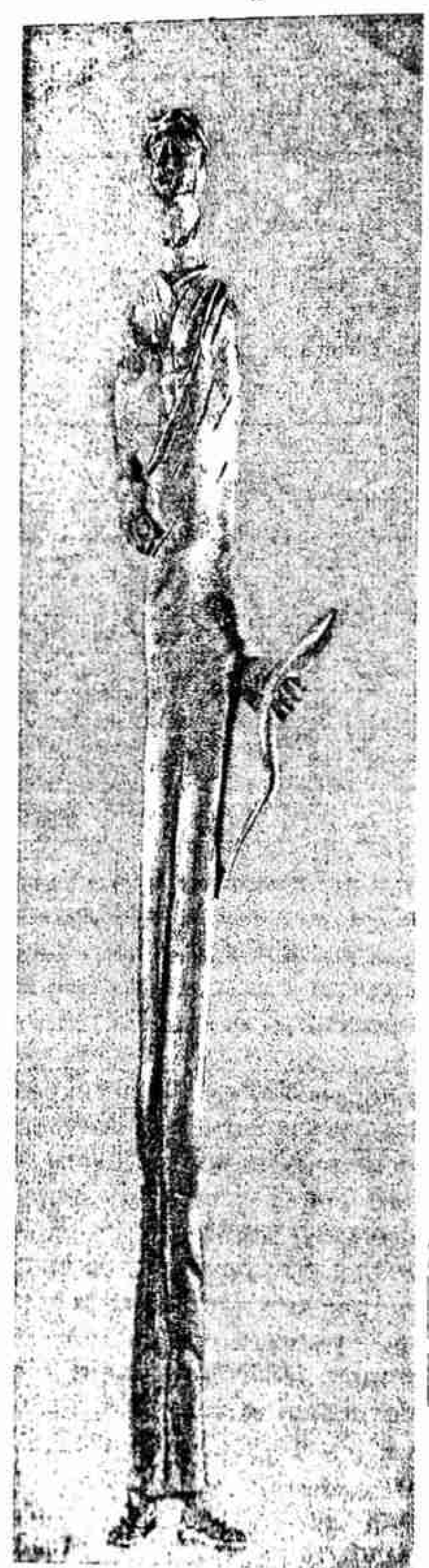
وحسب الرؤى السحرية القديمة أن خصوبة الأرض تقوي الزواج الفعلي أو الرمزي الذي غالباً ما كان يحققه الرجال والنساء في الحقول مقنعين بأقنعة أرواح النباتات. ومن جهة أخرى كانت خصوبة الأرض مدعوه لمساعدة خصوبة الإنسان. وقد أدت هذه العملية المتبادلة التي هدفت إلى مضاعفة قوى الإنتاج لدى الطبيعة والإنسان مضاعفة سحرية، أدت مع الزمن إلى حضور الرمزية النباتية في الطقوس العائلية كلها تقريباً. فالسلافيون مثلاً كانوا يسكبون للمولود الجديد في جرن المعمودية غلال الربيع: الجودار للطفل، والقمح للطفلة. كما كانوا يضيفون بذور الغلال إلى ماء تطهّر الوالدة. وكان الخبز والحبوب يستخدمان دائماً في طقوس الولادة والمعمودية كرمزين للخصب. كما كان طقس الزواج مليئاً برمزية الخصب عند كثير من الشعوب الزراعية. وظن القدماء أنه بقدر ما تتزايد الزيجات بقدر ما ترتفع نسبة الخصوبة. وأدت الأقنعة أحياناً دور العريس والعروس، لكن ممثلين حقيقيين كانا يؤديان هذين الدورين في أحيان أخرى. وقد بقيت مثل هذه المعتقدات طويلاً في بعض البلدان الأوروبية في كرنفالات المدن.

لقد كانت الثقافة المادية لذلك العصر، عصر ظهور العمل الزراعي، غنية بالرمزية الأنثوية، وكانت للمرأة مكانة عالية جداً، كما كان للعمل الأنثوي أهمية كبيرة، إضافة إلى أهمية دور المرأة في إنجاب الأطفال وإرضاعهم. وهذا أمر بدهي، فإعادة إنتاج الناس والطبيعة بالذات عدت الشرط الضروري لبحبوحة المجتمع البشري. لقد باتت الحياة المنزلية مع النسوة الأمهات المطعمات المحور الرمزي للوجود عند الزرّاعيين الأوائل: لكن الحال تبدلت فيما بعد.

الباب الرابع

في بحث أزليّ عن الأصول

كيف ظهر العالم



امرأة أفعى

عند

الايتروسكيين القدماء

لقد اهتم الناس دوماً بالبحث عن إجابات لأسئلة مثل، ماذا كان يوجد على سطح الأرض قبل أن تنبت أول شجرة، ويتفتح أول كم زهرة، ويخر أول جدول ماء، وينقر أول فرخ طير أول بيضة، ويظهر أول كائن بشري، ويتعالى صوته بالكلام. وأخيراً ما الذي كان موجوداً قبل أن توجد الأرض نفسها؟ وتشغل هذه الأسئلة وما شابهها مكانة مركزية في الأساطير، وتعطي هذه الأخيرة إجابات مختلفة على كل منها، لكن هذه الإجابات متشابهة بخطوطها العامة. وتروي أقدم الأساطير عن بدء العالم روايات مختلفة عن تلك التي ترويها الأساطير الأحدث عهداً. ففي واحدة من الأساطير الاسترالية مثلاً، ترتسم اللوحة التالية. «يروي أحد الاستراليين الأصليين من قبيلة ديافون قائلاً: «هذا الزمن الأول، زمن خلق العالم، نحن ندعوه بيينغانا. وندعو الكائن الأول باسم ايينغانا. ونعتقد أن ايينغانا هي أمنا. لقد صنعت ايينغانا كل شيء: المياه، والصخور، والشجر، والبشر السود؛ وهي التي صنعت الطيور كلها، والثعالب الطائرة، وكل الكنغر والايما. وفي ذلك الزمن البدئي كان كل شيء موجود في داخل ايينغانا.

وإيينغانا أفعى. ابتلعت الناس السود كلهم. ابتلعتهم عميقاً جداً تحت المياه. ثم خرجت من هناك. وكان حجمها مهولاً. بكل ما تحمل في جوفها. لقد خرجت ايينغانا من هاينغونغا، المجمع المائي الرحب الواقع عند بامبو- كيرك. والتفّت حول الأرض حلقات هائلة. وكانت تئن وتصرخ، فأحدثت مع الناس السود وما في داخلها كله صخباً مخيفاً.

وكان ثمة عجوز يدعى بارايا قطع طريقاً طويلة، وكان يسمع على طول الطريق صراخ ايينغانا وأنينها. فاقترب بارايا خلسة ورأى إيينغانا: أفعى مهولة تنفث، وتئن، وتفح. فرفع بارايا رمحه الحجري وأخذ يراقب الأفعى كي يحدد المكان الذي سيطعنها فيه. ونجح بارايا فضرب الحية. لقد اخترق رمحه نقطة تقع قرب الفتحة الأولى. فانبجس الدم من الجرح، وتبعه خارجاً من الجرح كل الناس السود.

وأخذ دينغو كانداغون يطارد هؤلاء. فشتتهم مقسماً إياهم إلى قبائل شتى تتحدث لغات مختلفة. وعندما طارد كانداغون الناس السود، تحول بعضهم إلى طيور طارت محلقة، وتحول بعضهم الآخر إلى كنغر، والثالث إلى إيما، والرابع إلى ثعالب طائرة، ودلادل، وثعابين، وأي شيء آخر ينقذهم من كانداغون.

وفي ذلك الزمن البدئي، قبل أن يطعن بارايا إيينغانا برمحه، لم يكن بمقدور أحد أو شيء أن يولد كما الآن. ولذلك غرز بارايا رمحه في إيينغانا.

لقد سار العجوز بارايا من الشرق إلى الغرب. فبعد أن غرز رمحه في إيينغانا، أخذ العجوز طريقه عائداً إلى دياره في بارايا فيم. ورسم هناك صورته على صخرة. وتحول بعد ذلك إلى الكوكابارا الزرقاء الجناحين.

لقد صنعت إيينغانا الأنهار، ولدينا الآن ماء. واستقرت هي على القاع. لديها وجر هناك. وفي موسم الأمطار، عندما يحلّ أوان مياه الفيضانات تنهض إيينغانا من الماء. وتراقب ايينغانا البلاد. فهي تطلق كل الطيور والثعابين، والوحوش، وأطفالنا الذين لنا..

وتمسك ايينغانا بخيط الحياة الذي يدعونه تون. فلا تتركه لحظة واحدة. ولذلك ندعوها أمنا. وعندما نموت تطلق ايينغانا الخيط. ويوماً ما سأموت، وستذهب روحي ماليكنغور، في طريق بولونغ، الثعبان- قوس قزح. وهذا معناه أني مت في مكان آخر. ولذلك فإن روحي ماليكنغور، سوف ترجع إلى بلادي، إلى المكان الذي ولدت فيه. وهذا ما يفعله روح كل إنسان.

وتمنح ايننغانا النفس للرجال والنساء. إنها تمنحهم النفس منذ الطفولة. وأنت لن تستطيع أن تجد هذه الروح بنفسك. وإذا ما ماتت ايينغانا فإن كل شيء سيموت. ولن يكون ثمة عندئذ كنغر، أو طيور، أو بشر سود، لن يكون هناك شيء، ولن يكون ماء. وعندئذ سيموت كل شيء».

وهكذا أيضاً أو بصورة مشابهة فسرت أساطير الصيادين واللقطة البدائيين ظهور العالم. لقد كان هؤلاء على قناعة راسخة أنه «في زمن الأحلام» عاشت على الأرض كائنات عجيبة، أسلافهم الأوائل الذين خلقوا العالم. وكما صاحبنا السابق الذكر نغورونديري، كذلك صاحبنا بارايا، كلاهما كان يمكنه أن يظهر في صورة بشرية، لكنه كان يستطيع أيضاً أن يرتدي إهاب أي وحش، أو طير، نملة، أو فراشة، أو أي كائن طبيعي آخر.

ولم يصل إلينا من مثل هذه الأساطير إلا قلة قليلة، وما وصل منها خضع فيما بعد لإعادة صياغة. وفيها تظهر الأرض المصنوعة، أو العالم كله على وجه العموم، في صورة وحش، أو أن أحد ممثلي مملكة الطبيعة يؤدي وظيفة مسند الأرض. ففي أسطورة شعب آسي الذي يعيش في جنوبي الصين أن الأرواح الآدي والآجي صنعت السماء والأرض من جسد فراشة عظيمة الحجم. وتروي واحدة من أساطير الهنود الحمر في شمالي أمريكا، أن العالم الموجود الآن كان قد خلق من جسد كلب أسطوري مزقه أحد العمالقة إلى أشلاء. وحسب معتقدات بعض شعوب سيبيريا، أن العالم جسد أيل مهول: الغابات شعرة، والحيوانات طفيليات جسده، والطيور، البعوض الحائم فوقه. وعندما يتعب من الوقوف يتحول من ساق لأخرى، فتقع الهزات الأرضية. وهناك أيل آخر يقف تحت هذا الأيل يشبهه تمام الشبه، إنه العالم الآخر، ويبدو كل شيء فيه تماماً كما على الأرض، ولكن في وضعية مقلوبة.

ولكن الميثولوجيا الأحدث عهداً ترسم لوحة مغايرة لخلق العالم. والبداية فيها مختلفة كلياً.



الإله كايو ماري

يخلق العالم من امرأة.

رسم للفنان المعاصر ب. سانتشيس الذي ينتمي إلى شعب الهويتشول في أمريكا.

.. لم يكن ثمة شيء في البدء. لا الشمس، ولا القمر، ولا الكواكب. كانت المياه تملأ المكان اللا محدود كله. وكانت هذه قد ظهرت من الخراب الكوني الأول، الذي استقر ساكناً دون حركة، وخرجت المياه من ظلامه قبل المخلوقات الأخرى كلها. وولدت المياه النار. ومن طاقة الدفء العظيمة تشكلت فيهما بيضة كونية. ولم يكن الوقت قد ظهر بعد، ولم يكن ثمة من يقيسه، لكن البيضة الذهبية عامت بقدر ما طالت السنة في مياه المحيط الذي لا شاطئ له ولا قاع. وبعد سنة خرج من الجنين الذهبي، الكائن الأول براهما. لقد كسر براهما البيضة، فانشطرت هذه إلى نصفين: النصف الأعلى صار سماء، والنصف السفلي صار أرضاً، ووضع براهما بينهما المكان الجوي، هكذا قسمها. لقد ثبّت براهما أركان الأرض في وسط المياه، وخلق جهات الكون، ووضع بداية الزمان. وبذا تكون قد خلقت المعمورة.

هذه هي بداية الأسطورة الكوسموغونية الهندية القديمة. وكنا قد أشرنا سابقاً إلى أن هذه الأساطير بالذات (= أساطير نشوء الكون. م) كانت هي الأساس في تقاليد كل شعب. لماذا؟ لأن المهمة الرئيسة بالنسبة للإنسان القديم تمثلت في الاستغلال العملي للعالم: لقد حاول هذا جاهداً أن يبني علاقاته مع العالم بشكل متناسق متناغم، يجعل حياته تدخل في نسيج حياة الطبيعة. ولكن لكي ينجح الإنسان القديم في بناء علاقات صحيحة مع العالم المحيط به، كان عليه أن يفهم بنيته. وليستطيع الإنسان أن يعرف بناء العالم، كان عليه أن يعرف أولاً كيف ظهر: كان هذان السؤلان يمثلان السؤال نفسه بالنسبة للإنسان القديم.

إذن «في البدء لم يكن ثمة شيء»، أو بمعنى أدق لم يكن سوى الخراب (=الكاوس). وكلمة «كاوس» كلمة إغريقية معناها «بلعوم»، «مكان منتشر خال». ونحن لا نعثر في أساطير الصيادين البدائيين على صورة هذا الكاوس، لأنها لم تظهر إلا بعد ذلك، وعندما ظهرت لم تأخذ شكلاً واحداً في مختلف الميثولوجيات. إنني لا أعرف شيئاً يشبه كاوس الأساطير القديمة؛ إنه من الصعب جداً وصفه بالكلمات: كيف يمكنك أن تصف مالا وجود له، لكنه في الآن عينه موجود؟ تقول فيولفا المتنبّئة في الأساطير السكندينافية: «في بدء الأزمنة لم يكن في العالم رمال، ولا بحر، ولا أمواج باردة، ولم تكن الأرض موجودة بعد،

ولا السماء، اللجة كانت تتلألأ، والأعشاب لم تكن قد نبتت». ولكن لجّة هينونغاغاب السحرية كانت موجودة وقتذاك.

الكاوس (= الخراب الكوني. م)، هو اللا نهاية، ظلام دامس، لجة فاغرة، المحيط الكوني الأول، هوة كئيبة، وحدة مندغمة؛ إنه مستحيل، مرعب، كئيب، مفزع، لكن فيه إمكانات كامنة غنية، وعناصر خلق لا حدود لها. وكان الوجود كله منصهراً فيه، فكل ما هو موجود في عالمنا المنظم، موجود في صورة مبهمة، جنينية. فحسب الأساطير السومرية مثلاً، أن المكان كله مملوء بالمحيط الكوني الذي تختبئ فيه الأم الأولى نامّو. أما الملحمة الكونية الأكادية «إينوما إيليش» (= عندما في الأعالي)، فهي تبدأ بالكلمات التالية:

عندما لم تكن السماء في الأعالي قد سمّيت
ولم يكن لليابسة تحت تسمية،
جمع الوالد الأول أبسو، الذي خلق كل شيء،
والأم الأولى تيامات التي ولدت كل شيء،
مياههما في كل واحد...

وهكذا، عندما بدأ العالم لم يكن فيه سوى كاوس المياه المالحة تيامات، والمياه العذبة ابسو، ثم أخذت تظهر فيه الآلهة، وكانت هذه في واقع الأمر شتى ظاهرات الطبيعة. وفي الأول ظهر لحمو ولاحامو، أي «القذارة» و «المخّاضات الطينية»، ثم ظهر أنشار: «الحلقة السماوية»، وكيشار: «الحلقة الأرضية»؛ وبعد ذلك ظهر كل شيء.

ولنأخذ على سبيل المثال الأساطير المصرية القديمة. ففي أحداها يقول الإله الخالق آتوم: «لم تكن السماء قد وجدت بعد، ولم تكن الأرض موجودة. ولم تكن التربة قد ظهرت، ولا الثعابين في هذا المكان. لقد خلقتها أنا هناك من نون، من العدم: لم أعثر لنفسي على مكان أستطيع أن أقف عليه....». إذن، لقد كانت اللجّة البدائية نون هي البيئة التي ولدت الحياة فيها. وهناك واحدة من التنويعات الأخرى لأسطورة الخلق، ربطت ولادة الحياة بهضبة بدائية. ويبدو على أغلب الظن أن الواقع الجغرافي هو الذي يقف خلف هذه الرؤية: عندما تغمر مياه فيضان النيل الحقول ثم تنحسر، تترك خلفها في المكان كومات من الطمي الخصب؛ وقد وضع الفلاح المصري كل أمله بالمحصول المنتظر في ذلك الطمي. وإذ يلفح حر الشمس كومات الطين تتشقق، ولذلك تبدو فكرة ولادة الحياة من الهضبة البدائية بن- بن طبيعية تماماً بالنسبة للمصريين القدماء.

ويروى في واحدة من الأساطير أن الخلق حدث على هضبة في مدينة هرمو بوليس. ولكن هذا يعني في الوقت نفسه أن الآلهة كانوا يعيشون هناك قبل ذلك، أي قبل الخلق. فهل في الأسطورة خطأ؟ كلا، فلو أمعنا قليلاً في أسماء الآلهة، لتبين لنا أنها تمثل مختلف صفات الكاوس، فهؤلاء هم: الأوغادوادا، أو الآلهة الثمانية الذين كانوا موجودين قبل البدء. وقد تألفت هذه من نون: المياه البدئية، وزوجته ناونيت: عكس المساء، وخوخو: المكان اللا متناهي، الهيولي؛ وخاوخيت زوجته: اللا نهاية، وكوك: الغيهب الديجور، وزوجته كاوكيت: الظلام والديجور؛ وآمون: المكنون، الكاوس الذي لا يدرك، المستحيل، وزوجته أمانيت: المكنون والخفي. وهكذا تنقل الأوغادوادا صورة الكاوس وفكرته: الخراب. الفوضى البدئية.

وتحمل أساطير الشعوب الأخرى صوراً مغايرة للفوضى الكونية. ففي الأساطير الصينية يدعى الخراب الكوني (= الكاوس= الفوضى الكونية. م)، «خون- تون»، ويقدم كائناً شبه بشري لا شكل له بدون أذنين، أو عينين، أو أنف، أو فم وسوى ذلك من الفتحات: أو كلباً برياً، أو دباً. كما يتجسد الكاوس أحياناً في صورة وحش مفزع، أو أفعى- تنين: الهندي القديم فريترا خصم الإله إيندرا، أو الاغاريتي يمّو خصم الإله بعل. وعند البامبارا الأفارقة أن الكاوس هو فراغ متحرك، وهو عند الماوري البولينيزيين فراغ يمكن وصفه بالتفصيل كما يلي: تيي كوري، أي «فراغ» ؛ تي كوري توا- تاهي، أي «الفراغ الأول» ؛ تي كوري توا- روا، أي «الفراغ الثاني» ؛ تي كوري توا- نوي، أي «الفراغ الذي لا شاطئ له» ؛ تي كوري روا- بارا، أي «الفراغ غير المليء» ؛ تي كوري روا، أي «الفراغ الممتد بعيداً». ويجب ألا نعتقد أن وصف الفراغ يتوقف عند هذا الحد.

وتسوق التوراة صورة شبيهة للخراب الكوني: «كانت الأرض غير مرئية، والظلام يلف اللجة، ...». إذن قبل أن تظهر السماء، والأرض، وكل ما هو حي في العالم، بل العالم نفسه، كان الخراب هو السائد. ثم وخلق العالم وكل ما هو كائن فيه. فكيف حدث ذلك؟



إلهة الماء.

معبد في مملكة ماري

غالباً ما يعدَ الماء في الأساطير العنصر الأول من عناصر الكون وقد بجَل القدماء ماهيته التطهيرية وتأثيره المانح الشباب وأكد ك. هـ يونغ على أن الماء هو رمز اللا وعي الأكثر تواتراً.

لا نعثر في الأساطير على إجابة متماثلة لهذا السؤال. فهنا أيضاً كما في صور الكاوس، لوحة غنية فيها شتى التنويعات التي يفوق واحدها الآخر تعبيرية. فأساطير ماري على سبيل المثال تشرح ولادة العالم هكذا: بعد الفراغ الذي ساد في البدء، حل عصر الغسق الأول، وتلا ذلك وقت النهار الأول. ثم حل بعده طور «المكان»، الذي حل عصر الرطوبة في إثره، وأخيراً ولد الوالدان البدئيان: الأرض- بابا والسماء- رانغي.

ومثلما نبني البيت من الآجر، كذلك بني العالم من عناصر البيئة، أو العناصر الأولى: الماء، والهواء، والنار، والتراب، وقد أدى الماء الدور الرئيس في أكثر الحالات. وتقول إحدى الأساطير الهندية القديمة: «طبعاً كان الماء هذا كله في البدء». فالماء هو الجوف، هو المهد، هو العنصر الأنثوي، بل لقد ساووا المياه مع زوجات الإله. وقد رأوا في المياه معطى من العبث التفكير في نشأته. وغدت هذه المياه عنصر بناء الكون ومستنده، أما ظهور الأرض فيها فقد كان إيذاناً ببدء الخطوات الأولى لصيرورة العالم.

لقد شاعت «نظريات» ميثولوجية مختلفة حاولت أن تعطي تفسيراً لكيفية بدء الحياة على الأرض. فأحياناً من قبضة تراب يرفعها من قاع المحيط البدئي الطائر- الغواص، أو كائن ما آخر، كما جاء في أساطير الهنود الحمر الأمريكيين، وبعض شعوب سيبيريا؛ وأحياناً أخرى تطفو الأرض نفسها في شكل هضبة، كما في الميثولوجيا المصرية والميثولوجيا الهندية.

وفي الأساطير اليابانية أن الزوج الإلهي الأول ايدزاناغي وايدزانامي هما من خلق الأرض، أي الارخبيل الياباني. وكانت تتلاطم تحت قبة السماء التي يقيم فيها الآلهة، أمواج البيئة المائية، فتلقى الزوج الإلهي أمراً من الآلهة الآخرين كلهم بمنح الأرض شكلاً صلباً وحدوداً واضحة دقيقة. فمضى ايدزانامي وايدزاناغي إلى الجسر المعلق في السماء، وانزلا في الماء الرمح السماوي المرصع بالحجارة الكريمة، وأخذا يحركان الماء به. وتبين لهما أن الماء خال من أي صلابة، ثم وقعا على أرض هلامية تعوم فيه كالرخويات في المحيط. وعندما أخذا الرمح من الماء تصلّبت القطرة التي قطرت من رأسه وتحولت إلى أول جزر الارخبيل. وعلى هذه الجزيرة الصغيرة أقام ايدزانامي وايدزاناغي وحيدين، ثم أنجبا جزراً أخرى، وكذلك الآلهة حماة البحار، والأنهار، والشجر، والأعشاب، و...

وحسب تنويعة ميثولوجية أخرى كثيراً ما نصادفها لدى شعوب شتى، أن أمواج المحيط البدئي تلاطم بعضها مع بعض، فظهرت جراء ذلك البيضة الذهبية التي جرى الحديث عنها سابقاً. ومن شطرها العلوي صنعت السماء، ومن السفلي صنعت الأرض. ويظهر من البيضة الآلهة في بعض الأساطير، وهؤلاء هم أنفسهم الذين يخلقون العالم: البابلية عشتار التي انبثقت من البيضة في صورة حمامة. وفي أسطورة الاستيك الأمريكيين أن إلهة الأرض هي التي وضعت البداية لكلّ شيء: شطرها الآلهة إلى شطرين شكل أحدهما سطح الأرض، وشكل الآخر السماء، ونبت من شعر الإلهة الشجر، والزهر، والأعشاب، وخرجت من فمها وعينيها الأنهار، والكهوف، ومن أنفها وكتفيها الجبال والوديان.

وفي إحدى التنويعات يشبه الماء الأرض: حسب رؤى الهنود الحمر في جنوبي أمريكا، أن الأرض البدئية كانت طرية لدرجة أن كل شيء كان يغرق فيها. ولم تتحول إلى يابسة إلا فيما بعد، ثم بعدئذٍ أخذت تنجب كل ما هو موجود الآن في العالم. ؟

أما في الميثولوجيا السكندينافية، فقد خلق العالم بطريقة مغايرة تماماً: لقد ظهر نتيجة لسلسة من تحولات أجزاء جسد العملاق إيمير: حوله الآلهة إلى أرض، وحولوا عظامه إلى صخور، وجمجمته سماء، ودماءه بحراً، وشعره شجراً، وأهدابه مدغارد، أي الأرض التي يعيش عليها البشر؛ ودماغه سحباً. ولكن إيمير نفسه خلق خلقاً: تشكل من تحول قطرات أنهار ايليواغار السامّة. وكانت هذه القطرات قد تشكلت بدورها من الندى الثلجي الذي طفا على وجه الجليد. وظهرت من الندى الذائب آودوملا أيضاً، وهي البقرة- الأولى العملاقة التي أرضعت إيمير لبنها.

ونجد الصورة عينها في الأساطير الصينية: بان- غو الذي يشبه الإنسان، أو كلباً عملاقاً يغطي جسده الصوف، أعطى كل حي بداية حياته. وكان بان- غو نفسه قد ولد من بيضة عملاقة يذكر شكلها بالعالم عندما كان لا يزال مقيماً في الخراب. لقد نشأ بان- غو ونما ثم غفا. وقد استمرت غفوته ثمانية عشر ألف عام. وحينما استيقظ لم ير أي شيء حوله سوى الديجور الأسود الحالك. فضربه، وانفلقت البيضة محدثة دوياً مروعاً. وفي اللحظة عينها ارتفع كل خفيف ونقي فيها إلى فوق وتشكلت السماء منه، أما الثقيل القذر فقد هبط إلى تحت وتشكلت الأرض منه. وتحاشياً لإمكانية اتحاد الأرض والسماء مرة أخرى، ثبت بان- غو رجليه في الأرض وسند السماء برأسه. وفي كل يوم كانت السماء ترتفع أعلى فأعلى والأرض تغدو أكثر سماكة، ومعهما كان بان- غو ينمو. وتتالت العصور والحقب وصار طول بان- غو بطول عمود عملاق، ولكنه بقي واقفاً بين الأرض والسماء يمنعهما من الاتحاد ثانية والعودة

إلى حالة الخراب. وأخيراً باتت الأرض والسماء راسختين بقوة، وعندئذ فقط قرر بان- غو أن يرتاح بعد أعماله الشاقة. ولما مات تحول الهواء الذي خرج من صدره على رياح وسحب، وظهرت الأرض من جسده، والحجارة من عظامه، والنباتات من شعر جسده، والكواكب من شعر رأسه، والأمطار من عرقه، والشمس والهلال من عينيه، والدروب من عروقه، والرعد من صوته، وتحولت أسنانه وعظامه ونقي عظامه إلى معدن لامع، إلى حجر صلب وجوهرة تبرق. وحتى العرق الذي ظهر على جسده تحول قطرات مطر وندى. وهكذا أعطى بان- غو بموته نفسه للعالم، الذي تحول نتيجة لهذه الأضحية الأولى إلى عالم راسخ بديع.

وتعرف الميثولوجيا الصينية روايات أخرى عن خلق العالم. فالداوسيون الذين حافظوا على كثير من الإرث الميثولوجي القديم، يقصون الأسطورة الكوسموغونية (= أسطورة الخلق) في المثل التالي: في زمن ما كان يعيش إمبراطوران إلها الشمال والجنوب اللذان دعوهما: المتسرع والمباغت، وعاش الكاوس بينهما في الوسط. وغالباً ما كان الإمبراطوران يترددان إليه كضيفين فيكرمهما ويحسن ضيافتهما. فعزم الإمبراطوران على أن يشكراه على حسن ضيافته، فأحدثا فيه سبعة ثقوب: العينان، والأذنان، وفتحتا الأنف، والفم. وكان هذان يثقبان ثقباً واحداً كلّ يوم، فمات الكاوس بعد سبعة أيام، وأدى موته إلى ظهور الكوسموس (= النظام الكوني). ويسعى الداوسيون إلى امتلاك فنون «السيد كاوس» ومهاراته، والعودة إلى البساطة وكمال وحدته البدئية غير المولودة.

أما في الميثولوجيا المصرية القديمة فإن العالم ينبسط بشكل مغاير: من اللجة البدئية نون يظهر الإله آتوم الذي تفل كل ما كان شو، أي الهواء، وهذا بدوره تجشأ ما كان تفنوت، أي الرطوبة؛ وقد يظهر هذان في بعض الأحيان نتيجة لانقذاف بذور آتوم. ثم ينجب هذان الزوجان الأرض اوزيريس مع ايزيس، وست مع نفطيس. والسماء أي الإلهين غب ونوت، وينجب هذان بدورهما وهكذا ينعكس تاريخ خلق العالم كله في ظهور عائلة الآلهة التسعة الحاكمة. وقد فعلت هذه التاسوعة، أو الاينيادا التي تتألف من أربعة أزواج من الآلهة الأقارب، فكرة الارتقاء نحو النظام الكوني، ونقلت صورته.

كما تحمل الأساطير المصرية القديمة تنويعة أخرى من تنويعات خلق العالم: يسمي الإله بتاح الأشياء بأسماء فتظهر، أي أنه يخلق العالم «بقلبه ولسانه» فقط، وهذا ما فعله أيضاً الإله التوراتي؛ ولذلك جاء في الإنجيل: «في البدء كان الكلمة، والكلمة عند الله.. ».

أما الإله البابلي الأكبر مردوك فقد خلق العالم هكذا: عندما سُلبت «الأم الأولى تيامات والدة كل شيء»، زوجها أبسو الذي قتله انكي الذي يرى كل شيء، تملكها غضب

شديد، فخلقت حشداً من الكائنات المتوحشة وعلى رأسه كينفو. ولما رأى الآلهة منظر تيامات وقوتها مع مثل هذا الدعم، دب الفزع في قلوبهم ولم يجرؤ أحد منهم على الخروج إليها سوى الفتى مردوك. وقد تسلح لها بقوس، وهراوة، وشبكة، وأخذ معه رياح الكون الأربع، والعواصف السبع واندفع على تيامات. ففتحت هذه شدقها الواسع لكي تبتلعه، لكنه أطلق فيه الريح التي نفختها فعجزت عن إغلاق شدقها ثانية، ثم رماها بسهم، وشطر جوفها، وبقر بطنها، وانتزع قلبها. وبعد ذلك شطر جثتها، و «تصرف بدهاء»:

قطعها نصفين، تماماً كأنها قوقعة.

وأخذ نصفاً فغطى السماء به.

وصنع أرتجة، وأقام حراساً-

فلينظروا كي لا تتسرب المياه...

وصنع نجوماً- كواكب على شبه الآلهة.

لقد قسم العام: رسم رسماً:

اثني عشر شهراً نجمياً رتبها ثلاثة ثلاثة..

ثم وضع رأس تيامات، وأهال جبلاً فوقها...

وأطلق دجلة والفرات عبر محجريها...

وهكذا صنع هو السماء والأرض.

كما حدد للآلهة أملاكها، وعرفاناً منهم بالجميل بنى الآلهة لمردوك «بابل السماوية»، وأعلنوا أسماءه الخمسين التي تشهد على سلطته.

وفي الميثولوجيا الاستيكية حقق الإلهان كيتسالكواتل وتيسكاتليبوكا الفصل بين السماء والأرض. فقد تحولا إلى ثعبانين، ومزقا الكائن المتوحش العائم في المحيط البدئي، إلى أجزاء. وصنعا الأرض من أحدها، والسماء من الآخر. وفي الأثناء كان كيتسالكواتل يبحر في مياه المحيط على متن طوفه المصنوع من الثعابين.

ولكن أساطير المايا تسوق لنا رواية مختلفة عن خلق العالم:

لقد ولد زمن المايا وأخذ اسمه،

قبل أن توجد السماء،

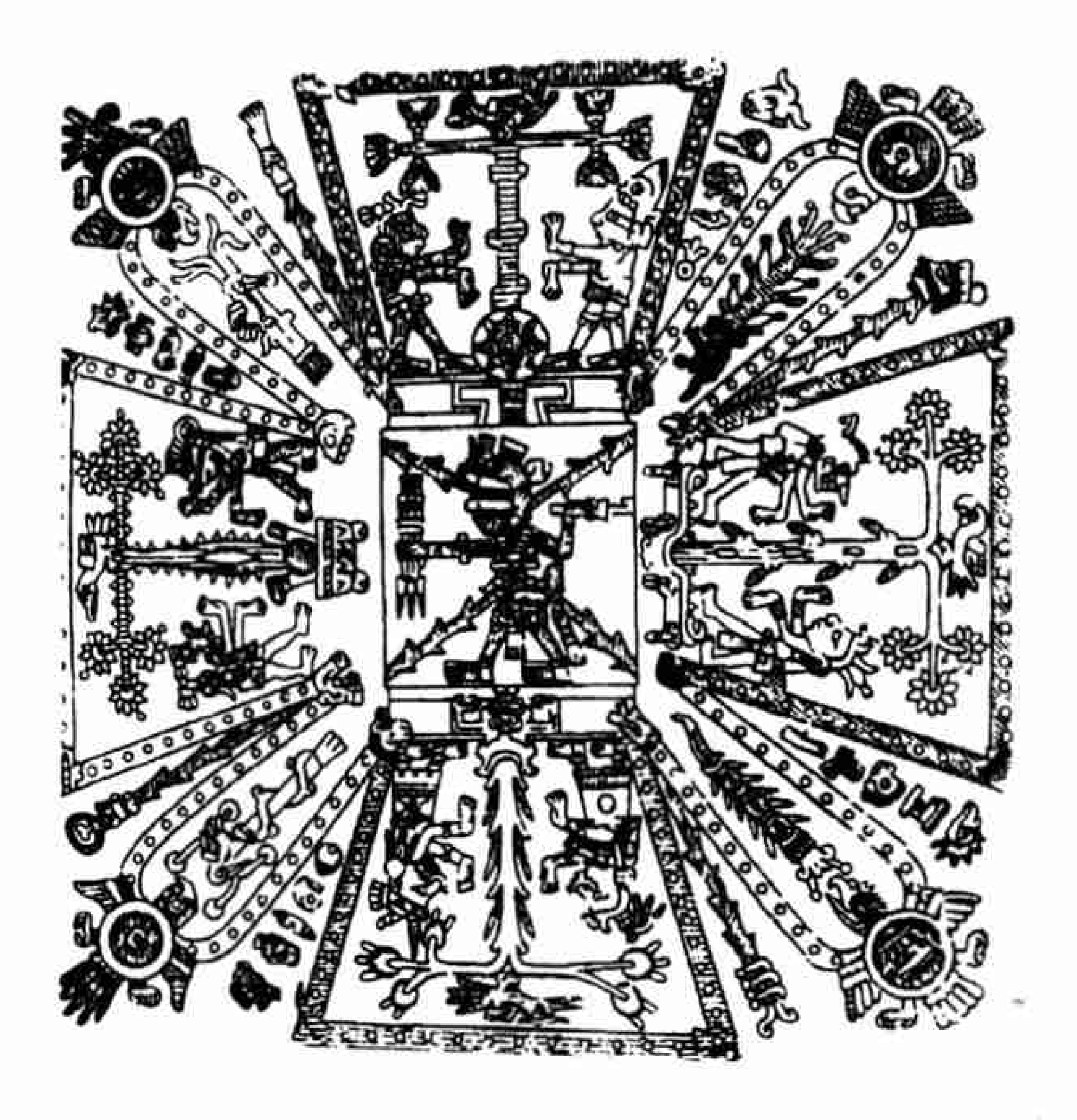
بل قبل أن تستيقظ الأرض.

لقد ولدت الأيام في الشرق ومضت في طريقها.
فانتزع اليوم الأول السماء والأرض من أحشائه.
وبنى الثاني سلماً هبط عليه المطر.
وصنع الثالث المد والجزر في البحار، وفصول السنة
وأشياء أخرى كثيرة.
وبإرادة من اليوم الرابع مالت السماء والأرض بعضهما
نحو الآخر، ونجحا في تحقيق اللقاء، فظهر الأفق.
وقرر اليوم الخامس أنه ينبغي على جميعهم إن يعمل.
ومنح اليوم السادس النور الأول.
وصنع اليوم السابع الأرض هناك حيث لم يكن لها
وأخذ الثامن بيديه كل ما على الأرض.
وشكلّ اليوم التاسع تحت الأرض
وكرس اليوم العاشر تحت الأرض لكل من في نفسه
وصنع اليوم الحادي عشر بمشاركة الشمس، الحجر
وصنع الثاني عشر الريح.
ونفخت الريح، ولكن بما أنها لم تستطع أن تموت،
فقد دعيت روحاً...

ولكن مهما تباينت تنويعات الإجابة على سؤال: كيف خلق العالم، فإن إنشاء الأساطير الكوسموغونية يسعى في الحالات كلها إلى تحويل الكاوس البدئي (= الخراب البدئي. م) إلى كوسموس (= نظام كوني. م).

ونقف في أحيان كثيرة على تنويعات متباينة لأساطير خلق العالم لدى الشعب نفسه، وليس لدى شعوب مختلفة فقط. «فالريغفيدا» مثلاً، وهي «ديوان» الأناشيد الهندية القديمة، تسوق لنا قائمة كاملة من مختلف روايات الخلق، لكنها لا تعطي الأفضلية لأيّ منها. وهذا مفهوم: ثمة في بناء العالم سر ليس الإنسان مؤهلاً لمعرفته. ولن تجد في «الريغفيدا» إجابة على سؤال: كيف خلق العالم الذي أعده الآلهة للجنس البشري.

كيف بني هذا العالم



مخطط العالم

عند المكسيك القدماء في صورة صليب

لقد كان لمهفوم محور العالم، أو مركز العالم أهمية فائقة في الأنماط الكونية كلّها؛ ولم يكن نادراً أن يندغم هذا المركز بالكون الأعظم والكون الأصغر.

تشهد الأساطير شهادة قاطعة على أن الناس في مختلف أرجاء الأرض قد رأوا العالم في صورة واحدة تقريباً. ولنمض بادئ ذي بدء إلى الأسطورة السومرية القديمة.

.. لا أحد يعرف كم مضى من الزمان قبل اللحظة التي ولد فيها جبل عملاق على شكل نصف كرة في جوف أم العالم الإلهة الجبارة نامو التي كانت كامنة في جوف المحيط البدئي. وكانت قاعدة الجبل من الطين اللين، وقمته من القصدير النقي اللامع. وقد أقام الإله آن، أقدم الآلهة، على قمة الجبل، واستلقت الإلهة كي في أسفله على قرص مستو عائم في المحيط؛ وكانت الأم الأولى نامو قد أنجبتهما. لقد كان الاثنان مرتبطين بعضهما مع بعض ارتباطاً لا تنفصم عراه. ومن زواج آن وكي ولد إينليل البهي الشفاف كالهواء. وكان يكفي أن يتحرك أي حركة حتى تهب ريح عاتية. وعقب إينليل ولد لآن وكي أبناء- آلهة آخرون. وقد برز منهم السبعة الكبار: الآلهة والإلهات، الأكثر حكمة وجبروتا؛ وأخذوا يديرون العالم ويقررون مصيره. أما الأصغر في عائلة الآلهة فهم الانوناكي الذين دعوهم باسمهم هذا تيمناً باسم والدهم آن. ثم تزايدت أعداد الآلهة أكثر فأكثر.

وفي أعقاب الجيل الأول ظهر الجيل الثاني، وكبر الآلهة والإلهات وتزاوجوا وأنجبوا، وأخيراً حل الزحام في أحضان آن- السماء وكي- الأرض. فتوسلوا أخاهم الأكبر إينليل وطلبوا عونه، ولم يكن إينليل يكبر بالأيام بل بالساعات حتى غدا أكبر وأكبر، وأكثر تمدداً وعصياناً. فأخذ هذا سكيناً نحاسية وقطع طرف السماء، فانفصل الإله آن عن زوجته الإلهة الأرض كي وهو يئن متوجعاً. وبقي القرص المستوى الذي كانت الإلهة الأرض مستلقية عليه، طافياً على سطح الأرض، وتشاطأ المحيط البدئي مع أطرافه، أما نصف الكرة القصديري المهول فقد حلق في الهواء وبقي معلقاً هناك: هكذا انفصل الأب- السماء والأم- الأرض انفصالاً أزلياً، وامتلأ المكان المترامي الذي تشكل بينهما بكثرة كثيرة من الآلهة..

ويرسم الماوري البولنيزيون لوحة مشابهة للوحة السومرية. فتروي أساطيرهم:

أن رانغي السماء- الأب، وبابا الأرض- الأم بقيا زمناً طويلاً مستلقيين يعانق أحدهما الآخر، أما أبناؤهما فقد كانوا يتلمسون طريقهم بينهما كالعميان.

وأخيراً قام أحدهم، وهو تانيه- ما هوتا الجبار، أب الغابات، والطيور، والحشرات وكل الكائنات الحية التي تعشق النور والحرية، فثبّت رجليه في الأرض ويديه إلى السماء وجمع كل قواه ودفع الأرض بقدميه.

ونقف على بناء مماثل للعالم الذي خلق لتوه، عند المصريين القدماء. فقد تخيل هؤلاء الأرض في صورة طبق مستو حوافه متغضنة. قاعه الداخلي، هو سهل مصر المستوي؛ وحوافه المتغضنة. هي سلسلة الأراضي الجبلية الغريبة. وكان الطبق- الأرض عائماً في المياه البدئية نون التي ظهرت الحياة منها. وتعلقت فوق الأرض كأس السماء المقلوبة. وتوضع إله الهواء شو بين الأرض والسماء: كان على هذا أن يقف على الأرض راسخاً لكي يسند السماء كلها. وعادة ما صور المصريون الإلهة السماء نوت تميل نحو الأرض منخفضة، نحو الإله غب؛ ولكن الإله الهواء شو يسند جسدها.

أما التوارة فقد صورت السماء على شكل قبة حديدية مهولة، مقلوبة فوق الأرض. فقد جاء في سفر أيوب: «بسط السموات صلدة كالمرآة المسكوبة».

وعلى هذه الشاكلة عينها تخيل التتر السماء في صورة خيمة، ودرب اللبن درزاً خيطت السماء به؛ والنجوم ثقوباً في الخيمة ينفذ النور منها إلى الداخل.

ومن وقت لآخر يفتح الآلهة الخيمة وينظرون الأرض: إنه سقوط النيازك. وتخيلوا السماء في بعض الأحيان غطاء لا يطابق الأطراف تمام المطابقة، فتهب الرياح عبر الثغور، ويعبر الأبطال الشجعان إلى السماء.

وحسب الميثولوجيا اليابانية أن بلاد الديجور تتوضع تحت، وتدعى هذه أيضاً بلاد الجذور، والبلاد القاعية، بل البلاد الأم أيضاً. وتتوضع فوق هذا الحضيض الذي يشبه العالم المعتاد لكنه مظلم لا نور فيه، بلاد وديان القصب الوسطى التي يعش فيها البشر وكثرة من الآلهة. وإلى الأعلى يتوضع سهل السماء العليا، وتقيم هناك الإلهة الشمس والتابعون لها. ومن الواضح أن هذه العوالم كلها مبنية بناء واحداً، ولذلك يلمع على سهل السماء بحرها، وتخضر حقول الرز فيها، وتنمو في بلاد الديجور الأشجار كما على الأرض.

وأخيراً حسب الأساطير الإغريقية أن المحيط الكوني يحيط بالأرض من جميع جهاتها، وأن كواكب السماء تخرج منه وتغوص فيه بعد أن تنهي رحلتها النهارية فوق الأرض. وعند المياه الغربية للمحيط يقف العملاق الجبار أطلس حاملاً السماء على كتفيه. وإلى جانبه في البستان السحري تعيش بناته الهسبيريدات اللواتي تحرسن التفاحات الذهبية التي تمنح الشباب الأبدي. كما تتوضع في الغرب أيضاً حقول الإليزيه، وهي جزر النعيم التي يعيش فيها الأبطال المنتخبون الذين أنقذهم الآلهة من الموت. وفي أعماق الأرض تستلقي اللجة الكئيبة تارتاروس التي يحيط بها الديجور الثلاثي الطبقات، والإعصار الأزلي، والبوابات النحاسية: هي بمثابة السجن الذي ألقي بالطيطانيس الذين هزمهم الأوليمبيون إليه.

والآن، ما الذي يجمع بين هذه الأساطير؟ يجمع بينها أن الشعوب كلها تقريباً تخيلت العالم مؤلفاً من ثلاث «طبقات» كبيرة:

السماء، والعالم الأوسط، أو الأرض، والعالم السفلي.

ولكل «طابق» من الطوابق الثلاثة سكانه:

في السماء يقيم الآلهة،

وعلى الأرض يعيش البشر،

وفي العالم السفلي يقيم الأموات غالباً، أو كائنات خاصة أخرى.

ولكننا نصادف في الميثولوجيا السكندينافية تصوراً خاصاً لا عن ثلاثة عوالم أو أربعة، وإنما عن سبعة أو حتى تسعة عوالم موجودة في وقت واحد ويسكنها بشر، وآسات وفانات، وألفات من ذوي اللون القاتم والفاتح، واليوتونات، والدفرغار، أي الأقزام، وكذلك الأموات.

ويرى العلماء أن هذه البنية الخاصة للعالم تعكس السمات الفريدة للوسط الذي عاشت فيه الشعوب السكندينافية: لقد عاش النروجيون والايسلنديون في شريط من الأرض الساحلية يحيط به البحر والجبال والغابات. ويجب أن نفترض أن عدد العوالم يتصل بالمغزى السحري للأعداد، هذا المغزى الذي لا يزال غامضاً حتى اليوم. ويرتبط به أيضاً عدد السموات. وقد تخيل كثير من الشعوب صفحة السماء صلبة وعدوا أن عليها كما على الأرض، تستقر الجبال، والبحيرات، وينمو الشجر، وأحياناً تسرح الحيوانات. وبقدر ما يكون الإله مهماً بقدر ما يكون مكان إقامته أعلى. فقد زعم الالطائيون

مثلاً أن إلههم الأكبر اولجين يقيم في السماء التاسعة أو الثانية عشرة أو الخامسة عشرة، أو السادسة عشرة؛ وهو يستوي هناك على عرش ذهبي في قصر ذهبي يقع فوق جبل ذهبي.

وقد تكون السموات عديدة كالعوالم:

أحياناً اثنتان، وأحياناً ثلاث، وأحياناً خمس، أو ست، بل اثنتا عشرة وأكثر. ومن المفيد أن نتذكر في هذا السياق تعبيرنا الدارج: «من فرط السعادة أشعر كأني في السماء السابعة». فجذور هذا التعبير كامنة هنا، في أساطير الخلق القديمة دون ريب. وحسب الميثولوجيا الهندوسية أن سبع طبقات سماوية تتدلى فوق الأرض، وبقدر ما تكون السماء أعلى بقدر ما تكون بديعة أكثر. ويقيم في السموات الآلهة والكائنات الأخرى ذات الطبيعة الإلهية. أما تحت الأرض فتمتد عميقاً طبقات باتالا: العالم السفلي، حيث يعيش الناغا: أنصاف بشر. وأنصاف ثعابين، وكائنات أخرى؛ وتنبسط تحت هؤلاء دوائر الجحيم- الناراكي السبع، ويسند الثعبان شيشا هذا كله. وتحيط بهذا العالم الذي ظهر من بيضة براهما، قشرة تفصله عن كثرة لا عد لها من العوالم الأخرى.

وسوف نتعرف عن قرب في فقرات آتية على كل من هذه العوالم الثلاثة:

العالم السماوي مقر الآلهة،

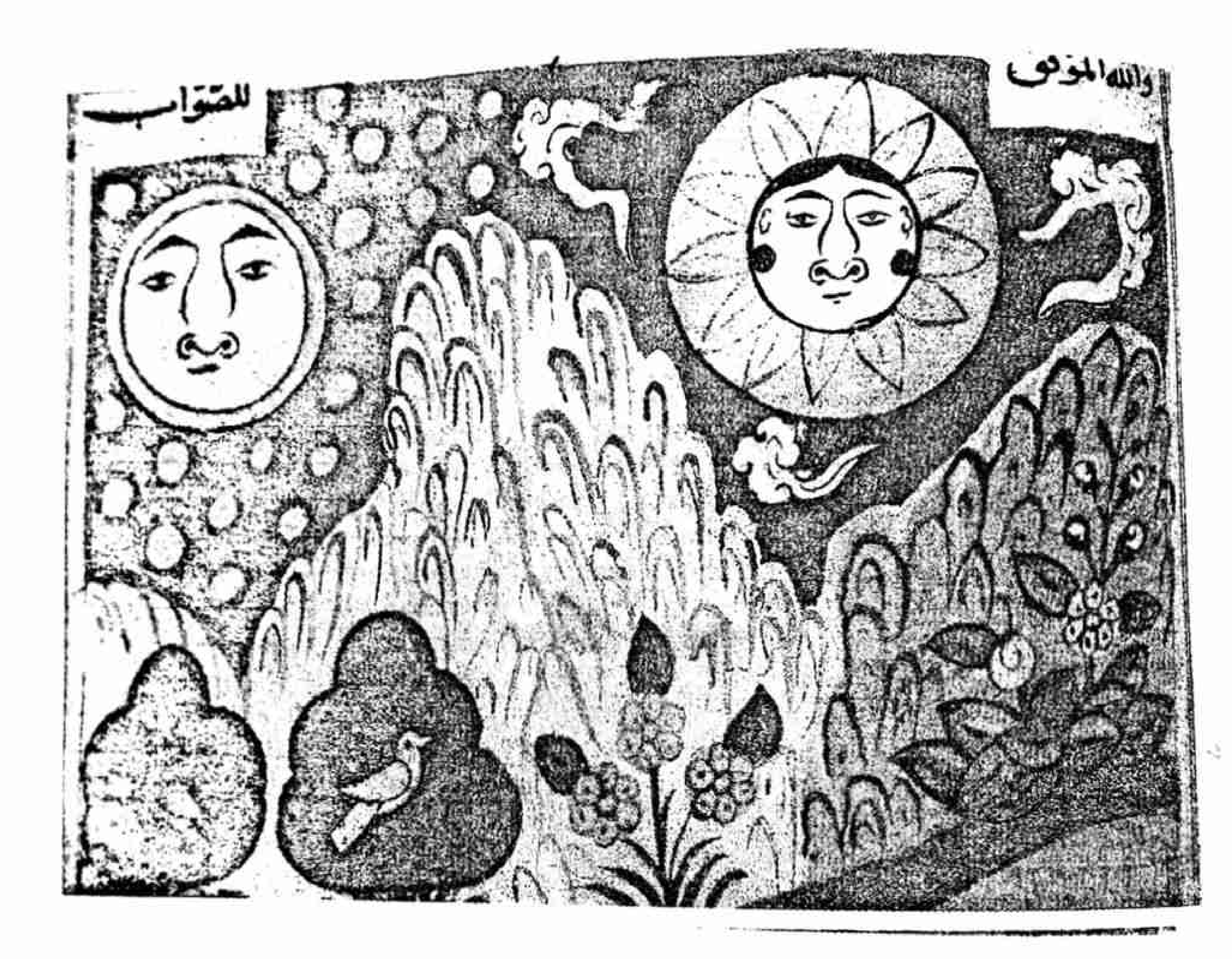
والعالم الأرضي مقر البشر،

والعالم السفلي مقر الأموات.

أما الآن فإن الأمر المهم بالنسبة لنا هو إثبات أن الأساطير القديمة كلها تقريباً، رسمت لوحات متشابهة لبنية العالم. ولكن الحكماء أدركوا أن بنية عالمنا اللا متناهية هذه بكل ما عليها ليست أكثر من حلقة متناهية في الصغر من سلسلة حلقات الخلق الإلهي.، ويهيأ لنا أن هذا الإحساس كان معروفاً جيداً جداً لدى الحكيم الهندي الأسطوري ماركانديا الذي أمضى آلاف السنين متجولاً واستغرق متفكراً يريد معرفة سر خلق العالم. وما أن فكر مرة في هذا وإذ به يغرق في ظلام دامس وينبسط حوله كاوس (= خراب. م) مائي. وفجأة يرى أمامه إنساناً يغفو نائماً على هذه المياه، وينبعث من جسده نور. فأدرك ماركانديا أن الذي أمامه هو الإله العظيم فيشنو؛ ولما استنشق هذا في نومه جم الحكيم في ذاته.

وفي اللحظة عينها ألفى ماركاندريا نفسه في العالم المعتاد: عالم الحقول، والغابات، والمدن، والقرى. فظن إنه غفا قليلاً، ثم استأنف ترحاله عبر الأرض. وانصرمت آلاف أخرى من السنين. ويوماً رأى مرة أخرى حلماً مدهشاً:

لقد رأى طفلاً نائماً على غصن شجرة البانيا في صحراء مقفرة، ينبعث منه ضياء. ومرة أخرى ابتلع النائم ماركانديا، الذي ألفى نفسه من جديد في العالم المألوف. لكنه أدرك الآن أن ذلك لم يكن حلماً بل حقيقة...



رسم توضيحي من كتاب

«عجائب الخلق»

الذي وضعه الكوسموجرافي العربي القزويني الذي عاش في القرن الميلادي الثالث عشر، ويغلب على الكتاب الطابع الميثولوجي لإدراك العالم

في إحدى الأساطير الهندية القديمة أن إله الرعد إيندرا هو الذي خلق العالم. فقد كانت الأرض البدئية تتأرجح وسط المياه البدئية على شكل هضبة صغيرة. ولم يكن لها أي سند، فأخذ إيندرا يعمل على تثبيتها. ولكن التنين فريترا كان يستلقي على تلك الهضبة، واسم هذا نفسه يعني: «المقاومة»، «العقبة». فقتله إيندرا بفاجراه حاملة الموت. ونلقى الصورة والمحور نفسيهما في أساطير شعوب أخرى، بمن فيهم الوثنيين السلاف. «فنسيب» إيندرا السلافي، هو بيرون إله العاصفة الرعدية المسلح بالهراوة، والقوس والسهام، والفأس: لقد رأوا في الصواعق السماوية سهام هذا الإله أو فأسه الطائرة. وتروي الأسطورة قصة الصراع بين بيرون والثعبان، وهي بإيجاز شديد: كان الثعبان ساكن العالم السفلي يخطف سكان العالم الأوسط من قطعان وبشر وما شابه، ويخفيهم في كهوفه؛ ولكن إله الرعد السماوي يفلق بفأسه أو عصاه الصخرة ويحرر الأسرى. ونحن عملياً لا نعرف شيئاً عن الأساطير السلافية؛ فمع اعتناق المسيحية عملت الكنيسة بعناد ودأب على محو الآلهة الوثنية من ذاكرة الناس بصفتها آلهة بغيضة من بقايا «الديانة الدنسة»، ولذلك لم يصل إلينا منها سوى أصداء بعيدة كهذه الأسطورة عن صراع بيرون والثعبان.

ولكن هناك أسطورة هندية قديمة شبيهة بالأسطورة السلافية ومعروفة بشكل أفضل، فالهند لم تعرف انقطاعات مؤلمة في «سلسلة الأزمنة» كالتي عرفتها روسيا. وتتحدث الأسطورة المعنية عن إيندرا الذي شطر الهضبة حتى أساسها وفتحها. فخرجت الحياة من الهضبة في صورة ماء ونار: الماء في أربعة أنهار جرت من أعلى الهضبة، وتحولت النار شمساً ارتفعت إلى الأعلى. وكفت الهضبة البدئية عن العوم في الماء، فاكتسبت قاعدة وأخذت تتنامى في الاتجاهات كلها حتى بلغت أبعاد الأرض المعروفة الآن. لقد سمّر إيندرا الأرض إلى «قاع المياه»، ثم «استقرت الأرض متوازنة، وهدأ الجبل الذي حاول أن يهرب. واستقر بحذر».

وتتحدث أساطير خلق العالم كلها عن مسند الأرض؛ ويولي، هذا فيها اهتماماً واضحاً. فثمة عند النينيين السيبيريين حكاية عن رجلين عاشا وحيدين في زمن خلق العالم.

ومضى أحدهما يوماً إلى الصيد، لكنّه لم يعثر على طريدة. في طريق عودته صادف الرجل ثقباً في الأرض، فدخل فيه وإذ به يجد نفسه داخل كوخ حديدي. وقد فشل في أن يجد مخرجاً منه فأسقط في يده. وفي أثناء ذلك كان رفيقه الآخر قد بدأ يقلق عليه، فأخذ الطبل وغنى أغنية سحرية، وكان ذلك يعني أنه قد أخذ طريقة بطريقة سحرية ومشى. وها هو يسمع «صوتاً في رأسه»: يقول: «لقد وصل رفيقك إلى بيت جدك عجوز الأرض. وهناك يعيش».

ومشى الرجل على آثار رفيقه المفقود سبعة أيام، ووصل في اليوم الثامن إلى الثقب عينه. فدخله ومشى سبعة أيام أخرى، ووصل في اليوم الثامن إلى الكوخ الحديدي، وخمن أن هذا هو بيت عجوز الأرض. وكان هذا يمسك الأرض بيديه، وقد وضّح الأمر قائلاً: «هذه هي أرضنا الطرية. ولو أطلقتها من يدي لاندثرت في الحال». ثم مضى يقول: «لقد تعبت يداي وبدأتا ترتجفان، وأرضنا غير مستقرة، لذلك أريد أن أجعل منك ثقلاً للأرض. وأريد أن يغدو رفيقك رجلاً للأرض لكي تسندا يدي. وهذا هو مصيركما، وسوف تقدم لكما ذبائح دموية». بعد ذلك ترك العجوز مكانه وصار جبلاً مقدساً. ويعتقد النينسيون أن الأرض ذات الطبقات السبع ثابتة لا تتحرك. وحسب رأيهم أن السماء هي التي تتحرك، وتتألف هذه بدورها من سبع طبقات بعضها فوق بعض.

ولكن المسند كان ضرورياً للسماء أيضاً، بل لبناء الكون برمته. فقد كان ينبغي أن يكون البناء راسخاً، ثابتاً، ومأموناً كما البيت الذي نعيش فيه. ولذلك كانت السماء في الأساطير المصرية القديمة تستند دوماً إلى أربعة أركان قائمة على أطراف الأرض الأربعة. ولهذا السبب عينه تستقر الأرض عند الهنود القدماء على أربعة فيلة جبارة، كما تقول أساطيرهم. ورأى كثير من شعوب الفولغا والقفقاس أن ثوراً مهولاً يسند الأرض بقرنيه، وعندما يتعب وينقلها من قرن لآخر، تقع الهزات الأرضية.

وقد يحدث ألا يكون المسند راسخاً، وتكاد السماء تنهار وينهار معها كل البناء الكوني بصفته منزلاً مبنياً بشكل سيئ أو حلت به كارثة. وكادت مثل هذه الكارثة تحدث حسب الخرافة الصينية القديمة، وتسقط سماء الصين عندما عزم روح المياه غون- غون الذي يتحكم بالفيضانات، أن يقتل نفسه وأخذ يطرق رأسه بجبل بوتسجو الذي كان يسند السماء. ومع أن غون- غون بقي حياً إلا أن محاولته أوقعت كارثة، فالسماء مالت على جنب واحد، والأرض هبطت مما اضطر الإلهة نيوفي أن تتدخل فوراً وتنقذ الوضع: لقد صهرت حجارة من الألوان الخمسة ودعمت بها الأعمدة التي كانت تسند السماء.

ووفق الأساطير اليابانية كما رأينا منذ قليل، ان الأرض لم تكن في الأول صلبة، بل كانت أقرب إلى الرخويات (= قنديل البحر. م) ومع الوقت ظهر منها ما يشبه نبتات القصب. ثم تحولت هذه إلى إلهين معنى اسميهما «فرخا القصب البديمان» و «الذي استقر في السماء إلى الأبد». لقد ارتبطت عملية ترسيخ الأرض في هذه الحالة بتنامي نبات القصب، وهي الظاهرة الطبيعة التي كان يمكن لليابانيين أن يشاهدوها في أي مستنقع كان.

وقد يظهر مسند الأرض في صورة مغايرة تماماً. فايفينكيو سيبيريا مثلاً، اعتقدوا أن الأرض قد خلقت على يدي ضفدعة رفعتها من تحت المياه. ولكن الإله الشرير رمى الضفدعة بسهم وقتلها، فانقلبت على ظهرها وسندت بأطرافها الأرض التي تحيط المياه بها من كل صوب. أما أساطير الايروكوا في شمالي أمريكا، فهي ترى أن السلحفاة خاخ- هو- ناخ هي التي تسند العالم. ووفق الأساطير الصينية أن السلاحف تسند الأرض. أما باتاكي سومطرة فهم على ثقة بأن الثعبان ناغا بادوخا ذا القرنين هو الذي يسند الأرض؛ وعندما تتحرّك رأسه تقع الهزات الأرضية.

ووفق معتقدات الالطائيين أن اولجين الذي خلق العالم أرسى أسس الأرض على ثلاث سمكات تسمى كير- باليك. وكانت السمكة الوسطى بينهن هي السمكة الأساس؛ رأسها يتجه شمالاً، وهي معلقة من تحت غلاصمها بخطاف على وهق طرفه مثبّت إلى السماء. ويمسك الجبار مانغدي شيري بالوهق، ويراقب في الوقت نفسه حسن سير النظام: وإذا ما تراخى الوصف لا سمح الله، فقد تميل الأرض نحو الشمال وتغرق في اللجة المائية. وفي أسطورة البوريات أن الإلهة الأم أنجبت نفسها بنفسها عند جذع شجرة الصفصاف الذهبية، وخلقت من اللجج البحرية سمكة حوت جبارة وشحنت الأرض على ظهرها. وينوّه الياقوتيون إلى سمكات حديدية أسطورية تعيش في البحار السفلية حاملة البناء الكوني.

ويحكي بعض أساطير سكان بولينيزيا قصة ماوي الحاذق الذي ركب القارب يوماً مع أخوته ومضى يصيد السمك. وكان معه خطاف له فاعلية سحرية. فقد كان الخطاف مصنوعاً من فك جدة ماوي المدعوة موري- رانغي- فينوي، ومصقولاً صقلاً جيداً، ومزخرفاً بالأصداف وفراء الكلاب. ولم يشأ أخوة ماوي أن يعطوه طعماً يصيد به. لأنه كان محتالاً شهيراً، فمن يعرف بماذا يفكر الآن! عندئذٍ ضم ماوي قبضته بقوة ولكم أنفه لكمة أسالت منه الدماء فصبغ الخطاف بالدم ورماه وراء متن القارب.

فغاص الخيط الكتاني عميقاً في الماء، وعندما حركه ماوي أحس أن شيئاً ما قد علق بالخطاف. وكان الخطاف قد غاص ودخل مملكة تانغا- روا، إله البحر، الوالد الأول

للسمك. فشد ماوي الخيط وشرع يغني أغنية جعلت الثقيل خفيفاً. وها هي الأرض تظهر من تحت الماء؛ إنها تلمع كالسمكة، ذيلها المهول يختفي وراء الأفق. لقد عامت سمكة ماوي: تي- ايكا- آ- ماوي. وهكذا رفع ماوي من تحت الماء عالماً ساطعاً ودوداً: في السهل ترتفع المنازل، التي تتصاعد أعمدة الدخان من مداخنها، والطير تغرد، والجداول تخر.

فقفز الأخوة من القارب وتراكضوا باتجاهات مختلفة، وكل منهم يريد إن يأخذ لنفسه القطعة الأفضل. أما سمكة ماوي التي كانت تسهو على سطح البحر فقد استيقظت الآن وأخذت تتقلب وتتمطى وظهرت على جوانبها أخاديد وغضون عميقة. ولذلك تقطع الجبال والوديان الجزيرة التي تحوّلت سمكة ماوي إليها، وللسبب عينه أيضاً جاء ساحل الجزيرة صخرياً وعراً. ومنذ ذلك الوقت والجزيرة الشمالية في زيلندا الجديدة تدعى تي- إيكا- آ- ماوي، أي سمكة ماوي الكبيرة، ويدعى الرأس القائم على الساحل خطاف ماوي.

ويروي الأفريقيون- الفون أنه بعد أن أنشئت الأرض أخيراً بات واضحاً أن عليها أشياء كثيرة جدّاً: الجبال، والقرى، والحيوانات، والشجر. وقد ينهار هذا كله ويسقط في المحيط، الأمر الذي يضع العالم تحت خطر الهلاك، ولكي لا تقع الكارثة التفّت الأفعى- قوس قزح المدعوة آيدو- خويدو، حلقة وعضّت ذيلها واستلقت تحت الأرض متحوّلة بذلك إلى مسند آمن لها. وقد عدّ الافريقيون- الفون آيدو- خويدو هذه بالذات السلف الميثولوجي الذي خلق العالم. ويعني اسمها: «أنت خلقت قبل أن تخلق الأرض والسماء». وليس لآيدو- خويدو عائلة، فهي دائماً وحيدة. والحقيقة أن بعض الأساطير تقول: إنها خرجت إلى النور مع أوّل بشريين، رجل وامرأة. لقد تحرّكت آيدو- خويدو عبر الأرض، فصنعت بذلك العالم المحيط؛ واتخذ هذا في آخر المطاف الصورة التي يراه الناس فيها الآن. ولمّا صنعت الأفعى الأرض صارت إلى مسند لها، ولكنها تعوم أحياناً خارجة من تحت الماء فتنعكس في السماء قوس قزح. ويرون أحياناً أنه ثمّة اثنتين آيدو- خويدو: واحدة تعيش في البحر، والأخرى في السماء، وعلى هذه الأخيرة بالذات تنزل الصواعق إلى الأرض.

ولآيدو- خويدو خاصة واحدة: منذ البدء لا تحب الحرّ ولذلك لم تخرج من البحر. قوتها الحديد الذي كانت القردة الحمراء البحرية تصنعه. وإذا ما صادف ولم يكن عند القردة حديد، فلا يبقى لآيدو- خويدو سوى أن تعضّ ذيلها. وعندئذٍ قد تنزلق الأرض إلى البحر ويهلك الكون. ولكن ما يحدث الآن هزّات أرضية فقط: تقع هذه عندما تتحرك آيدو- خويدو لتأخذ الوضعية التي تريحها.

ونلقى لدى اليابانيين معتقدات شبيهة بهذه. فقد كان هؤلاء على إيمان راسخ بأن أرضهم تستقرّ على ظهر القرموط العظيم الحجم «نورمازدو»، أو حسب تنويعة أخرى، على حيتان مهولة. وتقع الهزات الأرضية المدمّرة عندما تتحرّك هذه الكائنات الكونية. وثمّة في الأشعار الروسية الروحية معتقدات تشبه هذه. ففيها يروى أن مسند الأرض تيت- سمكة أو كيترا- سمكة. وفي روسيا اعتقدوا فيما مضى بأن الأرض تستند على «المياه العليا»، وتستند هذه بدورها على حجر تمسك به حيتان أربعة ذهبية تقيم في النهر الناري. وقد يتحدّثون في هذا السياق عن حوت «كوني» متميّز: «يعيش في البحر الناري أو في النهر الناري وحش بركاني أو بلوتوني، هو سمكة مهولة الحجم، حوت ناري، أو ثعبان إيلياثام». ومع أن هذا الحوت يقيم في البحر- المحيط إلاّ أن «رعوداً نارية» تخرج من فمه وتطير إلى البعيد البعيد، «كأنها قذائف»، وتخرج من منخريه روح «كالريح العاتية». وقصارى القول إننا نجد في أساطير شتّى شعوب الأرض مختلف المساند التي يستند البناء الكوني عليها. ولهذا كان العالم بالنسبة إليهم راسخاً.



كاهن من بلاد ما بين النهرين

كان تقديم القرابين من أهم الأعمال التي يؤديها الكهنة الوسطاء بين البشر والآلهة. وكانت هذه تتألف من بشر، وحيوانات، وثمار، ونباتات وأشياء أخرى كثيرة. وقد اعتقدوا بأن القربان يرسل إلى الآلهة بصفته سفيراً خاصاً.

لقد قلنا غير مرّة إن الأساطير عاشت وفق قوانينها الخاصة التي قلّما تشبه قوانيننا نحن. فهي رأت أن الكون نبض واتبع دورات يومية، وشهرية، وسنوية، و... وكان إيقاع الزمن يُحسّ كخفقان القلب. وقد رأوا في هذه النبضات صراعاً بين النور والظلام، والكاوس والكوسموس؛ ورأوا فيها أيضاً صعود قوّة الحياة وهبوطها في المجتمع والطبيعة. ولم يكن للتاريخ الذي اعتدناه نحن أيّ وجود هناك، أمّا العالم الذي أنشيء كما رأينا قبل قليل، فقد خلقه الآلهة وهم الذين يهتمّون بكل شيء فيه. وما وهبه هؤلاء للجنس البشري في بداية البدء، عُدّ الخير الأسمى، وكانوا قد وهبوا كلّ ما هو ضروري: كلّ ما أحاط بالبشر وكلّ ما عاش عليه البشر. ولكن ذلك كله استهلك مع مضيّ الزمن، ترهّل وتداعى ولم يعد ذا نفع، تماماً كما يستهلك المنزل والملابس والأحذية، ولذلك بات كل شيء يحتاج التجديد. حتّى الطاقة التي تلقاها العالم في بداية خلقه استهلكت شيئاً فشيئاً.

لقد كان البناء الكوني «يبلى» دورياً: في نهاية كلّ عام أو أي دورة زمنية أخرى؛ وكانت الايقاعات السنوية مهمّة على وجه الخصوص. وأنا لا أعرف بدقّة كيف كان القدماء يفهمون هذا. ربّما ظنّوا أن العالم قد أخذ يتأرجح، وتقلّص عدد الطرائد في الغابات، وساءت المحاصيل عمّا كانت عليه من قبل، حتى الإمكانات المتاحة أمام الناس ضاقت حدودها؛ قصارى القول إن الزمن ساء وأخذ يسلك سلوكاً غريباً، وأخذ المسند يتسلل من تحت الأقدام، وبات من الضروري التصدّي للخطر المحدق ودرء الفوضى المقبلة. كان يجب أن يُملأ النقص، و «يصحّح» البناء الكوني المتأرجح، ويرمّم كما يرمّم المنزل القديم؛ لقد كان ضرورياً ضرورة ملحّة تأجيج جذوة الزمن التي خبا وهجها.

فما الذي ينبغي فعله؟ لقد كان يجب العودة إلى الأصول، والاتصال من جديد بالأسلاف الأوائل الذين كانوا في حينه قد أعطوا العالم صورته التي هو عليها الآن. ولا شك في أن الطقس كان الوسيلة الأنجح لتحقيق ذلك؛ ولذلك كان الطقس عصب حياة المجتمع القديم. وعلاوة على ذلك كان الطقس يبدد الانفعالات الزائدة: قلق الانتظار،

والاضطراب، وعدم الثقة. فلماذا التذمّر من ان «العالم يتارجح» ؟ يجب الأ ننتظر إلى ان يتهاوى، بل ينبغي أن نقيم الطقس ذا الصلة، ولن يحرم الآلهة البشر من رحمتهم! وسيتلقى البشر، والحيوانات، والنباتات احتياطياً جديداً من طاقة الحياة! ولكن ما السبيل إلى إصلاح بناء العالم المهتزّ، واستعادة الزمن؟ تماماً كما فعل الآلهة في زمن ما عندما خلقوا العالم، اي تنظيم الفوضى التي كانت سائدة قبل بدء الأزمنة، والتي تتسلل عائدة في آخر كل عام.

لقد ظنوا أن الزمن السابق يموت خلال الانتقال من دورة زمنية لأخرى. ويولد على انقاضه زمن جديد. وثمة بين هذين الزمنين، القديم والجديد، برهة تقع خارج الزمن، برهة مجهولة ولذلك فهي خطيرة، تشبه ذلك الخراب الذي كان في بداية البدايات عندما لم يكن للعالم وجود بعد. ولهذا كان من الضروري تأدية الطقوس المقررة كلها في تلك البرهة الفاصلة عينها، وتكرار أفعال الآلهة الذين خلقوا الكوسموس في حينه. وهكذا يغدو بالإمكان إعادة ذلك الزمن البدئي النقي الإلهي الذي كان قائماً لحظة الخلق. وكان الاحتفال بالعام الجديد، هو الاحتفال الرئيس الذي كانوا يؤدون خلاله مثل هذا الطقس.

ولم يكن لدى الشعوب القديمة تاريخ ثابت لبدء العام الجديد. فقد وافقوه عادة مع الانقلاب الربيعي أو الخريفي، والصيفي أو الشتوي، وتوافق كذلك مع طور ما من أطوار العمل الإنتاجي: جمع المحصول على سبيل المثال. لقد كان لدى كل شعب كثرة من الطقوس، وكانت هذه تطول أياماً: غالباً اثني عشر يوماً، وهو عدد أشهر العام الجديد. فقد كان من الضروري أن تطرد كل الرزايا التي كانت قد تراكمت خلال العام المنصرم، وتؤدى كل طقوس التطهير ويستعاد الزمن بطريقة لا تثير غضب الآلهة! وعندئذ كان البشر يكررون أفعال الآلهة: فعل الخلق الإلهي، ووقتئذ كانت تؤدى الأساطير الكوسموغونية، كما في سومر على سبيل المثال:

عند بداية البدايات، منذ نهارات خلق العالم،

عند بداية البدايات، منذ ليالي خلق العالم،

عند بداية البدايات، منذ سني خلق العالم،

عندما قُررت المصائر،

عندما وُلد الآلهة- الأنوناكي...

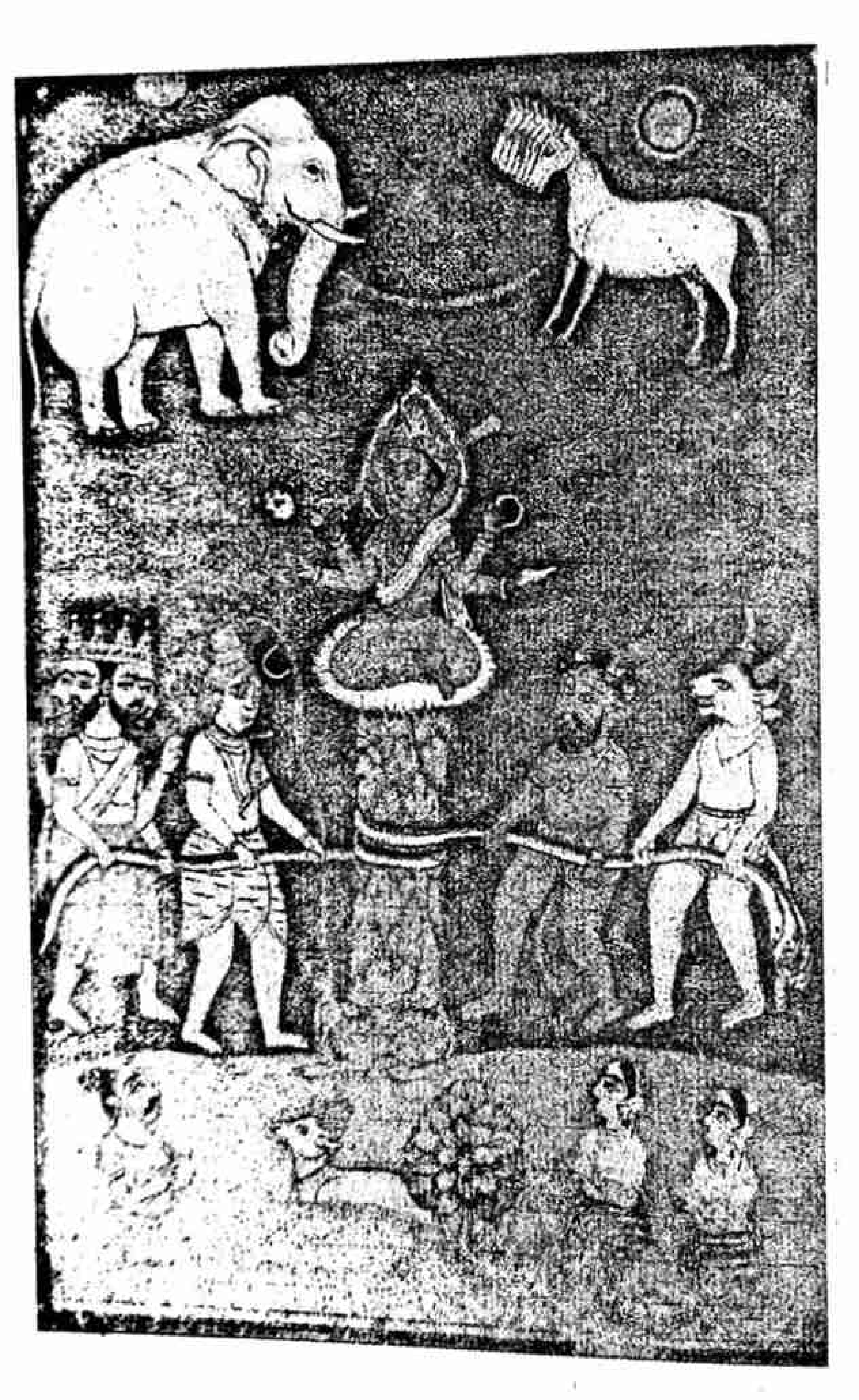
لكن الأساطير الكوسموغونية لم تكن تؤدى في آخر العام فقط، أو بمعنى أدق في البرهة الفاصلة بين الأعوام. فكثيراً ما كانوا يتذكرونها لدى مداواة المرضى. فإعادة بناء العالم ذهنياً كانت تقدم العون السحري لشفاء المريض: كأن المريض كان ينتقل إلى ذلك الزمن النبيل، زمن الازدهار البدئي. كان المريض يستمع إلى هذه الأساطير، ويحدق أحياناً في الرسومات التي رسمها المداوي فيخرج من الزمن الحاضر الرديء الذي يعيشه ليجد نفسه في الزمن الذي خلق الآلهة العظام العالم فيه. وفي أثناء ذلك كانت تتسلل إلى داخل المريض تلك القوى التي كانت تؤثر وقتئذٍ؛ وهي التي كانت تساعد على شفائه. فيبدو كأنه بدأ حياته من جديد خالية من أي أمراض، بل لم يكن فيها مكان للمرض.

كما كانت الأساطير الكوسموغونية تؤدّى أثناء إقامة طقوس التكريس، وهو ما تحدّثنا عنه سابقاً؛ وأثناء تأدية طقوس الدفن، وهو ما سوف يأتي الحديث عنه.

الباب الخامس

المطابقات السامقة

الجبل السحري



منمنمة

من

القرن الثامن عشر الميلادي،

تمثل

أسطورة مخض المحيط

لقد تخيّل الهنود الآلهة والشخصيات الميثولوجية الأخرى ورسموها في صور واقعية تماماً، فاعطوها سمات بشرية معتادة: حسنة وسيئة، ولم يتسم موقفهم منها بالخوف أو الوجل.

لنتذكر الأسطورة الهندية القديمة إذ فلق إيندرا الجبل الذي احتوى جوفه على إرهاصات الحياة كلها، وربط قاعدته «إلى قاع المياه». فمنه نفسه صنع بعد ذلك الكون بطبقاته المتعددة، الذي تألف من عدد من العوالم، ومع أن هذه الطبقات منفصل بعضها عن بعض بعوائق وحواجز، إلا أنها ليست معزولة تماماً.

ولم يكن هذا الجبل جبلاً غير عادي فقط لكونه احتضن كالجنين حياة العالم، بل لأنه كان يقع أيضاً في مكان خاص: في وسط العالم المخلوق، في مركزه بالضبط. ونحن كنا قد أوضحنا سابقاً أن المكان الميثولوجي يختلف عن المكان الذي نعرفه: إنه متقطع، متناه، ومتباين، وفيه أماكن جيدة وأماكن سيئة. وكل ما هو جيد، وخير، وضروري للإنسان يتوضع دوماً في مركز العالم، أينما توضع هذا المركز ومهما تعددت المراكز؛ أما ما هو شر، ومعاد، وخطر فإنه يتوضع دوماً على الأطراف. وبهذا المعنى كان الجبل يجسد صورة مهمة جداً لمركز العالم، وسطه، أي أفضل ما فيه، المكان الأشرف، بالتالي الزمان الأنقى أيضاً. إنه المكان المقدس الذي تلتقي السماء فيه بالأرض.

وتفيد الأساطير أن جبل ميرو كان الجبل الذي عبده كثير من شعوب بلدان آسيا وبجلوه بصفته جبلاً كونياً. لقد آمنوا بأنه يقع في وسط الأرض تماماً، وأن قممه تلتصق بكبد السماء. وزعموا أن أعشاباً وأشجاراً غريبة مدهشة تنمو على منحدراته، وأن أنهاراً صافية نقية تجري نحو سفوحه، وأن جروفه الصخرية تزينها حجارة براقة كريمة. ويحيط به المحيط الكوني، وفوقه بالضبط يقع نجم القطب: وهو نجم ثابت، إنه «سرة السماء». وليس من قبيل المصادفة أن يطلق النينسيون السيبيريون عليه اسم «المسمار السماوي»، ويسميه الكورياك «المسمار- النجم»، كما أطلق عليه الفنلنديون، والسآميون، والاستونيون تسميات مشابهة. أما قاعدة الجبل فهي «سرة الأرض». ولجبل ميرو هذا ثلاث قمم، لذلك تألف البناء الكوني إضافة إلى أسباب أخرى من ثلاثة «طوابق»؛ وعلى القمم الثلاث: الذهبية والفضية والحديدية، يقيم الآلهة؛ وتقع في أسفل الجبل مملكة الآسورا، والعفاريت. وتحيط بجبل ميرو أربعة جبال أخرى عدوها حدوده الأربعة، لأن للكون الذي خلق أربعة اتجاهات.

لقد نسجوا حول هذا الجبل كثيراً من الأساطير والحكايات الخرافية. واشتهرت على وجه الخصوص أسطورة مخض المحيط على أيدي الآلهة والآسورا، إلى أن استخرج في آخر المطاف شراب الخلود وخلق العالم أثناء العملية عينها.

ويحكى في الهند أن الآلهة اجتمعوا يوماً على جبل ميرو هذا وهم حزانى: لقد أحسوا ... باقتراب الشيخوخة وأخذوا يفكرون بوسيلة للتخلّص منها ومن أمراضها وعجزها، والحفاظ على حيوية الشباب إلى الأبد. فقلّبوا الأمر طويلاً من جهاته كلها، وأخيراً أشار عليهم أحد كبار الآلهة بأن يتوجهوا مع الآسورا إلى المحيط العظيم ويمخضوه ليستخرجوا شراب الامريتا منه، أي شراب الخلود.

وهذا ما فعلوه بالضبط. وبدلاً من الحبل حملوا معهم ملك الثعابين فاسوكا، وجعلوا من جبل ماندرا المخضّة. وكان هذا الجبل يرتفع عالياً فوق الأرض ويغوص عميقاً في الأرض. فأحاط الثعبان المهول الجبار شيشا هذا الجبل بحلقاته واقتلعه من الأرض. وجاء الآلهة والآسورا إلى المحيط ومعهم جبل ماندرا والثعبان فاسوكا، ثم استأذنوه أن يمخضوا مياهه ليستخرجوا شراب الخلود منه. فإذن لهم المحيط، وبدأوا عملهم. فطلبوا إلى ملك السلاحف الذي يسند العالم بظهره أن يغوص إلى قاع المحيط ليصير سنداً لجبل ماندرا: مخضّتهم. فقدمت السلحفاة ظهرها، ووضع الآلهة عليه الجبل الذي التف حوله الثعبان فاسوكا كالحبل. وأمسك الآسورا برأس الثعبان العملاق، بينما أمسك الآلهة بذيله وبدأوا يمخضون المحيط، وطال المخض مئات السنين.

لقد كان كل من الآسورا والآلهة يشد جسد الثعبان إليه دون توقف، وكان الجبل المخضّة يدور دون كلل، محدثاً صخباً يصم الآذان كهزيم الرعد. وفي الأول امتزجت مياه المحيط بعصير الأعشاب والأشجار التي كانت تنمو على منحدرات الجبل وتحول الخليط إلى لبن، ثم أخذ اللبن يخرج السمن. ولكن الأمريتا لم تظهر. وها هو الهلال يخرج من جوف المحيط ويصعد إلى السماء، ثم تخرج منه إلهة الجمال والفرح لاكشمي، يتبعها الحصان البديع السريع كالفكر، والحجر السحري الذي يحقق الأماني، وأشياء بديعة أخرى كثيرة، لكن الامريتا لم تظهر. وفي إثر الكنوز طفا على سطح المحيط سم زعاف سمم العوالم كلها ببخاره القاتل وانذر باحتراق المحيط كله. ولولا الإله شيفا لحصل للعالم ما لا يعرفه أحد: لقد ابتلع شيفا ذلك السم كله وأبقاه في بلعومه. فازرق عنقه وبقي أزرق هكذا إلى الأبد، وأطلقوا عليه منذئذ لقب: نيلاكانتها، أي «العنق الأزرق».

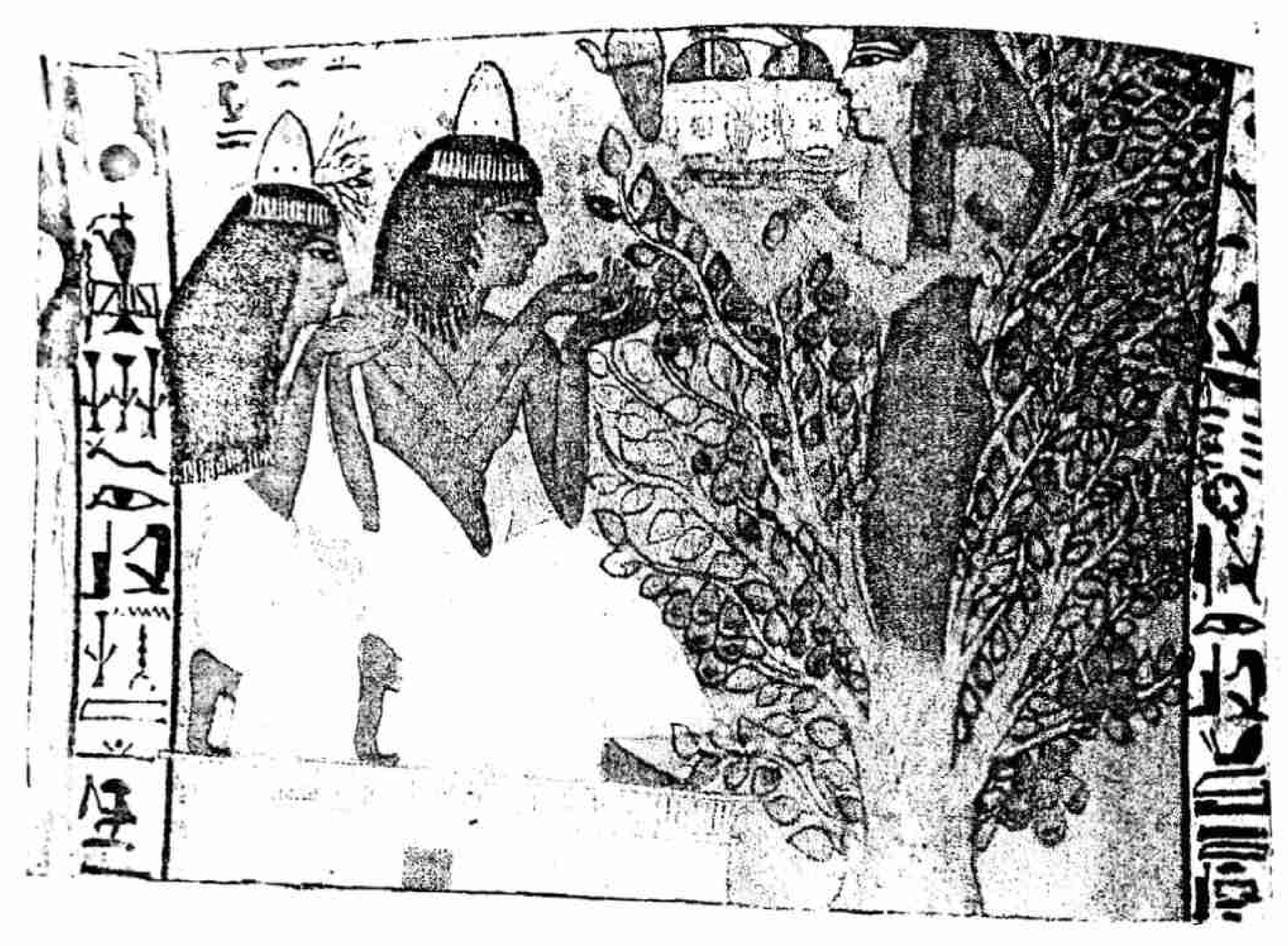
وأخيراً خرجت امريتا إلى النور. فانقض عليها الآلهة والآسورا، ودارت بين الطرفين معركة ضروس انتصر فيها الآلهة، وامتلكوا أمريتا. لقد عجز الآسورا عن الصمود أمام هجوم الآلهة، فغاروا تحت الأرض.

وكان هناك جبال محببة ومبجلة في أماكن أخرى كثيرة. فالصينيون بجلوا سلسلة جبال كونلون. واعتقدوا أن قصر خوان- دي، الرب الأصفر الحاكم الأعلى في السماء، يقوم هناك بالذات. كما كان لكثير من الشعوب الأخرى جبالها الكونية. وكان الآلهة يقيمون على قمة كل منها، والعفاريت، والآسورا وسواهم من الكائنات السلبية يقيمون على سفوحها.

ويكفي أن نتذكر في هذا السياق جبل الأوليمبوس عند الإغريق القدماء: فهناك بالضبط أقام زيوس والآلهة الأوليمبيون الآخرون. أو جبل ايتنا حيث مقر الحداد هيفستوس، وكثرة كثيرة من الجبال الإغريقية الأخرى. ويقف في هذا النسق نفسه الجبل النفريتي يويشان في الصين، أو الجبل السومري ذو القمة القصديرية التي تبرق بلمعان يبهر البصر، والتي يقيم عليها الإله آن. ولم تؤد الجبال دوراً مهماً أثناء خلق العالم فقط، بل في كثير من الأحداث الميثولوجية أيضاً: جبل أرارات في التوراة، وجبل بارناس في قصة ديفكاليون وبيرا، وجبل نيسير الذي استقرت عليه سفينة أو تابيشتي في أسطورة الطوفان البابلية، وجبل سيناء الذي أعطى يهوه فوقه الوصايا العشر لموسى، و.. غني عن البيان إذن، أن الجبل كان رمزاً مهماً.

ومن الأساطير انتقلت التصورات عن الجبل إلى بعض الأديان. ففي كتاب العهد الجديد مثلاً، يرتبط نشاط يسوع المسيح كله ارتباطاً وثيقاً بالجبال. فغالباً ما كان يعظ على الجبال، وثمة واحدة من مواعظه تدعى موعظة الجبل. وعشية موته صلى في بستان جستيماني على جبل الزيتون، ومن على هذا الجبل عينه صعد إلى السماء، بل صلبه نفسه كان أيضاً على جبل: جبل الجلجثة.

الشجرة البديعة



حاتور

ربّة الشجرة المقدسة

وإلهة الحب عند المصريين القدماء

لقد رأى القدماء في الحب عنصراً كونياً يؤدي دوراً تنظيمياً، ويدخل التناغم والجمال إلى العالم.

لقد تراكم في أساطير مختلف الشعوب «حشد» مسهب من القصص عن الأشجار التي تعكس في ذاتها صورة العالم. فالأساطير السكندينافية تتحدث عن الشجرة العملاقة إيغدراسيل: شجرة الدردار الأزلية الخضرة. فهي أكبر من الشجر كله وأجمل، علاوة على كونها ذات بناء نظم بحكمة فائقة. غصونها تمتد فوق العالم كله، وتتجاوز قمتها ارتفاع السماء، وتغوص جذورها في شتى العوالم: أحدها في الحضيض، والآخر إلى عمالقة الجليد، والثالث إلى البشر. ويغسل قمة إيغدراسيل البخار المائي الأبيض، ومن هناك يسيل قطر الندى ليقع في الوادي. ويقع قرب إيغدراسيل نبع الماء البديع ميمير، ومعنى اسمه هذا «الذكريات». وهناك ترك الإله الأعلى أودين عينه رهناً، وهو نفسه يرجع إلى المكان بين وقت وآخر لكي يضاعف من حكمته. وتعلو شجرة الدردار هذه فوق النبع المائي أورد؛ وهناك يعقد الآلهة مجلسهم اليومي ويبحثون في شؤون القضاء ويتخذون فيها القرارات. وتظهر في محيط هذا النبع العذراوات الثلاث، «عذروات المصير» اللواتي يقررن نصيب كل إنسان. وقد أطلقوا عليهن الأسماء: أورد، وفرداندي، وسكولد، أي: «ما كان»، و «ما هو كائن»، و «ماسوف يكون». وتسقي العذراوات الشجرة من مياه أورد ليحافظن على قوتها ندية، وتعيش عند جذور الشجرة، الحية نيدهيغ التي تحاول أن ترميها، ولكن صقراً يصارعها يومياً.

وتشبه شجرة الدردار ايغدراسيل الشجرة الكونية المقدسة لدى الوثنية السلافية. ففي واحدة من المخطوطات القديمة نقرأ التساؤلات- الإجابات التالي: «قل لي، ما الذي يسند الأرض؟ المياه العليا. - وما الذي يسند الحجر؟: أربعة حيتان ذهبية. - وما الذي يسند الحيتان الذهبية؟: النهر الناري. - وما الذي يسند تلك النار؟: شجرة بلوط حديدية... ». ولا تنمو الأشجار السحرية في الأساطير كما تنمو الأشجار العادية فقط، بل ثمة فيها أشجار مقلوبة: جذورها إلى الأعلى وأغصانها إلى الأسفل. ونقرأ في المأثورات الروسية عن مثل هذه الشجرة ما يلي: «في البحر وفي المحيط، وعلى الجزيرة وفوق المقبرة تقف بيريوزا (= شجرة البتولا. م) بيضاء أغصانها إلى الأسفل وجذورها إلى الأعلى... ». ويبدو على أغلب الظن أن صورة مثل هذه الشجرة المقلوبة قد ظهرت في سياق تصوراتهم عن العالم السفلي، عن العالم الآخر، حيث غالباً ما يكون كل ما فيه مقلوباً بالمقارنة مع العالم العلوي والأوسط.

ولكن فلنعد الآن إلى الأشجار الكونية المعتادة غير المقلوبة. فقد روى الشاعر الروماني فرجيليوس في واحدة من قصائده الملحمية، عن شجرة الدردار الكونية «ميليا» عند قدماء الإغريق: تمتد أغصانها لتملأ المكان الفضائي كله، وتغور جذورها حتى دياجير تارتاروس. وحسب تصورات المصريين القدماء أن محور الأرض شجرة كونية ذهبية مهولة الحجم، تلامس قمتها السماء، وتنبت على أغصانها الحجارة الكريمة، وتعيش هناك أيضاً الإلهة السماوية نوت. أما الشجرة الكونية الصينية فهي شجرة التوت العملاقة فوسان التي لا يحاط بعرضها، وهي تنبثق من البحر الهائج في الشرق، في وادي النور. ويجلس على رأسها الديك النفريتي السحري الذي يعلن بصياحه بداية النهار، ويتبعه صائحاً الديك الذهبي الجالس على شجرة الدراق، فتتراكض الأرواح الشريرة والأشباح هاربة لدى سماعها صياحه. وبعد صياح الديك الذهبي تبدأ الديكة الحجرية بالصياح، ديكة أشهر الجبال والأنهار؛ ثم تتبع هذه الأخيرة ديكة الأرض كلها. بعدئذٍ يبدأ المد وترتفع الشمس في السماء. ووضع المايا والاستيك الأمريكيون في مركز العالم، شجرة خرافية تماماً، هي شجرة العالم الأولى.

فما هي هذه الشجرة العالمية، ولماذا دعيت هكذا؟ في أساطير الخلق كانت الشجرة الكونية هذه، مثلها مثل الجبل الكوني، واحدة من أولى الظاهرات التي خرجت من كتلة الأرض التي برزت في المحيط البدئي. وسرعان ما تحولت إلى مسند للعالم وجسدت في ذاتها صورة هذا العالم المصنوع، وصورة كل ما فيه من الموجودات الأساسية. ولذلك فإن صورة الشجرة الكونية مثلها مثل صورة الجبل الكوني أيضاً، تنطوي على فكرة عميقة جداً. فما هي هذه الفكرة بالتحديد؟

فالشجرة تجسد على سبيل المثال، تصوراً عن الحياة والموت. وهي ككل كائن حي تنمو من بذرة ضئيلة، كما لو كانت تخرج من لا شيء، ثم تقوى، وترتفع عالياً حتى تصير إلى شجرة دردار أو بلوط شاهقة، وتطرح بذوراً تنمو منها أشجار أخرى. ولكن أليست هذه هي الطريق عينها التي تسير حياة الإنسان عليها أيضاً؟ وهكذا ترتبط الشجرة بولادة الحياة، بالخلق، وتصير شجرة الحياة والخلود.

وإذا استثنينا الأشجار النادرة الدائمة الخضرة، فإن ما تبقى من الشجر يبدو كأنه يبدأ حياته من جديد مع إطلالة كل ربيع: تطرح الشجرة أقماحها، ثم تورق، وتزهر، وتعطي ثمرها؛ ثم تعود إلى حالتها السابقة، كأنها تموت، تغرق في نوم عميق حتى الربيع التالي، حيث تبدأ سيرتها من جديد. ولكن أليست هذه هي دورة الحياة والموت، وتعاقبهما الحتمي؟

لكن ما تبينه لنا الشجرة الكونية لا يقتصر على هذا فقط. فهي كبناء الكون الذي وصفته الأساطير، تتألّف من أجزاء ثلاثة: السفلي الجذور، والأوسط - الجذع، والأعلى- التاج

مع الأغصان والأوراق. وقد وافقوا هذه الأجزاء الثلاثة مع مجالات الكون الثلاثة وساكنيها وإضافة إلى هذا أن الشجرة بجذورها الضاربة في عمق الأرض، وجذعها القوي الراسخ وغصونها السامقة نحو السماء، تخترق هذه المجالات الثلاثة وتوحد بعضها مع بعضها الآخر. ومن الملائم أن نتذكرها هنا بعض الحكايات السحرية التي يصعد البطل فيها إلى السماء عبر الشجرة ليأتي من هناك بالشيء الضروري أو المعرفة اللازمة. ومن مثل هذه التصورات ظهرت فيما بعد صورة شجرة المعرفة، وشجرة الخير والشرّ.

وهكذا فإن الشجرة الكونية، كالجبل الكوني، قسمت المكان الكوني كله إلى ثلاثة أقسام. ولكن لا بأس في أن نتذكر أننا قلنا إن القدماء لم يعرفوا زماناً قائماً بذاته أو مكاناً قائماً بذاته، بل كلاً لا ينفصل، هو الزمكان. ومعنى هذا أن الشجرة الكونية تبين الزمان أيضاً: الجذور- الماضي، ما كان وانصرم، والجذع- الحاضر، أي الراهن الآن. والغصون- المستقبل، ما ينمو ويأتي فيما بعد. ومن هنا انبثقت كثرة من أشجار الأنساب. فليس ثمة ما يرينا سلسلة أنساب العائلة أفضل مما تريها لنا الشجرة. وفي واقع الأمر أن أسلافنا هم الجذور، ووالدينا هم الجذع، وأبناءهم الغصون، وما إلى ذلك: تعيش العائلة وتتنامى كما تنمو الشجرة وتتفرع.

وليس صعباً حل مثل هذه الأحجية المرتبطة بالشجرة: «شجرة بلوط عليها اثنا عشر غصناً وعلى كل غصن أربعة أعشاش». من الواضح أن الحديث يجري عن السنة، والأشهر الاثني عشر، والأسابيع الأربعة، ومن الواضح أيضاً أن هذه الأحجية تحمل أصداء ذكريات عن صلة الشجرة الكونية بالزمان.

كما تُظهر الشجرة أيضاً إحداثيات مكانية (أي زمانية أيضاً) مهمة أخرى: جهة اليمين وجهة الشمال، وعلاقات التماثل، وفوق وتحت، وشمال- جنوب- شرق- غرب. لقد كان لهذا كله أهمية كبيرة بالنسبة إلى الإنسان القديم، وتوجهه في العالم المحيط.

وهكذا يتضح أن شجرة الأساطير الكونية، هي صورة العالم، ونموذجه، ورمزه. فهي تظهر لنا بناء عالمنا، وكيف ينبغي أن يكون؛ وتعلم كيف يجب أن تنظم الحياة، ويضبط المعيار في الزمان والمكان؛ وتبين كيف اتحدت بعضها مع بعض الأجزاء المنفصلة، وكيف يرتبط واحدها بالآخر في كل متماسك، ولا يستغني بعضها عن بعض. ولذلك ليس عبثاً أن مجدت الأساطير الشجرة الكونية. ومن المناسب أن ننوه في هذا السياق إلى أن العالم المعاصر نفسه لم يجد أفضل من الشجرة مثالاً ليصف شتى العمليات في الرياضيات، وعلم اللغة، والكيبرنيتيكا.



الشامان

فنان الاستغراق في حالة النشوة البدائية.

يتجول في العوالم التي تظهر خارطتها على طبله

يدعى الطبل عند بعض الشعوب «حصان الشامان».
في بداية إقامة الشعائر تستدعي ضربات الطبل الأرواح، وتمثل توطنة خاصة لرحلة الاستغراق المزمعة.
فحسب اعتقادهم أنه حينما يضرب الشامان الطبل فانه «يمتطي» بذلك «حصانه» ويرمح.

غالباً ما يحكى في الأساطير عن سلالم سماوية في صورة جبال أو شجر، يصعدون عليها إلى السماء وينزلون إلى الأرض بسهولة ويسر. فما هو المقصود بهذه السلالم؟

يتلخص الأمر هنا في أن القدماء اعتقدوا بأن المكان الذي يقسم البناء الكوني إلى ثلاثة «طوابق»، يمكن تجاوزه بأساليب مختلفة، حتى بمساعدة العنكبوت وخيوطها التي تنسجها. وعند الماوري الذين يعيشون في زيلندا الجديدة، تصعد واحدة من الشخصيات الميثولوجية إلى السماء على الشجرة، التي مدت العنكبوت خيوطها من قمتها إلى السماء. وكان تحقيق مثل هذه الرحلات غير العادية ممكناً، لأن محور العالم يمر عبر الجبل وخلال الشجرة اللذين يقعان في مركز هذا العالم نفسه، ومحور العالم هذا يصل أجزاء البناء الكوني كلها بعضها مع بعض ويثبتها، ولذلك يغدو عبورها أمراً ممكناً. وتشكل الفتحات التي يمر المحور عبرها مدى مكانياً خاصاً، ففيها بالذات تتصل طوابق البناء الكوني بعضها مع بعض. وتتجلى في هذا المكان تلك القوى وتظهر تلك الكائنات التي تنتمي إلى الطابق الآخر، الطابق المجاور. وقد عرف العالم القديم، وفيما بعد بعض الشعوب، «متخصصين» قادرين على الانتقال بين طوابق البناء الكوني: يصعدون في السموات، ويهبطون في العوالم السفلية. ولم يكن ذلك أمراً سهلاً، فقد كان ينبغي أن يعرف المعنيون أين تقع تلك الجبال والأشجار التي تقود إلى السماء وإلى الحضيض، وأن يحسنوا الصعود والهبوط على هذه «السلالم». لكن أحداً لم يكن بمقدوره أن يفعل ذلك سوى الخالدين من الآلهة والأرواح، والشامانات من البشر.

فمن هم هؤلاء الشامانات؟

لقد وصلت كلمة «شامان» إلى لغات العالم كلها تقريباً، عبر الرحالة والعلماء الروس الذين نقلوها عن لغات سيبيريا واللغات التونغوسية- المنشورية. ولكل شعب تسمياته

التي أطلقها على الشامانات، وهي تسميات لا تشبه هذه الكلمة أبداً. ولكن مهما اختلفت التسميات فإن الشامان كان شخصاً ضرورياً جداً. فمن مهماته توسل الرخاء، والعافية، والخصب للناس والحيوانات، ووفرة طرائد الصيد والأسماك، والطقس الجيد لدى الآلهة والأرواح؛ ومن بين واجباته أيضاً تخمين نوايا العدو ومد يد العون لأبناء القبيلة كي يحققوا النصر. والشامان هو الذي يكشف عن أسباب الأمراض ويداوي المرضى، وهو الذي يرافق الأرواح إلى العالم الآخر. ويستطيع الشامان أن يقرأ المستقبل، ويعثر على الأشياء المفقودة، ويحدد أماكن وجود الحيوانات التائهة، فصارى القول أنه كان لدى الشامان كثير من الأعمال المهمة، وكان يؤديها كلها بنجاح لأنه كان قادراً على أن يتنقل في مختلف طبقات البناء الكوني، ويتواصل مع الأرواح والكائنات التي تسكن مختلف أجزائه، ويحظى بعونها.

لقد نسبوا للشامانات تحقيق معجزات شتى:

يحكى أنهم قتلوا بعضهم ثلاث مرات وفي كل مرة كان الشامان المقتول يعود إلى الحياة؛ ورموا بهم في فتحة جليدية لكنهم لم يغرقوا كما خرجوا من النار دون أن يسمهم أذى. وهم يؤمنون بأن الشامان قادر على أن يتحول إلى طير أو أي وحش من الوحوش كما يمكنه أن يحلق في السماء وينجب غراباً، أو غطاس ماء، أو كراكي، أو دباً، أو ذئباً ويحقق كثيراً من المعجزات الأخرى. لكن الشامان يفعل هذا كله بفضل العون الذي يتلقاه من الأرواح التي تقف إلى جانبه وتحرسه، وغالباً ما تكون لهذه الأرواح صورة وحش أو طير يستجيب لنداء الشامان دوماً وفي الوقت المناسب.

أما الفعل الشاماني الرئيس فهو الاستغراق. يرتدي الشامان بزة خاصة يصل وزنها إلى ثلاثين كغ، و «يمضي» إلى العوالم الأخرى، الميثولوجية، ويبدأ طقس الاتصال بالأرواح المساعدة. ومن أجزاء الزي المهمة: الطبل، وعليه رسم الشجرة الكونية، وهي الشجرة نفسها التي تتحدث الأساطير عنها. فالطبل أداة موسيقية، ووسيلة «نقل»: قارب، أو طير يحمل الشامان إلى عالم آخر، وهو أيضاً سلاح، وخارطة للعالم. وفي الطبل تجتمع الأرواح، وفيه تتركز قوة الشامان التي يمكنها أن تزيل المرض بنفخه كنفخة الريح.

وحسب حكايات الالطائيين، والبوريات، والتوفينيين، وبعض شعوب سيبيريا الأخرى:

إن النساء هن أول من مارس الفعل الشاماني، والحقيقة أن الزي الشاماني يحتوي أحياناً على أجزاء من الملابس النسائية. ولكن أكثر الشامانات الآن من الرجال. وقلة من النساء. وليس بمقدور أي كان أن يصير شامانا: يعتقدون بأن الأرواح هي التي تختاره في غالب الأحيان. بيد أنه لابد أن يكون أحد أسلافه من الشامانات، وينبغي بالضرورة أن يجتاز طقس التكريس في هذه الفئة، ويعاني ما يدعى بمرض الشامانية. ومن حيث المظهر يبدو كأن المريض قد فقد عقله: يهرب من البيت، ويقضي ساعات ذاهلاً، ويجلس في الليالي الشتوية عارياً على الشجرة، أو يأتي بأي أعمال أخرى غير مألوفة. ويعاني من تختاره الأرواح شاماناً آلاماً رهيبة: يهيأ له أن الأرواح تطارده، وتمزقه، وتقطعه إرباً، وتسلخ لحمه عن عظمه، وتطهوه، ثم تأكله. هكذا كان «يعاد خلق» الشامان. ويغدو قادراً على ممارسة نشاطه الشاماني.

ولا تزال حتى الآن تعيش عند بعض شعوب آسيا تصورات عن شجرة الشامان: ضرب من ضروب الشجرة الكونية. فاليا قوتيون يعتقدون أن أرواح الأطفال المعدين لكي يكونوا شامانات، تربى على أيدي الأرواح تربية خاصة على الشجرة «الشامانية». وثمة على هذه الشجرة عند منبت كل غصن عش أو تجويف يكبر فيه شامان مقبل. وزعموا أن كل عالم من العوالم الثلاثة تنمو فيه مثل هذه الشجرة تبعاً للأرواح التي اختارت الشامان.

ويربط الناناثيون الذين يعشون في سيبيريا، منشأ الشامانية بالشجرة التي تسمى «كونغور دياغدا يالو تويغيه». وكلمة «يالو» تعني «العالم»، و «تويغيه» تعني «العمود المقدس»، و «كونغور» تعني «صوت الجرس»، و «دياغدا» تعني «شجرة الصنوبر». وغني عن البيان أن هذه الشجرة لا تشبه أي شجرة من الشجر الذي ينمو على وجه الأرض، فجذورها أفاع، ولحاؤها ضفادع ومختلف ضروب الحشرات، وورقها صفائح معدنية، وزهورها أجراس، ورأسها متوج بقرون معدنية.

وتروي إحدى أساطير النانائيين:

أن البطل بعد أن قطع طريقاً طويلة، رأى فوق المرتفع، الأرنب السماوي المقدس الذي يحرس هذه الشجرة. فقتله وأخذ عن الشجرة كل الأشياء الضرورية للشامانية، وليست هذه بأشياء عادية: لقد صنع تسعة من الحدداين أجزاء التجهيزات كلها، بما في ذلك مسكتي الطبل. وثمة تنويعة لهذه الأسطورة تقول، إن البطل لم يقطف تلك الأشياء بيديه، بل بفمه، ومن فمه خرجت بعد ذلك.

وغالباً ما تقوم عند بيت الشامان شجرة عمود، رمز الشجرة الكونية، وقد ظنوا أن الشامان يعبر على هذه الشجرة من مجال من مجالات الكون لآخر، وخلالها أيضاً كانت تخلق الأرواح- المساعدة قبيل الاستغراق وتعود أدراجها عبرها بعد أن تكون أدت دورها.

وقال أحد الشامانات: «لا وجود لهذه الشجرة لا على الأرض، ولا في السماء، إنها موجودة في الحلم الشاماني فقط».

ولكن الوصول إلى السماء كان ممكناً بطرق مختلفة، وليس على سلم أو شجرة فقط. فقد أنشد أحد شامانات الخانتيين أغنية قال فيها:

إنه يصعد إلى السماء أثناء استغراقه، على حبل ينزل إليه من هناك، أما النجوم التي تعيق طريقه فإنه يزيحها بيده. وافترض النينيسون أن طريقاً من الدخان تصعد إلى السماء، وعليها يمكن العبور إلى السموات، أما الشوكتشي فقد اعتقدوا أنه يمكن الصعود إلى السماء سيراً على الأقدام، أو ركوباً على ظهر أيل.

ولكن أياً كانت الطريق التي كان الشامان يصعد بها إلى السماء، فإنها على أي حال لم تكن طريقاً سهلة.

فالألتائيون مثلاً على قناعة أكيدة بأن السماء تتجمد شتاء ويغطيها الجليد، ولذلك تكون عصية على الشامان، ولكن يمكن عند الضرورة كسر الجليد بالفأس. وثمة على قبعة الشامانات السيكوبيين نصل سكين حاد، يدعى السبلة الشامانية، وهي تلزم لمقاتلة الأعداء، وتستخدم أيضاً لشطر الغيوم التي قد تعيق صعود الشامان إلى السماء. ويصعد الشامانات إلى السماء بطرق شتى، إلا أن الدخول فيها عبر فتحة فقط. وغالباً ما نلاقي تصوراتهم عن هذه الأخيرة؛ فهي تتوضع عندهم في غالب الأحيان حول نجم القطب. لقد

كان الشامان يتلظى من الحر عندما يقترب من الشمس، ويرتجف من البرد حينما يجتاز الغيوم الثلجية، ويتبلل حتى اللحم إذ يقع بين الغيوم الممطرة، وينطرح أرضاً حينما يقطع «أرض» الريح. كما كانت تهدده أخطار أخرى: حجارة حادة، آلهة شريرون، أرواح متمردة وما إلى ذلك.

لقد كانت تلك هي دروب الشامان الوعرة التي يسير عليها أثناء رحلاته بين مختلف طبقات البناء الكوني. إنه أستاذ الاستغراق في عالم النشوة البدائية.

الجبال و الأشجار المقدسة



إلهة جبل تايشان الصينية

لقد عُدَّ تايشان، ومعناه «الجبل العظيم»، المكان الذي تقدم فيه الذبائح للسماء. وقد آمنوا قديماً بأن الاسفاط التي تحتوي على صفائح من الـ «يشم» المدوّن عليها زمن عمر كل إنسان، محفوظة على هذا الجبل. وكانوا يضعون حجارة من جبل تايشان على مداخل منازلهم، وفي أوّل كلّ شارع، معتقدين بأن هذه الحجارة تحمي المكان من أذى الأرواح الشريرة. وانتشرت في شتى أنحاء الصين، المعابد المكرسة لهذا الجبل.

لقد تركت الجبال والأشجار الميثولوجية التي تجسد صورة العالم، «ذرية» كثيرة جداً. فكم من الجبال غير العادية نلقى في الحكايات السحرية، والشعر، وسوى ذلك من الأعمال الفولكلورية والأدبية. ومنها الأقرع، والمقدس، والكريستالي، والمكسو و... وتمتد من صورة الجبل المقدس، خيوط إلى فن العمارة، فكثرة كثيرة من المباني والمنشآت الدينية والطقوسية تُشاد في أعالي الجبال وتكرر أشكالها.

ويكفي أن نتذكر في هذا السياق الأهرامات المصرية، أو الزقورات البابلية بمستوياتها السبعة التي ترمز إلى السموات السبع، وكذلك الباغودات، والمعابد، والأجران: منشآت بوذية مقدسة تشبه التلال. وتفيد تسميات المعابد البابلية نفسها بصلة النسب بينها وبين الجبال: «جبل الزوابع»، و «بيت جبل الأراضي كلها»، و «صلة السماء والأرض».

وبجل بعض الشعوب الجبال بصفتها تجسيداً للقدرة الإلهية النورانية، وليس بصفتها مأوى للآلهة.

فالصينيون مثلاً قدموا ذبائح للجبال بمناسبات مختلفة:

عندما كانوا يتوسلون الأمطار، أو محصولاً وفيراً، أو توقف الرياح، أو عندما كانوا يقدمون الشكر على نصر حققوه، أو.. وسجدوا للجبال بصفتها أسلافاً، لأنها كانت المكان الذي نفذ منه هؤلاء إلى العالم الآخر.

ومنذ القدم عرفت الصين عبادة الجبال الخمسة المقدسة التي تتوضّع في الشمال، والجنوب، والغرب، والشرق، والوسط؛ وحظي جبل تايشان بأعظم التبجيل عندهم، فاسمه نفسه يعني «الجبل العظيم». وعظموا أيضاً سلسلة جبال كونلون التي سبق الحديث عنها.

وفي كوريا عدوا روح الجبال حارس المحاصيل ومعرض الخصب.

واعتقد الفلاحون أن الحقول التي تقع تحت الجبل تحظى بحمايته. وبجلوا روح الجبال بصفته سيد الأرض وما على الجبل وما في جوفه: الأشجار، والمعادن، والحيوانات، والطيور. إننا لن نزيد هنا عدد الأمثلة أكثر من ذلك، فما أوردناه يكفي ويزيد لإقناعنا بأنه كان هناك موقف خاص تجاه الجبال، ولا يزال مثل هذا الموقف حاضراً حتى يومنا هذا في حياة بعض الشعوب.

ومثل هذا الموقف الخاص نفسه كان سائداً تجاه الأشجار، وهنا يمكننا أن نورد أيضاً كثرة من الأمثلة المعروفة لدى مختلف شعوب العالم. فالبشر لم يبدأوا ببناء المعابد إلا بعد زمن، وكانت الأشجار بالذات أقدم معابدهم. لقد آمنوا بأن قوة سحرية خاصة تكمن في الشجرة، ولذلك بجلوا هذه الأخيرة كتجسيد لتلك القوة وكرمز لها.

وتذكرنا علاقات الناس مع الأشجار أحياناً، بعلاقات القرابة، فالكوريون رأوا في بعض الأشجار أرواحاً- أسلافاً: إذا ما تسلق طفل شجرة وسقط عنها، كانت والدته تقول إن روح الشجرة عاقبته. وقد «تبنى» بعض العائلات شجرات معينة في الدغل. وإذا ما وقع الطفل مريضاً تحمل والدته مزقة من ملابسه وتأتي بها مع التقدمات إلى الشجرة. وهناك تتوسل أرواح الأمراض أن تبقى في المزقة وترحم طفلها.

وارتبط بالأشجار المقدسة مختلف الخرافات. وتقول واحدة منها:

إن طفلاً تسلق الشجرة وأشعل ناراً على يديه ثم توسل الشجرة أن تعيد والدته المتوفاة إلى الحياة، فأجابت الشجرة طلبه وبعثت والدته حيّة.

وكان كثير من الشعوب يؤمن بقدرة الشجر على الشفاء من الأمراض، خاصة شفاء الأطفال؛ ولتحقيق ذلك يكفي أن يضجع الطفل المريض في تجويف الشجرة، أو العبور به بين شجرتين مربوطتين واحدتهما إلى الأخرى.

واعتقد الكوريون أن كوك- ساسين، الروح الحارس الدولة، يهبط كل عام في الشهر القمري الثالث على الشجرة الكبيرة التي تقع عند الجانب الشرقي من جبل تشغوناك. وفي الوقت المعني كانت الشامانات تقمن الطقوس وتقدمن الذبائح لروح الشجرة.

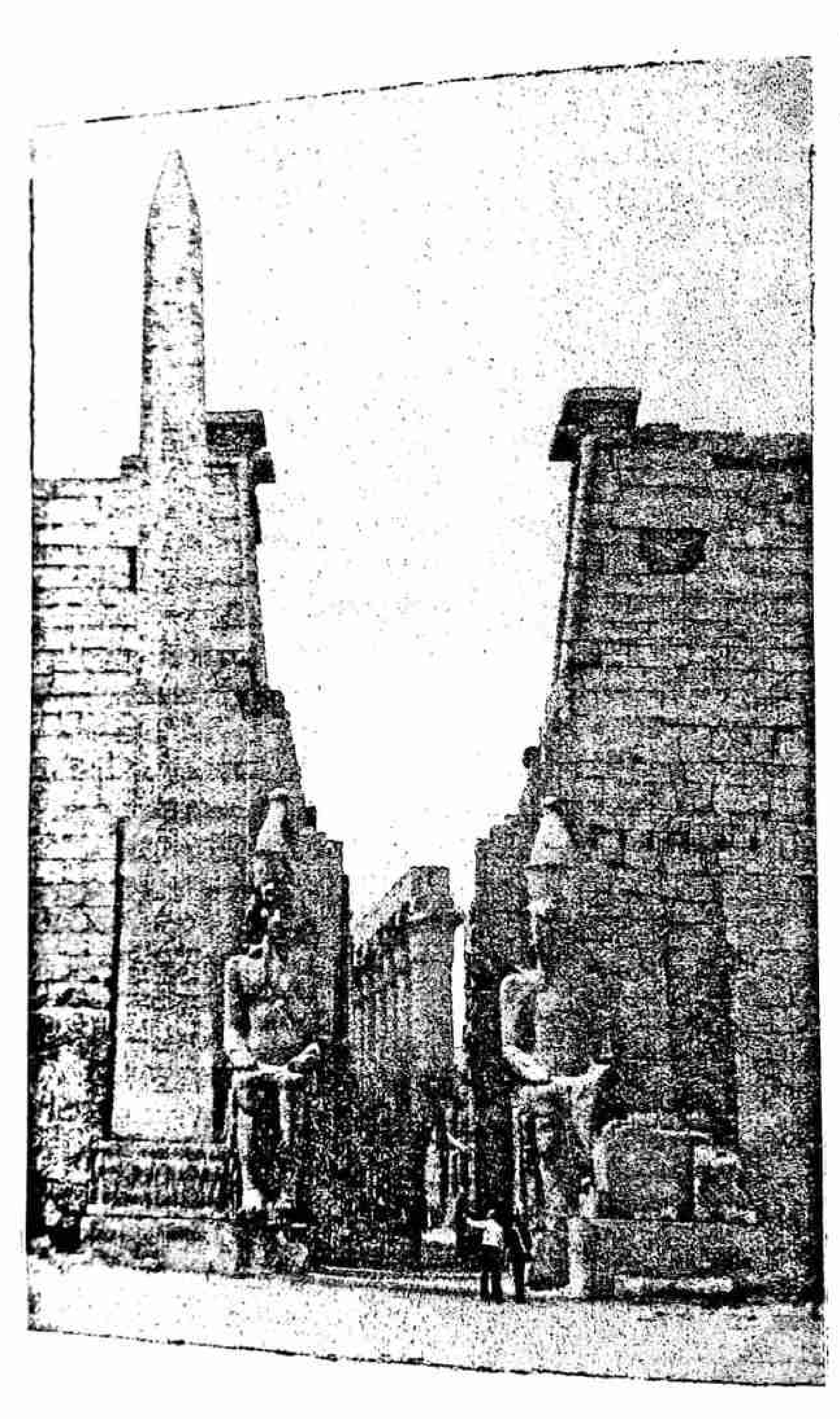
ولم يكن نادراً أن ترتبط الأشجار في الهند بالآلهة الأم العظمى: لقد رأوا في الأشجار مصدراً لا ينضب للخصب، واستمرار الحياة ورخاء العيش.

وقد انتقل هذا الموقف الخاص تجاه الشجرة، الذي عكسته الأساطير، انتقل إلى كثير من الديانات.

ففي وسط الجنة المسيحية تقوم شجرة الحياة، وشجرة معرفة الخير والشر التي آكل آدم منها. ورسموا يسوع المسيح في القرون الوسطى مصلوباً على شجرة الحياة.

مكان بناء المعبد و المدينة

معبد آمون في مصر



لقد كانت مدينة طيبة هي المركز المقدس لعبادة آمون. وألّف آمون مع زوجته إلهة السماء نوت، وابنه إله القمر خونسو ثالثوث طيبة. وغالباً ما صوّروا آمون نفسه في صورة إنسان له أحياناً رأس كبش وفي تاجه ريشتان طويلتان، وقرص الشمس. وحينما وصلت الأسرة الطيبية الثامنة عشرة إلى عرش مصر «عصر المملكة الحديثة، القرن السادس عشر حتى الرابع عشر قبل الميلاد»، صار آمون إلهاً لمصر كلّها، وارتدت عبادته طابعاً حكومياً رسمياً.

لقد تحدثنا غير مرة عن علاقة القدماء بالمكان. وقد انعكست هذه العلاقة في كل شيء، بما في ذلك انتقاء مكان بناء المعبد، والمدينة أو المنزل: اختاروا لذلك مواضع خاصة مقدسة. وكما كانوا يحيون الزمن وقت الاحتفال برأس السنة عبر تكرارهم ما كان قد فعله الآلهة عند خلقهم الكون، كذلك كانوا يقدسون المكان في أثناء بناء المعابد والمدن.

وحسب الخرافة المعروفة أن رومولوس وهو يؤسس روما رسم للمدينة حلقة مقدسة حدد بها حدوداً معلومة. واعتقدوا أن الآلهة سوف تحميها، ولذلك يمكن أن تبنى المدينة في داخلها. وفي واقع الأمر أن دائرة تقوم في أساس روما، وهذا ما تميزت به المدن الايتروسكية كلها. ومن المعروف أن الرومان اقتبسوا عن الايتروسكيين الكثير. وعندما كانوا يرسمون حدود المكان الذي يزمعون بناء المدينة عليه، كانوا يربطون حبلاً بالمحراث ويثبتون طرفه الآخر في عمق أعدّ في الأرض لهذا الغرض؛ ثم يشقون الثلم. فيغدو العمق المحفور مسبقاً في وسط الدائرة، وقد اعتقدوا أنهم يمكن أن يتصلوا عبره بالعالم السفلي.

وهناك ما يماثل هذا الطقس في الشطر الآخر من العالم، في أمريكا لدى الهنود الحمر الباوني. فأثناء واحد من المواكب المقدسة كان الكاهن يرسم على الأرض حلقة بإصبع قدمه. ويردد في الوقت عينه قائلاً أن الحلقة بمثابة عش، وهو يرسمها بإصبع قدمه لأن الصقر يبني عشه بطرفيه المخلبيين. ومع أننا نقلد الطير الذي يبني عشاً، إلا أن لهذه الحركة مغزى آخر: إننا نمضي بفكرنا إلى الزمن الذي خلق الإله فيه العالم الذي سوف يعيش الناس فيه. وإذا أنتم صعدتم إلى جبل عال ونظرتم إلى ما حولكم، فسترون أن السماء تلامس الأرض من جميع أطرافها، وأن الناس تعيش داخل هذه الحلقة المغلقة. ولهذا فإن أي حلقة نرسمها ليست مجرد عش، بل تمثل أيضاً الحلقة التي خلقها الإله ليعيش الناس فيها.

والحديث يدور في الحالين عن الدائرة الرمزية للمعمورة، هذه الدائرة التي لها مركز ينبثق منه نهر الحياة كما من منبع خفي.

ولكن لماذا الدائرة بالتحديد؟ لأن الدائرة والمربع كانا أكثر الرموز المكانية انتشاراً: لقد عبرا عن الغاية من المكان الذي جرى تعيينه وأظهرا تمامه. ولذلك تخيلوا الأرض في غالب

الأحيان كأساً مستديرة أو قرصاً مسطحاً. أما البنية المعمارية للمعبد أو المنزل فقد قامت على أساس المربع عادة أو المستطيل. وبما يتوافق مع هذه التصورات خططوا المدن وبنوها. وها نحن نورد ما كتبه هيرودوت عن بناء ايكباتانا عاصمة المملكة الميدية: «.. لقد شاد ديوك مدينة كبيرة محصنة، هي الآن أيكباتانا التي يحيط كل سور من أسوارها بالآخر إحاطة السوار بالمعصم... وكان عدد الحلقات كلها سبع حلقات: في داخل الحلقة الأخيرة قصر الملك وخزنة الكنوز».

وتخيل الناس بلادهم محاطة بدائرة سحرية ما تشكل مكاناً مغلقاً. وكان الحكام يدورون حولها «يحلقونها»، وقت إقامة الطقوس الملكية الخاصة. ويمكننا أن نأخذ الأعياد الحثية مثالاً في هذا السياق، فقد كان الملك والملكة يقومان بجولة طقسية عبر بلادهما يكرران فيها رحلة الشمس. وبهذا كان الملك المسؤول عن ضمان رخاء البلاد والشعب، يحمي الأرض والمواطنين بفصله إياهم بحدود طقسية عن العالم الخارجي.

وعلى وجه العموم لم يبتكر الناس شيئاً جديداً بنشاطهم هذا، بل لم يسعوا لذلك: فقد كرروا النماذج الإلهية التي انطبعت في الأساطير وحسب، وحاولوا أن يكون لفعلهم الفعل نفسه الذي كان لفعل الآلهة في حينه. وفي واقع الأمر هل يمكن ابتكار شيء ما أفضل مما ابتكر الآلهة، وأوصوا به الأسلاف الذين نقلوا بدورهم الوصايا الإلهية من جيل لجيل؟

ولذلك بنى غوديا ملك لا غاش الرافدية، المعبد الذي أراه الإله مخططه في الحلم، أما الإلهة فقد كشفت له عن الصورة الملائمة لتوافق النجوم. كما بنى الملك سنحريب مدينة نينوى وفق المخطط السماوي الذي حدده منذ أقدم الأزمنة توضع النجوم في السماء. وهذا ما فعله أيضاً الملك التوراتي سليمان، الذي لم يشتهر بحكمته فقط، وإنما بمعبده الشهير الذي بناه. فقد خاطب سليمان إلهه في سفر الأمثال قائلاً: «أنت الذي أمرني أن أبني المعبد على اسمك القدوس، والهيكل في المدينة التي تسكن، على صورة الخيمة القدسية التي صنعتها منذ البدء». وفي مصر أطلقوا على المدن- الدول (=النومات) أسماء «الحقول السماوية» الميثولوجية، وكانوا في غضون ذلك يتقصون عن «الحقول السماوية»، ثم يبحثون عن مثيلاتها في الجغرافيا الأرضية. فقد اعتقدوا أن النماذج الأصل للمعابد، والمدن، والمذابح وسواها من المنشآت إنما أنشئت في الأزمنة الميثولوجية، وينبغي على الناس أن يعيدوا بناءها بعد ذلك بحيث يأتي الصنو الزمني متوافقاً مع الأصل السماوي. ولكن النماذج الإلهية التي أعطيت في الأزمنة البدئية، والأزمنة الميثولوجية، لم تعط لشتى المنشآت

وحسب، بل أعطيت للأشياء كلها التي استعملها البشر، ولكل الأعمال البشرية والسلوك في مختلف الأحوال.

من الواضح إذن أن حكايات مركز العالم، أو «سرة الأرض»، كما «سرة السماء» أيضاً، لم تكن بالنسبة للقدماء كلاماً فارغاً، بل كانت تنطوي على مغزى واقعي عميق فالإغريق القدماء مثلاً، تخيلوا الأرض حلقة منبسطة، وعدوا دلفي سرة الأرض. ودلفي هي مدينة الإله ابوللون المقدسة التي يقيم فيها كاهنه المتنبّئ. وحسب الخرافة أن ابوللون قتل التنين بيتون ابن الأرض في هذا المكان بالضبط. وهنا أيضاً بنى أول معبد إغريقي، ولم تكن المعابد الأخرى سوى نسخاً عنه.

لقد كان يقوم في وسط المعبد حجر أبيض كبير: الاومفالوس، وتوزعت على جوانبه أشكال طيور ذهبية. ويروى أن زيوس رغب يوماً في العثور على وسط الأرض، فأطلق حمامتين واحدة من الغرب والأخرى من الشرق، فالتقتا فوق ذاك الحجر بالضبط: «سرة الأرض».

لا شك أن هذه الأمثلة كلها تدل على أن التصور عن مركز العالم كان تصوراً عاماً مشتركاً بين شعوب الأرض كلها، وأنه لم يكن موجوداً في الأساطير فقط، بل في حياة الناس أيضاً.

الباب السادس

المسمارية معيار الكواكب

كيف ظهرت الشمس في السماء

تستدعي هذه الرأس إلى الذاكرة أسطورة الخلق المصرية القديمة: يظهر إله الشمس رع إلى الوجود من زهرة اللوتوس التي نبتت من الخراب البدني. لقد عدَّ رع إله شمس النهار خلافاً لـ أتوم إله شمس المساء، وحبري إله شمس الصباح. وكانت مدينة هيليوبوليد، هي مركز عبادته، ومع صعود السلالة الخامسة «المملكة القديمة، القرنان ٢٦-٢٥ ق.م»، بات رع إله مصر كلّها.

لقد عدّوه خالق عالم البشر الذين ظهروا من كلماته، ودعى الفراعنة أنفسهم أبناء رع. وادغم الإغريق القدماء رع بإله الشمس الإغريقي هيليوس.

ثمة أساطير قديمة تحدثت عن الزمن البدئي الميثولوجي، لكنها لم تأت على ذكر الشمس، والقمر، والكواكب الأخرى. إما لأنها لم تكن قد وجدت بعد، أو لأنها لم تكن معلقة في أماكنها عينها. وكما قالت المتنبئة- فيولفا في الأساطير الكسندينافية: «لم تكن الشمس تعرف أين بيتها، ولم تكن الكواكب تعرف أين تضيء، ولم يكن الهلال قد أدرك جبروته بعد». وبقيت الحال هكذا إلى أن نظم الآلهة الكون ووضعوا كل شيء في مكانه. عندئذٍ ظهرت الشمس والقمر والكواكب في السماء، وفي الأماكن عينها التي اعتدنا أن نراها فيها.

إذن قد لا تكون الشمس والقمر وسواهما من «سكان» السماء قد ظهروا لحظة خلق العالم، وإنما بعد ذلك. وحسب روايات الأساطير أن ذلك حصل بطرق مختلفة. ولكن مهما كانت الطريقة، فإن الشمس والقمر عُدّا كائنين حيين. وتشرح الأسطورة الكيتية تلك العملية فتقول: «لقد عاشت الشمس والقمر، كانا زوجاً وزوجة». واعتقد النينسيون السيبيريون بأن الشمس والقمر مثبتان إلى اليبس السماوي ويدوران باتجاه الأرض مع السموات كلها. ولم يكن لدى بوشمين إفريقيا أي شك في أن الأطفال هم من رمى الشمس إلى السماء.

تقول الحكاية:... في غابر الزمان كانت الشمس رجلاً، وكان هذا عجوزاً منذ لحظة ظهوره على وجه الأرض. لقد عاش الرجل على الأرض في بيته الخاص، وكان يدعى الإبط المشمس: كان يشع ضياء من تحت إبطه. وعندما كان الرجل يستلقي رافعاً يده، كان النور يملأ المكان حوله، وإذا ما أنزلها عم الظلام. وفي النهار كان ضوء الشمس أبيض، وفي الليل أحمر كالنار. ولكن الضوء لم يكن ينير سوى مسكن الإبط المشمس وحده، أما باقي البلاد فقد كان يغرق في ظلام دامس، كما كانت السماء سوداء اللون. فقرر القدماء إرغام الشمس على الصعود إلى الأعلى لكي تضيء الأرض كلها.

فقالت امرأة عجوز لم يكن لها أولاد، قالت لجارتها أن تبعث بأولادها إلى حيث الإبط المشمس يقيم، وينتظروا هناك إلى أن يغفوا، فيقتربوا منه بحذر ويرموا به إلى السماء. وعندئذ ستتجول الشمس عبر السماء كلها، وتضاء الأرض.

وهذا ما فعله الأطفال. إذ جاؤوا إلى الإبط المشمس وجلسوا ينتظرون إلى أن غفا، فأخذوه معاً مرّة واحدة وقذفوا به إلى فوق، وقالوا له: «أيها الجد الإبط المشمس! ابق هنا، صر شمساً حارة! يجب أن تتمسك جيداً هناك فوق، وتنتقل عبر السماء كشمس ملتهبة لكي تغدو الأرض كلها دافئة، ولكي تسخن أنت كل شيء. يجب عليك أن تضيء أبداً، وتطرد الظلام!».

ومنذ ذلك الزمان والأمر هكذا: تأتي الشمس فيذهب الظلام. تغرب الشمس يحل الظلام، ومع الليل يأتي القمر. فيضيء القمر الظلام ويتراجع هذا الأخير، ثم يغرب القمر وتشرق الشمس فتبدد الظلام وتطارد القمر. ولكن القمر يتوقف فتطعنه الشمس بنصلها، عندئذ يضعف القمر ويخبو. ويقول القمر: «أيتها الشمس! من أجل أطفالي أتركي لي عمودي الفقري فقط!».

فتلبي الشمس توسلاته وتترك له العمود الفقري رأفة بأطفاله. ويمضي القمر بعيداً، يتهادى بصعوبة فائقة حتى يصل دياره مريضاً. فيظن أنه سوف يقضي نحبه، لكن الوقت يمضي وتدبّ في القمر الحياة، ثم يصير قمراً جديداً...

وفي الأساطير روايات أخرى عن ظهور الشمس في السماء. فقد عد المصريون القدماء أن إله الشمس رع ولد في صورة طفل بديع من زهرة اللوتوس البيضاء. وكانت الزهرة قد انبثقت من مياه المحيط البدئي مباشرة. وعندما تفتح كم الزهرة حلق رع منها نحو السماء مباشرة حاملاً معه النور والدفء إلى العالم.

أما الحثيون فقد تخيلوا ظهور الشمس بطريقة مغايرة تماماً. فقد روى هؤلاء أن المحيط العظيم تخاصم يوماً مع السماء والأرض والجنس البشري كله، وحمل إله الشمس إلى أعماقه السحيقة. فباتت حال الأرض مزرية، فاخرج إله الخصب تليبينوس الشمس من جوف المحيط وحملها إلى السماء.

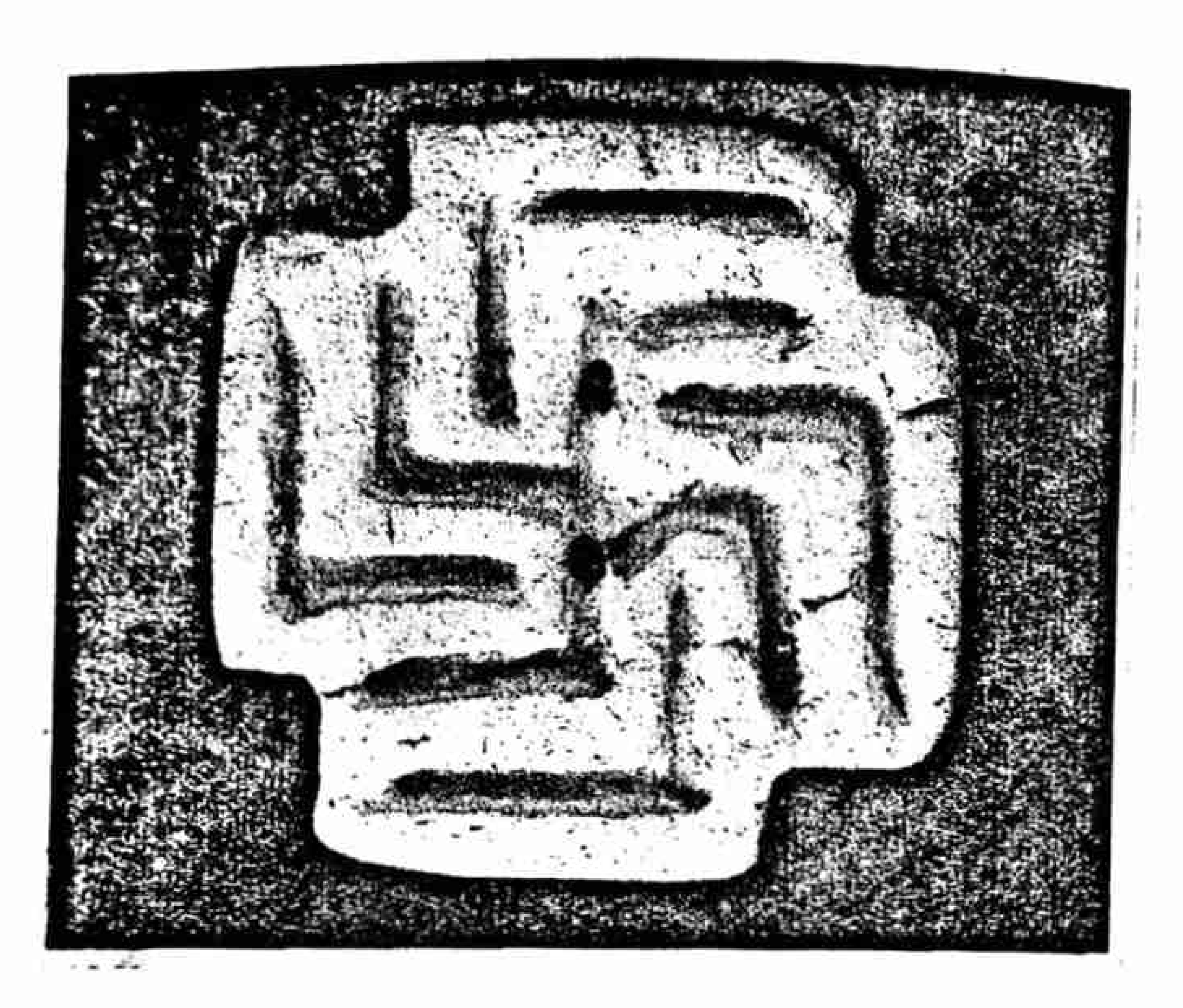
وتؤكد أساطير بعض الشعوب أن الشمس والقمر خرجا من أعين الآلهة. فيروي سكان جزر ماريان مثلاً، أنه عاش في غابر الأزمنة إنسان كان هو الإنسان الأول. وبعد أن مات حولت أخته رأسه وكتفيه إلى سماء وأرض، وعينيه إلى شمس وقمر، وأهدابه إلى قوس قزح. وعلى هذا المنوال نفسه ظهرت إلهة الشمس اليابانية أما تيراسو، أي «التي تضيء السماء»، أو «المضيئة من السموات»؛ فعندما كان ايدزاناكي يغسل عينه اليسرى بعد خروجه من بلاد الديجور ليؤدي طقس التطهر، خرجت هذه منها.

ويرى بعض الشعوب في الشمس إلهاً، بينما تراها شعوب أخرى إلهة. فهناك عند قبيلة النارينيري الاسترالية أسطورة تقول، إن الشمس امرأة تعبر بلاد الأموات وهي في طريقها لتنام في مأواها. ومع اقترابها من البشر الأموات يتجمع هؤلاء بعضهم إلى بعض، ثم ينقسمون إلى مجموعتين، تاركين ممراً للشمس تعبر منه. وفي غضون ذلك يحاولون إقناع المرأة- الشمس أن تبقى معهم، لكنها لا تستطيع أن تبقى بينهم إلا لبعض الوقت، ثم تتابع طريقها. وتقدم الشمس خدمة لواحد من الأموات، فيقدمون لها لقاء ذلك جلد كنغر أحمر، وفيه تظهر كل صباح.

وترى قبيلة استرالية أخرى أن الرعد هو الذي صنع المرأة الشمس. لكنه لم يمنحها ساقين كباقي البشر، ومنحها بالمقابل كثرة من الأيدي التي يمكن رؤيتها حينما تستيقظ وحينما تمضي إلى النوم. مساء تشعر المرأة- الشمس بجوع شديد، فتغوص في الأرض أو الماء بحثاً عن شيء تقتات به: حيوانات صغيرة، جذور أو أسماك.

أما الوغاواغا الذين يعيشوا في غينيا الجديدة، فإن تجسيد الشمس عندهم طفل ولد ولادة عجيبة: والده- السمكة عام إلى الجزيرة وغسل قدمي المرأة التي جاءت إليه. ومن وركي هذه المرأة خرج الطفل إلى النور. لكنه لم يكتشف طبيعته الشمسية إلا عندما عزم على أن يترك الناس ويمضي. فقد انذرهم بضرورة أن يلجأوا إلى ظل صخرة كبيرة وينقلوا حقولهم معهم، لأنه سيصعد قريباً إلى السماء، وعندئذٍ سيحترق كل ما لا يكون قد اختبأ في الظل. وهكذا حصل، لكن والدته لطفت من حرارته الحارقة: رمت في عينيه جيراً. فاضطر الطفل الشمس إلى أن يطبق عينيه، وبعد ذلك تراجعت شدة القيظ.

ولكن كيف كان الأمر في واقع الحال؟ كيف ظهرت الشمس في السماء؟ هذا لغز كغيره من الألغاز الأخرى المتصلة ببناء الكون، لا يزال سراً عصياً.



رسم قديم للصليب المعقوف

غالباً ما نرى في الصليب المعقوف شعار «العنصر الآري»، ونربطه بالفاشية.

ولكن الصليب المعقوف هو في واقع الأمر رمزاً شمسياً، وعلامة النور والكرم، وقد عثر عليه الأثاريون في الهند، والصين، ومصر.

وشاع هذا الرمز أيضاً في المسيحية المبكرة.

لم يتشكل المصير الميثولوجي لكوكبنا الرئيس بسهولة ويسر. فيروي الماوري، سكان زيلندا الجديدة، أنه في الأزمنة الغابرة كان تاما- الشمس يصعد إلى السماء كل يوم بقفزة واحدة، ثم يقطعها مسرعاً من طرفها إلى طرفها الآخر ويختفي. وبالكاد كان يتسنى للناس إعداد طعامهم وأكله قبل أن يخيم الظلام مرة أخرى. وكانوا يتذمرون كثيراً من قصر النهار وطول الليل، لكن أحداً لم يفكر مجرد تفكير في تغيير النظام القائم هذا.

ولكن ماوي عزم وهو يراقب بعينيه حركة الشمس وهي تجري مسرعة على صفحة السماء، على أن يجد طريقة يجعلها تبقى معلقة هناك. وأخيراً اهتدى إلى طريقة وأخذ يصنع مع أخوته حبالاً. ولما باتت الحبال جاهزة، حملها وأخذ معه فك جدته السحري ومضى إلى هناك حيث تشرق الشمس. ومضى أخوته وراءه.

ولما وصلوا أخيراً إلى آخر الكون، إلى المكان الذي تشرق الشمس منه، مدوا حلقة كبيرة من الحبال وغطوها بالأغصان والأوراق الخضراء. فظهر تاما- الشمس، وأمسك الأخوة بطرفي الحلقة، وحثهم ماوي هامساً امسكوا بقوة. واعملوا على أن يدخل تاما رأسه وجسده في الحلقة: حسن! إنها جاهزة شدوا!

وأخذ الأخوة يشدون بقوة، والحلقة تضيق حول جسد تاما أكثر فأكثر. لقد كان تاما- الشمس يرتجف من شدة الألم، ويميل من جانب لآخر محاولاً أن يقطع الحبل، لكنه لم ينجح. وشرع يدق الأرض بقدميه، والحبال المشدودة تئن كالحشرات في يوم قائظ.

وهنا قفز إليه ماوي وغرز أسنانه بقوة في رأسه، وأخذ يوجه إليه الضربة تلو الأخرى، فاهتز الهواء من أنين تاما. ولكن ماوي واصل الضرب، وكانت ضرباته تنهال على تاما محدثة هزيماً كأشجار تتهاوى محترقة. فخر تاما على ركبتيه متوسلاً الرحمة. لقد كان مثخناً بالجراح، فاقداً قواه، ولم يعد قادراً على أن يعبر السماء بعدة قفزات كما في السابق، بل بات يسير الهوينى على صفحة السماء، ولا يزال حتى الآن..

ولم يكن مصير شمس الصين أسهل. فقد روى الصينيون القدماء أن عشر شموس ظهرت يوماً في السماء معاً. وكان الحر شديداً لدرجة أنه لم يصهر الأرض فقط، وإنما صهر المعادن والحجارة أيضاً. وكادت الدماء تغلي في عروق الناس من شدة القيظ، وبات التنفس شديد الوطأة. وأحرق السعير المزروعات: لقد حل الجفاف وعانى الناس من مجاعة مضنية.

لقد كانت تلك الشموس العشر أبناء سيخيه، زوجة الإله السماوي الشرقي دي-تسزيون. وكان هؤلاء يعيشون في تانغو: الوادي الذي يغلي والواقع وراء البحر الشرقي وكان هذا الوادي يدعى كذلك بوادي النور أو وادي الينابيع الدافئة، وقد توضع شمالي بلاد ذوي الأسنان السوداء. وعادة ما كانت الشموس العشر تغتسل في البحر، ولذلك كانت المياه تفور هناك كالغليان. وفي هذا البحر الفائر نبتت الشجرة العملاقة فوسان، وفوقها كانت تعيش الشموس العشر- الأبناء. تسع منها أقمن على الأغصان العلوية، وواحدة على الأغصان السفلية. وكنّ يظهرن في السماء واحدة وراء الأخرى: تعود إحداهن فتحلّ الأخرى مكانها: ولذلك لم يكن الناس يرون سوى شمس واحدة في السماء.

لقد كانت الشموس تمتطي مركبة تجرها ستة تنانين سريعة كالإعصار، وكانت سيخيه تقود المركبة بنفسها. فبعد أن تغتسل في مياه البحر، كانت الشمس تصعد إلى أعلى الشجرة فتجلس في المركبة لتظهر في السماء باكراً في الصباح، إذ ينبثق منها ضياء باهت. وكان كلّ مكان تعبره الشمس يحمل أسماً خاصاً: كانت الأسماء تحدد أقسام اليوم كلّه.

وهكذا كان الأبناء- الشموس العشر يقطعون رحلتهم اليومية تحت مراقبة والدتهم، وفق طريق محددة تحديداً صارماً. وكان الأمر يتكرر كلّ يوم إلى أن ملت الشموس هذه الرتابة كلّها. فاجتمعن في أحد المساءات على أغصان الشجرة وتهامسن في شيء ما. وفي الصباح الباكر انطلقن معاً غير راغبات في ركوب المركبة. فجبن السماء كلّها يسرحن ويمرحن بفرح كبير. وصاحت بهنّ والدتهن جزعة، لكنهن استسلمن للهوهنَ الجامح. وقد أعجبهن هذا النظام الجديد وأخذن يظهرن كلّ يوم في السماء معاً.

وعندئذ فقط أخذ الناس يئنّون تحت وطأة قيظ لا يطاق. وأخذوا يلجأون إلى الوسائل السحرية لاستنزال المطر. فوضعوا الساحرة نيويتشو تحت الأشعة السماوية الكاوية، وكانت هذه تملك مواهب خارقة وقدرات كبيرة لاستنزال الأمطار. لقد كانت نيويتشو تستطيع أن تجوب الأطراف التسعة على ظهر التنين- السمكة الوحيدة القرن. وكان لهذه السمكة أربع أرجل، وكانت تشبه السمندل الضخم وتستطيع ابتلاع قارب كبير. وتبرز على ظهرها وبطنها حراشف حادّة. وما أن كانت هذه السمكة تظهر على سطح المحيط حتى تهبّ ريح مسعورة وترتفع أمواج مهولة. كما كان يعمل في خدمة نيويتشو سرطان يعيش في بحر الشمال.

ولكن صلوات الساحرة كانت بغير جدوى، فالمطر لا ينزل. ولم تقو هي نفسها على تحمّل لظى السعير فسقطت ميتة. وفقد الناس كلّ أمل بالنجاة. وفي غضون ذلك كانت الغابات تحترق والأنهار تغلي، فخرجت منها الوحوش الضارية وأخذت تهاجم الناس.

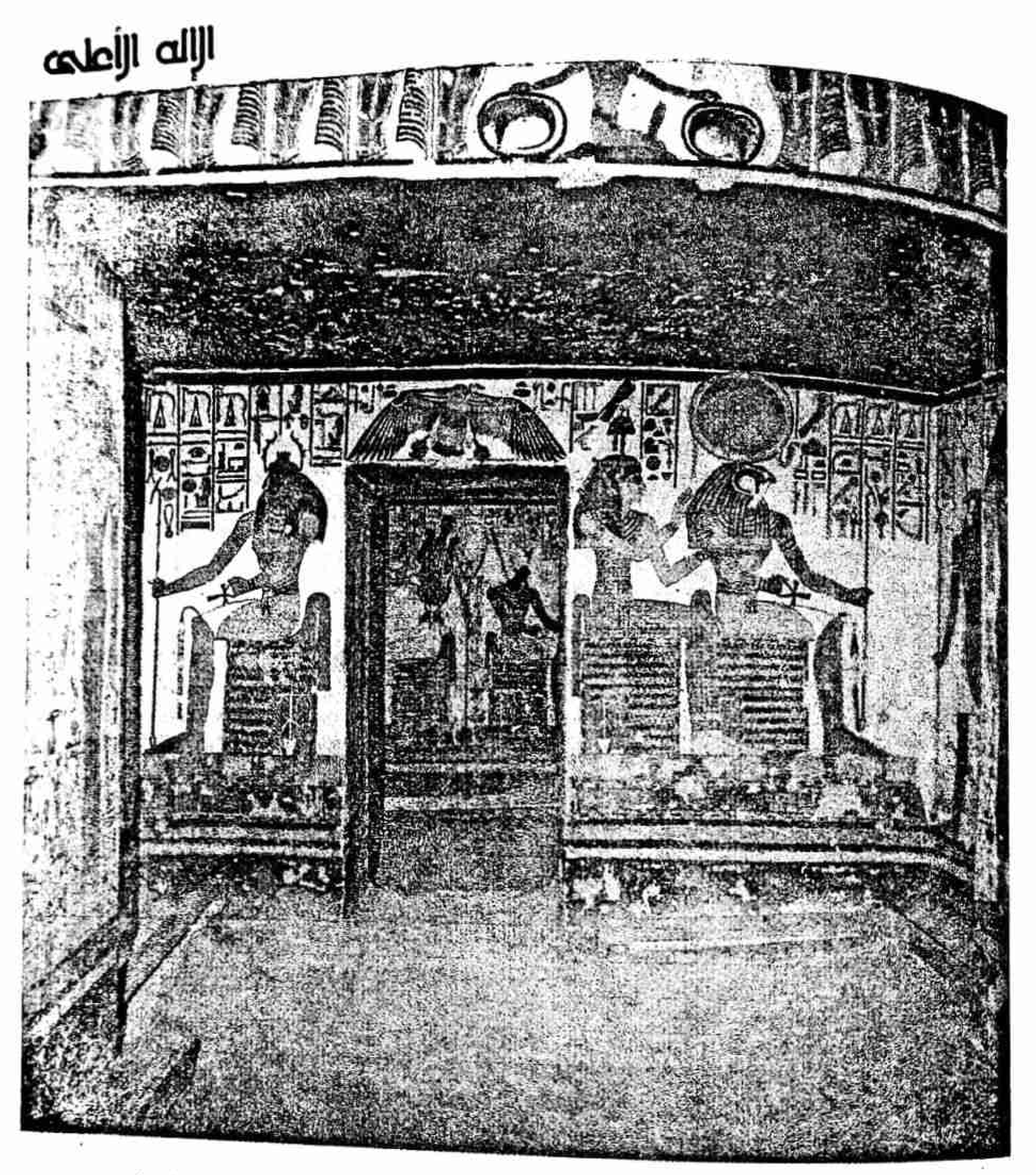
وأخيراً أخذت الصلوات الصاعدة من الأرض تزعج الآلهة، فأرسل الربّ الأكبر إلى الأرض رامي السهام الماهر إي. وكان هذا يستطيع أن يرمي بسهمه اي طير طائر. وحتى بنية جسده كانت متميزة: منذ ولادته كانت يده اليسرى أطول من اليمنى، وكان لهذا أهمية كبيرة بالنسبة لرمي السهام.

وإذ أرسل الربّ الأعلى السهّام الماهر «إي» إلى البشر، أهدى إليه القوس الأحمر وجعبة مليئة بالسهام. ونزل إي مع زوجته إلى الأرض، وعندما رأى حياة الناس أصابه الهلع: كثير منهم مات، والآخرون على حافّة الموت، جلودهم متشققة تظهر منها العظام. فأخذ إي قوسه ورمى سهماً، وبعد لحظة انفجرت في السماء كرة نارية وهوت إلى الأسفل ناثرة ريشها في المكان. وسقط على الأرض غراب ذهبي له ثلاث أرجل فأحدث سقوطه ارتجاجا. وكان المصير نفسه بانتظار الشموس الثماني الأخرى، ولم يبق في السماء سوى شمس واحدة.

كما كان نصيب الإلهة اليابانية اماتيراسو مغامرات من النمط نفسه. وقد بدأ كل شيء عندما تشاجرت أماتيراسو مع أخيها الضاري سوسانوو إله الريح. فعندما صعد هذا إلى السماء لزيارة أماتيراسو سلك هناك سلوكاً همجياً: دمرّ الحدود الفاصلة بين الحقول، وردم قنوات الري في سهول السماء العليا، ودنّس مكان تذوّق ثمار المحصول الجديد، وأتى دناءات أخرى كثيرة. وزاد على هذا كله إنه رمى في القصر حيث تنسج أماتيراسو الملابس السماوية، مهراً نافقاً سُلخ عنه جلده فحطّم بذلك سقف القصر، ولم يكن ثمّة إهانة أكبر من هذه فتركت إلهة الشمس المهينة مكانها واعتكفت في المغارة السماوية وأغلقت بابها الحجري بإحكام. فخيّم ظلام دامس على العوالم كلها، وحلّ ليل أبدي، وساد الخراب الكون.

وأخذ الآلهة يفكّرون بطريقة يخرجون فيها أماتيراسو من معتكفها، فوضعوا خطة حاذقة. ففي أحد الأيام وضعوا أمام المغارة شجرة مقدسة دائمة الخضرة، وعلّقوا على أغصانها السفلى أشرطة قماشية ثم أقام الآلهة بعد ذلك عرضاً صاخباً: عزفت الموسيقا، وأنشدت الأناشيد، وصعدت إحدى الإلهات على قدر مقلوب وأخذت ترقص، ولمّا استغرقت في نشوة الرقص بدأت تخلع ملابسها قطعة قطعة. فانتشى الآلهة، وغرقوا في موجة من الضحك الصاخب اهتزّ لها حقل السماء العالي كلّه.

فأثار الأمر فضول أماتيراسوا وواربت باب المغارة ونظرت. فقالت الإلهة التي كانت ترقص: إنهم يحتفلون فرحاً بوجود إله يفوق أماتيرسوا، وسوف يرونها إياه في اللحظة. وفي اللحظة عينها حملوا إليها المرآة التي رأت فيها صورتها. فأخذت إماتيراسو تطل أكثر فأكثر لكي ترى كل شيء، ففاجأها أحد الآلهة وأمسك بيدها وشدّها خارج المغارة، وأسرع الآخر ومدّ خلفها حبلاً قطع عليها طريق العودة. وهكذا رجعت الشمس إلى السماء وعمّ النور العالم من جديد.



الإله حبري إله شمس الصباح المصري القديم، والإله رع إله شمس النهار.

لقد صوروا حبري برأس جعل، ورع برأس صقر، ويعدّ حبري واحداً من أقدم الآلهة، وقد تجسّد في صور الجعل واعتقدوا بانه ولد من نفسه.

ولكن أياً كان مصير الشمس في الأساطير، فإنها مع الوقت صارت لدى بعض الشعوب إلى إله أعلى. ونحن نرى أن أحداً لم يعبد الشمس بعمق كما فعل المصريون القدماء. فقد رأوا فيها الواهب الرئيس للحياة. و الشرق، أي البلاد التي تشرق الشمس منها، «بلاد الإله»، عدّوه مكان ولادتها وبعثها. أمّا الغرب حيث تغرب الشمس، فكان بالنسبة إليهم موطن الموت والحياة الأخرى.

لقد تخيّل المصريون الشمس في صورة الإله رع، الذي يبحر على زورقه في النيل السماوي ومعه عدد من أهمّ الآلهة، فعلى مقدّمة الزورق تقف ابنة الشمس معات، ومعنى اسمها: «العدالة»: كانت الشمس تراقب من السماء أعمال الناس وتعقد محاكم العدل. نهاراً كانت الشمس - رع تبحر في الزورق مينجيت، ومساء تنتقل إلى الزورق ميسيكتيت وتنزل إلى العالم السفلي. وهناك كان الثعبان الغدار أبوب بانتظار رع ليبتلعه. ولكن محاولات أبوب تبوء كلّها بالفشل، وتعود الشمس لتنير في السماء من جديد.

كما كانت عند المصريين صورة أخرى للشمس:

كرة تتدحرج في السماء كتلك الكتلة الكروية التي يدحرجها الجعل أمامه. وقد بات هذا الجعل رمزاً لشمس الصباح. لقد شبّهوا شمس العصر بالرجل العجوز، فهي تتحرك منهكة نحو الأفق الغربي. أما شمس منتصف النهار في السمت فقد ذكّرتهم بالصقر الذي يحوم عالياً في السماء فيبدوا كأنه ثابت لا يتحرّك.

وحسب معتقدات المصريين إن إله الشمس رع كان أوّل ملك على مصر. وصوّروه في وضعه هذا في صورة رجل ذي لحية وعلى رأسه تاج على شكل قرص الشمس. وبعد ذلك دعا فراعنة مصر كلّهم أنفسهم أبناء رع، وفي غضون ذلك كان الهدف الرئيس لكل «ابن لرع» أن يدير شؤون مصر، التي عدّت الابنة الوحيدة لرع. وحتّى إله الشمس

هذا نفسه اهتمّ بأن تدار مصر كما يجب وبعد الموت كان الفراعنة يتحدون بإله الشمس الأعلى.

وكانت لرع ابنته المفضّلة تفنوت، أي «الرطوبة». وكانت هذه تظهر للناس في صور مختلفة، بما في ذلك صورة العين الإلهية. ورويت عنها قصص شتّى، أشهرها قصص انتصاراتها على أعداء الشمس، أو عقابها الذي كانت تنزله بالناس الذين كانوا يعصون إله الشمس. لكن تفنوت كانت إلهة هوائية ومتكبّرة.

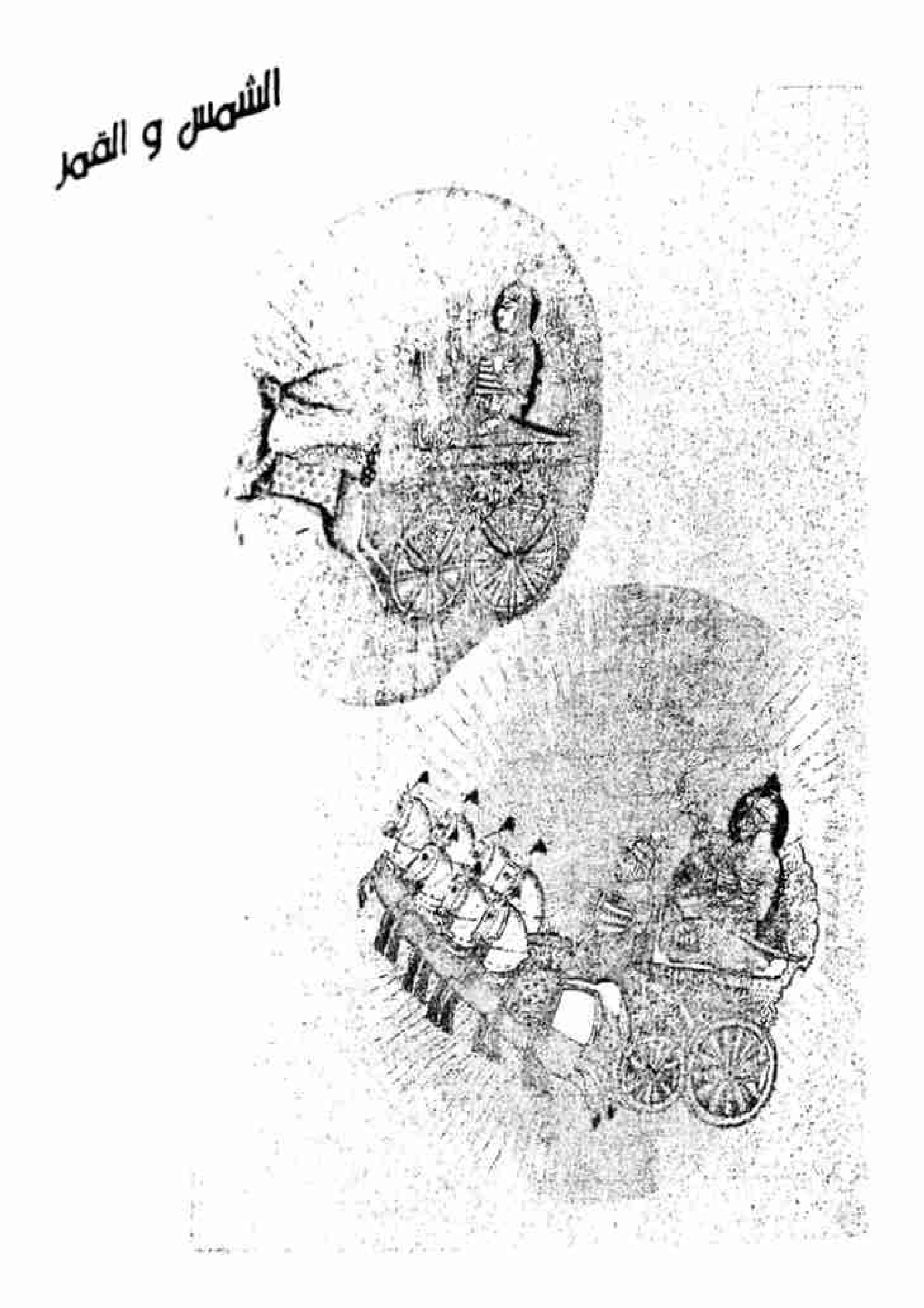
فمرّة وقع شجار بين رع وتفنوت. فتحوّلت هذه إلى لبوة وتركت رع ومضت إلى صحراء النوبة. وأخذت تتجول هناك غضوبة حانقة تهاجم الناس وتقتلهم؛ كانت عيناها تقذفان لهباً، وشدقها ينفث ناراً، وقلبها يملؤه البغض. وفي تلك الأثناء كانت الشمس تلفح بسعيرها كلّ شيء، وبات القيظ لا يطاق، ونزلت بالناس نوازل كبرى: الجفاف والوباء.

فعزم الإله رع على إعادة تفنوت إلى ديارها في مصر، وأرسل خلفها إله الحكمة توت. فتحوّل هذا إلى قرد ربّاح ووقف أمام اللبوة في هذا الإهاب. لقد قال لها توت، إن رع والآلهة الآخرين كلّهم يعيشون حزناً عميقاً لأنها تركت وطنها الأم، وأنهم يتوسلونها ألاّ تحمل في قلبها حقداً وتعود إلى الديار. ولكن اللبوة- تفنوت لم تشأ أن تسمع أي كلام من توت: «أغرب عن وجهي أيها الربّاح الحقير قبل أن أمزقك إرباً!» بيد أن توت كان داهية وحاذقاً، ونجح في أن يثير اهتمام الإلهة بكلامه المعسول، فأخذ يحدّثها عن البلاد البديعة التي ستزهر وتثمر وتزدهر بفضلها هي الآلهة عون الناس الذين ينتظرونها ليبنوا لها معبداً يقدمون فيه إليها ذبائح من الغزلان والظباء، الأمر الذي يعفيها من ضرورة شنّ غزوات لصوصية على الناس والوحوش؛ وسيأتونها بالخمرة التي سوف تطرد الحزن من قلبها؛ وحدثها عن الموسيقى التي تعزف، والأغاني التي ستغنىّ تمجيداً لها...

لقد تأثرت تفنوت ببلاغة توت وحسن بيانه، أمّا توت الحاذق فقدّم للإلهة- اللبوة كأساً من الخمر، ووجبة فواحة من لحم الغزال، ولم يفتأ يمدح جمال صورتها. كما لم يملّ يذكرها بالخراب الذي نزل بمصر منذ أن تركتها وهربت، وأن والدها رع ينتظرها بفارغ الصبر. وهكذا حقق الإله الخبيث غايته: لقد عادت تفنوت إلى مصر. ولمّا رآها إله

الشمس رع شرع يرقص فرحاً، وامتلأ قلبه بسعادة لا مثيل لها: هاهي عينه، والبلاد كلها في عيد.

ومع مجيء تفنوت انزاح الجفاف، وهطلت الأمطار، وفاض النيل فروى الحقول العطشى وسمد تربتها. أمّا رع فأمر أن يكون يوم وصول تفنوت، عينه الماجدة، عيداً يحتفل به كلّ عام. ومنذ ذلك التاريخ والمصريون يعتقدون بأن انتهاء فصل الجفاف، وفيضان النيل علامة على رجوع تفنوت. فيقيمون العروض في المعابد ويمثلون فيها هجرة تفنوت ابنة الشمس وعودتها.



رسما إله القمر سوما، وإله الشمس سوريا

لقد دعت النصوص الهندية القديمة مشروب الألهة الطقسي باسم سوما
ودعت إله هذا المشروب باسم سوما أيضاً، ثم ربطوه فيما بعد بالقمر
ويدعو بعض الأناشيد القديمة سوما غريس سور يا الذي يجوب السماء
على سبعة جياد. و لا يسكب سوما النور وينير العالم وحسب، بل يطرد
الأمراض والأعداء أيضاً.

غالباً ما تظهر الشمس والقمر في الأساطير تربط بينهما علاقات قرابة ما: إذ
وأخته، أو زوج وزوجته، أو توأمان كإلهة القمر المصرية القديمة تفنوت وشو الذي عدّ أحد
تجسيدات الشمس، ويروي اوبوريغين استراليا أنه في الأزمنة الغابرة عندما كان العالم لا يزال
فتياً، عاش فيه على الأرض أخ وأخته، وقد دعوهما بوروكوبالي وفيريوبرانالا. وبينما كان
يجمعان القوت يوماً في الغابة قابلا شخصاً آخر اسمه جابارا، فعاش ثلاثتهم معاً. ومرة أخذ
بوروكوبالي وجابارا عصاتين وشرعا يحكّانهما ببعضهما بعض. فسخنت العصاتان ثم
اشتعلت منهما نار.

ورأى بوروكوبالا أن النار تطرد الظلام ليلاً وتمنح الدفء، وهي ضرورية للناس بدفئها
ولطهي الطعام. عندئذ أشعل قطعة كبيرة من الخشب وجاء بها مشتعلة إلى أخته، ثم أشعل
قطعة أصغر لصديقه جابارا، وقال لهما إنه ينبغي عليهما منذ اللحظة أن يعملا على إبقاء النار
متقدة. لقد انتهى الزمن الميثولوجي، زمن الأحلام، واكتمل خلق العالم، وصار الناس
الميثولوجيون إلى كائنات حية، ونباتات، وريح، وصخور، وأشجار. وصارت فيريوبرانالا امرأة-
شمساً، وجابارا رجلاً- قمراً. ومنذ ذلك الوقت والمرأة- الشمس تظهر كلّ صباح على الأفق
الشرقي حاملة بيديها مشعلاً حارّاً ساطعاً، وتبدأ صعودها في السماء ببطء. وحينئذ يغادر
الناس مساكنهم إلى الغابة، والسهل، وساحل البحر ليصيدوا الأسماك، ويجمعوا الجذور
ويصيدوا الطرائد.

وعندما ينتصف النهار تكون فيريوبرانالا قد قطعت منتصف الطريق في السماء،
فيزداد اصطدام المشعل وضوحاً: لقد آن أوان إعداد الطعام. وبعد منتصف النهار تبدأ المرأة-
الشمس تطفئ مشعلها، فيتراجع الحرّ، وإذ يحلّ المساء تختبئ وراء الأفق الغربي. وحينئذ يأتي
الرجل- القمر جابارا ليحلّ محلّها حاملاً معه المشعل الصغير، ثم يقطع طريق رحلته على صفحة
السماء.

ويروي الهنود الحمر الاونا الذين يعيشون في أرض النار، أن الشمس والقمر كانا يوماً
زوجاً وزوجته، ودعوهما: كران وكرا. وفي تلك الأزمنة البعيدة كان القمر يسود على

النساء، وقد خضعن لسلطته دون تردد أو تذمّر. وكان لهن كوخ كبير خاص بالاحتفالات، وغالباً ماكنّ يلهون هناك بألعاب مختلفة. وقد كنّ يخدعن الرجال: يقلن لهم إنه تجتمع في الكوخ أرواح ولا يجوز حتى الاقتراب منه فيبقى الرجال مع الأطفال يهتمون بشؤونهم.

ولكن الشمس اكتشفت يوماً أنه لا يلتقي في الكوخ سوى النساء، وليس ثمة أي أرواح. فأخبرت الرجال بذلك، وجن جنون هؤلاء فهاجموا النساء. وقد نالهن منهم الويل، ماعدا بعض اللواتي نجحن في الفرار. أمّا القمر فلم يتمكن الرجال من قتله: لقد عدّوه شامانة (القمر عندهم أنثى م) جبارة، فتهيبوا الاقتراب منه. ولكن الشمس زوج القمر (الشمس عندهم ذكر م)، أحدث في جسدها بعض الثلوم التي كانت من القوة بحيث كان كل ثلم يحدث هزيماً ترتجى الأرض منه: لا تزال الثلوم ظاهرة على وجه القمر حتى يومنا هذا. فأسرعت كرا هاربة إلى السماء، وتبعها كران. ومنذ ذلك اليوم وهو يطاردها، لكنه لم يستطع أن يدركها...

إن الشمس متماثلة دوماً؛ فهي صنو ذاتها. أمّا القمر فهو دوماً مختلف عن نفسه، مغاير لذاته: قد يكون كاملاً وقد يكون ناقصاً، قد يظهر وقد لا يظهر، وقد يختفي من السماء تماماً. فكيف فسّرت الأساطير أحواله هذه؟

يروي الكيتيون السيبيريون أن الهلال- الرجل الذي يعيش في السماء مع زوجته الشمس، نزل إلى الأرض يوماً ليرى كيف يعيش الناس عليها. ولكن الإلهة الشريرة خوسيديم قامت تلاحقه هناك. ففرّ من أمامها ولجأ إلى الشمس في الخيمة، بيد إنه لم يتسنّ له أن يدخل سوى نصفه. ومن هذا النصف أمسكت الشمس به، أمّا خوسيديم فقد أمسكت بالنصف الآخر، وبدأت كل منهما تشدّه إلى طرفها إلى أن انفلق إلى نصفين. وهكذا فقد القمر أحد نصفيه، نصفه الأيسر، أي قلبه. وحاولت الشمس جاهدة لكي تحييه: صنعت له قلباً من الفحم، وهدهدته في المهد، كما يفعل الشامانات في طقوسهم، ولكن عبثاً. وعندها أمرت الشمس الهلال أن يضيء ليلاً بنصفه الباقي.

ويروي سكان إحدى جزر أوقيانوسيا أسطورة تقول، إن القمر العالي الذي ينقص ويزيد ليس هو القمر الأول، بل الثاني. أمّا القمر الأول فقد كان كاملاً دوماً، وكان يأتي كلّ مساء بدلاً عن الشمس، ولذلك كان بمقدور الناس أن يعملوا ليلاً أيضاً. ولكن مجاعة حلّت في زمن ما، فرمى أحدهم القمر بسهم وأسقطه؛ ثم أخفاه في سفط وأخذ يطعمه لأبنائه قطعاً صغيرة. وفي أحد الأيام أستغلّ الأطفال غياب والدهم وقطعوا من القمر قطعة أكبر من حاجتهم، فانزلق القسم المتبقي خارجاً من السفط عبر فتحة بين خلاياه، وتحوّل إلى طير طار إلى السماء وصار قمراً، ولكن لم يعد العمل ليلاً تحت ضوئه ممكناً.

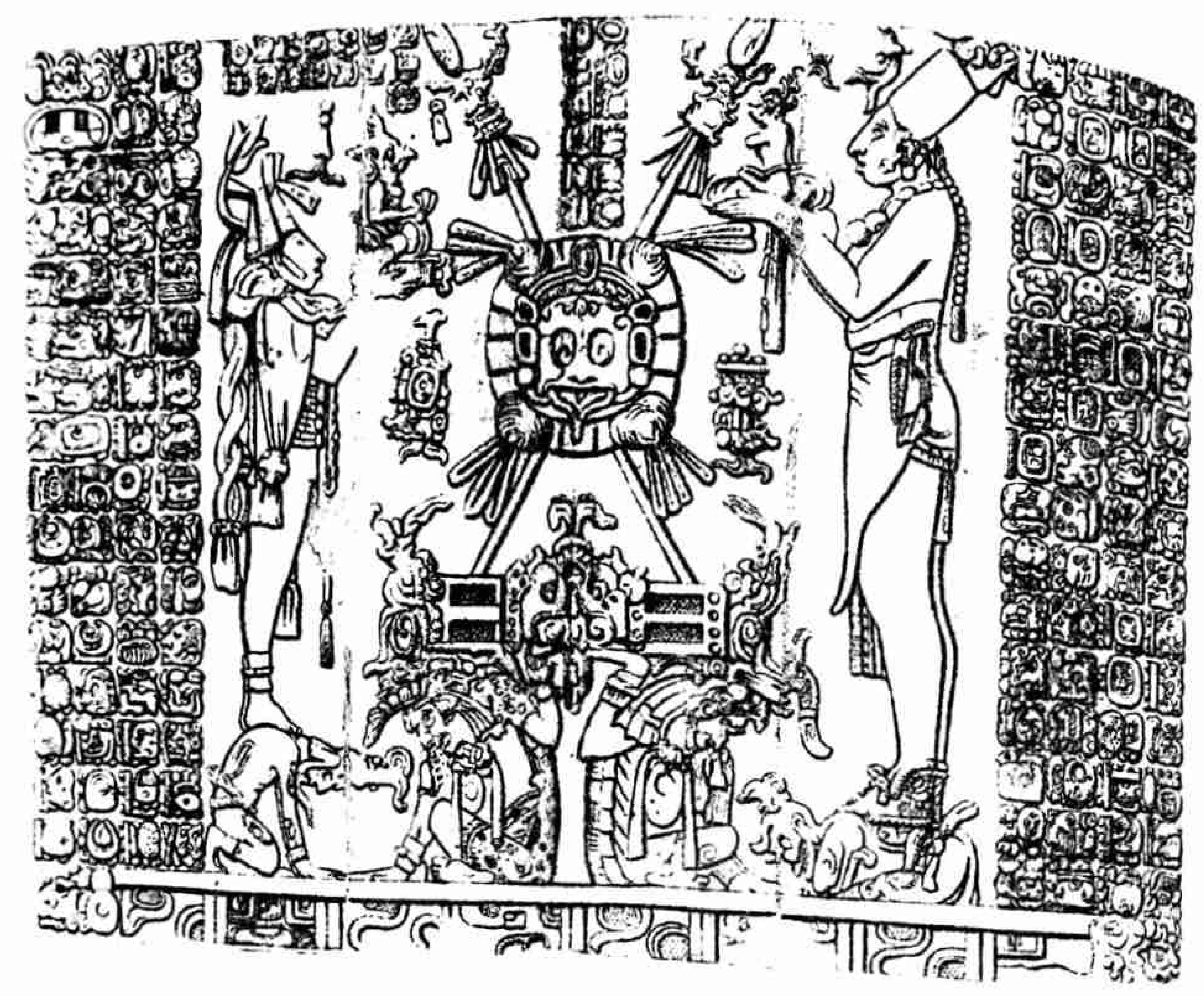
وفي أسطورة أخرى أن القمر شيء صغير ساطع منير عثر عليه أحدهم عندما كان يحفر حفرة. وقد أخذ الشيء يكبر بسرعة أما م عينيّ الرجل، ثمّ ما لبث أن حلق في السماء هاربا منه. ويقولون إن القمر كان سينبت من الأرض من تلقاء نفسه عاجلاً أم آجلاً، ولو حدث ذلك لأضاء أكثر.

وحسب البوشمين الأفريقيين أن الكواكب كلّها، بما فيها القمر والشمس والنجوم، كانت في زمن ما حيوانات: ظبية، وعنز جبلي، وسلحفاة. وفي تنويعة أخرى أن تساغن، الجعل الورع، هو الذي صنع القمر. فمرّة رمى هذا بنعاله إلى السماء وقال: «أنا تساغن، وهذا صندلي فليتحوّل إلى قمر، يضيء في السماء ليلاً وينير للناس ظلام الليل إلى أن تشرق الشمس. أيها القمر ينبغي عليك أن تموت وتحيا من جديد» ويعتقد البوشمين. إن القمر بارد لأنه صندل تساغن الجلدي، وأحمر لأن الطين الأحمر والقاذورات الأخرى تراكمت عليه.

ويعتقد بعض شعوب السودان أن القمر كان كبشاً ألقوا عليه القبض ووضعوه في قفص لأنه كان يسرق الدخن. ولكن فجأة حلّ الظلام بعد ذلك، فنصح عجائز القبيلة بإطلاق سراح الكبش؛ ولمّا فعلوا قفز هذا عالياً وتحوّل إلى هلال.

قصارى القول إنه وفق الأساطير كان يمكن أن تربط بين القمر والشمس شتى العلاقات. ولكن كائنة هذه العلاقات ما كانت فالرمزية الشمسية تأخذ بالحسبان «البناء النهاري للروح» بينما تؤكدّ الرمزية القمرية على «التكوين الليلي»، وعلى وجه العموم فإنهما يمكن أن يساعدا معاً على إعادة بناء وحدة قدرات الإنسان الجسدية والروحية كلّها.

«أبناء الشمس»



لوحة محفورة على كسوة حجرية لجدار «معبد الشمس»

لقد كان هنود أمريكا الوسطى يقدّمون في معابدهم قرابين بشرية، لانهم كانوا على يقيق بأن الدماء البشرية ضرورية للحفاظ على حياة الألهة.

واعتقدوا أنه من الضرورة بمكان إطعام إله الشمس خاصة، الدم البشري لكي يستطيع أن يقطع رحلته اليومية عبر السماء.

لم يكن فراعنة مصر القديمة وحدهم من عدّ نفسه ابناً للشمس. فملوك الهند
ردّوا أصولهم إلى الشمس والقمر، وكذلك فعل حكّام بعض البلاد الأخرى. أما الانكا
الأمريكيون الذين عاشوا على أراضي دولة البيرو المعاصرة، فقد دعوا أنفسهم
الشمس» وعبدوا هذه الأخيرة تحت مسميّات مختلفة، وسجدوا لها بصفتها الإله
ومثلوها في صورة قنديل ذهبي بوجه بشري. وكان يحكم إمبراطورية الانكا
تاوانتينسوييو، أي «جهات الكون الأربع» الحاكم الأعلى سابا إنكا الذي قارنوه بالشمس
وقارنوا زوجته بالقمر، بالإلهة كيلنيا. وروى الانكا خرافات عن تأسيس إمبراطوريتهم
كان فيها للشمس الدور الرئيس.

... في زمن ما خرج من بحيرة تيتيكاكا الزوجان الإلهان مانكو كاباك وماما أوكلو
وقد قلدهما والدهما الشمس الصولجان الذهبي الذي يجب أن يرشدهما إلى المكان الذي
ينبغي أن تشاد عليه المدينة. وجاب الاثنان في الأرض طويلاً قبل أن يصلا إلى المكان الذي
فيه الصولجان في الأرض من تلقاء نفسه. وهنا في المكان المعني ظهرت عاصمة الإمبراطورية
كوسكو، ومعنى الاسم: «السرّة»، كما نشأت الإمبراطورية في المكان عينه.

كما ارتبطت بحيرة تيتيكاكا عينها بولادة الشمس. وكان يعيش يوماً ما في محيطها
الهنود الحمر الأيمارا. وقد اعتقد هؤلاء أن «الإله الأبيض» الكلّي القدرة فيراكوتشا قد ظهر
على الأرض من هذه البحيرة وصنع الشمس والكواكب الأخرى.

لقد كان الانكا يكرّمون الشمس صيفاً على وجه الخصوص، فقد كانوا يجمعون
أشعتها في مرآة مقعرة ويشعلون النار المقدّسة بوساطتها. ولم ينسوا أن يسجدوا للكوكب
العظيم في الأيام الأخرى أيضاً. ولكن الطقوس الأكثر احتفالية عندهم كانت الطقوس
المكرسة للشمس في آخر العام، عندما كان الانكا يقدمون الشكر للشمس على
الذي منحته لهم في العام المنصرم، ويتوسلون رضاها ووقوفها إلى جانبهم في العام المقبل
وكانوا يقدّمون لها في أيام الاحتفالات حلياً ذهبية وفضية، وقرابين بشرية. كانوا يدفنون
خمس مئة شاب وفتاة أحياء.

لقد شيّد هنود البيرو القدماء اهرامات عظيمة على شرف الشمس والقمر. وقد استقرّ واحد من مثل هذه الإهرامات على قاعدة مدرّجة جبّارة ارتفاعها ثمانية عشر متراً. أما قطرها فكاد يبلغ الكيلومتر وبنوا في أعلى الهرم معبداً يذكر بناؤه ببناء المنزل السكني.

وكانوا يقيمون مرّة كلّ أربع سنوات، وكذلك أثناء الحروب والكوارث، طقساً يدعى القربان العظيم الذي دعوه باسم «كاباك هوتشا». وقد تألفت ذبائحهم فيه من أطفال في سن العاشرة لا عيب في بنيتهم الجسدية والعقلية. وكان هؤلاء يرسلون من شتى أنحاء الإمبراطورية إلى معبد العاصمة حيث يؤدى الطقس، أو يقدّمون في المكان الذي ينتمون إليه.

وفي أثناء واحد من مثل هذه الطقوس الذي كان يؤدى في كوسكو عاصمة الإمبراطورية، استقبلوا طفلة في العاشرة من عمرها كانت معدّة ذبيحة للشمس. ثم أرسلوها بعد ذلك إلى قريتها التي نشأت فيها، وهناك على قمة جبل دفنوها حيّة مع أوان وقدور وحليّ، وسقوها رمزياً عبر أنبوب نحاسيّ. ومع مرور الزمن تحوّلت الفتاة التي قدّمت قرباناً بهذه الطريقة إلى إلهة محلية، وبات أخوتها الأصغر منها سناً هم كهنتها، وكوفئ والدها بترقية، وباتت عائلتها محترمة مبجلة على امتداد أجيال.

وكما الانكا كذلك كانت شعوب بعض أقاليم أمريكا الأخرى تقدم قرابين بشرية للشمس. وعلينا ألاّ نتهم هؤلاء بالوحشية أو قساوة القلب؛ لأنهم كانوا على ثقة راسخة بأن الشمس والحياة موجودتان على الأرض بفضل هذه القرابين فقط، وإن هذه القرابين بالذات هي التي تساعد على المحافظة على النظام القائم في الكون. فعند الاستيك مثلاً، كان القربان الأكثر بهجة، هو القربان الذي ينتزعون أثناء إقامته قلب الضحية. لقد كانوا يصبغون الشخص المعدّ ليقدّم قرباناً باللون الأزرق، ويقودونه إلى أعلى الهرم أو إلى أيّ مكان آخر مكرس لتقديم القرابين. وهناك يشقون صدره بسكين صوّانية حادّة، وينتزعون قلبه وهو لا يزال ينبض؛ ثم يجمع الكاهن دماء الذبيحة ويدهن بها وجه صورة إله الشمس أو أيّ إله آخر.

وتشرح الأساطير مغزى الذبائح البشرية فتقول: حدث يوماً أن توقفت الشمس عن الحركة، وكان ذلك يعني إمكانية أن يندثر كلّ ما هو حيّ على وجه الأرض. ولكي تمنح الشمس القوة قدم الآلهة أنفسهم ذبائح وأعطوا دمائهم لها. وعندئذ استأنفت الشمس حركتها وتابعت طريقها.

واعتقد المايا أيضاً أن الدم هو «أحبّ وجبات الآلهة على الإطلاق»، وليس في مقدور الناس أن يبخلوا به عليهم، وخاصة أن أحداً لم يكن يساوره شك في أن الآلهة يحافظون على نظام الكون السائد.

لقد عبد كثير من الشعوب الشمس وقدموا لها القرابين. فقد رأى النغاسانيون الذين يعيشون في تايمير مثلاً، إن الشمس- الأم (إلى جانب الأرض) كائن يمنح الحياة والنماء للناس والنباتات، والحيوان، كأنها تشدّهم إليها، لكنها خلافاً للأرض لا تأكلهم أبداً، ولا تأخذهم إليها، بل على الضدّ من ذلك تحاول حمايتهم من البرد والأمراض. لقد احتفل النغاسانيون بظهور الشمس وقدموا لها القرابين: جلد الوعل، ورأسه، وأحشاءه. لقد كانوا يعلقونها على الشجرة ويقولون: «أيتها الشمس- الأم، هذا نصيبك».

أما الأطفال النغاسانيون فقد آمنوا بأن الشمس تعينهم على التخلّص من الثآليل. ولم يكن تحقيق ذلك أمراً صعباً، إذ يكفي أن تنهض في الصباح الباكر وتخرج من البيت وتدوّر يديك تحت «أنف» الشمس وتشاكسها قائلاً: «انظري أيّ وخزات لديّ، لكني لن أعطيها لك!». ويجب أن تتكرر هذه المشاكسة عدة أيام فتختفي الثآليل، لأن الشمس تغار وتسلبك إياها.



طبق فضي إيراني من القرن الميلادي السادس

يحمل الطبق مشهداً يرمز إلى الاعتدال الخريفي: طائر مقدس يحمل الإلهة إلى السماء، ويرمز الغلام الحامل القوس إلى النهار، والحامل الفأس الحربية الى الليل

لقد بجل سكان البلدان الحارة القمر أكثر من الشمس، فعدوا أن القمر الأ
كل ما هو ضروري للحياة. وهذا مفهوم، فبعد سياط شمس النهار اللاهبة، تأتي الليلة القمـ
بالبرودة المنتظرة. وبدا كأن ضوء القمر الخافت يبعث السكينة في الأرض التي أضناها قيظ
النهار، ويمنح الراحة للبشر والحيوانات. ولم ترتبط بالقمر الأساطير التي فسرت منشأه فقط
فقد روي عنه أيضاً شتى الخرافات، والحكايات السحرية، والمعتقدات الخرافية، وأقام
تكريماً له طقوساً خاصة تظهر أطواره التي يمر بها كل شهر. ومن المعروف أخيراً أن أقدم
تقويم في التاريخ كان تقويماً قمرياً: لقد كان من السهل جداً على الصيادين واللقط
البدائيين أن يحسبوا الزمن وفق تبدل أطوار القمر.

ولدى كثير من شعوب العالم أساطير مكرسة خاصة لتفسير أسباب ظهور البقع
على وجه القمر؛ وقد عزوها إمّا لحيوانات ما، وإما «لشخص قمري» مختلف، كما عند
النفهيين الذين عزوها إلى المرأة القمرية اللقلاقة. ورأى الصينيون، والهنود، وبعض
الشعوب الأخرى في البقع القاتمة الظاهرة على وجه القمر إمّا أرنباً، أو جعلاً، أو
إنساناً، بل دعوا القمر أحياناً باسم الأرنب: «الأرنب القاتم»، و «الأرنب الذهبي»، أو
«الأرنب الملفوح». واعتقد البوذيون أنه كانت لبوذا نفسه صلة بظهور الأرنب على القمر
وتقول الخرافة، إنه عاش على الأرض في الزمن الغابر أرنب نبيل طيب القلب عطوف وقد
دعا الجميع للتسامح واقتسام لقمة العيش مع الجائع. وكان الأرنب على استعداد
للتضحية بنفسه إذا علم أن الناس لا يجدون ما يقتاتون به، كما يقتات هو بالأعشاب
وحين سمع بوذا بذلك ظهر للأرنب في صورة راهب يطلب صدقة. فعزم الأرنب على أن
يطعم الراهب لحمه مهما كلفه الأمر، ورمى بنفسه إلى النار. لكن بوذا جعل النار
لا تمس الأرنب، وجعل هذا يمضي إلى القمر. ومنذ ذلك اليوم والأرنب يعيش هناك يدق
عقار الخلود في جرن.

كما يربط بوشمين افريقيا أيضاً بين الأرنب والقمر. ويروي هؤلاء أن الأرنب كان في
الأزمنة الغابرة إنساناً، ولكن القمر حوله إلى أرنب. ومع ذلك بقيت لديه قطعة من لحمه

البشري على قدمه، ولا يأكل البوشمين لحم هذا المكان من الأرنب أبداً فهم يعتقدون أن معدتهم لن تقوى على تحمل ذلك.

أما الحيوان القمري الآخر فهو الضفدع. فكيف وصل هذا إلى القمر؟ إنها قصة قديمة ارتبطت بالسهام الماهر إي، الذي تعرفنا إليه في مكان آخر من هذا الكتاب، إنه عينه الذي أسقط الشموس التسع وأنقذ الناس من السعير الحارق. وسرعان ما اجترح هذا بعد ذلك بطولة أخرى. فقد أحدث روح نهر خوانخي المدعو خيه- بو فيضاناً، إذ خرجت المياه خارج مجرى النهر وأهلكت كثيراً من الأبرياء. فرماه إي بسهم من قوسه السحري اقتلع له عينه اليسرى وأنقذ الناس من الكارثة. لقد وصلت أخبار السهام الماهر هذا إلى الإلهة سيفانمو التي كانت تحفظ عقار الخلود لديها. ومع أن السهام إي كان إلهاً، إلا أنه كان يخاف الموت، ولا يريد أن يجد نفسه يوماً في المملكة السفلي. فعزم على الوصول إلى سيفانمو والحصول منها على إكسير الخلود. لكن العثور على الإلهة كان أمراً صعباً جداً: كانت سيفانمو تقيم في كهف على جبل كونلون، بيد أنها غالباً ما كانت تبدل مكان إقامتها. كما لم يكن الوصول إلى قمة الجبل أمراً يسيراً: كان يجري عند سفح الجبل نهر غرق في لجه كل ما وقع فيها، علاوة على هذا كانت تحيط بكونلون جبال تنفخ ناراً تحرق الأخضر واليابس. وكان يقيم على قمة كونلون حارس مخيف له تسع رؤوس: الوحش الذي يكشف عن غسق الفجر. زد إلى هذا أنه كانت لسيفانمو نفسها أنياب نمر، وتخدمها ثلاثة طيور تحمل إليها بمخالبها الحادة الحيوانات والطيور المصادة لها خاصة. وبعد أن تلتهم وجبتها كانت خادمتها وهي طير مقدس له ثلاث أرجل، كانت تحمل البقايا إلى خارج الكهف: أكواماً من الجلود والعظام.

ولكن السهام الحاذق إي، تجاوز تلك العقبات كلها ووصل إلى سيفانمو. فاستمعت هذه إليه، ثم أمرت أن يؤتى إليها بالقرعة- الدورق التي تخزن العقار فيها وأعطتها للسهام قائلة: «هذه الكمية تكفيك وزوجتك لكي تحصلا على الخلود. إذا ما شرب ما في القرعة شخصان، فإنهما يغدوان خالدين على الأرض، أما إذا شربها واحد وحده فإنه يستطيع أن يصعد إلى السماء ويغدو هناك إلهاً».

حمل السهام القرعة وعاد إلى بيته، وأعطاها لزوجته لتحفظها عازماً على أن يشربا العقار معاً أثناء العيد. ولكن تشانيه اختارت وقتاً كان زوجها فيه خارج المنزل، وشربت العقار كله وحدها. فغدا جسدها خفيفاً جداً، وانفصلت قدماها عن الأرض، وألفت نفسها على سطح القمر وقد تحولت إلى ضفدعة. وكان المكان هناك مقفراً خالياً من أي بشر، ولم يكن فيه سوى الأرنب يدق عقار الخلود في جرن، وشجرة قرفة. وبعد سنين طويلة ظهر أوغان

على القمر أيضاً: لقد أخطأ هذا بحق الآلهة، فنفوه إلى القمر وحكموا عليه أن يقطع شجرة القرفة إلى الأبد: كلما قطع منها غصناً عاد ونما من جديد...

وحسب الداوسية، وهي الديانة الرسمية في الصين، أن الشيخ المسن «رب القمر» يقيم هناك، وانه هو الذي ينظم الزيجات، إذ يربط بين الصبي الصغير والبنت الصغيرة المقدر لهم أن يعيشا زوجين، بخيط أحمر لا يرى.

ويرى الناناي السيبيريون على القمر ضفدعة تحمل دلوين على ذراع. فبينما كانت عائدة يوماً تحمل الماء إلى المنزل رأت خيالها والدلوين والذراع على صفحة القمر المنير. فأحست برغبة شديدة لأن تكون على القمر، وأنشدت أغنية بذلك. وفجأة مد القمر شريطاً طويلاً ورفع الضفدعة إليه ومعها الدلوين والذراع.

وحتى وقت قريب كان الاوروتشي السيبيريون على قناعة راسخة بأن الشامانات يتجولون في «أرض القمر»، خاصة في الشتاءات القليلة الثلج حيث يكون من الصعب على الصياد أن يصيد الوحوش، عندئذٍ كان الشامان يمضي إلى القمر ليأتي بالثلج من هناك. وعلى وجه العموم كان كثير من شعوب سيبيريا يعتقد أن الشامانات اعتادوا على الطيران إلى الشمس والقمر، لكنهم لم ينجحوا في ذلك لأن الشمس حارة جداً والقمر بارد جداً. والحقيقة أن أحدهم وصل إلى القمر مع طبله، لكنه التصق به، ولذلك ظهرت البقع على القمر.

لقد كانت الشعوب التي تعطي القمر أهمية خاصة، تقدم له القرابين وتقيم على شرفه الأعياد. فالهنود القدماء كانوا يقيمون شعائر القمر الجديد وشعائر انتصاف القمر، ولا تزال هذه العادة موجودة حتى يومنا هذا في بعض الأماكن. وكان الأين يقدمون التقدمات لإله القمر في طور انتصافه. أما النغاناسانيون فقد كانوا يقتلون أيلاً خاصاً للقمر - الأم إذا ما تعسرت إحدى نساء القرية بالولادة. وعند خيمة الولادة كان زوج المرأة يتضرع إلى القمر أن يأخذ الإيل ويعطي زوجته «مخاضاً يسيراً». وكانوا في هذه الحال يثنون أطراف الأيل المقتول ويديرون رأسه باتجاه القمر ثم يمددون المرأة إلى جانبه. وعندما كانت الولادة تنتهي بسلام، كانوا يتركون الأيل في المكان عينه، ولم يكن يأكل لحمه أحد.

الباب السابع

روح الفكر جسد، و يحس بالنار

من هو الديميورغوس



ماوي، البطل الثقافي للأساطير البيولينيزية.

لقد ترافقت أعمال ماوي وبطولات كلّها بالطرف والدسائس، لذلك دعوه باسم ماوي ذي الحيل الألف. ومثله مثل الآلهة كان ماوي يملك قوة سحرية تدعى مانا، وكان على خلاف دائم مع الآلهة يريد أن ينتزع منهم بعض الامتيازات لصالح الناس. وفي أوقيانوسيا ارتبط كثير من الأساطير، والخرافات والحكايات، والألعاب باسم ماوي. ومنها لعبة تتمثل في حياكة أشكال من الخيوط تصوّر بطولات ماوي.

في كثير من الأساطير التي تروي قصة خلق العالم يعمل ديميورغوس. والديميورغوس كلمة إغريقية معناها «الحرفي»، «معلم الحرفة»، أي «الصانع»، ذلك الذي يبدع للناس ويندغم هذا أحياناً بشخصية ميثولوجية أخرى، هي شخصية البطل الثقافي: اسم أطلق على كل من جاء بقيمة ثقافية ما من أجل البشر، كالنار، وأدوات العمل، والمحاصيل الزراعية مغامراً في أثناء ذلك بحياته. فهو الذي علم الناس أساليب الصيد وطرقه، كما علمهم مختلف المهن، وأقام لهم قواعد الحياة العائلية والاجتماعية وحدد أصولها ومعاييرها، وأرشدهم إلى السلوك الصحيح في مختلف الحالات، قصارى القول إنه علمهم، شتى الأشياء المفيدة والضرورية لحياتهم. ويقوم الفرق بينهما في أن الديميورغوس يبتكر الأشياء التي لا وجود سابقاً لها، أما البطل الثقافي فهو في غالب الأحيان يأتي بما هو موجود أصلاً، لكنه يختفي عن الإنسان أو يفارقه لسبب ما.

والقارئ يعرف بالتأكيد هؤلاء الديميورغوس- البطل الثقافي، كالإغريقي بروميثيوس على سبيل المثال. فقد هب هذا ليساعد الناس الذين كانوا في بداية الأزمنة لا يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم ضد الضواري، ولا يحسنون ركوب البحر، ولا يعرفون قدح النار. فعرف بروميثيوس الناس على المعادن وعلمهم كيفية استخراجها وتعدينها، وروض الثور البري ووضع عليه النير لكي يجر المحراث وينقل الأثقال؛ وبنى أوّل سفينة حملت الإنسان عبر الفضاءات البحرية، وبين طرائق التعرف على الأعشاب الطبية والتداوي بها. قصارى القول إن بروميثيوس قدم للناس كثيراً من النعم. ولم يشك الإغريق أبداً في أن بروميثيوس وباقي الآلهة والأبطال هم من قدم لهم الحرف والمعارف الأخرى كلها. وهاك ما جاء في تراجيديا اسخيلبوس «بروميثيوس المكبل»:

سوف اشرح لكم كل معنى

أعمالي، أعمال الخير... كان الناس من قبل

ينظرون ولا يرون، يتسمعون ولا يسمعون،

لقد كانوا يفنون حياتهم في أحلام بائسة، فلم
يعرفوا تصنيع الخشب، ولا بناء المنازل بالآجر،
وعاشوا في أعماق الكهوف تحت الأرض،
لا يرون الشمس، مثل النمل
ولم يميزوا حينئذ
علامات الشتاء، والربيع، فصل الزهور،
والصيف فصل الثمر؛ كل شيء كان ينتهي
بغير مغزى: لقد أريتهم أنا
شروق كواكب السماء وغروبها.
لقد علمتهم أول العلوم:
علم الحساب والقراءة والكتابة، وأعطيت لهم
الذاكرة المبدعة، أم الموسات،
وأنا أول من أخضع الحيوانات البرية
للنير، فيسرت للناس العمل الجسدي الشاق،
أنا قرنت الخيل إلى عربات النقل، وأخضعتها
فباتت ترف الأغنياء المحبب.
من غيري ابتكر السفن التي تبحر
مسرعة بأجنحتها الكتانية..

ولبروميثيوس أسلاف كثيرون سبقوه في شتى الميثولوجيات عند الشعوب كلها تقريباً. ومن هؤلاء مثلاً الإلهان السومريان- الأكاديان إينليل وانكي. فبعد أن فصل اينليل السماء والأرض أخذ ينظم الشطر الأرضي من بناء الكون. ولم يكن يقوم بذلك بنفسه دوماً، بل خلق آلهة أصغر كانوا ينفذون أوامره. لقد زود اينليل الأرض بالقطعان والحبوب. وابتكر المعزقة، وقدم ذلك الابتكار الثمين «للشعب ذي الرؤوس السوداء» (هكذا كان السومريون يدعون أنفسهم)، لكي يستطيع الناس زراعة البساتين بالخضار، وبناء المساكن حولها.

أما الإله انكي فهو أيضاً وهب السومريين بدوره أشياء كثيرة ذات نفع ولكنه معبر في الأول يتجول في مختلف أرجاء العالم، حيث «حدد المصائر»، وكان هذا التعبير يعني عند السومريين العمل البناء الذي يقوم به الآلهة. لقد روت الأساطير عن زيارة انكي لمدينة أور ثم ملقا، ثم لنهري دجلة والفرات اللذين بالمناسبة ملأها بالأسماك، وتابع رحلته إلى أرجاء البلاد الأخرى. وفي كل مكان زاره كان انكي يؤدي عملاً كونياً بناء: «لقد وجه هو المحراث والنير والمقرون»، و «أمر الثور أن يسير في خط مستقيم»، و «فتح شدق» الثلم المقدس. وأمر الحقل الكريم أن يلد الحبوب. وأقام في كل الأماكن التي زراها آلهة- شفعاء.

وفي كثير من الأحيان يكون الديميورغوس والبطل الثقافي حداداً: هيفستوس في الميثولوجيا الإغريقية على سبيل المثال فقد. كان لهيفستوس ورشة تحت الأرض. وقد صنع فيها أشياء خارقة: رعود زيوس وصواعقه، سلاح إينيوس واخيل، والترس البديع. و.. كما صنع لوالدته هيرا التي قذفت به من فوق الأوليمبوس لأنه كان أعرج وقبيحاً، كرسياً ذهبياً فريداً وأرسله إلى الأوليمبوس. وذهلت هيرا إذ رأت الكرسي، لأنه كان يليق بجمالها الالهي! لكنها ما إن جلست فيه حتى أحاطت بها أصفاد لا تفل قيدتها إلى الكرسي بقوة عجز حتى الآلهة عن كسرها وتحرير الإلهة.

ويشبه هيفستوس الحداد إيلمارنيين في الميثولوجيا الفلندية والكاريلية. فقد صنع ايلمارينين القبة السماوية، والكواكب، والمحراث، والسيف وأشياء كثيرة أخرى. والحقيقة أن الهلال والشمس اللذين صنعهما لم يكونا مضيئين، مما دفع بالشيخ الحكيم الساحر والشامان فياينياميونين إلى أن يتدخل ويأتي بالشمس والقمر الحاليين من عند بوهيولا، ربة الشمال التي كانت قد سرقتهما. لكن إيلمارينين صنع لها بالمقابل الطاحونة السحرية سامبو هدية زفافها. وقد صنعها من «زغب البجع، وكسرة مغزل، وحليب البقرة، وحبة شعير».

وقد ينشئ الديميورغوس العالم كله، وليس بعض الأشياء فقط. ولكنه لا يتصرف في غضون ذلك بصفته حرفياً، بل ساحراً. فالإله المصري القديم بتاح خلق العالم «بلسانه وقلبه». وهذا ما تحدثنا عنه سابقاً في فصل خلق العالم والأساطير الكوسموغونية.

وعند شعب الزولو الإفريقي كان اونكو لونكولو يتصرف كديميورغوس نموذجي فقد جاء هذا إلى العالم بطريقة غير عادية: لقد أنجبه القصب هو وزوجته. وكما بروميثيوس كذلك اونكولونكولو علم الناس أشياء كثيرة: حراثة الحقول، وصناعة أدوات العمل واستعمالها، وقدح النار. فقد حدق اونكولونكولو في النار وقال للإنسان: «اضرمها واطبخ وتدفأ، وكل اللحم المطهو على النار». وعلم البشر تربية الحيوانات أيضاً: أراهم الحيوانات

وقال لهم إنه يمكنهم أن يأكلوا لحمها ويشربوا لبنها. ومنح اونكولونكولو الاسماء لكل ما هو موجود على سطح الأرض: حدق بالشمس وقال: «هذا هو المشعل سيمنحكم الضوء لتروا».

أما عند الهنود الحمر الأمريكيين، وعند الاستراليين، والبابواسيين وسواهم من الشعوب القديمة الأخرى، فغالباً ما يكون الديميورغوس أحد الأسلاف الطواطم الذين عاشوا وقتما «كانت الوحوش لا تزال بشراً»، ولذلك جاءت أسماء أولئك الديميورغوس وأشكالهم أحياناً أسماء وأشكالاً وحشية: عند الأفارقة، النملة، والحرباء، والدلدل، والظبية، والعنكبوت و... ؛ وعند الهنود الحمر الأمريكيين، الغراب، والأرنب، والمرأة، والقندس. وعند الاستراليين، الإنسان- الكنغر، والمرأة- الاوبوسوم، والرجل- الايما وما شابه من أشباه الطيور، وأشباه الوحوش التي تبدل صورتها. وقد تجول هؤلاء الديميورغوس- الأسلاف المؤسسون على ضفاف الأنهار، والجداول، وشكلوا جغرافية المكان، وعندما كانوا يتعبون من جراء تلك الأعمال الإنشائية المرهقة، كانوا يغورون تحت الأرض، أو في الماء، أو يصعدون إلى السماء، أو يتحولون إلى صخور، أو هضاب، أو شجر، أو جداول. أما المكان الذي كان يحصل التحول فيه، فقد كان يتحول إلى مركز مقدس.

كما كان الديميورغوس البولينيزي ماوي قد أبدى اهتماماً كبيراً بمصير الناس فقد رفع الأرض من مياه المحيط بخطافه السحري، وأرغم الشمس على أن تسير ببطء ليغدو النهار أطول. ومثله مثل كل ديميورغوس، جاء ماوي إلى العالم بطريقة سحرية. فماوي هو الابن الخامس لأمه تارانغي، ولم تكن هذه ترغب في أنجابه. ولذلك لفّته برباط شعرها ورمت به في البحر. وكان ثمة مهد من النباتات البحرية يهتز فوق الأمواج، وتحوم فوقه طيور بحرية. وما أن وصلت هذه ومست بشرة الطفل الغضّة حتى بدا يبكي. وهناك قرب السماء كان يعيش الشيخ تاما في منزل فوق الصخور. فسمع هذا بكاء الوليد ماوي، ونزل إلى الأسفل، وخف نحوه فحمله ومضى به إلى منزله. وهكذا نجا ماوي من الموت في مغامرته الأولى. لقد شب ماوي، فعلمه تاما سلوك الطيور والحيوانات وعاداتها، وأساليب حاذقة لصيد الأسماك، وسوى ذلك من فنون الدهاء. كما حفظ ماوي كثرة من التعاويذ السحرية عن ظهر قلب.

بعدئذٍ عزم ماوي على أن يعود إلى قبيلته ويجد أمه. فودعه تاما وهو حزين، وقال له إنه مقدر له، لماوي، أن يحقق كثيراً من المآثر التي سيكون لها شأن، وأن مغامرات كثيرة بانتظاره، إلا أنه سوف يخسر معركته الأخيرة...

كما كنا قد تعرفنا إلى شخصية أخرى، هو تساغن في الأساطير الإفريقية: إنه هو عينه الذي رمى صندله إلى السماء فصنع بذلك القمر. وقد عده البوشمين جدهم المؤسس ويظهر هذا في كثير من الأساطير بصفته ديميورغوس حقيقياً. ويرتبط تساغن بعالم الحيوان، فهو نفسه يعسوب. وزوجته دومان، وأخته غرنوف ازرق، وابنته دلدل، وابنها فأر الفرعون. فقد اعتقدوا أن هؤلاء كانوا في زمن غابر سبق كثيراً ظهور البوشمين، «ناس شعب قديم»، ولم يكتسبوا صورتهم الحيوانية الحالية إلا فيما بعد. ويتوسل البوشمين تساغن في شتى حاجاتهم الضرورية. مثلاً: «ألسنا أبناءك يا تساغن؟. ألا ترى أننا جوعى؟ إذن أعطنا قوتاً».

ويؤمن البوشمين مثلاً أن الظبية كانًا والظبية الحمراء تمتلكان قوة سحرية لأن تساغن هو الذي خلقهما، وهو يجلس بين قرني الظبية. وقد حدث ذلك هكذا: في أحد الأيام وضع تساغن صندل كوامانغ، الدلدل زوج ابنته بالتبني، وضعه في الماء، فخرجت منه ظبية أخذت تنمو بسرعة. وكان تساغن يزورها باستمرار. يحمل معه قطعة من خلايا العسل. ويضعها على حجر قرب الخور ثم يمخض في الماء ويطلق أصواتاً من تلك التي يطلقها الصيادون لخداع الظباء. فتحرج الظبية من بين النباتات المائية حيث تختبئ، وتأكل العسل بينما تساغن يدهن جسمها بالمياه المخلوطة بالعسل. وعندما كبرت الظبية أخيراً وخرجت للقاء تساغن. اهتزت الأرض تحت أظلافها. وإذا ما تجرأ صياد ورمى الظبية، كان تساغن يحرمه النوم: يوخزه، يختبئ في أذنه، أو يئزّ لكي يخاف الصياد ويقفز، لأن الظبية تستطيع عندئذٍ أن تقفز بدورها.

ومرة عاقب تساغن القردة البابوين الذين كانوا من قبل بشراً، لأنهم قتلوا ابنه، فمسخهم قردة. وطردهم إلى الجبال آمراً إياهم أن يقتاتوا بالجذور، والحشرات، والعقارب. ولتساغن سلطة على الموت والحياة، والمطر والطرائد، وهو الذي صنع الفخاخ الأولى، والمقاليع، والسلاح، والحيوانات، وأعطى الأماكن أسماءها، كما يرتبط بطقس التكريس والرقصات الشعيرية، و...

الديميورغوس - البهلوان



رأس زيوس

اسم زيوس معناه «السماء المشرقة»

لقد تأتّى له أن يناضل نضالاً طويلاً ومريراً من أجل السلطة، وما إن حصل عليها حتى حوّل العالم، إذ أنجب الآلهة الذين أقاموا فيه القانون، والنظام، والمرح، والفن، والعلوم.

مع أنهم يدعون تساغن «شيخاً عجوزاً»، أو «جداً»، إلا أنه يتصرّف في بعض الأحيان كطفل صغير مشاغب، يغيظ الآخرين ويناكدهم، ويحيك الألاعيب والدسائس المضحكة، ويتشاقى ويعربد ولكن بمغزى عميق: يري العالم مقلوباً، معكوساً. وهو يفعل ذلك كله بطريقة لا يمكن إلاّ أن تثير الضحك، وقد كان الضحك ضرورياً دوماً: يريح النفس من التوتر المضني الذي يسببه ضغط الحياة اليومية.

وهاك واحدة من ألاعيبه. لقد عزم تساغن مرّة على أن يخدع الأطفال، فتحوّل إلى ظبية واستلقى على الطريق متظاهراً بالموت. ولمّا خرجت الفتيات يجمعن النباتات التي تؤكل وعثرن عليه فرحن فرحاً كبيراً وتصايحن قائلات:

«إنها ظبيتنا! سوف يكون عندنا الآن كثير من اللحم!».

ثمّ أخذن حجارة وشذبنها من النتوءات الحادة وصنعن منها سكاكين وهممن بسلخ الجلد، لكن جلد تساغن أخذ يفلت من بين أيديهن وعجزن عن الإمساك به. وها هي إحداهن تصيح متعجّبة: «أوه، إن جلد الظبية يشدّني إليه!» لكن أختها الكبرى نجحت في أثناء ذلك بقطع أحد كتفيّ الظبية ووضعته على الشجيرات المجاورة. وفجأة انتقل الكتف إلى الجهة الأخرى واستقرّ. ثمّ قطعت الفتاة رجل الظبية ووضعتها على الشجيرات، فانتقلت الرجل بدورها إلى مكان آخر. وقطعت الفتاة الكتف الثاني ووضعته على الشجيرات. فانتقل إلى مكان آخر. فدهشت الفتيات: ما هذا اللحم الذي يتحرّك ويفرّ من بين الأيدي!

ولكن ها قد آن أوان العودة إلى البيت.

فتوزّعت الأخوات الحمل: الرأس لأصغرهن، والشطر الخلفي من الظبية للأكبر. لكنّ رأس الظبية الخفيف الوزن عادة كان في هذه المرّة ثقيلاً إلى درجة اضطرت معها الطفلة الصغيرة أن تحمله على ظهرها بعد أن ساعدتها أخواتها على النهوض به. وفي الطريق

لم يكن رأس الظبية ساكناً، بل كان ينزلق دوماً إلى تحت ليزيح الحزام الذي يعصب [illegible] الفتاة على حمله من مكانه:

«يا بنيتي، الحزام على عيني مباشرة! أزيحيه جانباً، لأنه يمنعني [illegible] الصغيرة وإذا تساغن يغمز لها. فقالت الفتاة لأختها الكبرى: إن الظبية حية. لكن [illegible] تصدّق أختها طبعاً. فحلّت الصغيرة الحزام وسقط الرأس على الأرض. فصاح تساغن: [illegible] يا رأسي، يا لك من فتاة لا نفع منها، لقد آلمت رأسي!».

وما إن سمعت الأخوات هذا حتى أخذهن الرعب، فرمين اللحم. وعندئذ أخذت أقسام جسم تساغن تتراكض حتى تجمّعت من جديد وأخذ كلّ جزء مكانه. ولما رأت الصغيرات ما حصل ولّين الإدبار فطاردهن تساغن. وفي غضون ذلك كان رأسه قد استدار وتحوّل من ظبية إلى إنسان. ولمّا رأى أن الفتيات وصلن إلى القرية، عاد أدراجه واختفى. لقد كان تساغن يعدو أسرع من الريح، وكانت أشعة الشمس تعكس ضوءها على آثار صندله.

كما اشتهر ماوري أيضاً بأحابيله الذكية الحاذقة.

وماوري هذا بطل ميثولوجيا شعب ويندا الإفريقي.

مرّة طلب ماوري من شخص يدعى كهاري أن يعيره غطاءه. فرفض هذا أن يفعل. ولكنه عجز تماماً عن التخلّص من ماوري. عندئذ أضرم كهاري النار في كوخه ليطرد ماوري منه، واحترق الكوخ، لكن صوت ماوري تناهى فجأة من أعلى الشجرة، فعامر كهاري أن يقطع الشجرة، فتناهى صوت ماوري من سقف الكوخ المجاور. ثمّ عزم ماوري بعد ذلك أن يسكن أحد ثيران كهاري، فصار الثور إلى حالة لا قبل لأحد بها، وطفق يتحدّث بلسان بشري. فأوعز كهاري للشبّان بأن يقتلوا الثور ويأكلوا لحمه، لكن تبيّن لهؤلاء أن لحم الثور لا يشوى، وجلده لا يجفّ. ونحن يمكننا أن نتخيّل أي ذهول أحسّ به هؤلاء إذ رأوا كيف حلّق الجلد مع اللحم والعظام إلى السماء، وصوت ماوري يقهقه قائلاً: «لقد حصلت على أكثر من لحاف!».

ولم يكن الغراب أقلّ حباً للمشاكسة: والغراب بطل كثير من الأساطير والحكايات السيبيرية والأمريكية. ووفق رؤية بعض شعوب سيبيريا إنه جاء للناس

باشياء مفيدة كثيرة: نقر الصلب السماوي وجاءهم بالضوء، وصنع الجبال، والجروف الصخرية، ومجاري الأنهار، و... ولكنّ الأساطير تقدّمه في غضون ذلك كائناً شريراً ومحتالاً يستغفل «الفئران البنات»، ويسلب الوحوش فرائسها، ويهزأ بها. فهو يستطيع مثلاً أن يتحوّل إلى إبرة صنوبر تبتلعها ابنة سيّد الكواكب وتلد منها ذلك الغراب عينه ويقرن الأسماك إلى الزحافات بدل الكلاب أحياناً ويحثّها على أن تسرع. وقد يتظاهر بالموت أحياناً أخرى، ويبدأ يأكل البراز أحياناً ثالثة، أو يبتكر أشياء أخرى لم يسبقه أحد إليها من قبل.

وهناك محتال آخر هو الكويوت في أساطير هنود أمريكا. وهذا على وجه العموم شخصية مزدوجة متناقضة. ففي الأساطير التي يوصف فيها نشاط الإله الخالق العالم يُحكى كذلك عن معارضة كيويوت للإله وإتلافه خلقه. وهو يفعل ذلك في أحيان كثيرة إمّا بسبب غبائه وإما بسبب غروره. وتروي واحدة من الأساطير كيف أبحر الإله الخالق مرة على المركب عينه مع كيويوت. كان الإله يغنّي ويخلق الأرض بغنائه، أمّا كويوت فقد كان يرفع الجبال الشاهقة التي يستحيل العيش فوقها. ويصنع الإله الإنسان، وكويوت يختبر قواه أيضاً، لكن مخلوقاته جاءت كائنات عمياء عاجزة وبائسة. ومنح الإله الإنسان ينبوع الشباب، أمّا كويوت فقد كان يدمّر كلّ شيء، ومع ذلك لا يكفّ عن التفاخر بنفسه.

وفي بعض الأحيان كان كويوت يصنع العالم بنفسه، لكنه يُظهر كأن ذلك قد حصل مصادفة: يضنيه العطش فيقتلع النباتات المائية، تثور المياه الجوفية، وتقذفه عالياً في السماء، ثمّ تغمر الأرض كلّها. فيقيم كويوت محبساً، ويصنع الناس من قصب الزغب، لكن هؤلاء يرفضون إطعامه. فتثور ثائرته ويضرم حريقاً كونياً ثم يثير فيضاناً ليخمد ناره. ويصنع كويوت جيلاً آخر من البشر، لكن هؤلاء يسخرون منه فيهلكهم بكارثة أخرى. ومهما كانت الحال كان كويوت يتابع نشاطه الإنشائي، بيد أن الناس لا تأخذه على محمل الجد، وتهزأ به فيحول بعضهم إلى حيوانات. لقد كان هذا الديميورغوس مكاراً، غشاشاً، محتالاً، وغالباً ما كان يسلك سلوكاً ازدواجياً يحاكي ما يعده الناس مقدساً، وبهذا عينه ينتهك المحرم من قواعد الأخلاق المتبعة ومعاييرها.

ونتعرف في الميثولوجيا السكندينافية إلى بهلوان حاذق آخر هو لوكي: غشاش غدار، سيئ الطوية في غالب الأحيان، على الضد من شقيقة اودين. لقد كان لوكي قادراً على أن يتحول إلى ما يريد، فقد كان من السهل بالنسبة إليه أن يتحول إلى مهرة مثلاً. وقد فعل ذلك عندما عزم الآلهة على بناء اسغارد، القرية السماوية، قلعة الآلهة- الآسات. التي تعهد العملاق غريمتورسن ببنائها شريطة أن يمنحه الآلهة الشمس والقمر والإلهة فريبا مكافأة على ذلك. فتحول لوكي إلى مهرة جميلة ألهت الجواد سفادلفاري مساعد العملاق عن عمله. ومن الواضح أن ذلك أدى إلى عجز العملاق عن أنجاز عمله في الوقت المتفق عليه. فخسر المكافأة.

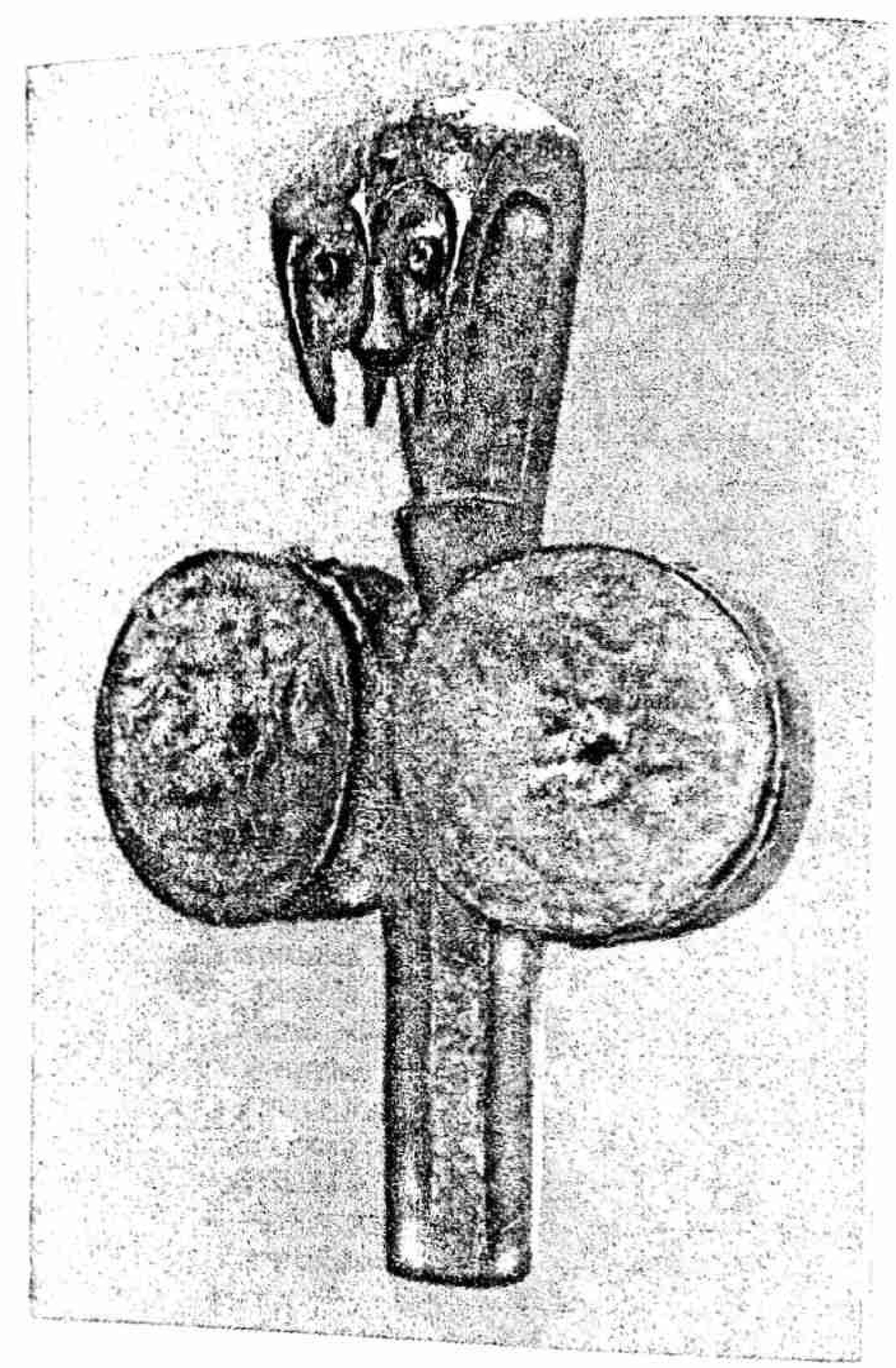
وشارك لوكي في اختطاف الإلهة إيدون وتفاحاتها الواهبات الشباب. وقد أرغمه على المشاركة في ذلك، العملاق تياتسي الذي ارتدى إهاب صقر وأعاق شواء لحم الثور الذي كان الآلهة- الآسات يعدونه لوليمتهم. لقد طالب تياتسي بنصيبه من اللحم والتقط أفضل القطع، وعندما ضربه لوكي بالعصا ووصلت العصا ويدا لوكي إلى جسم الصقر، التقطه هذا وحلق به عالياً ولم يوافق على إطلاقه إلا مقابل تفاحات الشباب. وعند ذاك اغوى لوكي إيدون بالذهاب إلى الغابة مدعياً أنه سوف يريها هناك تفاحاً بديعاً وجده؛ ولكنه سلّمها هناك لتياتسي. أما الآلهة الذين فقدوا تفاحات الشباب، فقد أخذوا يهرمون، وهددوا لوكي بالموت. عندئذٍ حاك هذا ملعوباً آخر من ألاعيبه: سرق ايدون من تياتسي ووضعها في حبّة جوز وحملها إلى الآلهة.

ويتحول لوكي إلى طير أحياناً، ووعل أحياناً أخرى، وقد يختبئ في شلال ماء، أو يهرب بمساعدة نعال يحمله بسرعة حتى عبر الماء أو يطير به في الهواء. لقد كان في جعبة لوكي كم لا ينضب من شتى الألاعيب والحيل.

ولم يكن بين الآلهة الإغريق من يجاري هرمس في ميدان الاحابيل والدسائس. ففي أحد الأيام أراد أن يمازح إله الرعد والصواعق زيوس فسرق منه صولجانه، وسرق من بوسيدون إله البحر شوكته الثلاثية، ومن إله الشمس ابوللون قوسه وسهامه الذهبية، ومن إله الحرب أريس سيفه. لقد رأى كثيرون في هرمس شفيعهم، فهو يساعد التجار على كنز الثروات، ويمنح الخطباء البلاغة والفصاحة، ويصنع

للموسيقيين القيثارة. وغني عن البيان أن اللصوص، والنصابين قد عدوه إلههم أيضـ
لأنه كان يمد لهم يد المساعدة لينجحوا في «عملهم»، فلا يلقى القبض عليهم ويصبح
الكذب حقيقة.

إن ميثولوجيا الديميورغوس- البهلوان شديدة التعقيد كثيرة الطبقات؛ وهناك
تأويلات شتى لها- بعض هذه التأويلات يعزو نشاط بطلها لمرارة الحياة الإنسانية، ويربط
بعضها الآخر بتمرد الإنسان على الإله، أو بمختلف صيغ فهم النظام الكوني. ولكن مهما
كان واقع الحال فإن الديميورغوس البهلوان يضحك من الآخرين، وهو نفسه شخصية
مضحكة.



منفاخا حدّاد يدويان من الغابون «إفريقيا»

لقد بجلّوا الحدّاد «مالك النار»، وأسرار التحوّلات، وخازن المعارف التي منحتها الأعالي. وفي غالب الأحيان لا تحصر الأساطير الحداد داخل أطر مهنته، فالحدّاد «حرفي إلهي» يستطيع أن يصنع شتى الأشياء والظواهر.

لقد علم بروميثيوس الناس أشياء كثيرة، لكن زيوس لم يكن راغباً في أن يجعل الناس أقوياء ومستقلين، لأنه خاف إن هم باتوا كذلك أن يمتنعوا عن تقديم القرابين للآلهة الاوليمبيين. وفي إحدى المرات وقع بين الآلهة خلاف بصدد أجزاء جسم الثور التي ينبغي على البشر أن يقدموها قرباناً. واستمر الخلاف طويلاً دون أن يتوصل الآلهة إلى اتفاق فطلبوا من بروميثيوس أن يحكم بينهم. فقسم هذا جلد الثور إلى قسمين وضعهما في كيسين. ووضع اللحم كله في أحدهما وغطاه بالأحشاء، ووضع العظام في الآخر وغطاها بالدهن. فاغرى الدهن زيوس، لكنه ثار ثورة رهيبة إذ رأى العظام تحت الدهن، وأدرك أن بروميثيوس خدعه وأعلن بغضب: «فليأكل الناس اللحم نيئاً إذن». وسلبهم النار. وكان هذا العقاب رهيباً بالنسبة لكثير منهم، إذ بات الناس يهلكون من البرد.

عندئذٍ عزم بروميثيوس على أن يعطي النار للناس رغم إرادة زيوس. وها هو يصل يوماً إلى جبل الاوليمب متكئاً على عصاه. ولم يلق أي من الآلهة بالاً لتلك العصا، ولكن العصا كانت فارغة من الداخل، ودون أن يلحظه أحد، أخذ بروميثيوس جمرات من الموقد الإلهي ووضعها في قلب العصا ثم حملها إلى الناس على الأرض؛ ولم يعد هؤلاء يخافون البرد والظلام بعد أن حصلوا على النار.

لقد كانت تلك هي القصة التي رواها الإغريق القدماء عن حصولهم على النار. وقد حفظت ذاكرة شعوب العالم كلها تقريباً أساطير، وحكايات، وخرافات تروي قصة هذا الحدث الأهم، وارتبطت دوماً بديميورغوس أوجدَ مؤسس. فقبيلة ماريبا الاسترالية على ثقة راسخة بان بيرال، السلف الميثولوجي للجنس البشر، هو الذي وهب الناس النار. فعندما عزم هذا على إسكان الناس على الأرض التي كانت تشبه زمنئذٍ كثيباً كبيراً، طلب هؤلاء منه أن يريهم مكاناً دافئاً في النهار ومضيئاً في الليل. فأجابهم بيرال بأنه ينبغي عليهم أن يسيروا بالاتجاه الذي سيحدده لهم. وهناك سيجدون الشمس. فيقطعون منها قطعة، عندئذ يمتلكون النار. وأذعن الناس لبيرال فعثروا أخيراً على الشمس: في الصباحات كانت هذه تخرج من جحر، وفي المساءات تختبئ في جحر آخر. فهاجموها مرة واقتطعوا منها قطعة صارت لهم ناراً

أما البابواسيون فيروون قصة مغايرة عن حصولهم على النار. تقول الحكاية: في غابر الزمان عاش في جزيرة موري شخص يدعى إيكو. وكان له في يده اليمنى بين الإبهام والسبابة إصبع نارية خاصة أخرى. لقد كان بمقدور ايكو أن يقدح النار من إصبعه هذه وقتما يشاء. أما على الجزر الأخرى فقد كان يعيش كل من ناغا وواياتي. وكان الأول يقيم في حجر كبير، وكلما أراد أن يطلب من الحجر فينفتح هذا من توه، ثم يعود لينطبق من جديد بعد أن يكون ناغا قد دخل. لقد كان ناغا يصيد السمك ويشويه على الشمس ثم يأكل.

وفي أحد الأيام جاء ناغا لزيارة صديقه واياتي وقال له: «هناك رجل يدعى إيكو لديه نار دائماً، وليس ثمة ضرر لو ألقينا نظرة عليه». وهكذا ركب ناغا وواياتي رخاً وطارا إلى جزيرة موري. وهناك حط الرخ على شجرة كبيرة، ونزل ناغا وواياتي على الأرض. وفي تلك الأثناء كان ايكو يبني مركباً على الشاطئ. فاختبأ ناغا وواياتي في الدغل وأخذا يراقبانه وها هو ايكو يضع فأسه جانباً ويقترب من كومة عيدان ثم يضرم النار فيها. فهمس ناغا لواياتي: «انظر، انظر! لقد أشعل العيدان بناره!» وانطلقا من مخبأهما، فرآهما ايكو ودهش للمفاجأة، وسألهما: «من أين جئتما؟ لم يكن ثمة بشر هنا من قبل؟» فأجاباه: «لقد جئنا نرى النار. فليس عندنا نار، ونحن نطهو طعامنا على الشمس». فأخفى ايكو إصبعه النارية وقال: «ومن قال لكما أن لدي ناراً؟ ليس عندي أي نار». لكن ناغا وواياتي أصرا على رأيهما؟. وقال ناغا إنه كان يطير على الرخ فوق الجزيرة من قبل، وكان يرى نار ايكو. فرد هذا بغضب: «ها هي النار إذن، انظر إليها!» ثم أشعل إصبعه. وفي اللحظة عينها قفز إليه ناغا وانتزع الإصبع النارية وولّى مسرعاً إلى ظهر الرخ ثم حلق مع واياتي، أما ايكو فقد رجع إلى مسكنه يبكي خسارته بكاء مراً. فلكي يبقي على النار مشتعلة بات عليه الآن أن يجمع العيدان دوماً! أما الجرح الذي خلفه انتزاع الإصبع فقد اندمل مع الوقت. ولكن مكانه بقي فارغاً على اليد البشرية حتى يومنا هذا.

أما ماوي فقد حاك مع النار الملعوب التالي. لقد أراد هذا أن يعرف من أين يأتون بالنار، لكن أحداً لم يستطع أن يجيبه على سؤاله. وفي أحد الأيام بينما القرية تغط كلها في نوم عميق تسلل ماوي من فراشه وجال على مواقدها كلها يسكب فيها الماء وينتظر حتى تنطفئ تماماً. ولما استيقظ الناس في اليوم التالي لم يجدوا في مواقدهم سوى الرماد البارد.

فقالت والدة ماوي إنه يمكن الحصول على النار في العالم السفلي لدى الجدة الأولى ماهويكي. وتوجه ماوي إلى هناك من توه، وسرعان ما دخل بلاد الديجور حيث تقيم الإلهة الخازنة النار. فسألته هذه عن حاجته، وأجابها أنه جاء من أجل النار. «حسن يا ماوي، أنا

سأعطيك النار»، ثم أخذت كسرة من ظفرها فاشتعلت في الحال. وأمرت ماهويكي ماوي
يحمل الكسرة بحرص ويشعل النار في مواقد القرية من جديد. ولكن ماوي حمل كـ
الظفر وابتعد قليلاً عن منزل ماهويكي ثم رماه على الأرض ودقه بقدمه، وعاد أدراجه ول
رآته العجوز قالت: «إنه ماوي ثانية! والآن ما الذي تريده؟»، «أريد النار. لم أصل بها إلى الديـ
لقد انطفأت الشعلة في الطريق».

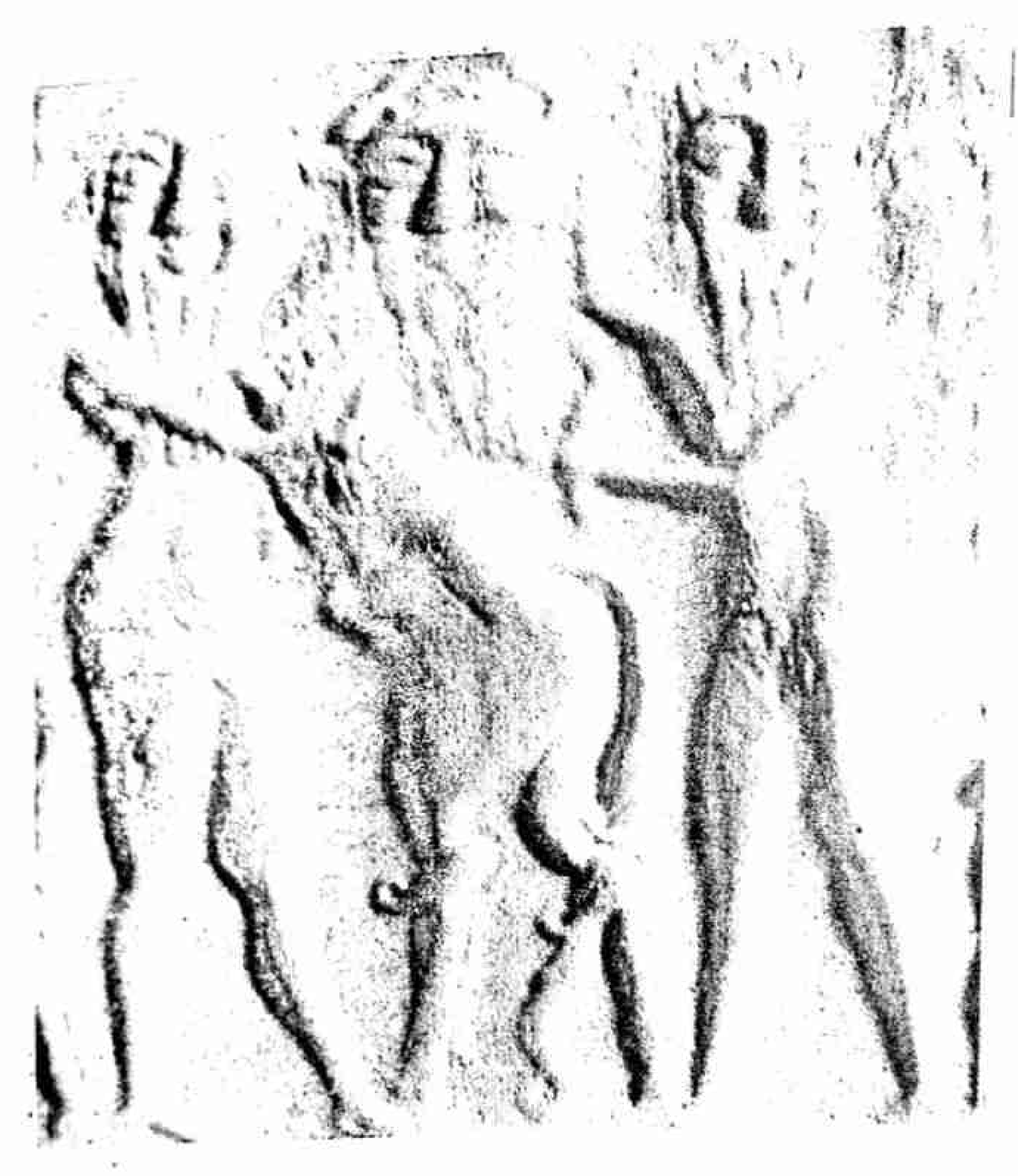
ومرة أخرى أعطت ماهويكي ظفراً مشتعلاً لماوي، ومرة أخرى أيضاً دق ماوي النـ
بقدمه وعاد إليها. وتكررت الحال عينها عشر مرات وفي كل مرة كان ماوي يعود إلى
ماهويكي خالي الوفاض. لقد أعطته ماهويكي أظافر أصابع يديها العشرة. وبعد ذلك أعطته
أحد أظافر أصابع قدمها، لكن ماوي المحتال سرعان ما عاد ليأخذ غيره، وهكذا أعاد
الكرة حتى أتى على أظافر أصابع قدمي ماهويكي العشرة أيضاً.

وإلى هنا كان قد نفذ صبر ماهويكي تماماً فاشتعل منزلها لهباً، وتوهجت عيناها
جمراً برق كصواعق السماء السوداء. وانتزعت آخر ظفر عن إصبع قدمها وقذفت به ماوي
لكنها لم تصبه، ولحظة سقط الظفر على الأرض انفجر هزيم يصم الآذان، وارتفع إعصار
ناري مدمر. فولى ماوي الأدبار هلعاً، لكن ألسنة اللهب طاردته على الأثر، فتحول إلى صقر
وحلق عالياً فوق الأرض، ومع ذلك وصلت النار إليه وأحس بها تلفح ريشه.

وها هو يرى في اللحظة عينها حوض ماء، فأطبق جناحيه على جسده وانقض من
الأعالي كالحجر، وسقط في الماء. لكن مياه الحوض أخذت تسخن أيضاً. ووقف الصقر
ماوي على أرض قاع الحوض واخذ ينقل قدماً ليضعها مكان القدم الأخرى. بيد أن الماء بات
أكثر سخونة وسرعان ما بدأ يغلي، فانطلق ماوي نحو السماء ثانية. ولكن اللهب كان قد
ملأ الفضاء كله، وبدا كأن العالم هالك بعد لحظات. وحينئذٍ تذكر ماوي التعاويذ التي
كان قد تعلمها في بيت تاما، وبمساعدتها استدعى الآلهة. فأرسل هؤلاء على الأرض مطر
أطفأ النار. واختفت آخر ألسنة اللهب، فرمت ماهويكي بآخر الشرارات لبعض الشجرات
وأخفت هذه الشرر محافظة عليه للناس. وهكذا أنقذت الشجرات النار من الفناء. أما أحبولة
ماوي فقد عادت على الناس بالخير: لقد تعلم هؤلاء قدح النار بحك أي كسرتين من عيدان
الشجر المعني بعضهما ببعض، وبات الآن بإمكانهم أن يطلبوا مساعدة أحفاد ماهويكي في
أي وقت.

لقد بقيت في هذه وغيرها من تنويعات الروايات الميثولوجية، ذكرى أهم حدث تاريخي
عرفته البشرية في طور فتوتها: قدح النار ووضعها في خدمة الجنس البشري.

مأثرة البطل



جلجامش وانكيدو

أثر ختم من وادي الرافدين.

ومن المعروف أن جلجامش وانكيدو حققا كثيراً من البطولات.

ويحمل الختم مشهداً يمثل واحدة منها: قتال الثور.

لقد كانت أهم وظائف البطل الثقافي- الديميورغوس في الأساطير، هي حماية الجنس البشري والعالم على وجه العموم من أذى الكائنات الشريرة التي كانت تجسد فناء العالم أو تتربص شراً بالعالم الذي خلق لتوه وتهدد بإغراقه من جديد في حال الخراب البدئي؛ فواقع الأمر أن هذا الأخير لم يندثر بعد خلق العالم، بل تخفى على أطرافه. ولهذا تأتّى للبطل أن يقاتل شتى ضروب الكائنات المخيفة، ويحقق المآثر التي يواصل العالم وجوده بفضلها، والناس حياتهم بسببها. وقد اشتهر أكثر الصيغ البطولية لمثل هذا الصراع: مآثر جلجامش، وراما، وهرقل. وثمة في الميثولوجيا العالمية كثرة كثيرة من مثل هذه الأعمال البطولية، فالإله المصري القديم رع قاتل الثعبان أبوبوب، وحورس قاتل ست؛ وفي الأساطير السومرية والبابلية يقاتل انكي كورا، واينليل أو مردوك تيامات؛ وعند الحثيين يتقاتل إله العاصفة مع الثعبان ايللو يانكا، و... ومن أقدم تنويعات مثل هذه الأسطورة، الأسطورة السومرية التي تروي قصة صراع انكي ضد الوحش كور. وعلى أغلب الظن أن ذلك الصراع نشب مباشرة بعد انفصال السماء عن الأرض، وكان سببه هو اختطاف الوحش للإلهة السماوية. ولكننا لم نعثر حتى الآن على رقم يحمل نصاً كاملاً لهذه الأسطورة، ولذلك فإن محتواها التفصيلي غير معروف لنا بعد.

ولكن ما قيمة المآثر التي حققها على سبيل المثال جلجامش، الجبار المقدام الذي أحبته شعوب وادي الرافدين حباً جماً. لقد كان ثلثاه إله، وثلثه الباقي إنسان، ولم يكن له ند في البلاد كلها. ومن أخلص أصدقائه، الجبار الآخر انكيدو الذي سبق وتحدثنا عنه. ومرة توجه الصديقان الجباران لمقاتلة خومبابا الكائن الوحش الذي كان يقيم في غابات الأرز، وكان هذا مرعباً لدرجة أن أحداً لم يحتمل حتى مجرد رؤية منظره. وكان خومبابا قد خطف الإلهة الحسناء عشتار فهب أصدقاؤها الفرسان- الجبابرة لنجدتها وتحريرها من الأسر. وصنع لهم معلمو حرفة السلاح فؤوساً حربية مهولة، وخناجر حادة، وبلطات ثقيلة.

كان خومبابا يعيش في مكان بعيد موحش لا أحد يعرف طريقه وحتى جلجامش[1] [illegible] يكن يعرف إلى أين يجب أن يذهب، ولكن صديقه انكيدو هب لمساعدته [illegible] صديقاً للوحوش في زمن مضى، وقد خبر الجبال والغابات والبوادي وعرف [illegible] الصديقان طويلاً إلى أن دخلا أخيراً أرض خومبابا: غابات كثيفة من شجر الأرز في [illegible] لبنان. لقد كان كل داخل إلى ذلك الحرم يصاب بالذهول والعجز. فالوحش مخيف [illegible] أي شجرة أرز، يتطاير اللهب من شدقه، صوته كهزيم الرعد، زفيره سم زعاف [illegible] خومبابا كان محاطاً بألسنة لهب قاتلة تحرق كل حي تمسه، وتعجز العين عن تحملها. وقد كاد البطلان يصابان منها بالعمى. ولما أراد جلجامش أن يقطع تلك الألسنة منعه [illegible] قائلاً: نقتل خومبابا أولاً، ثم نقطعها بعد ذلك!

أخذ جلجامش فأسه وجاء الوحش من الخلف، ثم ضربه بكل قوته ضربة على [illegible] وفي الآن عينه عاجله انكيدو بطعنة في صدره. وبعد أن تلقى خومبابا الضربة الثالثة هوى ممدداً على الأرض، وماتت أيديه وأرجله. وقطع البطلان الألسنة القاتلة، وأخذا منه السلاح وعادا إلى ديارهما.

وفي أثناء الاحتفال بالعام الجديد، كان الحثيون يرددون أسطورة مقتل الثعبان (أو التنين) ايللويانكا. وكان هذا قد هزم إله العاصفة في زمن ما، فطلب هذا الأخير عون مجلس الآلهة. فانبرت الإلهة إينارا لنجدته وصنعت مصيدة للثعبان- التنين: لقد ملأت قدوراً كثيرة بالنبيذ وسوى ذلك من المشروبات، وطلبت من إنسان يدعى خوباسيا أن يساعدها فوافق هذا على طلبها لكنه اشترط أن تقاسمه الإلهة الفراش لقاء ذلك. وأخفت الإلهة خوباسيا على مقربة من مسكن التنين، ثم ارتدت ثياباً جميلة وأغوت التنين الذي خرج إلى الخارج مع أقاربه وحاشيته. وقد شرب هؤلاء ما كان في القدور حتى آخر قطرة، ولم يقووا بعد ذلك على العودة وهنا خرج خوباسيا من مخبئه وقيد التنين بالحبل، فتقدم إله العاصفة وقتله.

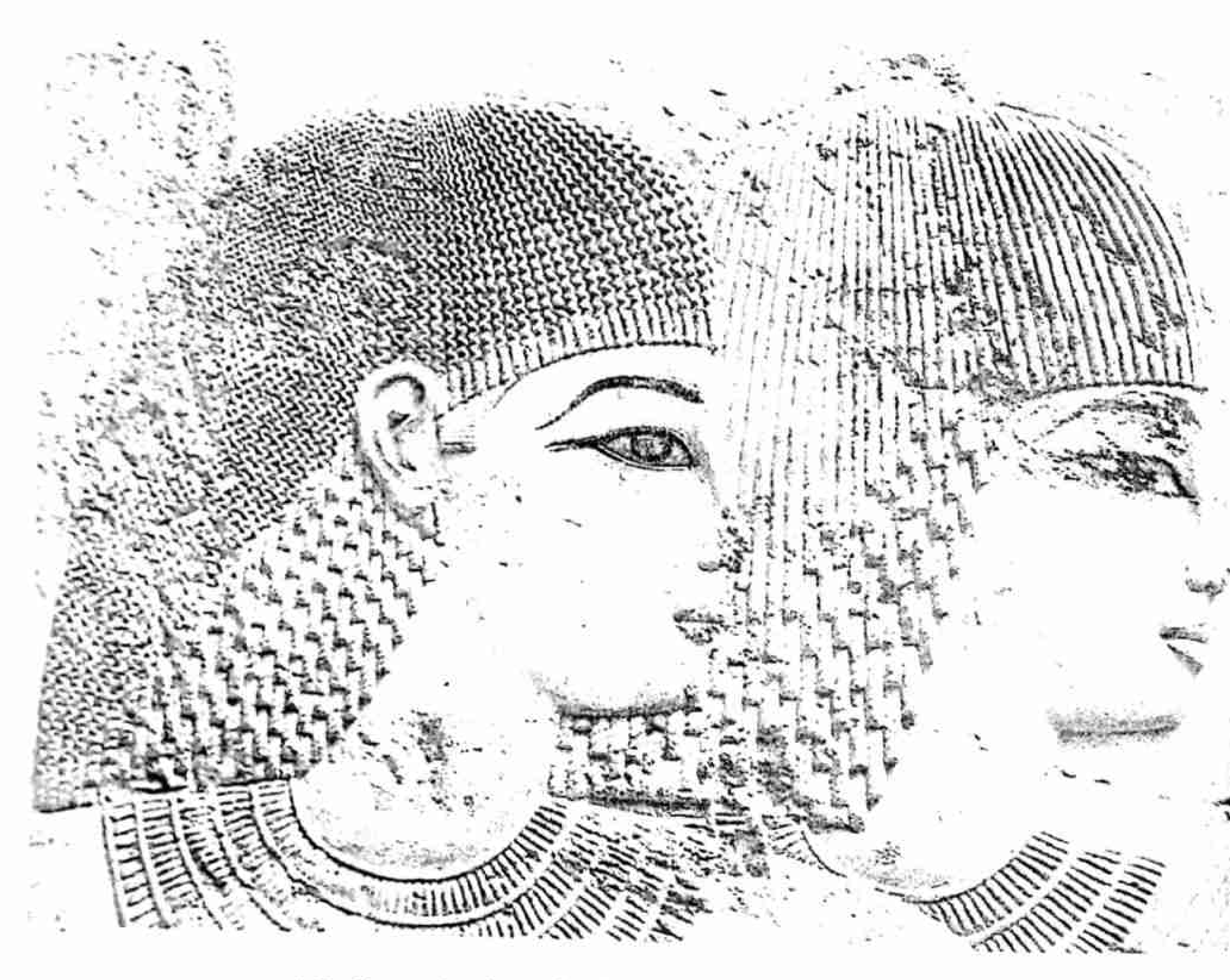
وحسب بعض تنويعات هذه الأسطورة أن ايللويانكا بعد أن هزم إله العاصفة سلبه قلبه وعينه، ولكي يثأر هذا الأخير منه تزوج ابنة فقير أنجبت له ابناً. وبعد أن كبر الولد وصار شاباً تزوج ابنة التنين، فأمره والده إله العاصفة، أن يدخل منزل زوجته ويطلب استرجاع قلب والده وعينيه. ففعل الشاب ما أمره به والده واستعاد القلب والعينين وردهما له وعندئذ مضى إله العاصفة لقتال التنين. ولما بات قاب قوسين أو أدنى من النصر تعالى [illegible]

١- جلجامش= «الذي يرى كل شيء».

ابنه له أن يعفو عن التنين: إنه على أي حال ثعبان مثله! لكن إله العاصفة قتل ايللو يانكا وقتل ابنه معه أيضاً. لقد كانت تلك بعض نماذج المعارك البطولية التي دارت رحاها باسم إنقاذ العالم من الهلاك.

لقد كان قدر البطل الديميورغوس قدراً غير عادي، ويغدو هذا واضحاً منذ لحظة ولادته: تحدث ولادته عادة في مكان خاص، في مركز مقدس يمكن أن تبدأ منه عملية الخلق، أو تقع معركة ما فيه. فوفق الأسطورة الهندية القديمة التي مرت معنا هنا، أن الأرض ظهرت في المياه البدئية، وكانت عندئذٍ صغيرة لا يتجاوز حجمها حجم رأس الخنزير. ثم أخذت بعد ذلك تنمو. لقد كانت تعوم في المياه، تتمايل وتهتز وليس لها مستند تستند إليه. لكنها كانت محملة بقوى المقاومة التي تجسدت في العفريت الثعباني الشكل فريترا، ومعنى اسمه نفسه: «المقاومة». وولد إيندرا لكي يقاتله. وكما نعلم فإن ايندرا فلق في نهاية الأمر الجبل الذي كان ينطوي على إرهاصات الحياة، وثبت قاعدته إلى قاع المياه وشطره حتى قاعه ثم فتحه. وقد انطلقت الحياة من قلب الجبل المفتوح، في صورة ماء اندفع من أعلى الجبل في أربعة أنهار، وفي صورة نار ارتفعت من الجبل إلى فوق وصارت شمساً. وكان الجبل يقوم في نقطة مركزية، ولذلك بات المكان نفسه الذي ظهرت منه الأرض. وتقول الأسطورة إن الجبل حاول أن يهرب، لكنه ما لبث أن هدأ واستكان ثم استقر بحذر. وكما نعلم فإن الجبل يجسد صورة ميثولوجية لمركز العالم ذات أهمية كبيرة: يحقق التواصل بين الأرض والسماء. وقد دعا الهنود فيما بعد جبل ماندارا: «وتد ايندرا».

الأشقاء التوائم



لوحة من مقبرة مصرية قديمة تظهر عليها صورة طفلين

يشبه الطفلان واحدهما الآخر كقطرتي ماء.

وقد يكونان توأمين.

فمنذ أقدم الأزمنة حتى يومنا هذا وللناس موقف خاص من ظاهرة التوامة.

لقد كان لبروميثيوس «المتبصر» شقيق توأم يدعى إيبيميثيوس الذي معناه «صلب بعقله الخلفي».

وقد قادوا يوماً إلى منزله الحسناء باندورا التي خلقها هيفستوس من خليط من التراب والماء. فمن هذا الخليط صنع هيفسوس، وهو ديميورغوس نموذجي، حسناء لا تقل كمالاً عن أي إلهة أخرى. ونسجت لها أثينا ثياباً بنفسها. ومنحتها افروديت رقة وجاذبية لا مثيل لهما. ووهبها هرمس الدهاء والمكر. ومعنى اسم باندورا نفسه: «ذات المواهب كلها»، فقد تلقت هذه من كل إله موهبة ما. أما هيفستوس فقد أدى بخلقها مهمّة كلفه بها زيوس الذي كان قد أعد للبشر بلية جديدة.

وقبل هذا الحدث كان بروميثيوس الحذر البعيد النظر قد أوصى شقيقه بألا يأخذ أي شيء من زيوس. لأن عطاءاته مهلكة. وتعهد إيبيميثيوس تعهداً قاطعاً ألا يأخذ أي شيء من زيوس. لكنه ما إن رأى باندورا الفاتنة حتى فقد ذاكرته ونسي وعوده كلها. «فأي خطر يمكن أن تمثله امرأة حتى إذا كان زيوس هو الذي أرسلها». هذا ما قاله ايبيميثيوس في نفسه، ثم أخذ باندورا زوجة له.

وكان ثمة في بيت ايبيميثيوس قدر مغلق بإحكام شديد، جاء به يوماً بروميثيوس إلى بيت شقيقه وحذره تحذيراً صارماً من أن يفكر مجرد تفكير بفتح القدر. لكن الفضول كان قد أضنى باندورا. فقد ظنت أن بروميثيوس إنما يخفي كنوزه في القدر، وكانت متشوقة لكي تلقي عليها نظرة. فاختارت وقتاً كان ايبيميثيوس فيه خارج المنزل، وتسللت إلى الحجرة التي كان القدر فيها وأزاحت غطاءه... وفي غمضة عين اندفعت خارجة من القدر الأحزان، والنوائب، والنكبات، والجوع، وسوى ذلك من الرزايا. وكان بروميثيوس قد ساقها وحبسها هناك ليدرأ أذاها عن البشر، لكن فضول باندورا أفشل مسعاه.

وهكذا يسلك التوائم الإلهيون في الأسطورة سلوكاً متغايراً، وليس مثالنا مثالاً وحيداً أو فريداً يصنع أحدهما فيه الخير والآخر يحبط مسعاه، بل يسبب له الأذى.

وتعد التوائم في الأساطير رمزاً أزلياً للاتحاد والانفصال، رمزاً يعكس عمق مبدأ الانقسام الثنائي في الطبيعة والمجتمع. ويرى بعض العلماء أن الثنائية هي على وجه العموم المبدأ الأساس في تفكير القدماء، وليس القدماء وحدهم وحسب. وترتبط بهذا المبدأ ارتباطاً مباشراً كثرة من أهم مسائل الواقع، وتقدم الأساطير تنوعاً مذهلاً من الإجابات على الاحجيات الأزلية عن ثنائية المتناقضات وسواها من الانساق الزوجية ووحدتها.

إن التوأمين كائنان متماثلان بالمطلق، ومتشكلان من واحد.

ويدور الحديث في الأسطورة الأفلاطونية المعروفة، عن الكائن الاندروجينوس ذي الوجهين المتماثلين اللذين يتجهان باتجاهين متعاكسين، والأطراف الأربعة، والأعضاء المزدوجة. وبعد أن ينفصل شطرا الاندروجينوس بعضهما عن بعض، يسعيان إلى الالتحام من جديد في كائن واحد.

ونقف في الأسطورة الهندية القديمة على رواية مشابهة لراوية أفلاطون هذه.

تقول الرواية الهندية، إن الإله الخالق رغب يوماً في آخر، فصار كذلك، امرأة ورجلاً متعانقين. ثم فصل نفسه إلى جزأين، فصنع بذلك زوجة وزوجاً يشبهان شطري قطعة واحدة.

وكان بعض مثل هذه التوائم يغدوان أحياناً الجدين الأولين للجنس البشري: ياما ويامي في الميثولوجيا الهندية القديمة، أو إياما وإيماك في «الافستا» الإيرانية. فمن زواج هذين الأخيرين خرج الجنس البشري، وتحديداً الجنس الإيراني.

وقد ارتبط بعض أساطير التوائم. بالتعاقب المتماثل لأطوار معروفة من الزمن: النهار والليل، وفصول الخصب وفصول الجدب، كما على سبيل المثال السومريان إيميش واينتين، الصيف والشتاء، والديوسكوري الإغريقيان اللذان يتناوبان الإقامة فوق الاوليمب وفي العالم السفلي: أو الاشفيني الهنديان، إلها الصباح والمساء.

وقد قامت على هذا الأساس في بعض الأحيان، بنى أكثر تعقيداً، إلا أنها كانت تخضع بالضرورة لثنائية التفكير وترتبط معها برباط سيكولوجي عميق.

كما تجسد كثير من جوانب التصنيف الثنائي الميثولوجي في شخصيتي الإلهين المصريين حورس وست، وهما للمناسبة شفيعا التوائم.

وقد وحدوهما أحياناً في شكل واحد ذي وجهين. وكان الآلهة الذين سبقوهما قد [illegible] أزوجاً أيضاً: غب ونوت، شو وتفنوت على سبيل المثال.

ويعدّ تصور المصريين القدماء عن الكا، تصوراً يترك انطباعه الفريد. فالكا هو الصنو الروحي للفرعون، توأمه. وقد ارتبط بهذا التصور دور طقوسي خاص أنيط بمشيمة الفرعون أثناء إقامة بعض الطقوس؛ كما تجلى الموقف الخاص تجاه هذه الأخيرة في طقوس الشعوب الأخرى.

ويتطابق كل شيء عند التوائم في بعض الأحيان، حتى أسماؤهم: النومو في أساطير الداغونيين الأفارقة. لقد كان هذان أول اثنين ولدتهما الأرض بعد خلوتها الثانية مع إله اسمه أما. وكان النومو زوجاً مثالياً بالمقاييس كلها. فقد خلقهما الإله شبيهين بالماء، ويصعب كثيراً تحديد مظهر التوأمين الإلهين الداغونيين، تحديداً أكثر دقة يشبهان البشر والثعبان في الآن عينه. ولكن شكلهما يذكر أيضاً بشكل تيار الماء البحري، والمطري، كما يذكر بضوء الشمس وأشعتها. جسداهما مكسوان بشعر قصير أخضر اللون، وأطرافهما مرنة ليس لها مفاصل، أعينهما حمراء، لساناهما مشطوران.

لقد كان قد جرى خلق النومو في السماء، وإذ نظرا من فوق إلى تحت، شاهدا أمهما عارية بكماء. وعندما اقترب أما لأول مرة منها، لكي يتحد معها كزوج لها كان عليه أن يبيد النمل الأبيض الذي كان يعيق طريقه إليها. ولكن إبادة النمل الأبيض أخلّت بالنظام الكوني، وبدلاً من أن يولد من ذلك الاتحاد توأمان تامان، خرج إلى النور ابن آوى يوروغو، أما التوأمان فلم يظهرا إلا بعد أن اتحد أما مع الأرض ثانية وعندما رأى النومو والدتهما عزما على مساعدتها. فأخذا عشر كبب من التيل. كل بعدد أصابع يديه، وقسماها إلى رباطين وصنعا منها رداء لوالدتهما، لكن ما صنعاه له

يكن رداء فقط. فالتيل المبروم بشكل حلزوني انطوى أيضاً على الكلمة: لقد أعطى النومو الأرض نعمة الكلام، أول لغة في هذا العالم. وبعد ذلك فقط نزلا إلى الأرض ودخلا بيت النمل، أي إلى الجوف الذي ظهرا فيه، ثم شرعا يؤديان عمل أما في ترتيب شؤون العالم.

وفي أساطير كثير من الشعوب ثمة شقيق توأم للبطل الثقافي، وغالباً جداً ما يفشل هذا في محاكاة البطل الثقافي، أو أنه يفسد عن سابق قصد ويصنع أشياء مشوهه؛ أي كأنه البطل الثقافي صورة سلبية مماثلة. وهذا ما يفعله كويوت مثلاً، إذ يعاكس كل ما يفعله الإله، وكان قد جرى الحديث عنه في فقرة: «الديميورغوس-البهلوان».

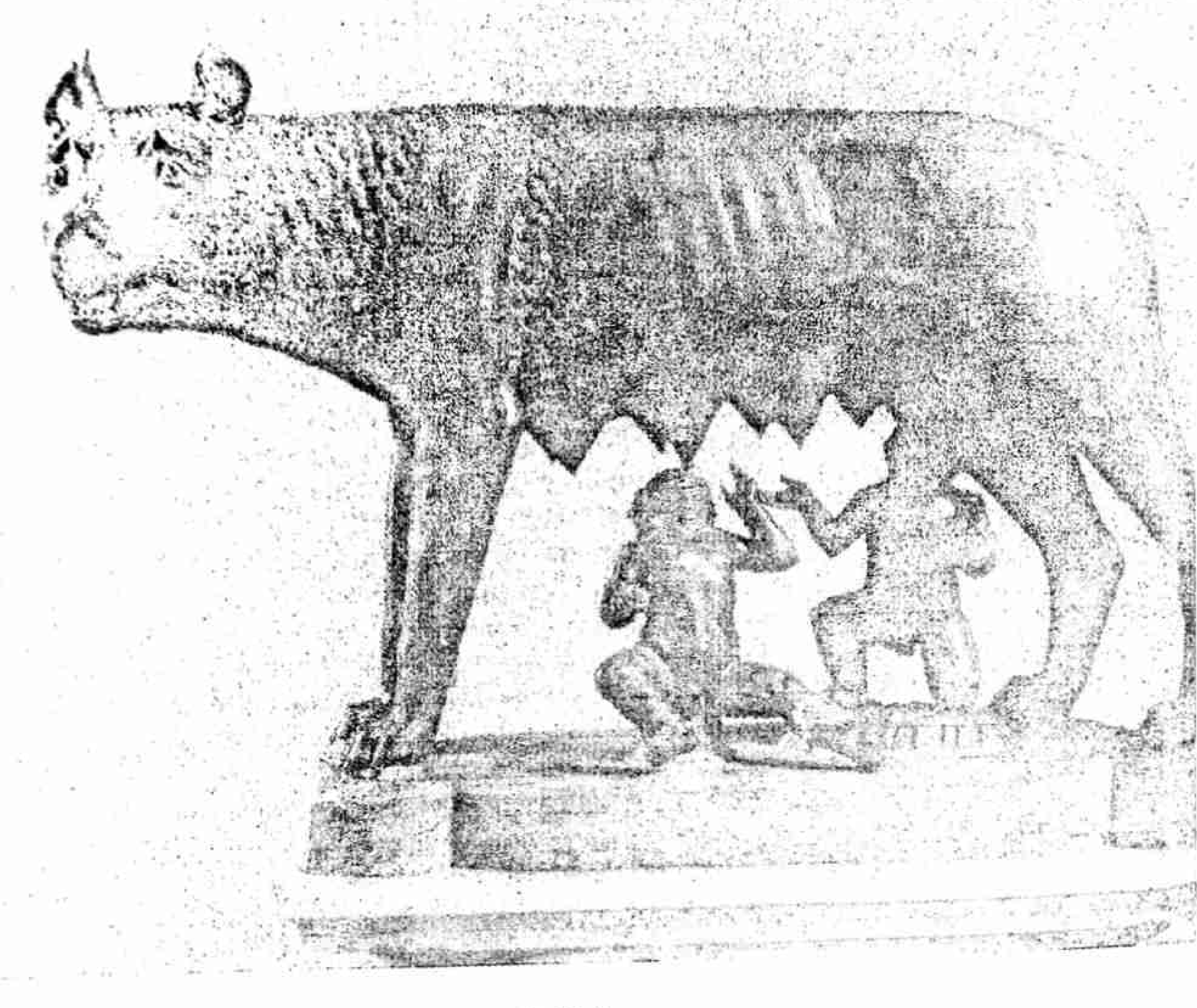
ولكن التوأمين ليسا خصمين دائماً. ففي بعض الأساطير أنه حينما يموت أحدهما، فإن الآخر يعيده إلى الحياة فيعيد بناء جسده من عظامه ودمائه أو من أعضاء جسمه.

وتعد الشمس في بعض أساطير جنوبي أمريكا، والد التوائم. ويخرج التوأمان إلى العالم عندما تقتل والدتهما غدراً، ثم بعد سلسلة من المغامرات ينجح الولدان في الانتقام لها. فيحكى في واحدة من الأساطير مثلاً، أن إله السماء زوّج امرأة للجاغوار (= النمر الأمريكي. م) الميثولوجي أوكا. ولما حملت المرأة بدأت حماتها تحيك لها الدسائس، وانتهى بهم الأمر إلى قتل المرأة. ولكنهم أخرجوا من جسدها الميت، التوأمين كيري وكامي، وقد ثار الولدان لوالدتهما: لقد أحرقا الدساسة. فبعد أن أخرجا من بطن والدتهما المقتولة تعهد تربيتهما عمهما الجاغوار كوارا. وكان كوارا يدحرج كيري وكامي على ظهره، ثم علمهما صناعة السهام. ولم يكن للتوأمين وقتئذ صورة بشرية. كان كامي فضولياً جداً، واهتم بالنار: كان يحبو نحوها دوماً، وفي كل مرة يقترب منها أكثر إلى أن صهرته في نهاية المطاف. ولكن كيري نفخ عليه وأحياه ثانية، ثم جعل كيري له أنفاً بشرياً، ويدين، ووجهاً وباقي الأعضاء البشرية الأخرى. ومن ثم صهرت النار كيري أيضاً، فنفخ عليه كامي وجعل منه إنساناً. لقد كانت النار التي احترق كلاهما فيها عالية إلى درجة أنها لا تزال ترى في السماء حتى اليوم.

لقد صنع كيري وكامي كثيراً من الأشياء النافعة للناس. مثلاً، طالا الشمس
التي أخفاها الرخ الملكي في حفرة سوداء في السماء. ففي تلك الأزمنة كانت الشمس
مصنوعة من زغب التوكان والببغاء الأحمر. وقد رفض الرخ أن يطلق الشمس.
خيم على الأرض ظلام دامس. لكن التوأمين أغوياه حيلة وخلصا الشمس منه فعم
نهار أبدي.

وفكر كيري طويلاً كيف يعيد الليل، وجاءته الفكرة أخيراً: صنع قدراً مهولاً وغطى
الشمس به، فحل الليل. وعندما كانوا يرفعون القدر، يطلع النهار. كما خلص كيري
وكامي النوم من العظاءة بو سيدة النوم، وخلصا منها في الوقت نفسه الهمك الذي
الحمر فيه، إضافة إلى أشياء أخرى كثيرة.

الصنو، فأل خير أم نذير شؤم؟



الذئبة

التي أرضعت رومولوس وريموس الأخوين التوأمين الذين أسسا روما

هما التوأمان اللذان أمر الملك أموليوس برميهما في نهر التيبر، لكن الأمواج حملتهما إلى الشاطئ وقذفتهما تحت شجرة التين المكرّسة للإلهة مرضعة المواليد. وهناك رعاهما وأطعمهما نقار الخشب، والذئبة، ثم عثر عليهما راعٍ وربّاهما.

عندما بدأ الأوروبيون يتعرفون في القرن ١٨ م. إلى الأساطير الإفريقية، لاحظوا مباشرة حضور عادة غريبة عند الهوتينتوت: إذا ولد لهم توأمان من جنسين مختلفين فإنهم يقتلون الأنثى حتماً. وفي الأحوال الأخرى يقتلون الذكر: من الواضح أنهم أرادوا أن يعودوا بذلك إلى المعيار الطبيعي، أي يجب ألا تلد المرأة الواحدة سوى مولود واحد. ثم تبين فيما بعد أن هذه القاعدة لم تكن قاعدة عامة ملزمة: في القارة الإفريقية كانوا يقتلون التوائم، لكنهم كانوا يبجلونهم أيضاً.

وربما كان السبب يكمن في أن الإنسان لم يكن يرى في ولادة التوأمين ظاهرة معتادة، فتعدد المواليد سمة من سمات الوحوش أكثر منه سمة بشرية؛ ولذلك رأوا فيه خروجاً عن المعيار القاعدة، بل حالة تشوه بعثت الخوف في نفوسهم. فعندما كان التوأمان يسببان الرعب كانوا يقتلونهما، وفي بعض الحالات كانوا يستبدلون بالقتل طقس التطهر. لكن الزولوس مثلاً لم يعدوا التوائم بشراً، وافترضوا أنه لا عقل لهم، ولذلك لم يطلقوا عليهم أي أسماء حتى يبلغوا سن السادسة عشرة.

ويبدو أنهم رأوا في التوأمين ووالدتهما أناساً يمتلكون قوة خاصة ما. فقد رأى الداغونيون على سبيل المثال، أن التوأمين يولدان عندما يلامس «سيد الأرض» بطن والدتهما، أي يغدو لهما أُبوّة مزدوجة.

وكان ثمة حالات لا يقتلون فيها التوأمين، بل يكتفون بإبعادهما عن المجتمع، أما إذا ما أماتوهما فقد كانوا يضعونهما في قدر ويحملونهما إلى الغابة، كأنهم يؤكدون بذلك على طبيعتهما الحيوانية لا البشرية. وقد يحدث أن يفرضوا على والديهما عزلة صارمة. ومن الواضح أن طقس قتل التوأمين، أو الموقف الحذر الذي كان يتخذ حيالهما، كانت له جذور قديمة جداً: في قطيع القردة يتخذون من التوأمين موقفاً مشابهاً، يعزلون الأم مع توأميها بعيداً عن القطيع، يطردهما زعيم القطيع بنفسه، بينما تؤدي إناث القطيع الأخريات حركات خاصة

كأنهن يعبرن بها عن دهشتهن مما حدث. وقد طرحت على هذه الخلفية نظرية «الخوف العظيم» الذي كانت تسببه ولادة التوأمين.

وساد في غربي أفريقيا معتقد مؤداه أن التوأمين يحملان بقوتهما الخطرة الموت لوالديهما: الابن للأم، والبنت للأب. ففي واحدة من الأساطير يقول الأخ التوأم لأخته: «إذا ما قتلت أمي فسأقتل أباك». وحسب بعض الأساطير أن التوأمين قد نفذا عزمهما هذا أحياناً.

وفي كثير من الطقوس الإفريقية ذات الصلة بالتوائم يمثلون عملية اندغامهم بالحيوانات؛ فالتوأمان أكثر من بشر، لكنهما في الآن عينه اقل من بشر. ويخاطبون والديهما كما يخاطبون الحيوانات: «هيا إلى الحظيرة». وحتى طابع قتل التوأمين إذا ما حصل، فإنه لا يفترض سوى طبيعتهما الحيوانية: يحملونهما إلى الغابة حيث عدوا أنهما يتيهان فيها حتى بعد الموت. وكأنهم بذلك يعيدونهما إلى الوسط غير البشري الذي خرجا منه.

أما في الطقوس الأخرى فقد كان إدراكهم لطبيعة التوأمين أقرب إلى القداسة. فعند الباغاندا الأفارقة كان يحظى والدا التوأمين بألقاب تشريفية خاصة ويعدان شخصين مقدسين، حتى أنهم حرموا مجرد الاقتراب منهما. ولم يكن عزلهما في مثل هذه الحالة يرمي إلى درئ خطورة كامنة، بل إلى الابتعاد عن قوة مقدسة يمكن أن تكون واهبة نعم كما يمكن أن تكون مدمرة. وارتبط التوأمان في بعض الطقوس بفكرة الخصب والرمزية النباتية. وكان رمز الخصوبة التوأمية هو الثمرة المزدوجة. وفي أثناء الاحتفال بأحد الأعياد الذي كان يدعى «جعة التوائم»، كانوا يؤدون طقس سكب الجعة، وكانت هذه جعة خاصة أُعدّت من حبوب الدخن المزدوجة، من «الدخن- التوأم». وقد كانت تلك الجعة تسكب على مذابح تدعى مذابح التوائم، وكان الطقس نفسه يكرس لمالك قطعة الأرض ولوالدي التوأمين. كما كانت ثنائية التوأمين ووحدتهما تتمثل بمذبحين، وقدر مزدوج، وجرس مزدوج، وطبلين. وعرف هؤلاء الباندا أنفسهم وظيفة طقسية خاصة، هي وظيفة خازن سرة الزعيم التي كانت تدعى «توأمه». ومرة كل شهر، عندما ينتصف القمر كانوا يأتون بها إلى الزعيم، فيأخذها من ملابسها

لحاء شجر ، ويلقي عليها نظرة ثم يضعها عند الباب تحت ضوء القمر ، وفي غصون ...
كانوا يدهنون السرة بالزيت. وعلى وجه العموم كثيراً ما ربطوا تصنيفات ثنائية ...
مركبة بالتوائم.

وكانت المركّبات الطقوسية ترفد بأخرى اجتماعية: لقد عَدّ التوائم المولودين في العشائر عينها مندغمين اندغاماً صوفياً مبهماً ، لكن البنية الاجتماعية الصارمة ... تكن تسمح بشغل أكثر من مكانة واحدة. وكان المخرج من هذا العائق يتمثل في خيارين: إما قتل أحد التوأمين، أو طرده من نظام القرابة ومنحه أي أهلية اجتماعية أخرى. وكان الاشانتي الأفارقة يسرعون بالتوأمين إلى زعيمهم فور خروجهما ... النور ، يقدمونهما إليه على طبق نحاسي. وغالباً ما كانا يصيران زوجتيه أو خادميه. أما النوير السودانيون فإنهم يرون في التوأمين كائناً واحداً ، وتحديداً طيرين ... ولدي الإله ، لأنهما يقيمان في الجو. ولم يطرد النوير التوائم من البنية الاجتماعية بل كان هؤلاء يحظون بأهمية رمزية وطقوسية كبيرة. لقد كان ينبغي أن يتزوج الاثنان في يوم واحد ، وكان يجب أن يشارك الأصغر منهما في مراسم زفاف الأكبر كلها. ولم يقيموا لهما أي طقوس جنائزية ، لأنه ليس باستطاعة واحدهما أن يعيش بدون الآخر ، ولذلك إذا ما توفى أي منهما ، كانوا يصنعون له تمثالاً من الخشب يحل محله.

ولكن التصورات عن التوائم يمكن أن تكون أكثر تركيبية وتعقيداً. فالداغونيون مثلاً ، يرون أن لكل إنسان توأمه الحيواني. وتقول واحدة من أساطيرهم ، إن أول امرأتين أنجبتا زوجين من التوائم: أحدهما ولدت ولداً وبنتاً ، والأخرى ثوراً وعجلة. وعلى هذه الصورة نفسها تظهر تداعيات مشابهة في أسطورة رومولوس وريموس التوأمين اللذين أسسا مدينة روما ، وأرضعتهما الذئبة لبنها.

وعرف السلافيون أيضاً مثل هذا الموقف المتناقض تجاه التوائم. فالخرافات الشعبية ربطت بين التوأمين والمغزى السلبي للعدد «اثنين». وجاء في البوسينا: «ولادة التوأمين شؤم» ورأوا أنه من الأفضل للعائلة والقرية كلها إذا ما مات أحد التوأمين وحمل معه كل الرزايا وعندئذٍ سوف يكون حظ الباقي منهما على قيد الحياة أفضل بكثير. أما السلوفاك فقد

عدوا ولادة التوأمين عاراً على العائلة، أو حتى عقاباً نزل بها لأن المرأة كانت قد طردت يوماً فقيراً من المنزل. ولدرئ مثل هذا العقاب كانت الحوامل تبتعد عن أكل أي ثمار مزدوجة خوخ، أو تفاح، أو بيض، أو... وساد عندهم معتقد مؤداه أن التوائم تظهر إلى الوجود إذا ما حبل بها عشية الأجداد، أي عشية ذكرى وفاة السلف. فقد كانت تلك أيام حرموا معاشرة الأزواج خلالها.

ولكن البلغار كانوا يهللون لولادة التوائم، ويرون فيها بشرى النجاحات والرخاء. فالتوأمان يأتيان للعائلة بالأرباح والفرح.

كما كانت لديهم علامات تدل على ولادة التوائم. فالبيلوروس اعتقدوا أن التوائم تولد إذا ما عثر في الجودار على حبة مزدوجة أو سنبلة ثنائية، وكانت هذه الأخيرة تدعى عندهم «السنبلة- الملكة». وكانوا يقطعون السنابل المزدوجة بأسنانهم، ويجدلون منها مكانس، ويطبخون جعة مشتركة تدعى الجعة «الأخوية». كما حاكوا منها دمى خاصة تدعى الدمية- الغبيراء. وحينما كانت النسوة البيلوروسيات تصادفن مثل هذه السنابل الثنائية في الحقول، كن يتعجلن إطعامها للأغنام أو الماعز لكي تنجب أكثر. ولكنهم كانوا يحاولون تسخير تلك القوة الخطرة الكامنة في التوأمية لحماية القرية وسكانها وحيواناتها وحقولها من خطر الرزايا المحدقة: الأوبئة، والبرد، والأمراض المعدية و... وعندما كانت البلية تقترب من حدود القرية، كانوا يسرعون إلى تأدية طقس الحراثة. وكان التوائم يشاركون فيه: يقرن الأخوان التوأمان الثورين التوأمين، ويأخذان إضافة إلى ذلك المحراث المصنوع من شجرة مزدوجة الجذع أي كأنها شجرة «توأمية»، ثم يحرثان القرية ليلاً ثلاث مرات يرسمان أثناءها حلقة سحرية. ولزيادة تأثير الطقس تنسج شقيقتان- توأم نسيجاً بسيطاً (لأنه ينسج في يوم واحد).

ولكن مهما تغايرت مواقف الشعوب السلافية من التوائم، إلا أنها كانت تتفق على أن لهؤلاء مصيراً مشتركاً. ولذلك غالباً ما كانوا يمنعون أحد التوأمين من حضور حفل زفاف الآخر، كما اعتقدوا أيضاً أن موت أحدهما يمكن أن يستدعي موت الآخر ولكي لا يحدث ذلك كانوا يؤدون طقس الأنقاذ، كأني بهم يقسمون المصير الواحد إلى مصيرين: يقطعون على مدخل المنزل قطعة نقدية بالفأس، ثم يأخذون القطعة التي تدخل

إلى البيت فيدفنونها في قبر التوأم المتوفى، أما القطعة الأخرى فتبقى لدى العائلة وكانوا يقطعون في بعض الأحيان مع قطعة النقد، مشطاً ومشاقة الكتان، فيدفنون نصفيهما مع المتوفى ويبقون النصفين الآخرين لديهم. وفي بعض الأحيان كانوا يرمون حجراً أو زهرة أو أي شيء آخر ويرددون: «أنا أعطيتك زهرة صفراء، فأعطني أنت النور الأبيض» !.

ولكن على الرغم من تباين مواقف الشعوب تجاه ظاهرة التوأمة، إلا أن جميعهم تقريباً عدّها ظاهرة جوهرها غير مألوف ومقلق: قد تكون بشير خير وقد تكون نذير شؤم للمشاعة، ويمكننا أن نعثر في الأساطير والطقوس على طيف واسع من شتى حلول إشكاليات التوأمة.

الباب الثامن

وجوه الآلهة

هل كان الآلهة موجودين دوماً؟



منحوتة تصوّر روح الزهور

تنتمي هذه المنحوتة إلى مدرسة فنية خاصة من مدارس التاريخ القديم، فهي عبارة عن مزيج معقد تداخل فيه تداخلاً وثيقاً التقليد الهندي القديم وعناصر التقليد الهلنستي

لقد اعتدنا أن نرى الآلهة يؤدون الأدوار الرئيسة في الأساطير وربما كان هذا هو واقع الحال فعلاً، ولكن مع بعض التحفظات الجوهرية: لقد كان الآلهة عند الشعوب كلها وفي الأزمنة كلها مختلفين، بل حتى مفهوم «إله» عينه بدل مغزاه عند الشعب نفسه مع اختلاف العصور وواقع العيش، ولم يكن ذلك المغزى متوافقاً مع المغزى الذي اعتدناه نحن.

ووفق التفكير الميثولوجي فإن كل ظاهرة من ظواهر العالم التي أُدركت بصفتها ظاهرة ذات روح، تمثلت في كائن ما كان ينبغي استرضاؤه بالطقوس. وهؤلاء هم الذين ندعوهم نحن آلهة. وقديماً كانت الظاهرة نفسها تدعى إلهاً: إله الرعد دعي رعداً، وإله المطر مطراً وما إلى ذلك. لكن مفهوم «إله» اكتسب بعد ذلك مغزى آخر، فقد بات الإله يدرك بصفته تجلياً لطبيعة الكوسموس (= النظام الكوني. م)، لطاقته السحرية. بيد أن المغزى السابق لمفهوم «إله» لم يندثر تماماً، وبقي قائماً إلى جانب المغزى الجديد لزمن طويل آخر. لقد عبد العالم القديم كله آلهة كونية مشتركة. هي السماء، والأرض، والهواء، لكن كلا منهم أطلق عليها أسماء مختلفة. ولكن ما ينبغي قوله أن الآلهة المحلية والأرواح الحارسة المشاعات كانت تحظى في الحقب الأولى بأهمية فاقت تلك التي كانت للآلهة الكونية. لقد كانت أعداد الآلهة كثيرة لا حصر لها، وقد اتسمت بطابع طيب أو شرير وتخيلوها كائنات مادية كاملة وليست كائنات روحانية، كما إله الديانات العالمية المتأخرة. وفي أحيان كثيرة كان هؤلاء الآلهة يتسمون بضعف البشر، لكنهم تميزوا في الآن عينه بالهيبة والجلال. وفي اللغة الايسلندية القديمة، لم تكن كلمة «إله» تدل على جنس محدد، واستخدمت في الأول بصيغة الجمع فقط، أي لم يكن في لغتهم كلمة بمعنى «إله»، بل كلمات بمعنى «آلهة».

أننا نتوجه الآن في غالب الأحيان، إلى الإله الذي يقيم في السماء، وهذا بالضبط ما يفعله معتنقو الديانات القومية وليس فقط معتنقو الديانات العالمية المعروفة. أما الصيادون واللقطة البدائيون، فقد كانوا يتصرفون بشكل مغاير، لأنه لم يكن لديهم آلهة بالمعنى الذي نعرفه نحن، تماماً كما لم يكن لديهم أي دين.

ولكن ما هو الدين؟ إن الدين هو في أعم صورة واحدة من أقدم الصيغ الايديولوجية التي انعكست في نظم طقوسية وميثولوجية، وكذلك في عمل منظمات دينية. وحتى في توجهات الوعي الجماعي والفردي. ويفهم من هذا أن الدين يفترض حالة اجتماعية معاكسة للحالة البدائية، أي إنه يقتضي وجود تفاوت وانقسام اجتماعيين. وهذا ما كان مستحيلاً في الزمن البدائي، فقد كان مجتمع الصيادين واللقطة وكذا مجتمع الفلاحين الأوائل، مجتمعاً متماثلاً تسود فيه المساواة وحسب. فلم يكن فيه أغنياء وفقراء، ولا مجموعات منفصلة تختص بإدارة شؤون أي ميدان من ميادين الحياة، بما في ذلك الميدان الطقسي.

لقد كان يقود الطقس إما شيوخ القبيلة، أو أفراد عاديون منها، يتميزون بقدرات معينة، كالقدرة على التواصل مع الأرواح مثلاً. وهكذا فإن كل تلك الظواهر التي ننسبها نحن عادة إلى الميدان الديني، لم يكن لها في المجتمع البدائي أي وجود محدد واضح، بل كانت تعيش فيه مبعثرة في شتى ميادين الحياة. ويؤيد استنتاجنا هذا تحليل لغات اوبورغين استراليا، فلم ينجح العلماء في العثور على أي كلمات خاصة فيها للتعبير عن المفهوم «يومن» بالمغزى الديني الذي نعرفه اليوم. فأغلب جماعات اوبوريغين استراليا عرفت كلمات خاصة تدل على المعتقدات وما يتصل بها من أفعال عدوها هم ذات أهمية استثنائية. ويختلف مغزى هذه الكلمات وأهميتها من إقليم لآخر، لكنها تنتمي كقاعدة، إلى ميدان الأفعال الطقسية التي لها اتجاه محدد بدقة. ورأوا عادة أنه يكفي الفرد منهم تماماً أن يسلك في هذه الحالة أو تلك وفق الفرائض التي أوصى بها الأسلاف.

ولكن مع أن ذلك الزمن لم يعرف المعابد ولا الكهنة، إلا أن الحياة الطقسية والشعيرية كانت معقدة جداً ومشبعة. فثمة كثرة من شتى الطقوس، والشعائر، والعقائد، والأساطير كانت تخترق كل حياة ناس تلك الحقب. ؟ إذن بمن آمن البدائيون. ؟ وعلى شرف من كانوا يقيمون طقوسهم؟ ومن ذا الذي أرادوا استرضاءه بإقامتها. إنهم مختلف ضروب الارواح، والعفاريت، والقوى الخفية التي كانت تسكن عالم الصيادين والزراعيين البدائيين. وعن هؤلاء بالذات روت الأساطير، مع أنه من الصعب قول أي شيء محدد عن هذه الأرواح. ولكنها تبدو أقل جبروتاً بالنسبة للآلهة، وشخصياتها أكثر إبهاماً، ومجال فعلها غير محدد دائماً تحديداً دقيقاً، إلا أن هذا لم يمنعها من التدخل دوماً في حياة الناس، ولم تكن دوافع هذا التدخل حسنة بالضرورة، بل على الضد من ذلك، إذ في أكثر الأحيان كان التسبب بالأذى هو هدف تدخلها: إثارة الأمراض، أو الموت، وإعاقة جمع محصول وفير، وإرسال الجفاف،

وسلب الطرائد وما إلى ذلك. وكان الناناي والاولتشي السيبيريون قد قسموا الأرواح إلى أرواح عادية معتادة دعوها «سيفين»، وأرواح شريرة دعوها «أمبان». وإذا كان التفاهم لا يزال ممكناً مع الأولى، فإن هذه الأخيرة ترفض رفضاً قاطعاً أن تنزل عند إرادة الإنسان. وقد يكون بعض السيفين أرواحاً تساعد الشامان على تأدية أعماله، أما الباقي منها فقد يأتي أي إنسان ويرغمه على الاهتمام به. ويحدث هذا كما يرى الناناي والاولتشي هكذا: تمس الأرواح الناس، فيقع هؤلاء صرعى الأمراض، ولم تلجأ الأرواح إلى مثل هذا السلوك إلا لكي ترغم الإنسان على إطعامها. ويمكن للأرواح أن تأخذ شكل البشر أو صور الحيوانات.

وفي غالب الأحيان كانت الأرواح ترتبط بالظاهرات الطبيعية، وكذلك بأشياء العالم المحيط ومواده. فقد اعتقدوا أنها تعيش في الماء، والنار، والأرض، والهواء، والغابات، والأنهار والجبال وما إلى ذلك. ففي الصين القديمة كانوا يبجلون الحجارة، واعتقدوا بالقوة السحرية لبعض الحجارة وكوماتها. ورووا أنك إذا دخلت مئة خطوة نحو الشمال في عمق كهف يقع في محلة «جبل خين»، فأنك ترى هناك حجرين، أحدهما حجر النور، والآخر حجر الظلام. وهذان الحجران هما اللذان يقرران ما إذا كان المطر سيهطل، أم سيكون الجو صحواً والطقس جميل. وفي المحلة عينها بجلوا الحجر- النور القائم على شاطئ البحيرة وقدموا له القرابين. فعندما كان يحل الجفاف في تلك الأرض كانوا ينحرون ثوراً ويمزجون دمه بالتراب ثم يطلون بالخليط الجانب الخلفي من الحجر- الثور. واعتقدوا أن الأمطار سوف تهطل بعد تقديم الذبيحة. وتحدث الصينيون القدماء عن حجارة أخرى قادرة على استدعاء الغيوم وإرسال الأمطار.

كما عبدوا الحجارة بصفتها تجسيداً للأسلاف. فالاستراليون على سبيل رأوا في كسرات الصخور والحجارة في الكهوف المقدسة، أجساد أسلافهم الميثولوجيين. ورسموا عليها في بعض الأحيان رسومات سحرية، واعتقدوا أن ترميم هذه الرسومات، أو حتى مجرد لمس تلك الحجارة يمنح الناس قوة سحرية ويساعد على قوة الخصب لدى البشر وفي الطبيعة.

لا شك في أن تاريخ الحجارة المقدسة مليء بما هو طريف وممتع، فحتى يومنا هذا لا يزال بعض الشعوب يحافظ على عبادة الحجارة. ومن هذه الشعوب مثلاً، شعب الناغا الذي يعيش في شرقي الهند؛ فمنذ القديم وهؤلاء يبجلون الحجارة ويؤمنون بأنها تمتلك قدرات خارقة تؤثر على مصير الناس. بل أن الحجارة تسلك سلوكاً يشبه سلوك البشر: تتصبب عرقاً، تنجب ذرية، تتعارك... وللحجارة أسماء، كما أنها تتزاوج، وقد تنشأ بينها علاقات ود أو عداء. ويروي الناغا خرافات كثيرة عن معارك الحجارة، ويدلون على رؤوسها «المقطوعة» التي تطلق بين

الحين والآخر خواراً ينذر بوشوك وقوع بلية ما. وقد يفسرون لك وجود الخدوش على سطح الحجر بأنه ناجم عن القتال الذي خاضه هذا الأخير ضد الفئران دفاعاً عن مزروعات مالكه وقد عدوا حجارة بعينها شديدة النفع لجمع محصول وفير، وأخرى تقدم العون في الصيد، وثالثة في التجارة، ورابعة في الحرب؛ ولذلك كانوا يحملون التقدمات إلى هذه الحجارة حسب الحاجة، ولا يلمسونها إلا إذا كانت أيديهم مغسولة جيداً. وعدوا بعض الحجارة حارسة سحرية لقرى بكاملها، وبعضها الآخر حارساً لأفراد. وغني عن البيان أن مثل هذه الحجارة أدت دور البطولة في الأساطير ذات الصلة.

لقد آمنوا أيضاً بأرواح الأعشاب، والطيور، والأنهار، والشجر وما إلى ذلك. كما كانت هناك كثرة من الطقوس والأساطير، وقد انصهر هذا كله في لوحة مبرقشة جداً. إذن بينما لم يكن قد تشكل الآلهة بعد بصورة واضحة تامة، توجه البدائيون إلى الأسلاف ليأخذوا المشاعة تحت حمايتهم، كما توجهوا إلى الأرض، وشتى الأرواح بطلب العون. فقد اعتقد الاستراليون مثلاً، بأن العالم مسكون بكثرة من الأرواح، واندغمت عندهم في غضون ذلك أرواح الأموات بالطواطم. ورووا أن بولبول، الذبابة التي تعيش في الأكواخ، وواوفوديومو، الذبابة التي تحطّ على ما هو رطب، كانتا في زمن ما إنسانين، شقيقين: شقيق أكبر وآخر أصغر. ولكن بولبول وقع صريع المرض ومات. فحفر واوفوديومو حفرة في الأرض وفرش قاعها بقطع من لحاء الشجر، ثم وضع جثمان أخيه على اللحاء، وجعل رأسه نحو الغرب وغطى الجسد كله باللحاء وأهال التراب فوقه. ووقف يبكي أخاه الميت ويدق التراب بقدميه مؤدياً الرقص الجنائزي. أما بولبول، روح الذبابة التي تعيش في الأكواخ، فقد خرج من القبر وجاء إلى حيث كان شقيقه الأصغر يبكي الميت. ولكن واوفوديومو أقنع أخاه بأن يعود إلى القبر وألا يأتي ثانية إلى أرض الأحياء، فذلك أمر محرم.

وبقيت أقدم التصورات عن الأرواح حاضرة حتى بعد أن غاص الزمن البدائي في أعماق النسيان. فقد حافظ تانغون على سبيل المثال، وهو الجد الميثولوجي للكوريين ومؤسس الدولة الكورية القديمة تشوسون، حافظ على سمات السلف الطوطمي لزمن طويل. إذ ارتبط اسمه عندهم بالشجرة التان، شجرة «البتولا السوداء» المعروفة في كوريا، ويترجمونه بمعنى «رب شجرة التان». وحينما عاشت الدولة الكورية القرسطوية كوريو حقبة صعبة في العصور الوسطى، كان لأسطورة تانغون دور مهم في تدعيم وحدة البلاد. ومنذ ذلك الوقت بدأوا يسجدون لتانغون بصفته إلهاً؛ فبنوا له المعابد، والمذابح، والمصليات؛ وبدأوا التأريخ الكوري من العام ٢٣٣٣ ق. م، وهو تاريخ تأسيس دولة تشوسون على يدي تانغون.

لقد كان تانغون ابن خوانون الذي أعطاه رب السماء ثلاثة أختام سماوية وأرسله ليحكم الناس. وهبط هذا على قمة جبل ومعه حاشية كبيرة من الأرواح، وكانت تقوم هناك حيث هبط شجرة يقع مذبح الأرواح تحتها. وأدار خوانون شؤون الدنيا الثلاث منه والستين كلها، وائتمرت بأمره أرواح الرياح، والمطر، والسحب. وكان يعيش في الكهف دب ونمر يؤديان الصلوات لخوانون ويتوسلانه أن يحولهما إلى إنسانين. فأعطاهما خوانون نبتتين من نبات الشيح وعشرين فصاً من الثوم ليأكلاها وأمرهما بتفادي أشعة الشمس خلال مئة يوم. لكن الدب وحده نجح في الالتزام بالوصية وتحول إلى امرأة. وصارت هذه تأتي كل يوم إلى تحت الشجرة المذبح وتتوسل الأرواح أن تهبا طفلاً. عندئذ تحول خوانون إلى إنسان وتزوجها، فأنجبا تانغون. وكان الكوريون قد دونوا هذه الأسطورة في القرون ١٣- ١٥ م. وخضعت منذ ذلك الوقت لمعالجات متكررة، لذلك فهي تحتوي على كثير من الإضافات المتأخرة. ولكننا مع هذا نلمح تحت هذه الإضافات تلك الطبقة القديمة التي تنتمي إلى الزمن الذي كان الناس فيه يؤمنون بأن كثرة كثيرة من الأرواح تحيط بهم، وهي تعيش في الشجر، والحجارة، والذباب، واليعاسيب، والنجوم.

وحتى زمن ليس بالبعيد كان الإيمان بمثل هذه الأرواح لا يزال حاضراً بين السلاف وسواهم من الشعوب الأخرى. فقد اعتقدوا أن فوديانوي (= روح الماء. م) يعيش في الأماكن العميقة، والوهدات المائية، لكنه أكثر ما يحب العيش تحت دولاب طاحونة الماء، ويمكنه أن يتحول إلى جذع شجرة، أو إلى ميت، أو فرس، أو خنزير، أو سمكة القرموط. ويتوفر فوديانوي على موهبة فريدة لإغواء النساء وإيقاعهن في شباكه. كما لم يكن عند السلاف أي شك في وجود الليشي (= الحطاب. م) ذي القرنين والأظلاف، الذي يستطيع أن يكون أقصر من الحشائش أو أطول من الشجر: والذي يسوق الوحوش من مكان لآخر، ويخيف الناس، ويضللهم عن الطريق. واعتقدوا كذلك بوجود أرواح الحمى، وعفاريت الأمراض، والماء، والنار، وأرواح القدر التي تقرر مصير البشر، وكثرة لا عد لها من شتى ضروب الأرواح الأخرى. ولا تزال الميثولوجيا الشعبية حتى يومنا هذا تسكن الكائنات الشريرة في الأماكن المقفرة الواقعة خارج حدود الأراضي المعمورة.



الإله الهندي كريشنا

يقيم كريشنا في السماء، لكنه ينزل إلى البشر أحياناً.

معنى اسمه: «الأسود»، «القاتم»، «القاتم - الأزرق». هكذا صوروه، إذ شبّهوه بالغيمة القاتمة الماطرة التي تحمل المطر الذي طال انتظاره وتنجي من القيظ الحارق.

ويعبد الهندوس كريشنا كواحد من تجسيدات فيشنو، وقد يكون هذا التجسيد تجسيده الأكثر شهرة.

وأعتقدوا أن بمقدوره أن يتخذ الوجوه التي يريد، بما في ذلك وجه العاشق الذي يلهو مع الراعيات.

بعد أن تشتت شمل الكاوس (= الخراب الكوني. م) إبان أزمنة الخلق الأولى ...
السماء التي انفصلت عن الأرض جزءاً مهماً من الكون، بالنسبة للإنسان الذي كان ...
بنية عقلية ميثولوجية. فغالباً ما جسدت عنده العنصر الذكري المخصب، وكانت ...
الدفء، وطاقة الحياة، والرطوبة التي انسكبت على الأرض مطراً منحها الخصوبة. ولم ...
السماء بالعنصر الأنثوي إلا عند بعض الشعوب، كالمصريين القدماء مثلاً، إذ تجسدت عندهم
في صورة الإلهة نوت.

ولكن أكثر الأساطير بدائية لا تزال تحمل أصداء التشابه البدني بين السماء والأرض
فالأساطير الاسترالية تروي مثلاً، كيف يمكن الوصول إلى السماء مصادفة لدى صعود جبل
أما ماوي البولينيزي فقد وصل يوماً إلى السماء العاشرة دون عناء يذكر. ويحكي الأفارقة عن
عجوز كانت تدق الحبوب في الجرن بالمدقة، فاصطدمت مدقتها مصادفة بالسماء، بل ثمة
عجوز قطعت من السماء قطعاً لطبخاتها. وبمثل هذه السماء القريبة جداً يمكن أن تمسح
العوالق عن يديك.

أما في الأساطير الأحدث عهداً فقد اندفعت السماء عالياً جداً عن الأرض، إما بمساعدة
الخالق، أو بسبب مشاجرة الزوجين الكونيين، أو لأي أسباب أخرى. ويتشكل الصلب
السماوي الذي يصفه مختلف الأساطير بالصلب الحجري، أو المعدني، أو بأي مادة صلبة أخرى
ونحن نوهنا سابقاً إلى أن السموات غالباً ما تكون متعددة الطبقات، وقد تكون كل طبقة
مصنوعة من مادة خاصة. ففي الروايات الإسلامية إن السموات تفيض وتبرق بالألوان كلها
لأنها مصنوعة من الذهب، والكريستال، والجواهر، والزمرد وسوى ذلك من المواد الثمينة
ولكن الكون في الحالات كلها منزل، والسماء سقفه الصلد.

ولكن الصلات التي كانت قائمة قبلاً بين السماء والأرض، انقطعت في الأزمنة
المتأخرة، وفارق الأسلاف والآلهة الناس. فعند الشعوب الإفريقية الناطقة بالبانتوية خاف السلف
الأول نياموي الذي كان يعيش تحت الأرض، أن يقتله الإنسان الأول، فارتفع إلى السماء، حيث
يبدو أنه أحس بالأمان أكثر. ولكنه ينزل إلى الأرض على قوس قزح بين وقت وآخر. فلم يعد

من السهل الوصول الآن إلى هذه السماء العالية، ولكن الأمر ليس مستحيلاً: على الأشعة، على قوس قزح، أو بأي وسيلة خارقة أخرى. ومن البدهي أن هذا ليس بمتناول يدي ... فهو متاح للأبطال، بل لبعض الأبطال فقط، ولذلك عدوا الصعود إلى السماء فعلاً ... للمختارين فقط. وهكذا صارت السماء مستقراً للأسلاف، وللأرواح التي لم تتجسد بعد ... للآلهة فيما بعد. واعتقدوا أن أرواح الموتى تصعد إلى السماء في الوقت الذي تدفن فيه أجسادهم في الأرض.

ومع مرور الزمن أخذ يندغم بالسماء كل ما هو عال، وروحي، ومقدس، وإلهي ورؤوا في الذهاب إلى السماء انتقالاً إلى عالم مختلف اختلافاً نوعياً، وقطعاً مع عالم البشر، وإمكانية لتحقيق الكمال الروحي. لقد باتت السماء رمزاً للحقيقة الأعلى، رمزاً للحقيقة المطلقة والراسخة. ففي الميثولوجيا البوذية على سبيل المثال، تدرك السموات المتصلة باكتساب النعيم الروحي الأسمى، بصفتها استعارة مجازية لصعود الروح. ثم صارت السماء نفسها تعبد فيما بعد كإله، وفي غضون ذلك كان يمكن أن تظهر القبة السماوية المؤلهة وإله السماء إلهين اثنين أو إلهاً واحداً.

وفي غالب الأحيان كان هذا الإله عينه يغدو إله العلى، أباً للآلهة الآخرين كلهم وسيداً عليهم. ومثل هؤلاء الآلهة على سبيل المثال لا الحصر: أورانوس عند الإغريق القدماء، وديانوس عند الآريين القدماء. وقد دعي هذا الأخير: ديانوس- الأب. وغالباً ما يتردد في «الريغفيدا» تعبير «دياوا بريتهيفي»، أي دياوس وبريتهيفي، السماء والأرض، الوالدان المشتركان اللذان أنجبا الوجود كله، وكانا من قبل متحدين في واحد، كما كان أسماهما متحدين في اسم واحد أيضاً. وثمة في هذا الاسم المزدوج صدى أقدم المعتقدات التي كانت قد تراجعت في زمن «الريغفيدا» إلى عمق الماضي. كما ينتمي إلى الأزمنة القديمة أيضاً وصف دياوس بالثور الأحمر الذي يخور بصخب من الأعالي، أو يبتسم من خلال الغيوم، وهو ما يعني على أغلب الظن هزيم الرعد وبرق الصواعق. ودياوس مسلح بهراوة ترتبط بدورها بضربات الرعد. ولكن صورة الإله- السماء هذه اختفت مع الوقت من الميثولوجيا الهندية.

ويشبهه الإله الهندي القديم فارونا، وهو الإله الأعظم بين آلهة المجمع. إنه ملك العالم، والآلهة، والبشر. لقد خلق فارونا العالم، وهو الذي يحافظ عليه، ويملأ المكان الكوني، ويدعم الشمس، ويقيس الأرض. عينه الشمس، أما هو نفسه فله ألف عين. ويجسد فارونا النظام الكوني، والحقيقة- ريتا، ويحافظ على القانون الأعلى والتناغم بين القوانين الكونية.

ولكن ما أن حل العصر الذي تلا إنشاء الفيدات (= مؤلفات هندية قديمة مقدسة)، حتى فقد فارونا جبروته، وتراجع ليشغل مكاناً متواضعاً بين حراس العالم.

ومثلهما أيضاً أورانوس الإغريقي الذي جسد السماء، زوج جيا- الأرض. فقد أنجبت جيا أورانوس وتزاوجت معه، وأنجبت البحر، والجبال، والطيطانيس، والكائنات الأخرى. وليس حضور مثل هؤلاء الآلهة الأورانوس قليلاً في ميثولوجيات الشعوب الأخرى. فالكاريليون والفلنديون عبدوا اوكو، الشيخ ذا اللحية الشيباء الذي يرتدي رداء أزرق سماوياً، وله مخالب رعدية، وصاعقة، وفأس، وسيف، والذي كان يجول السماء في مركبة تسير على الطريق الحجرية السماوية. ولما كان يدحرج الحجارة السماوية كان الرعد يقصف، وتدمر صواعقه الأرواح الشريرة فتتراكض هذه من أمامه وتختبئ في المياه. وإذا ما شد قوسه- قوس قزح وقدح النار فإن الشرر- النجوم كان يتساقط في الظلام. ويدعو المنغول آلهتهم: تينغري، أي «السماء». ويدعى الإله الأعلى عند الماوري إيخو، أي «الذي يقيم فوق، المقيم في الأعالي». كما يعيش في السماء كثير من آلهة الاستراليين مثل بايامي، وبوندجيل، ودورا مولون و... وكان هؤلاء هم أنفسهم الذين كشفوا للناس الأسرار العظمى للحياة إبان إقامتهم القصيرة على الأرض، وجعلوا العيش بمتناول يد الجنس البشري. لقد كانت لهؤلاء الآلهة قوة كلية في زمانهم: كان الناس بحاجة إلى الإيمان بخالق للعالم يضمن لهم رخاء العيش وطول العمر في حياتهم الأرضية، كما يوفر الخصب للأرض بسكبه أمطاره عليها.

ويكفي أن نحاول تصور شعور الإنسان القديم بالعالم عندما كان ينظر إلى السماء العالية اللا متناهية التي تجوبها الشمس نهاراً والقمر والكواكب الأخرى ليلاً، حتى نفهم أن إدراكه لقبة السماء كان يمكن أن يكون بحد ذاته مثيلاً لشعورنا الديني الآن.

وكان من الطبيعي تماماً أن تغدو صفات من مثل «السماوي»، و «الأعلى»، و «الأكبر» صفات معتادة تطلق على الآلهة، الذين سكنوا حسب الأساطير، الأعالي العصية اللا متناهية. وهكذا نشأت في الأساطير القديمة رمزية سماوية عميقة متنوعة طورتها فيما بعد الأديان كلها.

فهناك في السماء اللا متناهية العلو عاش الآلهة الذين ارتبطوا بهذا الشكل أو ذاك بالنور، والصواعق، والرعود، والكواكب، والرياح، وسوى ذلك من قوى الطبيعة الأخرى. ثم شغل هؤلاء أمكنتهم فيما بعد في المجامع الإلهية التي بدأت تتشكل في عصر الحضارات الزراعية المبكرة.



نينخورساغ

مالك الغابات والجبال في الأساطير السومرية والأكادية

الربة الأم تلتقي مع الإلهة.

إنها تمثل أم جميع الأرباب والأطفال والحكام

لقد كف أورانوس، وديانوس، وفارونا وأمثالهم من الآلهة الآخرين، عن المطالبة بالدور الريادي في الميثولوجيات المتقدمة. فقد أزاحهم آلهة آخرون أكثر حيوية وشباباً. لكن الآلهة الشيوخ واصلوا إقامتهم في السماء، ولا شك في أنهم كانوا يحتفظون بذكرى العظمة التي كانت لهم يوماً. وإذا كانوا قد واصلوا عبادتهم لهم بصفتهم آلهة كباراً أو آلهة رئيسين، فإن هؤلاء على أي حال ابتعدوا عن التدخل في شؤون البشر. وأخذوا يخرجون رويداً رويداً من الديانات ويشغلون في الأساطير مكانة أكثر تواضعاً من تلك التي كانت لهم فيما مضى. كأني بهم بعد أن خلقوا العالم والبشر تعبوا من أعمال البناء تلك «فتقاعدوا» تاركين مكانهم ديميورغوس ما، وتنتقل إلى هذا الأخير مهمة إكمال أعمال الخلق. ففي الميثولوجيا الهندية القديمة شغل الإله فارونا منصب رئيس مجمع الآلهة زمناً، ثم حل محله بعدئذٍ الإله إيندرا. ومنذ أن «تقاعد» فارونا عهد إليه بمهمة ضبط الالتزام بالشرائع الأخلاقية. إنه يقيم في قصره السماوي ذي الأبواب الألف، ومن هناك من «منآه البديع» يوجه العالم ممسكاً بقانون البناء الكوني المسمى ريتا.

ولكن الناس لا ينسون هذا الإله السماوي المتعالي نسياناً نهائياً. ومع أنه هناك في مخدعه السماوي بعيد جداً عن هموم البشر اليومية، إلا إنه بصفته مرجعاً أعلى وأخير يحيلون إليه أمرهم بعد أن تفشل الوسائل الأخرى كلها، وتذهب عبثاً طقوس استرضاء الآلهة الآخرين والعفاريت والأرواح بالقرابين والذبائح. عندئذٍ يرجعون إلى الإله السماوي الأعلى بطلب العون. ولكنهم قد ينسونه تماماً، وإن كان هذا لم يحدث إلا نادراً.

لقد كانت مفارقة الإله، وابتعاده عن الأعمال، وصمته، من الموضوعات التي ما فتئت تثير اهتمام اللاهوتيين. فالإله لا يغدو كائناً غيبياً وحسب، بل كائناً غريباً، وهذا ما يعطي المشروعية للا مبالاة الإنسان نحوه، تلك اللا مبالاة التي انعكست انعكاساً صارماً في قول جوردانو برونو: «ليس لنا أي علاقة مع إله صار إلى مطلق!». والتعبير عينه نسمعه في الأمثال الروسية مثل: «أنت معتمد على الإله وهو ذاهل».

وليست أساطير مثل هذا الكائن العلوي كثيرة العدد، وهي بسيطة إلى حد بعيد، هذا ما يبدو للوهلة الأولى على أي حال؛ وغالباً ما لا يكون له صورة محددة، ولا كاهن، ولا طقوس

عبادة. واعتقدوا أن «الإله المتقاعد» قد يظهر إرادته بعلامات مختلفة: بالبروق والصواعق، بقوس قزح، وفيض النور الشمالي وسوى ذلك من الآيات. فالزولو الأفارقة مثلاً يحافظون حتى اليوم على الاعتقاد «بسيّد السماء» الذي يثير الرعود ويملك الصواعق. وهم يخافونه لأنه يستطيع أن يقتل بصاعقته الإنسان أو الحيوان. ويحرق المنازل والمزروعات، ولكنهم لا يقيمون له أي طقوس عبادة، مع أنه ثمة فئة من السحرة تدعى «رعاة السماء» يؤدون دور الوساطة بين «سيد السماء» والبشر و «يجوس» هؤلاء السحرة السماء ليحذروا الناس من أي خطر قد تحمله لهم. وإذا ما اشتعلت صاعقة مثلاً، فإنهم يستطيعون إعادتها إلى حيث خرجت، وإذا ما عزم البرد على الهطول، فإن بإمكانهم منعه، و...، أي كأن هؤلاء يهدؤون من غضب السماء بإقامة مراسم خاصة.

ويعد إله نغاي إلهاً مهماً عند ماساي النيل، والكيكويو، والكامباو سواهم من الشعوب الإفريقية الأخرى. ويقيم نغاي في السماء. وفي زمن ما عندما كانت البشرية قد بدأت تستوطن الأرض لتوها، كان نغاي ديميورغوس يرشد البشر الأوائل. لقد كان نغاي سيد الطبيعة، وأعطى الكيكويو بلادهم وأنهارها، ومسايلها، ونعم الطبيعة الأخرى كلها. وكان هو الذي أرسل إلى الأرض الفتيان الثمانية أزواجاً لبنات الكيكويو الأوائل. فألف هؤلاء تسع عائلات خرجت منها عشائر الكيكويو التسع الرئيسة. كما علمهم استخراج الحديد والعمل بالزراعة. وعندما ينزل نغاي إلى الأرض، فإنه يتوقف ليستريح فوق الجبال العالية، مثل «جبل الأمطار الغزيرة»، و «جبل السماء الصافية»، و «جبل النوم»، وسواها. ويأتي نغاي بالمطر، وقوس قزح، والصواعق، والرعود، وترتبط به الشمس، والقمر، والنجوم. وتمثل هذه كلها علامات يظهر نغاي عبرها حبه وكرهه. فالرعد صوت انفلاق عروقه عندما يتمطى استعداداً لبدء حملته. ويستعمل الصاعقة سيفاً يمهد طريقه. وإذا ما ضربت الصاعقة أحدهم، فإن ذلك يعني أنه نال عقابه لأنه تجرأ ونظر إلى فوق لكي يرى نغاي. ولذلك حرمت هذه الشعوب على نفسها النظر إلى فوق أثناء العاصفة الرعدية. ولكي يبعدوا غضب إله الرعد، ينحرون شاة في المكان الذي تدخل الصاعقة الأرض فيه. ويدهنون الشخص المعني بمحتويات معدة الحيوان الذبيحة. هكذا يحاولون تهدئة غضب نغاي.

ويرتبط نغاي بالمطر، ولذلك فهو الذي يتحكم بالمحصول. وإذا ما انحبس المطر طويلاً، يقدمون له ضأناً ذبيحة، وبدم الضأن وشحمه، وبالحليب والعسل النقي يحاولون استرضاء الإله، ويتوسلون منه مطراً مخصباً. وقد تكون الذبيحة مختلفة: يسأل شيوخ القبيلة المتنبئين و «يستعلم» هؤلاء من نغاي أي حيوان يريده ذبيحة ليهدأ غضبه. وإذا ما امتنع المطر عن الهطول بعد ذلك كله، فمعنى ذلك أن خللاً ما وقع أثناء إقامة المراسم الشعيرية. فتعاد المراسم ثم تعاد إلى أن ينزل المطر المنتظر. وكانوا يتوسلون نغاي في مختلف الأحداث في حياتهم: عند ولادة مولود، أثناء طقس التكريس، أثناء طقس الزفاف، أثناء الطقس الجنائزي

ومن حيث «طابعه» يشبه نغاي إلهاً آخر، هو الإله ليزا، إله شعب إفريقي آخر، هو شعب كاوندي. فقد خلق ليزا البشر الأوائل وعلمهم قدح النار، واستخراج الحديد، وصناعة الفؤوس، والمعازق وسوى ذلك من الأدوات؛ كما علمهم تصنيع الجلود، وأقام بينهم عاداتهم وأعرافهم. ويعتقد الكاوندي أن الحياة والموت بين يدي ليزا وحده. فهو الذي يرسل الأمراض وهو الذي يداويها. وإليه كانوا يتوجهون قبيل خروجهم للصيد، وإذا كان صيدهم موفقاً يقدمون إليه الشكر، والذبيحة مرددين: «الشكر لك على اللحم الذي أعطيته لنا!».

وتخيل الهنود الحمر الشيباي إلههم الأعلى كومفاري، المرتبط بالرعد والصواعق، إلهاً في صورة إنسان أو جاغوار. وكانت الكانيبالية (= عادة أكل لحم البشر. م) الطقوسية شائعة عند الشيباي وبعض قبائل الهنود الحمر الأخرى المرتبطة معهم بأواصر القرابة. وعدوا كومفاري الإله الحارس لهذه العادة. لقد كانوا يقتلون الأسير، ويقطعونه إلى أجزاء ويطهونه، ثم يقدمون هذه الوجبة لكومفاري فيضعونها عند نصبه الذي يعتقدون أنه يقيم فيه وقت إقامة الطقس. وغني عن البيان أنهم يلتهمون تلك الوجبة هم أنفسهم.

وينتمي إلى فئة الآلهة «المتقاعدين» أيضاً، الإله السومري آن «أب الآلهة»، الذي معنى اسمه: «السماء»، وراس المجمع البابلي الذي أعطى السلطة على العالم لابنه اينليل الذي واصل بدوره أعمال البناء الإلهية. ويبدو حسب المصادر أنه لم يؤت على ذكر آن في الزمن التاريخي إلا نادراً، وأن عبادته لم تلق انتشاراً مهماً في الحياة الدينية البابلية. ولكن هذا لا ينفي مكانة آن المميزة في هرم التراتبية السماوية: يقوم قصره في أعلى نقطة على القبة السماوية، ولذلك لم تصل إليه مياه الطوفان الكوني. ولم يكن يحق للمواطن العادي أن يرفع إليه دعاء أو توسلاً، فقد كان ذلك من حق الملوك وحسب. وكان هؤلاء يتلقون السلطة الملكية منه «شخصياً».

ومن هؤلاء الآلهة أيضاً، الإله يهوه[1]، إله اليهود، الذي تقول التوارة إن اسمه لم يكشف آلا لموسى، ومع ذلك بقي نطقه محرماً تحريماً صارماً. وقديماً كان لعدد من القبائل الجزيرية التي تستوطن الإقليم آلهة تحمل الاسم عينه، ولكن يهوه تحول فيما بعد إلى الإله الرئيس شفيع القبائل الإسرائيلية وحارسها.

من الواضح إذن، أن ظاهرة «الإله المتقاعد» لم تكن ظاهرة نادرة. ومن الواضح أيضاً أن الإله الذي خلق الكون ونظم شؤونه قد تحول مع الزمن إلى إله بولغ في تعظيمه، وبات متعالياً عن الاهتمام بأمور البشر. وصار من إله عملي بناء نشط إلى إله سلبي قابع في الظل يرتاح.

١ـ لكن يهوه لم يتقاعد، ولا يزال يؤدي مهامه حتى يومنا هذا. ولذلك فإن انتماءه إلى هذه الفئة من الآلهة لا يصح. م



شيفا وزوجته بارفاتي

يُعبد شيفا بصفته واحداً من كبار آلهة الهندوسية، وتضرب عبادته جذوراً عميقة في القدم.

ولا يعبد اتباع شيفا هذا الإله بصفته الإله الذي يدمر العالم وحسب، بل بصفته خالقه وحارسه.

ويعتقدون أنه يعيش على جبل كايلاس مع زوجته التي لها كثرة من الأسماء والأقانيم.

إن عالم الآلهة خاضع في الأساطير كعالم البشر، للتبدلات والتغيرات. ومع إن الزمن هناك ليس زمناً بشرياً إلا انه يجري أيضاً، فالقرون الكونية تتعاقب تباعاً. وهذا يعني أن خالقي العالم القدماء يزاحون إلى النسق الأخير، ويحل محلهم جيل جديد من الآلهة. ولم يكن للأمر أن يجري إلا على هذا المنوال، فالعالم في نهاية المطاف استثمارة كبيرة تديرها سلالة إلهية واحدة سواء كانت إدارتها جيدة أم سيئة. وكما هي الحال عند البشر كذلك عند الآلهة، يكبر الأولاد ويبدأ الصراع مع الوالدين، لكن الأمور في عالم الآلهة أكثر عنفاً ودرامية.

فعند الإغريق القدماء عاش الآلهة الأبناء بعد أن أطاحوا بالآلهة الآباء في حال خوف دائم من أن يسلك أبناءهم معهم السلوك عينه. وقد بدأ كل شيء في الميثولوجيا الإغريقية كما في الميثولوجيات الأخرى، بولادة السماء والأرض، أورانوس وجيا. وأنجب الزوجان ثلاثة أبناء، ولكن يبدو أنهما لم يفرحا بهم. وكان لموقفهما هذا أسبابه. فما أخرجاه إلى الوجود كان مهولاً بحجم الجبل، ولكل منهم خمسون رأساً، ومئة يد، ولذلك دعوهم هيكاتونكيريس (= ذوات المئة يد). ولما رأى أورانوس صناعته ارتجف قلبه خوفاً من قوتها الخارقة، فحبس الهيكاتونكيريس في أعماق الأرض.

ثم أنجب أورانوس وجيا السيكلوب، ولهؤلاء أيضاً قامة مهولة، وعين واحدة في وسط الجبين تتوهج سعيراً. وكان مصير هذا الجيل كمصير الجيل الذي سبقه. بعد ذلك ظهر إلى الوجود جيل الطيطانيس البديع: ستة أولاد وست بنات. ولكن أورانوس لم يمنحهم السلطة، فأطاحوا به وحكموا العالم بأنفسهم. وكان كرونوس هو الأهم بين الطيطانيس، إنه «الزمان»، الأصغر بين الطيطانيس لكنه الأكثر غدراً ولؤماً بينهم. إنه هو الذي سلب أورانوس السلطة وبات سيد العالم.

ولكن كرونوس عاش هاجس الخوف من أن يفعل أبناؤه به ما فعله هو بوالده. ولذلك عزم على قتلهم. فما أن يولد له أحدهم، حتى يلتهمه وهو حي. وقد افترس كرونوس ثلاث بنات وولدين، ثم ولد له ولد آخر هو زيوس. فأشفقت والدته ريا عليه وأخفته في كهف في جزيرة كريت، وقدمت لكرونوس حجراً ملفوفاً بالأقمطة، فابتلعه هذا دون أن يخالجه أي شك. وهناك في كريت كانت المعزاة امالثيا ترضع زيوس حليبها، وكانت الحوريات تهتم بباقي شؤونه؛ وعندما كان يبكي كان الخدم يضربون الترس بسيوفهم كي لا يسمع كرونوس بكاء الطفل.

وشب زيوس، فقام ضدّ والده كرونوس وأطاح به عن العرش، ثم أرغمه على أن يقذف أخوته وأخواته الذين كان قد ابتلعهم. وهكذا جاء إلى الوجود بوسيدون، وهاديس، وهيرا، وديميترا، وهستيا. وهنا بدأت الطيطا نوماخيا: الحرب الضروس التي دارت رحاها بين الآلهة الأبناء والآلهة الآباء. ويبدو أنه كان ثمة توازن قوى بين الطرفين، لذا لم يستطع أي منهما أن يحقق نصراً واضحاً. عندئذٍ قرر زيوس أن يدعم صفوفه، فاستدعى من أعماق الأرض الهيكاتو نكيريس والسيكلوب ورواهم رحيقاً وامبروسيا. ولما استعاد العمالقة الجبابرة قواهم أخذوا جانب زيوس، وصنع السيكلوب السلاح لأخوتهم: خوذة الأخفاء لهاديس، والحربة الثلاثية لبوسيدون، والرعود والصواعق لزيوس.

واندفع الطيطانيس إلى الاوليمب حيث تحصن الآلهة. ودارت هناك على الجبل معركة ضارية: كان زيوس يقذف رعوده وصواعقه فتعوي الأرض وتئن، ووتغلي مياه المحيط وتفور، وتهتز السماء حتى بدا كأنها ستهوي على الأرض، وكان جبل الاوليمب يتراقص ويتمايل. وأخيراً نجح الآلهة الشباب في تحقيق النصر كما هو متوقع، وهزم الآلهة الطيطانيس وقذف بهم إلى أعماق تارتاروس حيث يعم ديجور حالك وتعوي أعاصير رهيبة. ولكي لا يخرج الطيطانيس ثانية من هناك، وضع زيوس الهيكاتو نكيريس حراساً على بابه.

وهكذا انتصر الجيل الأصغر من الآلهة وانتقل ليقيم على جبل الاوليمب، ويدير العالم من هناك، والمقصود هنا بالتأكيد هو العالم الإغريقي القديم. بيد أن الاوليمبيين بزعامة

زيوس لم يحسوا بالاطمئنان، ففي رحم الأرض الأم كان ينمو جيل جديد من العمالقة الطيطانيس العنيفين. ولكن زيوس تمكن من أن يعرف أن الاوليمبيين سيتمكنون من تحقيق النصر إذا ما قدم البشر العون لهم. فاخذ الآلهة ينزلون إلى الناس العاديين، وأنجبت الا... منهم أولاداً صاروا أبطالاً. ومن اشهر هؤلاء هرقل.. فلم يكتف هذا بتحقيق مآثره البطولية الاثنتي عشرة المعروفة بل عاون الآلهة في معركتهم ضد الطيطانيس، إذ كان يجهز على هؤلاء الأخيرين بسهامه.

وساعد هرقل زيوس مرة أخرى. فبينما كان يتجول في القفقاس رأى هرقل في جبال بروميثيوس المقيد والنسر ينقر كبده، فقتل النسر. وعرفاناً بالجميل كشف بروميثيوس لهرقل سر مصير زيوس: فليبتعد الاوليمبي الأعلى عن إلهة البحر تيطيس لأن ابنها من زيوس سوف يطيح بإله الرعود هذا. فأذعن زيوس، وزوج تيطيس لرجل عادي من البشر، فأنجبت منه أخيل البطل الشهير الذي كان مقتله في عقب قدمه. لقد كان أخيل من أهم المشاركين في حرب طروادا التي كانت بدورها بداية لغروب شمس العصر البطولي الإغريقي.

وترسم الأساطير الثيوغونية، أي الأساطير التي تتحدث عن نشوء الآلهة، ترسم عند الشعوب الأخرى لوحة مماثلة لهذه التي رأيناها قبل قليل. ففي الميثولوجيا الحورية يزيح الإله السومري الاكادي المنشأ آنو الإله آلالو، وهو إله قديم سبق ظهوره ظهور الإله السومري. ولكن آنو نفسه أزيح أيضاً على يد الإله الحوري كوماربي. ثم أزيح هذا الأخير بدوره على يد الإله تيشوب وجيله.

وتبدو اللوحة أكثر تعقيداً في الميثولوجيا الهندية ووريثتها الميثولوجيا الهندوسية. وترتبط هذه بالتاريخ ارتباطاً مباشراً. وأقدام الآلهة الذين في متناول الرصد التاريخي على الأراضي الهندية، هم آلهة الحضارة التي كانت السلف المباشر للحضارة الهندية: الإله الجاموس ذو القرنين المدعو «بالنجم العظيم»، نسيب جوبتر الحاكم الكلي القدرة على الزمان والمكان، الذي يخضع لسلطته كل ما هو حي؛ والإلهة الجاموسة وسواهما من الآلهة الآخرين الذين لا يزال الغموض يحيط بهم بسبب ضعف دراسة هذا الحضارة العهيدة.

وفي منتصف الألف ٢ ق. م عبرت الممرات الجبلية الشمالية- الغربية إلى الهند قبائل الآريين (= «النبلاء») البدوية الرعوية المقاتلة. وجاء معهم إلى الهند عالم مختلف من العقائد الدينية، والأساطير، والشعائر، والآلهة؛ ونزل هذا العالم على المعتقدات والعبادات المحلية القديمة. ولكن رؤى الآريين الميثولوجية نفسها كانت رؤى مركبة وكثيرة الطبقات. فقد نشأ أقدم هذه الطبقات في عصر الوحدة الهندوأوروبية، عندما كان أسلاف الهندوأوروبيين يعيشون في سهوب يوراسيا قبل قرون كثيرة من اجتياحهم الهند. لقد كان أكبر الآلهة وأقدمهم عند هؤلاء، هما الزوج الإلهي المؤلف من السماء والأرض، أي دياوس وبريتهيفي: ومن هذه الأخيرة خرج حسب اعتقاد الآريين، الآلهة الآخرون كلهم، والبشر. لكن دور هؤلاء الآلهة الشيوخ بات متواضعاً جداً في الهند.

وفي نحو الألف ٣ ق. م انهارت الوحدة الهندوأوروبية عندما انفصل الهندو آريون عن الإيرانيين. وقد ارتبطت بهذا الطور طبقة جديدة من المعتقدات الدينية. الميثولوجية، هي الطبقة الهندو إيرانية. وضمت هذه الطبقة آلهة دخلت أسماؤهم الكتب المقدسة عند الآريين، وعند الإيرانيين: الهندي سوما إله المشروب المقدس، والإيراني هاوما إله المشروب المقدس؛ والميت الأول إله مملكة الأموات ياما واياما، و... كما يجب أن ننسب إلى هذه الطبقة الإله فارونا أيضاً (نظير الإيراني اخورا مازدا)، وهو الإله الخالق المالك العالم وقاضيه الأوحد، ورأس المجمع الهندو إيراني الجالس على عرشه في قصره السماوي ذي المئة باب. أنه هو عينه الإله الذي أزاح دياوس رب أقدم مجمع الآلهة الآريين، ولكن في الأرض الهندية كان عليه أن يخلي المكان لإيندرا، الإله الفتي «البربري» صاحب الرعد.

لقد صارت الميثولوجيا الآرية نواة للتقليد الهندوسي. ومن الملائم أن ننوه هنا إلى إن الديانة الهندوسية عرفت عبر الميثولوجيا التعاقب الدوري للسلطة: أطيح بإيندرا عن العرش على أيدي الثالوث الهندوسي المؤلف من الإله الخالق العالم براهما، والإله الحافظ العالم فيشنو، والإله المدمر العالم شيفا. وفي الزمن الفيدي اكتفى فيشنو وشيفا بدور في النسق الثالث؛ وينسحب هذا التراجع على شيفا خاصة، لأنه ليس إلهاً آرياً على أغلب الظن: تمد عبادته جذورها إلى عمق المرحلة القديمة المرتبطة بالحضارة التي سبقت الحضارة الهندية،

وكـان بنـاة تلـك الحـضارة هـم الدرافيـديون الـذين كـانوا يستوطنون جنوبي هندوستان، وتقدمت نحـو الـصدارة هنـا إلهات بـدائيات حظـين بـاحترام وتبجيل كبيرين في المدن الهندية، لكن العصر الفيدي ألقى عليهن حجاب النسيان. ثم عدن فيما بعد، في العصر الهندوسي، وطفون من الأعماق البدائية إلى السطح، مع أن حضورهن في الديانة الشعبية كان نشطاً دائماً.

كيف تشكلت مجامع الآلهة



آلهة الصين وبوذا السماء والأرض الثمانية عشرة

لقد عدّت الشخصيات الرئيسة في الميثولوجيا الصينية بشخصيات تاريخية حقيقية: إمّا حكاماً أو وجهاء.

ففي مواعظهم ودعواتهم استخدم البوذيون في الصين المحاور الميثولوجية الصينية القديمة.

لقد بجل الإغريق القدماء آلهة الاوليمب أكثر من الآلهة الآخرين كلهم، ومن المعروف أن الآلهة الأوليمبيين كانوا اثني عشر إلهاً، وهم: هيستيا، وهيرا، وهرمس، وديميترا، واريس، وارطميس، وزيوس، وافروديت، وهيفيستوس، وأبوللون، وبوسيدون، وأثينا.

وغني عن البيان أن هذه اللائحة ليست كاملة ولا نهائية. وقد تغيرت بين زمن وآخر، بل كانت تختلف من مدينة لأخرى. فكل إله كان يتمثل بتنويعات محلية مختلفة، كما كانت له أسماء متعددة وألقاب متباينة. فأبوللون دعي على سبيل المثال: فيويوس، أي المشع؛ وميوساهيتوس، أي قائد الميوسات، الديلوسي، أي المولود في ديلوس، ولوكسيوس، أي المتنبىء؛ وبيانوس، أي المداوي؛ وبيثي، أي قاتل التنين، و... زد إلى هذا أن بعض الآلهة اندغم أحياناً ببعضها الآخر، أو كان لهم نظراء يشبهونهم شبهاً كبيراً. ويجب ألا ننسى أنهم بجلوا الأبطال أيضاً، وعندئذ يغدو من الواضح أنه يصعب كثيراً وضع لائحة كاملة بأسماء الشخصيات الميثولوجية الإغريقية.

ولكن مهما كانت الحال فإن أواصر القرابة كانت بين الآلهة الاوليمبيين كلهم تقريباً، ولا شك في أن زيوس كان مركز تلك الأواصر كلها. فالإلهات الثلاث كن أخواته: هيرا التي غدت زوجته، وديميترا إلهة العمل الزراعي، وهيستيا حارسة الموقد المنزلي. وسبعة من الاوليمبيين كانوا أبناءه: أثينا إلهة الحكمة التي ولدت من رأسه، والتوأمان ابوللون وأرطميس، وديونيسيوس إله الخمر وصناعة الخمر، وهرمس الإله البشير، وهيفيستوس الأعرج، واريس المحارب. وكان إله البحر بوسيدون شقيقاً لزيوس. وكانت افروديت إلهة الحب و الجمال وحدها بينهم التي تنتمي إلى الجيل الأكبر من الآلهة. كما كان هناك العملاق هيليوس- الشمس الذي يجوب السماء، والعملاق أوقيانوس الذي يحيط بالأرض.

وغني عن البيان أيضاً أنه كانت تعيش في كل شجرة دريادا (واحدة من الدريادس. م). وفي كل نهر نايادا (واحدة من النايادس. م)، وفي كل صخرة اريادا (واحدة من من الاريادس م)، و.. هكذا يبدو مجمع آلهة الإغريق القدماء الذي كانت تتزعمه سلالة واحدة برئسها زيوس.

لقد كان لكل شعب من شعوب الأرض مجمع آلهته، عالم آلهته الذي تشكل عبر القرون. ففي طور الصيد كان لكل عشيرة وحشها- الطوطم، أو سوى ذلك من ظاهرات الطبيعة المحيطة الأخرى، التي كانت تحمي البشر، وقد أحس هؤلاء بصلة قرابة مبهمة تربطهم بها.

وفي مشاعات الزراعيين الأوائل صارت السيادة إلى آلهة الخصب. ثم فيما بعد في عصر صيرورة الحضارات تشكلت مجامع آلهة الدولة. وتألفت هذه من كثرة من الآلهة، لكن السلطة في المجمع كانت لسلالة إلهية واحدة تألّفت عادة من الإله المحلّي الأكبر وزوجته الإلهية وابنه الأقل ألوهة.

وارتبطت بهؤلاء الآلهة كلهم دائرة واسعة من الأساطير المكرّسة لهم، ولكن لم يكن كلّ إله بالضرورة موضع عبادة دينية. فبما أنه كان للمشاعات المتقاربة آلهة متشابهة، لذلك احتوى بعض المجامع على عده آلهة لهم الوظائف عينها: آلهة الشمس في كل نوم (= دولة مدينة) من نومات مصر، على سبيل المثال لا الحصر. ضف إلى هذا أن سياسة الدولة، والنشاط الديني الفلسفي للكهنة، كما حدث في الهند القديمة مثلاً، كان لهما تأثير فاعل في بنية المجمع المعقدة والكثيرة الطبقات أصلاً.

لهذا كله ثمة صعوبات حقيقية تعيق التبحر في كل التشابكات الإلهية، وصلات القرابة، والعلاقات بين الآلهة وطبقاتها في هذا المجمع أو ذاك.

ولا يحق لنا أن ننسى أيضاً أن الدول القديمة عرفت كذلك شيئاً ما يشبه الجغرافيا المقدسة: لقد كان لكل نوم من النومات المصرية المزروعة على ضفتي النيل كالخرز في الخيط، آلهته الخاصة المتحدة في مجمع خاص.

وعندما كانت مدينة ما من المدن تبرز لتؤدي دور العاصمة، كان آلهتها يتحولون إلى الآلهة الرئيسين في الدولة، ولكن هذا لا ينفي وجود آلهة أخرى في المدن المجاورة. وكانت

النتيجة هي وجود كل إله في تنويعات مختلفة كتنويعات الوجه في المرآة، ووجود الأساطير المرتبطة به في روايات متعددة. وما حصل على سبيل المثال، هو أن إنانا السومرية نزلت إلى الحضيض في عدد من المدن في وقت واحد، كما كان لها في كل مدينة زوج. وهذا ما أدى بطبيعة الحال إلى جعل مثل هذه المجامع المتحدة عصية على الدراسة. فهيرودوت الذي عد المصريين «أكثر الناس ورعاً وخوفاً من الآلهة»، أصابه الذهول من كثرة عدد الآلهة عند هؤلاء. وحينما عقد الفرعون رمسيس الثاني معاهدة السلام مع الملك الحثي، أقسم على الالتزام بها باسم ألف إله مصري، ولم يكن في ذلك أي مبالغة في زيادة العدد، بل على الأغلب أنه قلل منه، لأن المتخصصين الدارسين التاريخ المصري عثروا في النصوص المصرية القديمة على أكثر من ألفي اسم إلهي، وليس في هذا ما يثير الاستغراب، فالمصريون ألهوا إضافة إلى كل فراعنتهم، الثعابين، والجعلان، والتماسيح، والشمس، والكائنات التي ابتكرتها مخيلتهم.

وانقسم بعض مجموعات الكائنات الميثولوجية إلى طرفين متصارعين: الديفي والآسورا أو الآهورا عند الهندو إيرانيين، والآسات والفاني عند السكندينافيين، أو الايجيجي والأنوناكي في وادي الرافدين. وفي غضون ذلك كانت إحدى المجموعتين ترتبط بالعنصر المضيء، والسماوي النبيل: الآهوار عند الإيرانيين، والديفي عند الهنود، والآسات عند السكندينافيين، و «قبيلة الإلهة دانو» عند الإيرالنديين، أو الإيجيجي في وادي الرافدين. أما المجموعة الثانية فقد نُسبت إلى الحياة الزمنية، بل كانت لها أحياناً علاقات مع العالم السفلي: الديفي عند الإيرانيين، والآسورا عند الهنود، والفاني عند السكندينافيين، والثوموري عند الإيرلنديين، والانوناكي في وادي الرافدين، ولم يكن من النادر أن تقع بين الطرفين اشتباكات، وأحياناً معارك ضارية.

وقد تنامى بعض المجامع حتى بلغ أحجاماً تتعذر الإحاطة بها، كما حصل عند الهنود مثلاً، إذ يصعب على أي كان أن يحدد عدداً معلوماً للشخصيات الميثولوجية الهندية: من آلهة، وأنصاف آلهة، وعفاريت، وأرواح، وما إلى ذلك. أما في المجامع الأخرى فإن عدد هذه الشخصيات معلوم وبمتناول يد الباحث: عددها عند السكندينافيين مثلاً، هو مائتان وخمسون شخصية تقريباً.

وينقسم هؤلاء إلى مجموعات تؤلف المجموعة الواحدة منها عدداً مفتوحاً. ومنهم مثلاً: العمالقة الحكماء الأوائل. فمن جسد أحدهم: إيمير، تشكل العالم وكل ما هو موجود فيه.

أما العملاق الآخر: سورت الناري، فإنه سيحرق العالم عندما تحل لحظة هلاك الآلهة. وهؤلاء أنصاف بشر، أنصاف جبال، يعيشون في الجبال والبوادي. وبينهم «عمالقة جبليون»، و «عمالقة جليديون»، و «عملاقات الغابة الحديدية»، وسوى ذلك من الكائنات المتميزة الأخرى.

وعلى الضد من العمالقة يأتي الأقزام البحاتير. ويعيش هؤلاء في الحجارة أو تحت الأرض، وإذا ما وقع عليهم نور الشمس فأنهم يتحولون في غمضة عين إلى حجارة. وليس واضحاً حتى الآن من أين جاء هؤلاء إلى العالم: يهيأ لي أنهم خرجوا من الديدان التي كانت ترتع على جسد العملاق إيمير. ولكنهم في الأحوال كلها قوم يمتلكون الحكمة، ويحرسون العملاق، ويصنعون أي شيء من أي شيء. فلكي يقيدوا الثور مثلاً، أعدوا أصفاداً جمعوا فيها ست ماهيات: صخب الهر، ولحية زوجة، وجذور جبل، وعروق دب، ونفس سمكة، ولعاب طير. وهم أيضاً من صنع الخنزير البري المتوحش ذي الشعر الذهبي، كما صنعوا للإلهة سيف زوجة تور شعرها الذهبي، وصنعوا المطرقة ميولنير، وأشياء سحرية كثيرة أخرى.

وتؤلف الفالكيريا مجموعة أخرى متميزة، هي مجموعة العذراوات الخادمات عند الإله الأعلى أودين، اللواتي يشاركن في المعارك كلها، ويقررن نتيجة كل معركة. وهن بالذات يخترن من يجب أن يسقط في ساح القتل، وحتى كلمة «فالكيريا» نفسها تعني «تلك التي تختار المقتولين». وتخدم الفالكيريا في والهالا، حيث يقيم المقاتلون الشجعان الذي سقطوا في أرض المعارك. كما تروي الأساطير السكندنافية عن النورنير اللواتي يقررن مصائر الناس». وتجلس هؤلاء عند الينبوع تحت شجرة الدردار ايغدراسيل يقطعن الرونات ويجهزن القرعة للبشر. أسماؤهن هي أورد، وفردانـدي، وسكولد، أي «المصير» و «الصيرورة»، و «الواجب».

وتسكن في واحد من المساكن السماوية كائنات تدعى الألفيس المنيرة، التي ...
مظهر اجمل من الشمس، وتعيش في الأرض الألفيس القاتمة التي لها لون «أكثر سوادًا من
القطران».

ولكن الآلهة الذين عبدهم البشر لم يدخلوا عداد هذه المجموعة. فاودين، ونـ...
وفريير، وفريا، وخاصة لوكي كانوا بالنسبة إليهم شخصيات لامعة لا تدانيها شخصيات
اخرى.

وهكذا تألفت المجامع الإلهية عند كل شعب من شتى الكائنات الميثولوجية على
اختلاف أشكالها، وكان يرئس كل مجمع إله أعلى، أو حتى سلالة ملكية إلهية كاملة



أنوبيس

الإله الرئيس في مملكة الأموات عند المصريين القدماء

انتقل دوره فيما بعد إلى أوزيريس، لكن أنوبيس بقي راعي التحنيط والأضرحة.

رسموه في صورة ابن آوى أسود اللون، أو في صورة كلب، أو في صورة إنسان له رأس ابن آوى؛ وقد دعي مركز عبادته باسم كينوبوليس، أي مدينة الكلاب

من المفترض أن يكون واضحاً لقارئي الكريم أن الاحاطة بكل هذا التنوع الغريب من الآلهة الذين لهم حضور في أساطير مختلف الشعوب، لهو أمر مستحيل. ومن البدهي أن يكون كل من الكهنة، والحكام، والفلاسفة، والشعراء والناس العاديين قد رأى، أو بمعنى أدق تصور إلهه بصور مختلفة. ضف إلى ذلك أن الإله عينه كان يمكن أن يدرك بصفته قانوناً كونياً مبهماً لا صيغة له ولا شكل، أو كائناً سماوياً يشبه الإنسان. وقد تعايشت وجهات النظر هذه بسلام في المجتمع القديم ثم في وريثه المباشر المجتمع التقليدي، وكمل كل منها الآخر دون أن يثير تناقضها الظاهري حيرة أحد. ففي مصر القديمة مثلاً صوروا الإله في صورة إله أحياناً، وفي صورة صقر أحياناً أخرى، وفي صورة هر أحياناً ثالثة، أو في صورة ساكن آخر من سكان الطبيعة. صوروه كذلك إنساناً له رأس صقر، أو هر، أو.. وعلى المنوال عينه تخيلوا السماء في تارة، وبقرة تارة أخرى، وامرأة تارة ثالثة. كما توجهوا إلى الشجرة بصفتها شجرة حيناً وبصفتها إلهة الشجرة حيناً آخر، ولم يكن ثمة تناقض قط في هذا بالنسبة للمصري المؤمن.

وينشأ انطباع أحياناً أن المصريين قد اشبعوا آلهتهم إنسانية، ويهيأ أحياناً أخرى أنهم رأوا في كل حيوان إلهاً. وقد تشعر لدى تعرفك على الآلهة المصريين أن الهلوسة تستحوذ عليك. ويبدو أنه ليس عبثاً أن أذهلت الديانة المصرية الإغريق القدماء بغرابتها الفريدة. وعلى الرغم من أنهم كانوا يكنون للمصريين احتراماً أكثر من كل الشعوب الأخرى التي عرفوها، إلا أنهم عجزوا مع ذلك عن فهم كيف يمكن لهؤلاء الناس الحكماء أن يسجدوا للثيران، والهررة، والأكباش، والتماسيح ويروا فيها آلهة تعبد. ومن المعروف أن هؤلاء الآلهة لم يرتدوا إهاباً بشرياً إلا في زمن متأخر.

وواقع الحال، هو أن صلات الآلهة المصريين بعالم الطبيعة بادية بوضوح كبير، ولذلك عبدهم المصريون إما في ظاهرات الطبيعة كلها، أو في ظاهرات مختارة. وبما أنهم عبدوهم في هذه الصور عينها، فقد صوروهم بها نفسها. فصوّروا الشمس مثلاً في صورة قرص أحمر تارة، أو في صورة قرص له جناحا حدأة تارة أخرى، أو في حلقة من جسد كوبرا تارة ثالثة، أو في صورة صقر طائر تارة رابعة، أو في صورة جعل، أو طفل جالس على عجل، أو طفل يخرج من زهرة لوتوس. ويجب أن نضيف إلى هذا أن الإله الشمس كان يبحر نهاراً في مركب نهاري،

وليلاً في مركب ليلي، عدا عن أنه كان يغير صورته دائماً. وعليه كيف يمكننا بعد هذا كله ألا تعجب برحابة الخيال الديني للمصريين القدماء!

ولا تقل لوحة المجمع الهندوسي رحابة عن لوحة المجمع المصري. فالديانة الهندية ذكرت كارل يونغ، عالم النفس الذي اهتم بديانات الشرق، ذكرته بالمعبد البوذي أو بيت النمل يبدو الآلهة فيه كالنمل يصعدون واحد إثر الآخر إلى فوق ولا يبقى تحت سوى الفيل، أما أعلاها فعليها زهرة اللوتوس المجردة وحسب. ومن المفيد أن نضيف إلى هذا أن بعض الشخصيات الإلهية فقد مع الوقت صورته المرئية وتحول إلى أفكار فلسفية.

ونحن يمكننا أن نفهم يونغ الذي اعتاد على آلهة المسيحية واليهودية، فآلهة الهند كانوا مختلفين تماماً إن من حيث الشكل أو من حيث السلوك. ولنأخذ على سبيل المثال واحداً من آلهة الهندوسية الكبار، فيشنو. فغالباً ما يصور هذا الإله مستلقياً يغفو على الثعبان شيشو ذي الألف رأس، الذي يعوم حلقات في مياه المحيط الكوني. وينطوي هذا الإله النائم على العالم إبان الطور الفاصل بين هلاك معمورة وولادة أخرى. من سرته ينبت كم اللوتوس وفي هذا الأخير يولد براهما الخالق الذي يصنع العوالم. ويصحو فيشنو بعد كل خلق جديد ليحكم العالم من أعالي السماء، من واحد من عوالم الجنة يدعى وايكونتها. وفي وايكونتها هذا يستوي فيشنو على عرش كزهرة اللوتوس يبرق ببهاء يخطف البصر؛ ويقوم العرش نفسه في قصر ذهبي بديع تحيط به وديان خمس بحيرات تتلألأ فيها زهور اللوتوس زرقاء، وبيضاء، وحمراء.

ولكن عندما ترزح الأرض، وهي الكائن الحي الأم، تحت وطأة البشر الذين يطأونها ويضنون جسدها، يرتدي فيشنو «بزة» جسدية لأي كائن حي وينزل إلى الأرض ليخفف عنها وطأة الحمل الذي تحمله. وقد دعيت نزولات فيشنو هذه: أفاتارات. واشتهر منها الكثير. لكن العدد المعترف به قانوناً، هو عشر أفاتارات: السمكة- ماتسيا، والسلحفاة- كورما، والخنزير البري- واراها، والإنسان- الأسد ناراسيمها، والقزم فامانا، وبارا شوراما، وراما، وكريشنا، وبوذا، وكالكي.

لقد اتخذ فيشنو مظهر السمكة- ماتسيا في أثناء الطوفان الأعظم وأنقذ بذلك مانو الذي غدا مؤسس البشرية الهندية. وفي أثناء الطوفان ضاع كثير من الأشياء الثمينة، بما فيها شراب الخلود امريتا، الذي كان يساعد الآلهة في المحافظة على شبابهم الأبدي. وبعد أن عزم فيشنو على مد يد المساعدة للآلهة تحول إلى سلحفاة مهولة وغاص إلى قاع المحيط الكوني. فرفع الآلهة جبل ماندارا ووضعوه على ظهره، ولفوا حول الجبل الثعبان فاسوكي ثم أمسك الآلهة والآسورا بالثعبان من رأسه وذيله وشرعوا يمخضون المحيط، أما فيشنو فقد ثبت الحبل

جيداً كي لا ينهار إلى قاع المحيط. وحين تم الحصول على المشروب السحري المشهور وقع الخلاف بين الآلهة والآسورا على الحق في امتلاكه. ولكن ها هو فيشنو يهب مرة أخرى لمساعدة الآلهة، فاتخذ صورة الحسناء السماوية الآسرة موهيني التي سحر جمالها الآلهة والآسورا على حد سواء؛ فقسمتهم إلى فريقين جلس كل فريق في مكان، وقدمت الشراب إلى الآلهة؛ وإذ جاء دور الآسورا أختفت الحسناء بغمضة عين ومعها الشراب.

وفي المرة الثالثة نزل فيشنو إلى الأرض في صورة خنزير بري. وقد حدث ذلك حينما نجح العفريت هيرا نياكشا أن يحصل بمآثر الزهد التي حققها على الحصانة لنفسه بحيث لا يقهره أي إله، أو إنسان، أو وحش. ولكن هيرانياكشا نسي أن يذكر الخنزير البري بين الحيوانات التي ذكرها في التعويذة. وبعد أن امتلك العفريت تلك القوة القاهرة، أخذ يتفاخر بها، ويضايق الآلهة والبشر. ووصل به الغرور إلى درجة أنه دفع الأرض إلى أعماق المحيط الكوني. وعندئذ تأتّى للخنزير- فيشنو العملاق أن يرفع الأرض من هناك ويضعها في مكانها، بعد أن كان قد مزق بطن العفريت بأنيابه.

ثم كان لفيشنو لقاء رابع مع العفاريت، وفي هذه المرة كان خصمه هو العفريت هيرانيا كاشيبو. فقد نجح هذا بدوره أن يحصل من الإله الأعلى براهما على وعد بألا يستطيع أي كان أن يلحق الهزيمة به: إلهاً كان أم إنساناً أم وحشاً، ولا يقتله أحد نهاراً أو ليلاً، في داخل البيت أو خارجه. ولما أحس هيرانياكاشيبو بسلطته المطلقة وعدم مسؤوليته عن أي فعل يأتي به، أخذ يضطهد الناس والآلهة دون وازع من ضمير، وأرغم جميع من في مملكته على عبادته وحده فقط. ووصل به التعسف حد اضطهاد ابنه براهلادا العابد المخلص لفيشنو. ومرة أخذ براهلادا يتوسل العون من إله لينقذه من أذى والده المسعور، فاستجيب دعاؤه. فلحظة الغسق (أي لا في النهار ولا في الليل)، وعلى عتبة المنزل (أي لا داخل المنزل ولا خارجه)، ظهر كائن غريب ليس له مثيل، هو ناراسيمها: نصفه بشر ونصفه الآخر أسد (أي ليس إلهاً ولا وحشاً ولا إنساناً)، فمزق العفريت المتجبر المغرور.

وفي المرة الخامسة نزل فيشنو إلى الأرض في صورة القزم فامانا، عندما اغتصب العفريت الشرير بالي السلطة على الكون كلّه. فقد أقام بالي متنسكاً زاهداً متقشفاً، فاكتسب بذلك قوى لا مثيل لها من قبل وسلطة مطلقة على العوالم الثلاثة، فخضع لسلطته البشر، والآلهة وباقي الكائنات الأخرى. وابتهل الآلهة متوسلين عون فيشنو، فاتخذ هذا هيئة قزم ومضى إلى بالي يستعطيه حسنة. وقد عرض العفريت على فامانا ذهباً وفضة وحجارة كريمة، وفيلة قوية، وجياداً عداءة، وأشياء أخرى كثيرة. لكن القزم رفض هذا كلّه وطلب من العفريت قليلاً من الأرض، فقط ما يستطيع القزم أن يغطيه منها بخطوات ثلاث. ووافق

بالي دون تردد، فما الذي يمكن أن يقطعه قزم بثلاث خطوات؟! بيد أن القزم أخذ يكبر أمام عيني بالي حتى صار إلى عملاق مهول غطى الأرض والسماء وما بينهما بخطوتين، وعبر في الثالثة تاركاً العالم السفلي لبالي، إلا أنه أذن له أن يزور مملكته المفقودة مرة كل عام.

واتخذ فيشنو في المرة السادسة صورة باراشوراما، أي راما الحامل الفأس وكان ابناً لجاما داغنا والأميرة رينوكي، وقد كان والده من أتباع براهما الورعين وتميز راما منذ طفولته بروح قتالية يقظة ولم يفارق الفأس لحظة واحدة. ونزولاً عند إرادة والده لم يتردد باراشوراما لحظة واحدة في قطع رأس والدته التي اتهمت بنواياها الشريرة. كما قتل الملك كارتافيريا ذا الأيدي الألف، الذي اغتصب السلطة على الكون واضطهد أتباع براهما بدون رحمة. ولما قتل أبناء كارتافيريا جاما داغنا، قام باراشوراما يثأر لمقتل والده، فقتل رجال فئة قتلة والده كلهم ثلاث مرات مكررة سبع مرات، وملأ بدمائهم خمس بحيرات في حقل كوروكشيترا.

ولكن أكثر أفاتارات فيشنو شهرة، هي أفاتارا راما، وأفاتارا كريشنا. ويعد راما، وهو أمير من مدينة آيودها، البطل الرئيس «للرامايانا»، ملحمة الهندوس المقدسة. لقد عاش راما مع أخيه لاكشيمانا، وزوجته سيتا حياة زهد وتقشف في الغابة حيث قضى هناك على كثرة من العفاريت الذين كانوا ينتهكون سكينة النساك، والسكان المحليين. فعزم العفريت رافانا على أن ينتقم من راما لمقتل أقاربه، وخطف زوجته سيتا غدراً. وقد بحث راما طويلاً عن زوجته المخطوفة، وجاب الكون كله إلى أن اكتشف أخيراً أنها حبيسة في قصر رافانا، فخاض ضده معركة دموية ضارية، لكنه فشل في تحرير زوجته.

ومن الشخصيات الأخرى الأكثر تحبباً، شخصية الراعي البطل كريشنا، وهو في الوقت عينه حوذي ارجونا ومرشده. وارجونا هذا هو أحد أبطال المحملة المقدسة الأخرى عند الهنود «مها بها راتا». والمعنى الحرفي لاسم كريشنا، هو «الأسود»؛ والواقع أنهم غالباً ما يصورونه ذا بشرة لونها قاتم: طفلاً ساحراً، أو فتى جذاباً يعزف على المزمار أو يمرح مع الراعيات.

ويروى عنه في الأساطير، أنه كان يحكم في وقت ما ملك شرير ظالم مدينة ماتوهرا الواقعة على ضفة نهر جامنا، وكان الملك يدعى كانسا؛ وهو ابن عم ديفاكي والدة كريشنا. وكان المتنبئون قد تنبأوا لكانسا أنه مقدر له أن يموت بيد الابن الثامن الذي تنجبه ديفاكي، ولذلك عزم كانسا على أن يقتل كل أبناء ديفاكي. ولكن فاسوديفا والد كريشنا أنقذه من بطش كانسا وحمله إلى الراعي ناندا وزوجته ياشودا ليربيانه. لقد كان كريشنا في طفولته ولداً يهوى اللعب، لكن هذا لم يمنعه من تحقيق المعجزات: قتل العفاريت

وحماية الرعاة من العواصف برفع جبل هوفارد هانو على إصبعه وحمله كالمظلة إلى أن تنتهي العاصفة. وفي صباه الذي قضاه في غابات فريندافان، اشتهر كريشنا بمغامرات العشق التي خاضها مع الراعيات- هوبي، اللواتي سحرتهن أنغام مزماره. لقد أغرمت الراعيات كلهن به ولم يبخل هو بدوره عليهن بحبه. لقد أحب كريشنا الرقص: كان مع معشوقته رادها في حلقة الراعيات، وفي غضون ذلك كانت كل منهن تعتقد أن كريشنا يراقصها هي بالذات

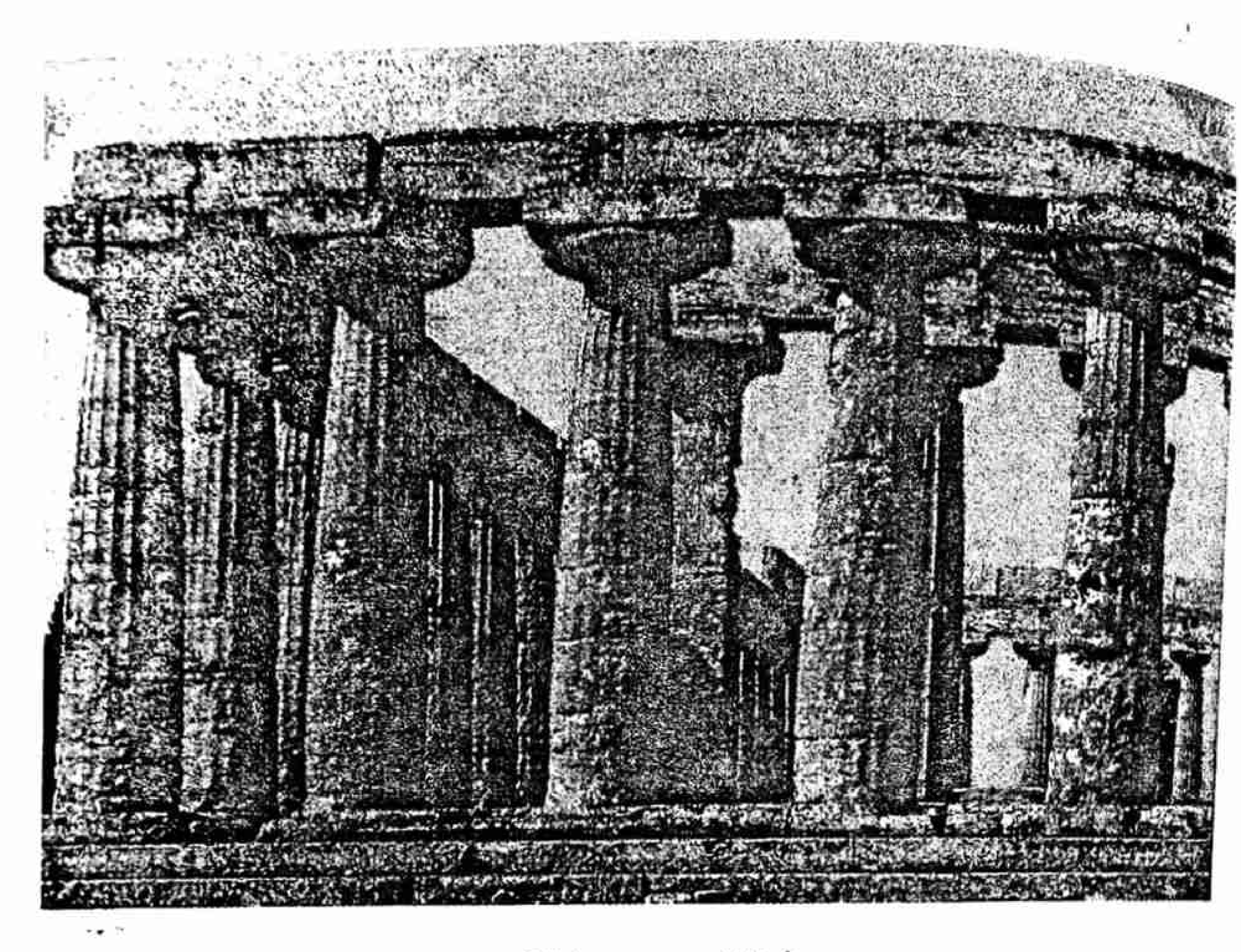
ثم تأتي لكريشنا أن يخوض صراعاً ضدّ كانسا الشرير، فقهره وامتلك ماتهورا وحقق بعد ذلك انتصارات شتى على مختلف الحكام والعفاريت المفسدين في الأرض.

أما أفاتارا فيشنو التاسعة فهو البوذا شاكياموني الذي أسس الديانة الهندية الثانية التي تحولت إلى ديانة عالمية. ولكن أفاتارته العاشرة: كالكي الفارس على حصان أبيض، لن تظهر إلا في الزمن المقبل. فمجيئه منتظر في آخر هذه الكالي- يوغا القاتمة.

ويعبد الفيشنويون فيشنو في أفاتاراته العشر كلها، كما يعبدونه في مظاهره الكثيرة الأخرى: كرمز مجرد تارة، ورب للعالم تارة أخرى، وأب، أو معشوق، أو طفل، أو شقيق. إذن تتنوع كثيراً صيغ عبادة الآلهة، بدءاً من التأمل وترديد مقاطع أسمائهم، حتى طلاء الجسد بالرماد أو السخَام، أو حتى تقليد نهيق الحمير. ويسجدون للتجلي الإلهي في كتاب، أو علامة، أو موجودات الطبيعة، أو صوت، أو نفس، أو صمت. فلكل حريته في اختيار الطريق التي يرى أنها أقرب إلى الإله، وهي لن تكون طريقاً أفضل أو أسوأ من سواها من الطرق الأخرى.

وعلى وجه العموم فإن الآلهة الهنود يعيشون عيشة تشبه عيشة البشر. فلكل منهم عائلته المؤلفة من زوجة إلهية، وأبناء إلهيين، وكان الهنود يتعبدون هؤلاء كلهم بالصلوات والتقدمات. فاحد أبناء شيفا مثلاً، هو الإله غانيشا: إله له رأس فيل، طيب وودود، يتنقَل راكباً على الفئران، وقد أحب الهنود كلهم هذا الإله السمين الذي يزيح العقبات من الدرب. ولذلك كانوا قبيل البدء بأي عمل كان، يرفعون إليه الصلوات ويقدمون له الورود وشيئاً من الحلوى؛ فكلهم يعرف أن غانيشا شديد الولع بالحلوى.

ولشيفا ابن آخر، هو الإله سكاندا ذو الرؤوس الست، الدائم الشباب والإله البديع الذي أحبه سكان جنوبي الهند خاصة، أما زوجة شيفا الإلهية التي تدعى كالي، ودورغا، وبارفاتي وسوى ذلك من الأسماء الأخرى، فهي تستطيع أن تتخذ وجهاً طيباً وتكون إلهة رحيمة متعاطفة مع البشر؛ ولكنها قد تكون غضوبة رهيبة تدمر كل ما في طريقها. وفي هذه الحالة تضع الإلهة على عنقها عقداً من الجماجم، وتتسلح بالحربة الثلاثية أو بأي سلاح آخر، وتغدو قادرة على إزالة أي عقبة كانت حتى لو كانت هذه قلعة أو منزلاً أو عفريتاً.



. أطلال معبد هيرا القديم

كانت قافلة الأعمد أشهر أجزاء المعبد.

وكان نصف قطرها نصف سماكتها يساوي المقياس الذي يقوم عليه المبنى كله، ولذلك كانت معرفة هذا المقياس كافية تماماً لتحديد أدق مقاييس المعبد كله

حسب الأساطير أن الآلهة كانوا حاضرين دوماً، وشاركوا مشاركة نشطة وفعالة في ميادين الحياة البشرية كلها. فالوصايا، والمعايير، والمحرمات الدينية تكاد تطال كل خطوة من خطوات الإنسان. وإذا عدنا إلى «تقويم الفلاح» السومري، الذي دون في الألف ٢ ق.م، لأمكننا أن نقرأ فيه تعليمات من مثل: «حينما يظهر الزرع عبر سطح الأرض، ترفع الصلوات إلى الإلهة نينكيليم، وعندئذٍ سوف يقف إلهك دوماً إلى جانبك».

ولا شك في أن مثل هذا التواصل الوثيق بين الإلهي والإنساني كان أمراً طبيعياً جداً، لأن الأسطورة هي التي كانت تعتمد وجود الإنسان نفسه في العالم وتقرّه. لقد كان العالم السماوي، عالم الآلهة، والعالم الأرضي، عالم البشر، مرتبطين بعضهما مع بعض ارتباطاً لا تنفصم عراه، تماماً كارتباط قمة الشجرة الكونية بجذعها، أو قمة الجبل الكوني بمنحدراته.

لقد كان الإنسان القديم يؤمن دائماً أن له إلهاً يحميه أو روحاً تدافع عنه، بل كان يؤمن أنه ثمة أكثر من إله وأكثر من روح. وكان الإله المعني يدعى أحياناً «إلهاً شخصياً». ويؤدي هذا الدور في غالب الأحيان واحد من الشخصيات الميثولوجية في المجمع: كان الإله نينجيشزيدا على سبيل المثال، هو الإله الشخصي لحاكم مدينة لاغاش في وادي الرافدين. فتعبير «يملك إلهاً» كان يماثل بالنسبة لإنسان وادي الرافدين، تعبير «إنه شخص سعيد» في وقتنا هذا. لقد رأوا أن الإله الشخصي يشارك مباشرة في حياة الإنسان، بدءاً من لحظة مجيئة إلى الدنيا حتى لحظة رحيله عنها، يعتني به تماماً كما ينبغي على الوالد أن يهتم بولده. وإذا ما وقع الشخص المعني في مأزق أو ضيق أو حلت به بلية، يكتب لإلهه الشخصي رسالة؛ وقد كتب أحدهم واحدة منها يقول فيها: «خبّر إلهي، أبي! هكذا يقول أبيل- اداد، عبدك: لماذا أنت تتجاهلني؟ ومن سيعطيك شخصاً آخر مثلي أنا؟ أكتب للإله مردوك الذي يحبك: فليسامحني على آثامي. إني أرى وجهك، وأقبّل قدميك. وانظر إلى عائلتي إلى الصغار والكبار. ارحمني لأجلهم. وليأتني عونك ويصل إلي».

ولكن عدا عن الحياة اليومية، كان هناك وقت خاص ومكان خاص عدوا أن الإنسان يتواصل فيهما مع الآلهة تواصلاً مباشراً. وكان هذا هو الطقس الذي يؤدى دورياً إما في باحة خاصة أو في المعبد. ومن المهم أن نعرف أن الطقس يكاد يمثل في العالم القديم عصب الحياة الأساس، ولذلك كرسوا له كثيراً من الوقت وصل في بعض الأحيان إلى نصف العام.

وكما الآلهة كذلك المعابد تنوعت تنوعاً كبيراً عند مختلف الشعوب. وتمايزت بدورها صيغ تواصل الناس مع الآلهة. ولكن بصرف النظر عن اختلاف الصيغ، والأساليب، والوسائل، والمكان والزمان، إلا أن شيئاً ما مشتركاً كان يجمع بين هذا كله: لقد كانت تلك أمكنة افترضوا أن الحقيقة المقدسة يمكن أن تظهر فيها. فابتداء من أبسط أشكال المعابد: شجرة يحيط بها سياج مثلاً، وانتهاء بالمعابد المعاصرة التي تتميز بفخامة معمارية راقية، كان ثمة صلة عميقة متواصلة متعاقبة تجمع بين مختلف مراحل تطورها.

لقد اعتقدوا أن الإله يمثل أمام الإنسان في صورة معينة، مصنوعة من حجر، أو خشب، أو أي مادة أخرى. ومن البدهي أن الإله بقي هو نفسه ولم يندغم بالشكل الذي أتخذه. ولكن كيف كان يمكنه أن يتجلى للإنسان بشكل آخر؟ وها هو يختار لظهوره أشكالاً مختلفة فالناس في آخر الأمر يرتدون ثياباً مختلفة ويعيشون في منازل متمايزة. فلما لا يظهر هو أيضاً في صور متنوعة، ويعيش في معابد متعددة؟ لقد رأوا في الوثن، والصنم، وكل صورة أخرى من صور الإله، كائناً حياً، لكنه لم يندغم اندغاماً تاماً بالإله، الذي كان يتجسد في الصنم وحسب، يسكن روحه فيه. ففي واحدة من أساطير الخلق المصرية القديمة، بالتحديد في تنويعتها المفيسية، أن بتاح «أنجب الآلهة» ووضعهم في المعابد، وكان في غضون ذلك قد «صنع أجسادهم وفق رغبة قلب كل منهم. ودخل الآلهة أجسادهم المصنوعة من كل شجرة، وكل حجر، وكل طين، وكل الأشياء التي نمت عليها والتي اتخذوها صوراً لهم».

ويفسر لنا هذا الموقف من صور الآلهة كثيراً مما رأيناه غريباً في التاريخ القديم: أسر أصنام العدو المهزوم مثلاً. فلم ينس الملك الحثي حاتوسيلي الأول عندما وصف حملته، أن ينوه إلى أنه لم يكتف بتدمير مدينة العدو، بل أخذ آلهته وأعطاهم لإله مدينة أرينا. أما الملك الفارسي قورش الثاني فقد رأى إنه محق تماماً إذ اتهم الملك البابلي نابونيد بأنه «أزال الأصنام القديمة للآلهة» وأعاد هو نفسه أولئك الآلهة إلى مساكنهم السابقة، إلى المعابد التي يرتاحون فيها، ثم يضيف قورش قائلاً: «فليصلوا الآن لبل، ونابو كي يطيل عمري».

لقد كان الإله يشعر في المعبد، أيّ في «بيت الإله»، كأنه في بيته؛ فقد عاش فيه مثلما كان يعيش الملوك والأمراء، يخدمه الكهنة ويعتنون به: يوقظونه صباحاً ويغسلونه، ثم

يطريونه بإنشاد الأناشيد، وغناء الأغاني، وتأدية الألحان؛ وفي الأزمنة القديمة استخدم بعض الشعوب راقصات معبديات لإيقاظ الآلهة. وبعد ذلك يقدمون الطعام للإله. ثم تبدأ إقامة الطقوس المعبدية التي تستمرّ النهار كله. وحين يهبط الليل «يضجعون» الإله في سريره لينام. وفي بعض الأحيان كانت زوجته الإلهية تقاسمه السرير. وقد تحوّلت هذه المراسم كلها مع الزمن إلى طقس معقّد لا يزال يقام في بعض البلدان يومياً بتفاصيله كلها.

وكانت الصلاة على مر الزمن واحدة من صيغ التواصل مع الإله، لكنها كانت تؤدى بأشكال اختلفت من شعب لآخر. فالإغريقي القديم كان يقف ووجهه نحو الإله، فيرفع يديه نحوه، ويتوسله، ويمجده، ثم يطلب حاجته، وبعد ذلك يعده بأن يرد له الجميل إذا لبّى له مطلبه. وعلى وجه العموم كان الإنسان القديم يخاطب الإله كما يخاطب الإنسان. وإذا كان في المعبد فإنه يرفع يديه نحو صورة الإله. أما إذا رفع صلواته لآلهة السماء، فإنه كان يمد يديه نحو السماء، وإذا رفعها لآلهة الأنهار يغطس يديه في الماء، وإذا أدى الصلاة لآلهة الأرض أو آلهة العالم السفلي، فإنه كان يدق يديه بالأرض.

ويعد طقس القربان، أي تقديم الضيافة للإله، واحداً من أهم الطقوس عند الشعوب كلها. فكيف كان يؤدى في اليونان القديمة نفسها مثلاً؟ لقد كانت تقوم أمام المعبد، أو في أي مكان آخر منه، وفي الباحات، ومفارق الدروب، مذابح، أي موائد الآلهة. وقد تكون هذه من الحجر أو من الخشب، وقد تكون كبيرة أو صغيرة. وعلى مثل هذه الموائد كانت تقدم القرابين، ولكنهم كانوا قبل ذلك يقومون بإجراءات تنظيفها: يضعون جمرة ملتهبة في قدر مليء ماء، ثم يغسلون أيديهم في ذلك الماء. وبعد ذلك يقودون الذبيحة إلى المذبح، وقد تكون هذه شاة، أو معزاة، أو ثوراً، أو خنزيراً. فينضحونها ماء ويرمون عليها الحبوب ثم يصعقونها بضربة هراوة قوية وينحرونها بسرعة. وبعدئذٍ يبدأون إعداد الضيافة للإله: يسلخون جلد الذبيحة، ويقطعون أفضل أجزائها، ويغلفونها بالأحشاء، ثم يحرقون هذا كله على المذبح فيصعد الدخان نحو السماء، ويغدو بمقدور الإله أن يتلذذ بالذبيحة. لكن ذبائح آلهة العالم السفلي كانت تقدم بطريقة مغايرة: كانت تنحر في الأرض. وبعد أن يعطى الإله نصيبه من لحم الذبيحة، يتناول الحاضرون ما بقي منها في وليمة معدة، وهكذا كان هؤلاء يشعرون أنهم شاركوا الآلهة الوليمة.

وإذا كانت مذابح الأبطال القدماء بسيطة نسبياً. فإنها عند الهنود القدماء تميزت بفخامتها وبهائها ورمزيتها العميقة الدلالة. بل حتى بناء هذه المذابح والمراسم التي كانت ترافقه، شكّلا طقساً طويلاً ومعقداً. فقد استمر طقس بناء مذبح إله النار اغني نحو العام،

وتضمن كثرة من الإجراءات التي تستعيد كوسموغونيا الكون (= نشوء الكون. م). ومنها خلط الطين بطريقة خاصة، وإعداد الآجر، والحفاظ على النار متقدة في قدر طقسي خاص، وما شابه من الإجراءات. وقبل بدء عملية البناء قدموا ذبائح حيوانية، ودفنوا رؤوس هذه الحيوانات في أسس المذبح، ورموا أجسادها في الماء الذي خلطوا به الطين الذي صنعوا الأجر منه. وقد بلغ عدد الآجر اللازم لبناء المذبح المعني، حسب التعليمات الطقوسية، ١٠٨٠٠ أجرة بالتمام والكمال، وكان كل من هذه الإجرّات يتلقّى اسمه ومغزاه الرمزي، كما كان يجب أن يوضع بطريقة محددة.

لقد كان الناس على ثقة تامة أنهم أثناء إقامة الطقس، يؤدون الأفعال عينها التي كان قد أداها الآلهة في الأزمنة البدئية، وهي الأفعال التي وصفتها الأساطير؛ وبذا أحس هؤلاء أنهم يشاركون الآلهة العمل عينه. وفي أحيان كثيرة كان الطقس كأنه يمسرح الأسطورة: يستعيد عبر الحركة، والكلمة، والإيماءة كل ما تحدثت عنه الأسطورة. وبهذا كانت القيمة الأبدية للأسطورة تتأكد دوماً بالأفعال الطقوسية، التي يظهر كأن الإنسان يلغي في أثنائها رتابة الحياة اليومية، ويدخل عالم الآلهة، والأبطال، والأسلاف. وبما أن الطقس يكرر دورياً ما كان وقع في زمن الأحلام، فإنّ هذا بحد ذاته يضيف إلى حياة الإنسان شيئاً ما مقدساً، ثابتاً، أبدياً. وهذا ما أعانه على أن يصمد أمام صعوبات الحياة اليومية ويواجهها. وهكذا تحولت الأسطورة إلى نمط للمحاكاة، وصار الإنسان بفضلها إلى خالق لحياته في أقل تقدير.

وبفضل الأسطورة والطقس أقام الإنسان علاقات حوار مع العالم، أما العالم فقد تكشف أمام الإنسان بصفته خلقاً إلهياً، و «خاطبه» بلغة الرموز التي حملتها الأساطير. ولكن كيف كان موقف الآلهة من الناس؟ لا يمكن القول إنه كان موقفاً عدائياً، أو ودياً، أو لا مبالياً خاصة في الأزمنة المبكرة. وعلى وجه العموم كان سلوك الآلهة حسب الأساطير مماثلاً تقريباً لسلوك الناس: لقد عرفوا حالات الضعف البشري نفسها، وتقلب الأمزجة والمواقف، وما إلى ذلك. ومنهم من كان طيباً ونبيلاً، ولكن كان بينهم أيضاً السافل والجلاد.

ومن الأمثلة الساطعة التي تدل على أن الآلهة القديمة: في مصر على سبيل المثال، لم تكن بعيدة عما هو إنساني، مثال سلوكهم «البشري» الصرف في مشهد محكمة الآلهة. ففي أثناء الاستماع إلى القضية المعروضة على هيئة المحكمة، يقفز الإله الأصغر من مكانه ويصرخ بإهانات موجهة إلى الإله الذي يرئس الهيئة: «إن محرابك فارغ!». ومن الواضح أنه لا يمكن ابتكار إهانة أسوأ بالنسبة لإله، فما بالك وهو الأكبر. وقد أحس هذا أنه أهين

بعمق: استلقى على ظهره و «وكان قلبه حزيناً جداً جداً». فاضطر الآلهة إلى الاستعـ
وأمضى الإله العظيم يومه مستلقياً على ظهره، و «كان قلبه حزيناً جداً جداً. وكان وحيد
وأخذ الآلهة يبحثون عن طريقة لإصلاح الحال. وأقروا أخيراً أن يبعثوا إليه بإلهة الحب فتعرت
هذه أمامه وكشفت له عن مفاتنها، فابتسم وسُرّ، وتحسن مزاجه بشكل واضح، وعاد
جلسته مع الآلهة، وتابعت المحكمة عملها.

ولكن بما أن الآلهة يشبهون البشر، لذلك ليس غريباً أن يخاطبهم هؤلاء بعبارات ليست
لائقة بمقامهم الإلهي. فهناك نصوص لا نقرأ فيها أي عبارات تمجيد، أو تبجيل، أو توسل
ففيها يذكر المصلي الإله بطريقة عملية مباشرة بما فعله لأجلهم، ويهدد الذين لا يخفون منهم
لرد الجميل له. ومن هذه النصوص، نص مصري قديم كتب لملك متوفى، يحتوي مقطعاً تحت
عنوان «نشيد آكل اللحم البشري»، يتوعد الميت فيه أنه سوف يلتهم كل من يصادفه في
طريقه، سواء كان هذا إلهاً أو إنساناً. ولكن مثل هذه الحالات ليس معروفاً إلا في الحقب
المبكرة من التاريخ القديم؛ أما فيما بعد فقد امتد بون شاسع جداً بين الإنسان الصغير
الضعيف والإله الكلي القدرة. بيد أن هذا لم يحصل فوراً، ولم تعرفه الشعوب كلها.

الباب التاسع

في غبار الدروب

كيف ظهر أسلافنا الأوائل و لماذا؟



رأس نسائية برونزية

من إيفا . نيجيريا، القرن الثاني عشر الميلادي

حسب أساطير بعض الشعوب غالباً ما يختلف منشأ المرأة عن منشأ الرجل.

فهي تصنع من مادة تختلف عن المادة التي يصنع هو منها.

بعد أن انفصلت الأرض عن السماء وزودت بأسباب البقاء، أي ظهرت عليها الجبال، والأنهار، والأعشاب، والشجر، والطيور، والحيوانات، والأسماك، بعد هذا كله بات العالم مبنياً وهادئاً: لم يكن الإنسان قد ظهر فيه بعد. لقد كان ظهور الإنسان على الأرض واحداً من الحلقات الختامية في عملية الخلق العظمى، وقد روت لنا الأساطير روايات مختلفة عن تلك العملية.

وتدعى الأساطير التي كرست لمحور ظهور الإنسان بالأساطير الانثريوغينية (من الكلمة الإغريقية «انثروبوس»، أي «إنسان»).

ولكن لماذا كان الآلهة بحاجة إلى الناس؟ لا تعطي الأساطير كلها تفسيراً للمقاصد الإلهية من خلق الإنسان، ومع ذلك ثمة فرضيات موجودة هنا وهناك.

ففي «رواية اتراحاسيس» البابلية القديمة التي تتحدث عن أزمنة قبيل الخلق مباشرة، نقرأ ما يلي:

إنهم هم الانوناكي السمايون
ألقوا إلى الايجيجي بعمل مضن
فشرع الآلهة يحفرون الأنهار.
حياة البلاد، وشقوا القنوات...
لم يكن قدر الآلهة الايجيجي هيناً:
عندما حمل الآلهة الأعباء،
كالبشر حملوا السلال،
وسلال الآلهة كبيرة كانت،
كان العمل شاقاً، والأعباء عظيمة...

حينئذ تمرد الآلهة الايجيجي ضد ظلم الآلهة العظام الانوناكي، الذين ألقوا بذلك العبء الثقيل على عاتقهم. وفي اجتماع الآلهة العظام اقترح اثنان من الانوناكي اسم وإينليل، خلق البشر: وليحمل هؤلاء هذا العبء الثقيل! إذن لقد خلق الإنسان ليخدم الآلهة غالباً بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة. ولكن جوهر الأمر يكمن هنا في أن الإنسان ألقى على عاتقه أعباء الآلهة، وقد تضمنت هذه من جملة ما تضمنت، الأفعال التي كانت تاديها ضرورية بالنسبة للإنسان نفسه: الحصول على القوت، وبناء المساكن، وبناء قنوات الري، وما شابه من الأعمال. وهكذا يتضح أن الآلهة بحاجة إلى البشر، كخدم في أقل تقدير. ومن جهة أخرى غالباً ما يظهر أن العالم خلق للإنسان كما للآلهة. فقد ورد في واحدة من أساطير الخلق المصرية القديمة، أن «الناس تحت الحماية، هم قطيع الإله، إنه هو رع خلق السماء والأرض حسب رغبتهم، رغبة البشر، ودمر خراب الماء، وصنع الهواء لكي تعيش أنوفهم». وهكذا منذ البدء نشأت بين الإنسان والإله علاقات ثنائية لم تكن علاقات بسيطة.

وتؤكد الأساطير الهندية بدورها على صلات الناس بالآلهة. فمؤسس الجنس البشري فيفاسفات ينتمي إلى أرومة مجيدة: لقد كان الابن الثامن لأديتي أم الآلهة القديمة. وولد فيفاسفات بغير يدين ورجلين، أملس من جوانبه كلها، وكان طوله يساوي بدانته لكن أخوته عدلوا صناعته، فأزالوا زوائده كلها، وهكذا خرج أب البشر إلى الوجود. وفيما بعد تحول فيفاسفات إلى إله شمسي.

ولكن كيف جاء أول البشر إلى الدنيا؟ لقد تركت لنا شعوب الأرض كلها تقريباً أساطير تروي قصة ظهور أوّل إنسان أو أول زوج بشري، وقد عرضت هذه الأساطير شتى ضروب الفرضيات عن ذلك الحدث، وكل فرضية تشدك إليها أكثر من الأخرى، إنها قصص ممتعة جداً. فالأساطير الطوطمية التي تركها الصيادون واللقطة، غالباً ما تحكي أن الإنسان لم يكن يتميز في زمن ما عن الحيوان في شيء، بل حتى جسده كان مغطى بالصوف كأجساد الحيوانات الأخرى، كما يرى السيكلوبيون السيبريون.

وفي بعض أساطير إفريقيا والتيبيت أن الإنسان يشبه أكثر ما يشبه القردة، غالباً السعلاة أو الشمبانزي.

إحدى الأساطير أن تساغان عاقب السعالي التي كانت من قبل بشراً.

ويروى في إحدى الأساطير أن تساغان عاقب السعالي التي كانت من قبل بشراً، فمسخها قردة لأنها قتلت ابنه، ثم أعاد الابن القتيل إلى الحياة من جديد: وضع عينه في الماء، فنما من العين طفل.

وعلى وجه العموم لا يجري الحديث في الأساطير الطوطمية عن نشوء البشر كلهم، وإنما عن مجموعة معينة تتحد مع طوطمها أو رمزه، وقد يتحد البشر والحيوانات في غضون ذلك بصفتهم نوعين مختلفين من البشر ينتميان إلى عوالم أخرى، ويحسن بنا أن نتذكر في هذا السياق أن النيفهيين عدوا الدب «إنساناً جبلياً».

وثمة مجموعة كاملة من الأساطير الانثربوغينية المبنية كقصة لا تتحدث عن خلق الإنسان أو أعضاء جسمه التي لكل منها مصيره المستقل، بل يحكى فيها عن خروجه من صفوف الكائنات الأخرى، أو عن تحول كائنات ما إلى بشر. ويقال في مثل هذه الأساطير أن كل شيء كان له في البدء شكل بشري: مختلف الكائنات والحيوانات، والشمس، والكواكب، والأشياء. والظاهرات كلها، لكن جميعهم فقد هذه الصورة ولم يحافظ عليها سوى الإنسان وحسب الميثولوجيا الصينية أن الحشرات- الطفيلية التي كانت تعيش على جسد الإنسان الكوني بان- غو هي التي تحولت إلى بشر.

ويروى في سلسلة أخرى من الأساطير عن تحرير الجنس البشري من عالم ما آخر كان محتجزاً فيه، وإطلاقه إلى العالم الأرضي.

وينتشر مثل هذا النوع من الأساطير عند كثير من شعوب أفريقيا وبعض قبائل الهنود الحمر في شمالي أمريكا. فالأفارقة على سبيل المثال، يعتقدون أن البشر الأوائل خرجوا من النمل الأبيض، أو من صخرة، أو من الأرض، أو من حفرة.

ويؤمن شعب الزولو إيماناً راسخاً إن سلفه المؤسس الأوّل اونكولونكو قد خرج من تحت الأرض. وظهر إلى الوجود من نبات القصب، ثم أطلق الشعوب كلها من هناك.

وحسب معتقد شعب إفريقي آخر، هو شعب إيضي، أن الإنسان الأوّل بوكو- بوكو خرج من الصخرة مع شقيقه بيفي. ويرى البوشمين أن البشر والحيوانات خرجوا من كهف كان عميقاً لدرجة أن آخره كان عند قاع العالم. وفي الأول عاش الناس والحيوانات في ذلك الكهف معاً. ولم تكن لهم حاجة للقوت، لأنهم لم يعرفوا الجوع يوماً. ولكن الكهف ما لبث

أن ضاق بهم، فبدأت المشاحنات والصراعات بينهم بسبب المكان. وقد ظهر في آخر الأمر أن الإنسان أكثر فطنة من الحيوان، إذ نجح في إخراجه من الكهف. بيد أن الكهف ضاق بالبشر أيضاً، فتركوه وخرجوا.

وحافظ الهنود الحمر الكوما على أسطورة تتحدث عن امرأتين علمتا أن بشراً يعيشون تحت الأرض، فحفرتا حفرة وأخرجتاهم من العالم السفلي إلى العالم الأرضي.

وتقول إحدى روايات الأسطورة السومرية، إن البشر كانوا ينمون في الأزمنة الغابرة كما تنمو الأعشاب تحت الأرض، إلى أن حفر الإله انكي بمعزقته ثقباً في الأرض فخرج الناس عبرها إلى فوق. ويعتقد البجم أن الرجل الأول صنعته عنكبوت، والمرأة الأولى صنعها الدلدل: لقد ضرب النمل الأبيض بغصن، فخرجت المرأة منه.

وعند بعض شعوب إفريقيا وسيبيريا أساطير تؤكد أن الناس خرجت من الشجرة في صورتها الكاملة. فيروي الغيريرو الأفارقة مثلاً، أن البشر الأوائل خرجوا من الشجرة الاومومبورونغا التي عدت والدتهم ووالدهم في الآن عينه، وعند السيكلوب أن الناس خرجت من شجرة البتولا، أما عند النيفهيين فقد خرج الإنسان من شجرة الشربين.

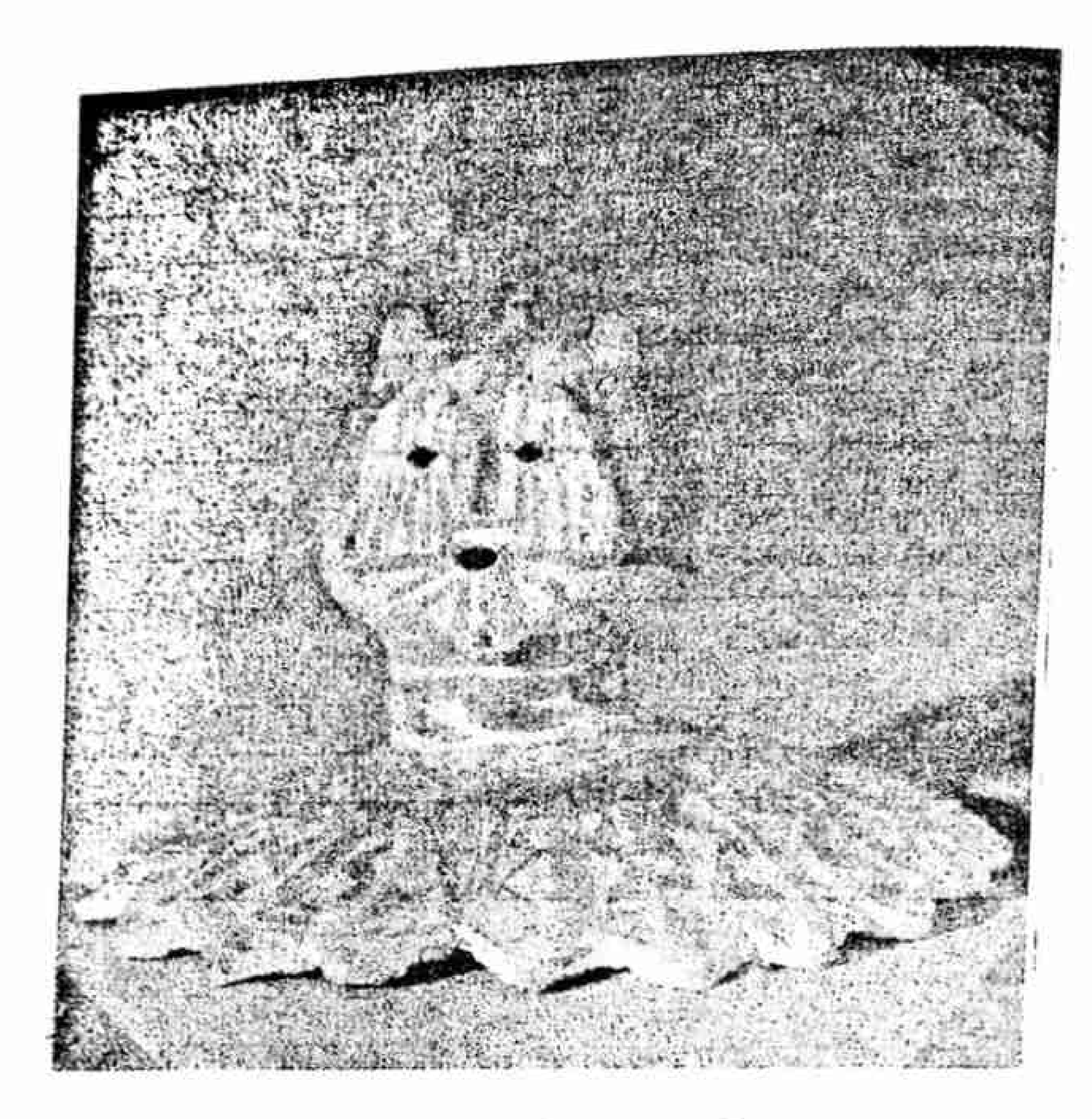
وقد يتحدثون أحياناً عن تجزيء كتلة شبه بشرية كانت متراصة من قبل.

فتعتقد قبيلة ارانـدا الاسترالية أنه كان ثمة كائنات تدعى اونغامبيكولا تعيش في السماء الغربية، ومعنى هذا الاسم نفسه: «الذين خرجوا من لا شيء»، أو «الموجودون بذاتهم». ورأى هؤلاء يوماً من عليائهم السماوي، كرات لا شكل لها، خثرات مجعدة ملقاة في الشرق على شواطئ «المياه المالحة». ولم يكن لتلك الخثرات- الكتل أجهزة إحساس، كما لم تكن تقتات شيئاً، لقد كانت مجرد كتل متماسكة لكائنات بشرية عمياء، ارتسمت عليها ملامح سكاكين حجرية. وبدأوا عملهم بتقويم أيدي تلك الكائنات وشق أربعة ثلوم في نهاية كل يد، فتكونت الأصابع. وعلى المنوال عينه شكلوا الأرجل وأصابعها. لقد بات بمقدور تلك الكتل أن تقف على أرجلها الآن. بعد ذلك شكل لها الاونغامبيكولا أنوفها وثقبوا ثقوبها بأصابعهم. ثم شقوا بسكاكينهم الحجرية فتحة الفم، وفتحتي العينين وفوقهما الجفنان. وقاموا ببعض الحركات الأخرى بتلك السكاكين فتشكل الرجل والمرأة. لقد كان كل من

تلك الخثرات ينتمي إلى نوع معين من أنواع النبات أو الحيوان. وبعد أن تحولت تلك الكتل إلى إنسان: رجل أم امرأة، بقيت مرتبطة إلى الأبد بنوع النبات أو الحيوان الذي خرجت منه والذي كان هو طوطمها.

ولكن كيفما ظهر البشر الأوائل، فإن مكان خلقهم كان دوماً في المركز المقدس، «سرة الأرض»، أي المكان الأكثر حيوية وواقعية، المكان المليء بطاقات الحياة. وهناك بالضبط في الجنة خلق آدم، وفي المكان عينه رفع فيما صليب يسوع المسيح.

من أيّ مادّة خلق الإنسان



واحد من أقدم صور الإنسان التي وصلت إلينا

عثر عليها في شمال غرب الصين

لقد أنطوى بعض الأساطير الإنثروبوغونية مشابهات بين الإنسان والحيوان.

وعادة ما يرون في مثل هذه الأساطير رؤى معينة سبقت الرؤى العلمية مباشرة

ورد في الأساطير أن الآلهة وسواهم من الكائنات الميثولوجية الأخرى، خلقوا الإنسان من شتى أنواع المواد، بما فيها المواد الخرافية الغريبة التي لا وجود لها في الطبيعة. وحسب إحدى التنويعات الإغريقية القديمة كان الحجر هو المادة الأولية الأولى لعملية الخلق. فمرة أغضب الناس زيوس غضباً شديداً عزم أثناءه على تدمير الجنس البشري عن بكرة أبيه. «فلتهطل على الأرض شآبيب رهيبة تغرقهم كلهم!». ولولا أن علم بروميثوس «المتبصر» بنية زيوس لاندثر البشر من على وجه الأرض. لقد رأى بروميثوس أن العالم سيغدو مشوهاً بغير الإنسان وعزم على أن يحبط مقصد زيوس، فروى لابنه ديفكاليون الذي كان إنساناً، عن نية زيوس. وعملاً بنصيحة والده صنع ديفكاليون صندوقاً مهولاً وحمل إليه مختلف المؤن، ثم دخله هو نفسه مع زوجته بيرا.

وها هي الشآبيب تنهال على الأرض. وتواصل المطر غزيراً ليل نهار، فغمرت المياه المدن بمنازلها ومعابدها، واختفت الجبال العالية والغابات الكثيفة. وأخذت أسراب الأسماك تعوم حيث كانت تخضرّ الحقول، وسرحت الدلافين حيث نمت الغابات. وحملت الأمواج صندوق ديفكاليون وبيرا تسعة أيام وتسع ليال، ولما انقطع الشؤبوب حط الصندوق على قمة جبل بارناس التي علت فوق المياه.

وبعد أن تراجع الماء خرج ديفكاليون وبيرا من الصندوق. وقد كانت الأرض بعد الطوفان خالية ساكنة. وعلى غير انتظار ظهر بشير الآلهة هرمس أمام ديفكاليون وقال: «إن زيوس العظيم يعرف تقواك، ولذلك يمنحك وزوجتك السعادة لتؤسسا جنساً بشرياً جديداً. ولتحقيق ذلك ينبغي عليكما أن ترميا عظام جدتكما الأولى من خلف رأسيكما». فوقع على ديفكاليون حزن كبير: من أين يأتي بتلك العظام الآن، أين يجدها لينفذ إرادة الآلهة؟ ولكنه لم يلبث أن فظن إلى أن الأم الأولى للبشر كلهم هي الأرض، وأن الحجارة عظامها! فجمع مع بيرا كومة منها وصارا يرميانها من فوق رأسيهما. فظهر الرجال من حجارة ديفكاليون، والنساء من حجارة بيرا. وهكذا جاء الناس إلى الأرض، فأخذت هذه تتعمر.

وإضافة إلى الحجر نصادف في الأساطير نسباً آخر للإنسان، هو النسب «الخشبي». ففي الميثولوجيا السكندينافية يبثّ اودين والآلهة- الآسات الآخرون، الحياة في الشكلين البشريين الخشبيين الأصل. وقد دعيا: آسك وإيمبليا، أي «الدردار»، و «الصفصافة». وعند الكينيين

تحيي الكائنات الميثولوجية عصا بوضعها في مهد وأرجحتها فيه. وكيف يمكننا ألا نتذكر في هذا السياق الشخصية الأدبية الحديثة بينوكيو- بوراتينو! ولكن ثمة هنا أيضاً محور ميثولوجي آخر شاع شيوعاً واسعاً، وهو يتحدث عن كائنات لم يكتمل صنعها، الأمر الذي يوجب إكماله فيما بعد، وسوف يكون لنا حديث عن هذا المحور في مكان آخر من كتابنا هذا.

وثمة مواد أولية أخرى صنع الآلهة الإنسان منها. ومن هذه المواد عيني الإله، وعظام الحيوانات والطيور، والأسماك، والثمار وما إلى ذلك. واستخدموا في بعض الحالات مواد أخرى أكثر غرابة، كخيوط العنكبوت مثلاً. فعند الهنود الحمر السيو يصنع الديميورغوس سوسو ستيناكو امرأتين من عقدتين من خيوط العنكبوت الكوني البدئي؛ ثم صارت هاتان المرأتان والدتي الجنس البشري.

وتتحدث أسطورة استرالية عن سلف يدعى كارورا: في الأول خرج الـ الباندیكوت من تحت إبطه، وتلاهم البشر الذين أخذوا يصيدونهم. وتقول الميثولوجيا الهندية القديمة عن ذبيحة الإنسان الأول بوروشا، إن الناس خلقوا من تلك الذبيحة العظمى العالم لكه، بما في ذلك الجنس البشري: خرج الكهنة- البراهمان من فمه، والكشاتريا- المحاربون من يديه، والفايشا الفلاحون من وركيه، والشودرا البسطاء من قدميه، وكان مكتوباً على هؤلاء الآخرين أن يخدموا لدى الفئات الأخرى كلها.

وفي بعض الأحيان يجري صنع البشر على مراحل، وفق أسلوبين أو أكثر: تظهر في الأول الكائنات- الأسلاف الأولى التي تشبه البشر، وبعد ذلك يولد الناس. وكثيراً ما نصادف تصورات عن صنع النساء أولاً، ثم الرجال بعدهن. وقد يصنع النساء والرجال أحياناً بشكل مختلف، ويمكن صنعهم من مواد مختلفة: آدم وحواء مثلاً.

ولكن الآلهة الديميورغوس غالباً ما يصنعون البشر من الطين أو التراب. وهذا ما يمكننا أن نؤكده بكثرة من الأمثلة، علاوة على مثال آدم التوراتي الشهير الذي يرتبط اشتقاق اسمه نفسه بالتراب: أديم الأرض. كما تتحدث الميثولوجيا المصرية أيضاً عن خلق البشر من الطين أو التراب، وكذلك الميثولوجيا الصينية، والهندوأوروبية، والاكادية. وتأتي من هنا أيضاً صفتنا المشتركة: «أرضيون، أرضي»، ومثلها الصلة بين الكلمة اللاتينية «هومو» = «إنسان»، ونسيبتها «هوموس» - «تراب، أرض».

ورأى الهنود الحمر الكيتشوا أن البشر كلهم خرجوا من بطن الأم- الأرض باتشاماما، ولذلك أقاموا لها في كل حقل وثناً حجرياً كانوا يؤدون على شرفه طقس سكب جعة الذرة. وفي تنويعة أخرى عند هؤلاء الكيتشوا أنفسهم، أن باتشاكاماك ابن الشمس و «مسند الكون»، هو الذي صنع البشر. فقد غضب هذا من المرأة الأولى لأنها خاطبته هو ولم تخاطب والده، فمزق طفلها إلى أجزاء خلق منها النباتات الصالحة للأكل. ولكن إله الشمس أعاد

الطفل إلى الحياة من جديد ودعاه باسم فيتشاماما. وحين كبر الطفل مضى يجوب الأرض فاستغل باتشاكاماك غيابه وقتل أمه، ثم صنع البشر بنفسه. فغضب فيتشاماما غضباً شديداً، وحول مع الإله الشمس أولئك البشر إلى حجارة، أما البشر الحقيقيون، أي الكبن فقد خرجوا من بيضة ذهبية، وأخرى فضية، وثالثة نحاسية أرسلت الشمس ثلاثتها.

وعند الهنود الحمر الكاهويلا أن ديميورغوسين شكّلا البشر عجناً: موكات ينتزع من قلبه تراباً أسود ويعجن الناس من خليط أسود، وتيماياويت ينتزع من قلبه تراباً أبيض ويعجن الناس منه، لكن صناعته لم تكن موفقة: كان لكل منهم بطن من الأمام وبطن من الخلف، وعين على هذا الجانب من الرأس وأخرى على الجانب الآخر، و... فحاول موكات أن يقنع تيماياويت بعدم أهلية ناسه للحياة، إلا أن هذا غضب منه وقاد ناسه ومضى إلى العالم السفلي، وقد حاول في الوقت نفسه أن يسحب الأرض كلها إلى هناك.

وفي الميثولوجيا الاكادية يصنع الإله مردوك والإله إيا الإنسان من طين ممزوج بدم الوحش المقتول كينغو. وفي الميثولوجيا الصينية يخلق الإنسان على يدي نيويوا التي تشبه المرأة والحية في الآن نفسه، لقد بات العالم مزوداً الآن بأسباب البقاء كلها، ولكنه هادئ ساكن. وأحست نيويوا بالوحدة والملل، ورأت أنه يجب خلق شيء ما آخر لبث الحيوية على الأرض. وها هي تجلس يوماً على ضفة ينبوع، فأخذت قبضة تراب أصفر بيدها، ونظرت إلى صورتها في الماء وعجنت من الطين إنساناً. لقد كانت نيويوا راضية عن خلقها تمام الرضى، ولذلك واصلت العمل وعجنت كثرة من البشر نساء ورجالاً وهي ما فتئت تنظر إلى صورتها في الماء. وعلى المنوال عينه يخلق جوسكيخا البشر في أساطير الهنود الحمر الايروكوا، إذ عجن هذا البشر الأوائل وفق صورته التي رآها في الماء.

إذن لقد جاء صنع الإنسان نتيجة لانعكاس صورة الإله في مرآة المادة. أما في الأسطورة الاورفية (= الاورفيزم منظومة رؤى دينية- فلسفية ترتبط باسم اورفيوس) المتأخرة، فإن الإنسان ثمرة مضاعفة الإله لنفسه، ثمرة تجزيء شخصية ما مقدسة، انعكاسها في كثرة من مرايا البناء الكوني.

إننا نستطيع أن نواصل سوق التنويعات الميثولوجية لخلق الإنسان إلى ما لا نهاية. فليس من النادر أن تتعدد الروايات في أساطير الشعب عينه. ففي الميثولوجيا المصرية القديمة يعجن الإله الخالق خنوم البشر من الطين ويشكلهم على دولاب الخزاف، أما في رواية أخرى فإن دموع الإله آتوم التي تساقطت على الهضبة البدئية بن- بن، هي التي تحولت إلى بشر.

ولكن عملية خلق الإنسان تبقى على وجه العموم خارج حدود التعبير النصي. ضف إلى هذا أنه غالباً ما يكون فيها حضور للسر الذي يماثل سر الكوسموغونيا (- نشوء الكون م) ولذلك لم يكن من قبيل المصادفة أن يرمي ديفكاليون وبيرا الحجارة وراء ظهريهما، وليس أمام ناظريهما؛ فلم تتحول الحجارة إلى بشر على مرأى منهما.

«الزواج الإلهي»



أحد الوجهاء

محمول على هودج على الأكتاف

مقطع من رسم على إصّ مزخرف

في غواتيمالا

تبقى حضارة المايا من ألمع الحضارات القديمة في العالم الجديد.

ولا يزال يحيط بها كثير من الغموض، ويميز كثير من المفارقات.

من الواضح أن خلق البشر الأوائل لم يكن مهمة بسيطة حتى بالنسبة للآلهة الحكماء العظماء العارفين كل شيء.

وفي الأحوال كلها كانت الخطوات الأولى لبعضهم في هذا الميدان متعثرة.

فقد عرضت لنا واحدة من الأساطير البابلية البدائية، الأمر على الشكل التالي:

نزولاً عند رغبة الآلهة، صنعت الإلهة الخالقة مامي الإنسان الأول لولّو من الطين. لكنها أعلنت عجزها عن بث الحياة فيه.

عندئذٍ اقترح انكي قتل أحد الآلهة لكي تستطيع مامي أن تخلط جسده ودمه مع الطين.

كما كان التولتيكي الأمريكان بحاجة إلى الدم أيضاً:

يروى في واحدة من أساطيرهم كيف وضعت عظام ناس العصر الكوني السابق في قدر طينيّ، ثمّ بثت الحياة فيها بدم الإله الأعلى كيتسالكواتل.

وعلاوة على عدم وجود الدم الإلهي، كان يمكن أن يكون لتعثر الآلهة في خلق الإنسان أسباب أخرى.

ففي الأسطورة اليابانية على سبيل المثال، أن اتحاد الزوجين الإلهيين ايدزانامي وايدزاناغي لم يحدث وفق القواعد الصحيحة، لأن المرأة هي التي نطقت أولاً، فجاءت النتيجة سقطاً ليس له أطراف، يشبه العلقة إلى حدّ وقنديل البحر إلى الحدّ الآخر، الأمر الذي حدا بوالديه الإلهيين إلى حد الإسراع لوضعه في مركب وتسليمه للأمواج. ولم يولد للزوجين الإلهيين أبناء أصحاء إلاّ بعد أن تداركا الخطأ.

إذن بهذه الطريقة أو تلك كثيراً ما خلق الآلهة في الآونة الأولى مخلوقات مشوّهة، ووحوشاً، وعمالقة أو سوى ذلك من الكائنات الأخرى التي لا تصلح لحياة سويّة.

وليس حضور محور خلق البشر الأوائل كائنات مشوّهة، أو بمعنى آخر، ليس حضور محور «الزواج الإلهي» نادراً في الأساطير.

ففي الأسطورة السومرية يستجيب انكي لتذمر الآلهة من مشاق الأعمال التي يقومون بها، ويعلن موافقته على خلق خدم لهم، فيستدعي إلهة الأعماق، أعماق الأرض، لأن جنين الكائنات الحيّة كامن في قلب الطين.

ثمّ ينحر الآلهة جدياً ويولمون. وفي أثناء الوليمة استغرق انكي و «الإلهة العظمى» نينماخ في احتساء النبيذ، وأخذا يتمايلان، من فرط النشوة، وعلى هذه الحال شرعا بالعمل.

فعجنت نينماخ الإنسان الأول وشكلته، ولكن يديها كانتا ترتجفان لأسباب مفهومة، فجاء مخلوقها مشوهاً: جسد امرأة عاقر عاجزة عن الإنجاب.

فنظر انكي إلى هذا الكائن الجديد وقرر بأن لها عملاً تؤديه: فلتخدم في بيت النساء.

وأخذت نينماخ تعجن الشكل التالي، فلم توفق أيضاً، إذا جاء مخلوقها في هذه المرة لا جنس له، ليس ذكراً ولا أُنثى.

ووجد له انكي عملاً أيضاً:

فليخدم خصياً في القصر ينفذ أوامر الملك كلّها.

ولكنّ فشل نينماخ أغضب انكي:

إنها تهدر الطين عبثاً! وشرع يعمل بنفسه، فعجن من الطين شكلاً، لكنه جاء أسوأ من الشكلين السابقين، إذ جاء هذا كائناً ضعيفاً، متداعياً وأهوج. ومع ذلك طلب انكي من نينماخ أن تقرر مصيره، إذ يجب أن يحصل على القوت بطريقة ما!

وحاولت نينماخ أن تتحدث مع ذلك الكائن العاجز، لكنه كان عاجزاً عن النطق. فقدّمت له الخبز، لكنه لم يمسّه.

لقد كان شكل الكائن الجديد هذا بائساً: رأسه مائل على جنب، لا يستطيع الجلوس ولا الوقوف، وهذا ما زاد من حدّة غضب انكي، فامسك به ودعكه حتى أعاده طيناً من جديد.

ثمّ عاد انكي إلى عمله من جديد، لكنه في هذه المرّة أخذ يعمل ببطء وانتباه أكبر. فجاءت النتيجة افضل، لقد عجن انكي رجالاً ونساء اقوياء وعقلاء يشبهون الآلهة في كلّ شيء، إلا في شيء واحد، هو أنهم ليسوا خالدين كالآلهة.

وربما كان الغرض من هذه الأسطورة أن تبين للناس أنّ بناء نظام كوني طبيعي لم يكن بالأمر اليسير.

العصر الذهبي



الجنّة كما رآها رسام هندي معاصر

لقد عولجت الصورة الميثولوجية للجنة بصفتها مستقرّ النعيم الأبدي، معالجات متباينة، لكنهم غالباً ما تخيلوا الجنة بستاناً، أي مكاناً جميلاً فيه عناصر النعيم كلّها.

تؤكد الأساطير كلها تأكيداً مباشراً، أن الإنسان المخلوق لتوّه قد حمل في ذاته منذ البداية، قوة الخلق العفوية الكامنة في عالم الطبيعة، وامتلك جبروتاً يشبه جبروت الإله: لقد كان رائعاً روعة كاملة، وخالداً خلوداً كامناً.

ولا تزال ذكرى الحنين إلى تلك الأيام الخوالي حاضرة في الأساطير التي تتحدث عن العصر الذهبي لدى كثير من الشعوب. وغني عن البيان أن ذلك العصر لم يكن نظيراً لعصرنا، وحدوده الزمنية حدود شرطية كلها. وقد عد الإغريق القدماء هذا العصر أكثر العصور سعادة. إنه العصر الذي كان يحكم الكون فيه كرونوس والد زيوس، ويبدو أن هذا كان يقوم بعمله خير قيام. فالناس عاشت زمنئذٍ عيشة كعيشة الآلهة حسبما كتب الشاعر الإغريقي هسيود الذي عاش في نحو العام ٧٠٠ ق. م: «بروح هانئة وادعة صافية» فلم يعرفوا المرض، أو الأحزان، أو العمل، أو الأسى. كما لم يعرفوا الحاجة لأي شيء، لأن الأرض نفسها كانت تنجب لهم القوت، وكانت قطعانهم وفيرة ومعطاءة. لقد كانوا يمضون حياتهم في الولائم، وكان «موتهم كمعانقة الحلم»، وبعد الموت كانوا يتحولون إلى أشباح لطيفة تجوب الأرض وتعمل على منح الثروات للناس.

وبعد أن «طوت الأرض هذا الجيل» خلق الآلهة الاوليمبيون الجيل التالي، الجيل الفضّي، فجاء جيلا أدنى من الذي سبقه. لقد كان هؤلاء الناس ناساً آخرين: تأخروا طويلاً في طور الطفولة، وبعد أن كبروا عاشوا قليلاً جداً، لأنهم ألحقوا المصائب بأنفسهم بسبب غبائهم هم أنفسهم. فقد أخذهم الغرور وعزفوا عن خدمة الآلهة الجبارة، فرفضوا أن يقدموا القرابين في مذابحهم وفق العادة المعمول بها منذ أقدم الأزمنة. لذلك أخفى زيوس صاحب الرعد هذا الجيل تحت الأرض، ويجلّ الناس هؤلاء أقلّ مما يجلّون الذي عاشوا في العصر الذهبي.

وكان الجيل الثالث، جيل «الناس الناطقين» جيلاً نحاسياً. لقد كان هؤلاء جبابرة يثيرون الهول، وأقوياء قوّة لا مثيل لها، حملوا دروعاً نحاسية، وعاشوا في مساكن نحاسية، ولم يأكلوا الخبز. «قوّتهم مرعبة، جلبوا الهلاك لأنفسهم بأيديهم»، فقد أخذهم الموت الأسود: في آخر العصر النحاسي أرسل زيوس على الجيل النحاسي التاعس طوفاناً لم ينج منه سوى ديفكاليون وبيرا.

ثم صنع الآلهة الجيل الرابع «على الأرض التي تفيض بالخيرات»، إنه جيل أنصاف الآلهة، جيل الأبطال الأماجد. لقد كان هؤلاء أكثر عدالة، وأفضل من ناس الأجيال السابقة، ولكنهم هلكوا في موقعة قتاليه، ويعيشون الآن في جزر النعيم الواقعة وسط المحيط بعيداً عن البشر. وفي آخر العصر البطولي هذا وقعت حرب طروادة الشهيرة التي غناها هوميروس غناء جميلاً.

وكان الجيل الخامس، الجيل الحديدي، جيلاً أقلّ جاذبية على ما يبدو، لأن هسيود كتب عنه قائلاً: «تمنيت لو متّ قبله، أو لو ولدت بعده». ففي هذا العصر بات على الناس أن يشقوا في العمل، ويعانوا من الأحزان، والهموم، والشقاء دون أن يعرفوا الراحة.

وحسب هسيود، لا يحمل المستقبل أي خير للناس. فهو لم يعدهم إلاّ بالنوازل المريرة، والشرور، والحسد، والكذب، والخداع، واللكمة بدل الحقيقة، وسوى ذلك من الأشياء المحبطة. فلم يحترم الصغار الكبار، ولا الأبناء العاقوّن والديهم، بل إن الناس على وجه العموم سوف يأتون إلى الدنيا وقد وخطهم الشيب. لقد كانت تلك هي اللوحة المعذبة للنفس التي رسمها قدماء الإغريق الذين كانوا على ثقة أكيدة بأن أفضل الأزمنة قد ولى ولن يعود.

ولم يكن لدى الهنود بدورهم أيّ شك في أن الأزمنة الأولى كانت هي الأزمنة الكاملة. فأبرزوا في تيار الزمن أربع يوغات ومعها أربعة أجيال من البشر، وهو ما كنّا قد تحدّثنا عنه سابقاً. فقد أدى تعاقب اليوغات إلى تداع واضح في حالة العالم. وعلى هذا المنوال عينه رأى الجاينيون تطور حركة الزمن. والجاينيون هم أتباع الديانة الجاينية التي شاعت في الهند. لقد تصور الجاينيون الوقت دولاباً ذا اثني عشر شعاعاً، يدور إما نحو الأعلى: أوتساربيني، أي «الزاحف إلى فوق»، أو نحو الأسفل: أفاساربيني، أي «الزحف إلى أسفل». ويتألف كل نصف دورة يدورها الدولاب من ستة عصور متباينة. عصور الأفاساربيني جيّد- جيّد، ثمّ جيّد- سيّئ. وسيّئ- جيّد، وسيئ، ثمّ سيّئ- سيّئ؛ وفي الاوتساربيني تتكرر هذه العصور عينها ولكن وفق ترتيب عكسي.

والعالم على وجه العموم لا بداية وله لا نهاية، إنه كمّ لا عدّ له، انتقل مرّة وسوف يبقى متنقلاً من زمن النعيم الهانئ عبر تراجع متدرّج نحو الذعر، والفظاظة، والآلام، نحو السيئ المطلق، والسيئ- السيئ، ثم يعود أدراجه إلى الجيد- الجيّد، أي إلى العصر الذهبي. وتصف الميثولوجيا الجاينية كلّ عصر من هذه العصور وصفاً مفصلاً تنوه فيه حتى إلى ذبذبة تنفس الناس الذين يعيشون فيه.

ومن التيرتها نكاري الأوائل، اي دعاة الجاينية «الذين عثروا على مخاضة في معبط الآلام»، داعية يدعى ريشابهاناتها عاش في عصر مغرق في القدم لا يدرك عمق قدمه العقل. عصر كان طول الرجال والنساء فيه يصل إلى ميلين، ويطول العمر فيه إلى عدد لا عدّ له من السنين، وكان هؤلاء يولدون أزواجاً متحدة. وعلّم ريشابهاناتها هؤلاء اثنين وسبعين علماً، ومن فن، وكثرة كثيرة من الأعمال النافعة. وفي عهده هذا بدأ تداعي العالم، أمّا قبل عهده فقد كان يعيش ناس أكثر كمالاً. كان طول الفرد منهم أربعة أميال، ولكل منهم مئة وعشرون ضلعاً. كما كان بين أيديهم شجر الكالبافريكشا، وهو الشجر الذي يحقق الأمنيات. ويطرح ثمراً حلو المذاق. وكان بعض ورقه يشدو بغناء شجيّ، وبعضه الآخر يشع نوراً ساطعاً. وكان للزهور في غضون ذلك كلّه عطر ساحر لا مثيل لروعته. لقد كان هذا الشجر يمنحهم القوت والثياب والحليّ. وكان مذاق مياه المحيط كمذاق النبيذ، وطعم التراب أكثر حلاوة من طعم السكّر.

ومع ذلك كله لم يكن ذاك الزمن هو الزمن الأكثر سعادة. فقد سبقه عصر أكثر يسراً، كان طول الفرد فيه ثمانية أميال، وله مائتان وستة وخمسون ضلعاً، كما كان هؤلاء يتمتعون بجمال أخاذ، وحسن خلق كامل، ولحظة موت واحدهم كان ينتقل مباشرة إلى عالم الآلهة...

إن فكرة تداعي العالم وتراجعه المتدرج من الأحسن إلى الأسوأ، هي فكرة موجودة في الأساطير الهندوأوروبية كلها تقريباً. ولكنها تبدو أكثر وضوحاً خاصة في نظرية اليوغات المتناقصة التي شاعت في الهند القديمة. ففي الأولى منها، وهي الكريتا- يوغا، كان النظام الإلهي راسخاً يقف بثبات على أربع: الاستقامة، والترحاب، والاحترام، والتعاطف. ولم يعرف الناس الأمراض، أو البخل، أو الغضب، أو الغيرة، أو الحقد، أو ما شابه من الأحاسيس السلبية. لقد عاشوا في كفاية تامة، إذ كانوا يأخذون من ثمار الأرض حاجتهم. أما في الترينا- يوغا فقد بات النظام الإلهي واقفاً على ثلاث: لقد فقد الإحسان ربعه، وبات على الناس أن يتوسلوا الآلهة أكثر فأكثر ويقدموا القرابين لهم لكي يقضوا لهم حاجاتهم. واستمرّ الانهيار في الدفابارا- يوغا التي بات النظام الإلهي فيها يقف على ساقين. في هذه اليوغا صار الناس أشراراً وغير راضين، وانتشرت الأمراض بينهم، والجوع، والفقر وما إلى ذلك من السيئات. أما في اليوغا التي نعيش فيها الآن، وهي الكالي- يوغا، فقد بات النظام الإلهي عاجزاً يقف على ساق واحدة: لقد غلب الحقد، والكره والكذب، والكسل وسوى ذلك من الأهواء التي تدمر النفس البشرية.

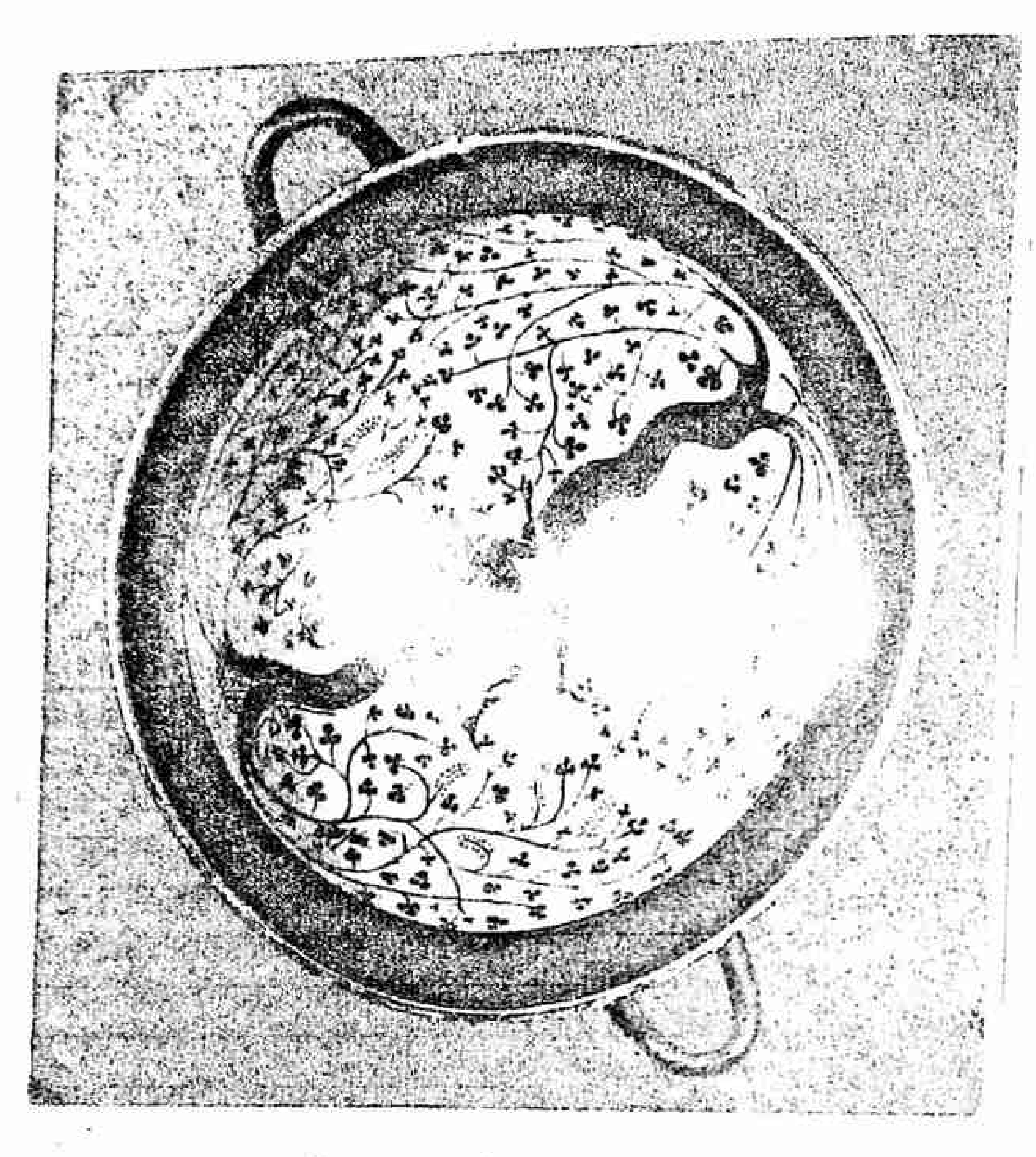
وثمة فكرة مشابهة نقف عليها في غير الميثولوجيا الهندوأوروبية. فالبابليون على سبيل المثال رأوا أن ثمانية ملوك حكموا قبل الطوفان في خمس مدن طول مائتين وواحد وأربعين ألفاً ومائتي سنة، أمّا بعد الطوفان فإن السلالات الأولى كلّها لم تحكم أكثر من ألف ومائتي سنة. وعلى وجه العموم أحاط سكان وادي الرافدين أزمنة قبل الطوفان بهالة السرّية والإبهام. فقد كانت تلك أزمنة الآلهة، والأبطال، والحكام الحكماء، والناس الأوائل الذين كانوا بالطبع جبابرة، لا كأبناء القبيلة لحالية. ومن المناسب أن نتذكر في هذا السياق العمر المديد جداً الذي عاشه آباء التوارة الأوائل: آدم ٩٣٠ عاماً، ونوح ٩٥٠ عاماً. أما بعد الطوفان فقد بات كل شيء أسوأ، بما في ذلك سنوات العمر التي تقلصت: لم يعش إبراهيم «سوى» مئة وخمسة وسبعين عاماً، واسحق مئة وثمانين عاماً. ولا يمكنني أن أؤكد صحة هذا من عدمها، لكن بعضهم كان حتى وقت قريب يأخذ هذه الأرقام على محمل الجدّ. فقد كتب المؤرخ الروسي المعروف ف. ن. تاتيشيف في كتابه: «حكاية الماموث الوحش» يقول، إن عمر الإنسان كان يصل التسع مئة عام، وقد سبق هذا الزمن في كل مكان قوت لا مثيل له من مختلف خيرات الأرض، ودفء مقيم دوماً.

كما تحدثت الأساطير الإفريقية وأساطير الشعوب الأخرى أيضاً عن زمن النعيم البدئي ومثل هذه الأساطير موجود بهذه الصيغة أو تلك في كلّ مكان. ونصادف فيها محاور مشتركة: في زمن ما كانت الأرض والسماء متقاربتين إلى حدّ لم يكن من الصعب معه أن يصعد الناس إلى السماء على سلم عاديّ، أو حبل، أو شجرة، كما كان من السهل على الآلهة أن ينزلوا إلى الناس. لقد كان الناس يشبهون الآلهة في كل شيء، فلم يعرفوا الموت، ولا العمل لتحصيل لقمة العيش، لأن كل شيء كان متوفراً وبين أيديهم. كان الإنسان ينعم بالبحبوحة، والحرية، وكل متع الحياة، ما يدرك منها وما لا يدرك.

ولكن انقساماً كونياً ما وقع بعد ذلك: طوفاناً أو كارثة قدرية مماثلة بدلت ماهية الإنسان تبديلاً جذرياً. ولا يسعدنا أبداً أن نتحدث عن تقهقر حالته، إنه نحن جيل هذا الزمن.

بيد أن العصر الذهبي لم يعتكف في محراب الماضي بغير رجعة، بل كانت عودته ممكنة في بعض الأحيان. وخليق بنا أن نتذكر في هذا السياق أن ناس العصر التاريخي كرسوا في تيار حياتهم اليومية مقاطع خاصة ذات طابع مقدس، هي الأعياد، الاحتفالات، وفي أثناء هذه الأخيرة بالذات كان الرجوع إلى جنة الماضي ممكناً. فقد استعادوا معادلة العصر الذهبي في بعض الأعياد المعروفة مثل «الكرونيات» و «الساتورنالي» عند قدماء الإغريق والرومان.

ضف إلى ذلك أنه دائماً كان هناك بعض الأفراد القادرين على امتلاك حالة العيش في جنة الخلد، إنهم مختلف ضروب المتصوفة، والكهنة، خاصة الشامانات منهم، وهؤلاء هم سادة حالة الاستغراق في النشوة البدائية. فبمقدور مثل هؤلاء الاستغراق في حالة من النشوة الروحية يجوبون في أثنائها مختلف أماكن إقامة الآلهة. ومثالنا على هؤلاء المميزين هو نبي المسلمين محمد الذي قام بمثل هذه الجولة التي تدعى عند المسلمين: قصة المعراج. تقول القصة: لقد غفا محمد يوماً في ظلال الكعبة، فسمع في نومه نداء يدعوه أن «قم أيها النائم»، ثم رأى ملاكاً في ثياب بيضاء تبهر العين، وإلى جانبه فرس بيضاء لها وجه بشري وجناحان من شعاع، وقد دعيت الفرس باسم البراق واسمها نفسه مشتق من «البرق». فقاده الملاك أولاً إلى جبل سيناء حيث كان الله قد ظهر لموسى، ومنه إلى بيت لحم حيث ولد يسوع المسيح، ثم إلى جبل المعبد حيث سيقوم فيما بعد مسجد قبة الصخرة. وبعد أن أدى محمد الصلاة مع باقي الأنبياء، رأى سلماً مضيئاً يهبط من السماء، وما هي إلا ومضة عين حتى ألفى النبي نفسه في السماء السابعة. وهناك وقف في حضرة الله ذاته، لكنه لم ير وجهه إذ كانت تحجبه آلاف الحجب.



رسم على إصّ ايتروسكيّ

يصور هذا الرسم رمزياً سرعة جريان الحياة البشرية: شكل الإنسان فيها على مسافة واحدة من شجرة الحياة وشجرة الموت.

ولكن زمن اليسر كان يمكن أن يجري في مكان اليسر فقط، في بستان الجنة.

وحسب سفر التكوين التوراتي: «وزرع الرب الإله الجنة في عدن شرقاً... وأخذ الرب الإله الإنسان ووضعه في بستان عدن ليزرعه ويحرسه».

وتعطى في السفر نفسه الإحداثيات الجغرافية للجنة. ويفترض الباحثون أن فكرة الجنة عينها، أو فكرة بستان الآلهة كانت قد ولدت في سومر.

ومع أن السومريين اندثروا عن وجه الأرض قبل زمن طويل من ظهور اليهود، إلا أن الكنعانيين ورثوا عنهم الكثير، وعن هؤلاء الآخرين أخذ اليهود، الذين كانوا قد جاؤوا للعيش في أرض الكنعانيين.

وقد كانت الجنة السومرية الصورة الأصل للجنة التوراتية. ومن المعروف أن جنة السومريين كانت في بلاد ديلمون، وهي دولة البحرين المعاصرة. وهناك كانت تقع أيضاً «بلاد الأحياء»، أي البابليين القدماء، وهم الشعب الذي جاء فيما بعد ليحلّ محلّ السومريين.

ويصف السومريون بلاد ديلمون بأنها بلاد «نقية» «عذراء»، «مشرقة»، «نورانية». فالجنة السومرية لم تكن معدّة لإقامة البشر، بل لإقامة الآلهة الخالدين.

فبلاد ديلمون لا تعرف الأمراض، أو الشيخوخة، أو الموت: لا ينعق الغراب فيها، ولا تحمل طيور الموت موتاً، ولا يمزق الذئب فيها الحمل، ولا يدمر الخنزير المحصول.

ولكن ديلمون خالية من المياه العذبة التي لا حياة للنباتات والحيوان بدونها.

ولهذا أمر أنكي إله الشمس أوتو أن يحمل المياه من الأرض إلى ديلمون، وبعد ذلك فقط تحولت هذه إلى بستان إلهي خضرته بهجة للعين، ومروجة مزهرة أبداً: لقد باتت البلاد «مروية بماء الرخاء»، وصارت آبار المياه المالحة إلى آبار للمياه العذبة.

وها هي تقع في مثل هذه الجنة قصص غامضة عجيبة، إذ تظهر هنا على وجه الخصوص أجيال متعاقبة من الإلهات- النباتات.

فمن بذور الإله انكي تنمو كائنات لا هي إلهات ولا هي نباتات، وكانت ولادات هؤلاء الإلهات- النباتات تنتهي بسرعة دون أي آلام (الا يلقي هذا ضوءاً ما على اللعنة التي نزلت على حواء وحكم عليها بموجبها أن تلد أبناءها بالأوجاع؟).

ويأتي في مسار هذه الأحداث ظهور النباتات الثمانية التي أنبتتها نينخور ساغ: ولكن انكي التهمها «إذ عرف قلوبها».

ومعنى هذا أن انكي أكل أبناءه، ولذلك أضنته الآلام ولعنات الإلهة (ومرة أخرى ألا يذكرنا هذا المشهد بمشهد الثمرة المحرمة التوراتي؟).

فدمر المرض ثمانية من أعضاء جسمه، وفقد قواه، فاستغرق الآلهة كلهم في حزن عميق.

ولكن الثعلب يظهر في اللحظة الحرجة، ولا نعرف من أين جيء به، ويتعهد بالعثور على نينخور ساغ التي تستطيع وحدها أن تداوي انكي المحتضر.

وقد وفى الثعلب بعهده ونال المكافأة التي وعد بها، وبرئ انكي من مرضه على يد الإلهة عينها، وظهرت نتيجة ذلك كائنات زوجية من الجنسين قادرة على أن تعيش حياة زوجية طبيعية.

ولكن الأمر المميز في هذا السياق كلّه، هو أن مقارنة الأسطورة السومرية وقصة الجنة التوراتية مكّن المتخصصين من إيجاد تفسير للقصة التوراتية المبهمة عن خلق حواء من ضلع آدم. ويكمن لبّ المسألة في أن كلمة ضلع يستدل عليها باللغة السومرية بكلمة «تي».

وكانت الإلهة التي خُلقت لتداوي ضلع انكي تدعى نين- تي، ومعناه «سيّدة الضلع». ولكن كلمة «تي» السومرية تعطي أيضاً معنى «يهب الحياة»، ولهذا بالضبط صارت السومرية «سيّدة الضلع» إلى حواء التوراتية، «السيدة الواهبة الحياة».

وحسب الروايات الخرافية أن ديلمون كانت الجزيرة التي تجري فيها تأدية طقس الزواج المقدس، وهو ما سوف نتحدث عنه حديثاً خاصاً في مكان آخر من كتابنا هذا. كما ترتبط بديلمون أيضاً أسطورة أخرى لا يمكن أن نصفها بأنها أسطورة بسيطة، هي أسطورة تعقيدات عملية الولادة.

وثمّة في أساطير الشعوب الأخرى محاور موازية لمحور بستان الجنة هذا. فالصينيون أقاموا جنتهم على جزيرة بينلاي، واعتقد الإيرانيون بوجود مهد أرتا، أي «الحقيقة»، الذي يبرق، أو «بالغارادمانا»، أي «بيت التمجيد»، أو «بيت الثواب»؛ ولم يكن لدى السلتين أي

شكّ بوجود الأفالون، وهي بلاد أخرى ساحرة، وقد دعوها أحياناً إيماين، وأحياناً أخرى «الجزيرة البلورية». واعتقدوا أنها تقع بعيداً وراء البحر، ولا يمكن الإبحار إليها إلا على قارب بللوري.

وهذه البلاد عبارة عن سهل من النعيم خال من الأحزان، والبؤس، والأمراض، والشيخوخة، والموت. ويمتد هنا عالم أبدي، تصدح فيه موسيقى ساحرة، ويتنقل الأبطال في مركبات فضية وذهبية. إنها بلاد خصبة تعج بشتى أنواع الزهور، وينمو فيها شجر عجيب أغصانه فضية عليها تفاح ساحر يذكرنا بتفاحات الهسبيريدس.



رأس نسائية

تتمة حضور للشخصية النسائية في فئات الشخصيات الميثولوجية كلها. فالكائنات الأنثوية وظاهرات الطبيعة المندغمة في نساء والمرتبطة بولادة الحياة، ألهت وعبدت عند شتى الشعوب.

وهكذا صُنع الإنسان، ومع ظهوره اكتمل بناء النظام الكوني، وبات محدداً في الزمان والمكان.

ولكن كيف كان مخلوق الآلهة هذا؟ ومن هو الإنسان على وجه العموم؟ ولا تظنن قارئي النبيه أن هذا السؤال بسيط، فلم يوفق أي جيل من أجيال الفلاسفة وغيرهم، بالإجابة عليه حتى الآن.

ومن المعروف أن أفلاطون وديوجينوس قد تجادلا يوماً حول ماهية الإنسان. فقال أفلاطون: «إن الإنسان كائن ذو ساقين وليس له ريش»، عندئذٍ حمل ديوجينوس ديكاً وجاء به إلى قاعة الحضور مؤكداً تأكيداً قاطعاً على خطأ مقولة أفلاطون، عندئذٍ أضاف هذا تدقيقاً آخر إلى مقولته: «كائن ذو ساقين ليس له ريش، وله أظافر عريضة». وهكذا كانت تجري منذ أيام الإغريق القدماء الذين يصفونهم بالحكماء، مجادلات بصدد ماهية الإنسان. ولكن ما هي الإجابة التي يمكن أن نعثر عليها في الأساطير على هذا السؤال؟

لقد رسم القدماء للإنسان صورة مغايرة للصورة التي اعتدنا أن نتخيلها نحن. فقد توافق من حيث سماته العامة عندهم مع العالم الذي خلق، مع الكوسموس (= النظام الكوني. م.). إنه العالم الأصغر (= ميكروكوسموس)، الذي لم يدرك نفسه مستقلاً عن العالم الأكبر (= ماكروكوسموس). ونحن نقف في أساطير الشعوب كلها على اعتقادهم بصلتهما التي لا تنفصم عراها.

وكما قال الفلكي الفيزيائي المعاصر كارل ساغان، فإن الإنسان كان دوماً «خطاً لحنياً مستقلاً في السيمفونية الكونية للحياة».

وفي واقع الحال أن الإنسان، جسد الإنسان، ينتمي في نهاية المطاف إلى المادة الكونية عينها التي قامت في صلب العناصر والموضوعات الطبيعية كلها. وهذا ما تؤكده تأكيداً قاطعاً الأساطير الانتروبوغينية (= أساطير نشوء الإنسان)، التي تحدثنا عنها قبل قليل. فمنذ

البداية الأولى حمل الإنسان في ذاته القوة الطبيعية البيئية الخلاقة، وكان كائناً إلهياً رائعاً، كما حدثتنا أساطير العصر الذهبي.

فمن الإله الخالق يتلقى الإنسان طاقة الحياة، العنصر الروحي، ويتلقى من والده ووالدته الجسد والدم. وقد رأى الأفارقة الاشانتي مثلاً، إن كل طفل يأخذ الابوسوا من أمه، والنتورو من والده. وعبر دم- ابوسوا والدته يتصل الطفل بأسلافه من الخط الأمي، وعبر روح- نترو والده يتصل بأسلافه من الخط الأبوي. وهذا ما يجعله متصلاً في نهاية المطاف بالبناء الكوني كله، ويقوي في الآن عينه لحمة الأقارب وتراصهم في نظام عضوي كامل: يغدو مصيرُ المجموع مصير الفرد الواحد. ويحضر الأسلاف الراحلون والأحفاد الذين لم يولدوا بعد حضوراً غير منظور، لكنه حضور محسوس جداً في هذا الكلّ المشترك.

ويبدو الكائن الإنساني الذي عرفه ذلك الماضي البعيد كائناً متعدد الجوانب، متعدد الحلقات، كثير الماهيات. فهو لم يتألف من جسد فيزيائي فقط، بل عاشت فيه أيضاً الروح، النفس، والاسم، والطيف. وعبر الاسم قامت صلته بالآلهة والأسلاف ولذلك كان يمكن أن يكون له أكثر من اسم واحد، أسمان في أقل حدّ: اسم للاستعمال اليومي، وآخر سرّي يستخدم في حياته الطقوسية، وإذا ما كشف عنه كان ذلك يمكن أن يضعه تحت سيطرة القوى المعادية ويسبب له الرزايا. وعلى هذه الشاكلة يبدو كأن ناس تلك الأزمنة قد عاشوا في عالمين في الآن عينه، عالم ميثولوجي وعالم واقعي لا يفصل بينهما عائق مانع.

وكيف أحسّ الإنسان في ذلك النظام الكوني الذي كان هو نفسه انعكاساً له؟ لقد أكد الذين درسوا ثقافات الشعوب القديمة كلهم، على عدم انفصال الإنساني عن الكوني وعدم تغايره وكذلك عدم انفصال السيكولوجي عن الفيزيائي في الأساطير والعقائد. إن الإنسان القديم، والبدائي على وجه الخصوص كان حسب تعبير الفرنسي ليوسيان ليفي- بريول، «يشارك» في أحداث العالم المحيط، ولا يضع نفسه في مواجهته. ونتيجة لذلك كانت فكرة الشخصية، وفكرة فردية جسده، وفكرة وعيه للواقع غريبة عنه تماماً. فهو لم يطرح على نفسه الأسئلة الممضة التي نطرحها نحن على أنفسنا مثل: «لقد أعطيت جسداً فما الذي

أفعله به؟ من ذا الذي ينبغي عليّ أن أشكره على هدوء تنفسي وعيشي؟». فقد كان يعرف جيداً ما الذي ينبغي عليه فعله بجسده، ومن عليه أن يشكر على هدوء نفسه وعيشه. يكن أسلوب وجوده في العالم يشبه أسلوبنا نحن في شيء فهو ليس «أنا» تعي ذاتها، بل مضى متحرك غير محدد تتقاطع فيه القوى الكونية، وعقدة العلاقات المعقدة، وحضور طارئ للماهيات الحياتية المتنوعة التي لا تنضب.

وعلى وجه العموم بدت الحدود بين ما هو غير إنساني وما هو إنساني بالنسبة لأناس تلك الحقب، حدوداً متحركة وغير ثابتة، وكانت هذه السمة واحدة من سمات الإدراك الميثولوجي للعالم. فقد تجسدت وحدة العالم، كمال العالم ميثولوجياً في اعتقادهم بأن الإنسان كان يمتلك الإمكانات التي كانت تتسم بها هذه أو تلك من ظاهرات الطبيعة، وأنه يستطيع في حال توفر شروط معينة أن يتحول إلى ظاهرة طبيعية، واعتقدوا من جهة أخرى بأن قوى الطبيعة نفسها تمتلك هذه أو تلك من الماهيات والعلامات البشرية أو الانثروبومورفية.

ومن الواضح أن أسمى الأعضاء في الجسم الإنساني كانت تلك الأعضاء التي تصله بالعالم، أي أطراف جسده، وفتحاته، وشعره، وأظافره، وكلّ «جسد طرفي» على وجه العموم، ولذلك عملوا جاهدين على حماية تلك الأعضاء بالذات من تأثير القوى الشريرة وأذاها.

وتظهر الحياة البشرية في اللوحة الميثولوجية للعالم كاملة تستحوز على الوجود الحي في العالم. ولذلك فإن كل ما كان يحصل في العالم كان يحمل في ذاته طابع حضور الإنسان، الإنسان الكوني. وعليه فإن وجوده يمكن أن يعدّ إلى حدّ بعيد إسقاطاً لذاته على الأشياء المحيطة به كلّها.

وقد كان العلم ميالاً لأن يرى في مثل هذه التصورات أدلة على ضعف مستويات التقدم، ولكن اللاهوتيين، والمتصوفين، والأنبياء أعطوها مغزى خاصاً. فقد رأى العالم السويدي المتصوف عمانوئيل سويد نبورغ مثلاً، أن أسطورة الإنسان الكوني الأول انطوت على وجدانية عميقة اتسمت بها وحدة الإنسان والإله، وإن هذه الأسطورة أزالت محدودية الوجود الإنساني: لقد أفسحت له في النظام الكوني ورسمت أمامه أُفقاً لا حدود له.

ولكن أسطورة الإنسان الكلي لم تكن لها أهمية روحية كبيرة وحسب، بل كانت تنظم العلاقات والصلات الاجتماعية أيضاً، وبطريقة ليست معتادة بالنسبة إلينا. إذ لم تكن أهمية الإنسان تتحدد بصفته فرداً لامعاً، فمثل ذلك لم يكن له وجود بعد، بل بمكانته في إطار الكل العشيري والاجتماعي. لقد كان صعود الفرد السلم الاجتماعي رويداً رويداً، يقربهُ من العالم الميثولوجي، فيغدو كأنه وسيط بين مجتمع البشر والعالم الآخر. وليس من قبيل المصادفة إطلاقاً أن يؤله القدماء شخصيات الزعماء والملوك. إذ افترضوا أنهم يقفون في صميم مركز تفاعل القوى الاجتماعية والطبيعية الجبارة، وبهم كان يرتبط بقاء الجماعة البشرية التي يقودونها على قيد الحياة. فإذا كان القائد أو الملك سليماً معافى وموفقاً، فإن أبناء قبيلته أو أتباعه بخير أيضاً: قطعانهم معطاءة، ومحاصيلهم وفيرة، وعيشهم رغد. أما إذا ما نفذت قواه وبات عاجزاً، فإن بحبوحة التابعين له تغدو في خطر. بمعنى آخر إن سلطته لم تكن سلطة واقعية فقط، بل كانت لها أيضاً تداعيات سحرية تدعمها الأسطورة.

فما الذي كان الإنسان القديم يخافه أكثر من أي شيء آخر؟ نحن نعتقد أن أكثر ما كان يخافه القدماء هو الدّنس (لم يكن مفهوم الإثم قد ظهر بعد، وهو حتى اليوم ليس موجوداً في الأديان كلها). فالدنس بالذات، أي ما يمكن أن يدنّس، أن يتلف العالم الذي خلقه الآلهة، عُدّ الشرّ المطلق. وكان أكثر الأشياء فظاعة، هو أن يتسبب الإنسان بتدنيس نفسه، حتى لو كان دون علم منه أو قصد. ولكي لا يحدث ذلك كان ينبغي الالتزام الصارم بمنظومة من شتى القواعد والمحرّمات التي صيغت عبر طريق طويلة مليئة بالمحاولات والتجارب والأخطاء. وقد رأوا أن الالتزام بها يجنب المرء الاستغراق في الدّنس.

ولكن ومع هذا كله إذا ما وقع المحظور ودنس الإنسان نفسه، فإنه ينبغي عليه أن يؤدي طقوس التطهر. ولهذا كان السعي نحو النقاء، والانسجام، والنظام واحداً من أقوى محاور النشاط البشري. وهكذا كان الدنس، والكاوس (= الخراب، الفوضى ـ م)، والفوضى نقيض النقاء، والنظام، والانسجام، وطاقة الحياة.

ولكن ظهور التاريخ ومعه استيقاظ الوعي الذاتي الفردي الذي ارتبط به، وضع حداً لمثل هذه المعتقدات والتصورات كلها. فالإنسان التاريخي بات يسلك في العالم

سـلوكاً مغـايراً، ويقـدم نفـسه بطريقـة أخـرى تمامـاً، إنـه لا يـستعيد وصايا الأب

والأسلاف، بل على الضدّ من هذا يسعى لكي ينشئ شيئاً ما لم ينشئه أحد من قبل

يره.

بيد أن كثيراً من مقدمات الثقافة البدائية لم ينـدثر من غير أن يترك أثراً. فقد

هـذا الإرث بعـض الـديانات كالداوسـية، والهندوسـية، والجاينيـة وسـواها، وباتـت السمات

القديمة للإنسان الأول تعد في هذه التعاليم آيات دالة على الكمال الروحي، ضف إلى هذا أنها

وجدت الآن تعليلها الفلسفي.

الموت و الميلاد، خيط الوجود كلّه

سر الخلود



رسم لروح الموت، أمريكا الشمالية

لا توجد آلهة الموت وأرواحه في الميثولوجيات كلها، ولكنها حيث توجد تتماثل مع كل ما هو مؤذٍ، وخطر، وبشع.

لقد رأينا سابقاً أن الناس في العصر الذهبي كانوا كالآلهة، وخالدين، ولم يتحولوا إلى فانين إلاّ فيما بعد، بعد أن شحت طاقة الخلق في العالم، والتي كانت قد بُثت فيه في أزمنة الخلق الأولى.

وقصة آدم وحواء معروفة جيداً للجميع، فقد كان هذان بريئين من أي إثم وخالدين. وكانت تقوم في وسط الجنة شجرة معرفة الخير والشرّ التي منعهما الخالق من أكل ثمارها: «أما شجرة معرفة الخير والشرّ، فلا تأكل من ثمارها، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت». ولكن الأفعى الخبيثة استغلت ضعف حواء وقلّة إيمانها، فتذوّقت هذه من الثمرة وأعطت زوجها فأكل. وعلى مقربة من شجرة معرفة الخير والشر كانت تقوم شجرة أخرى ليست أقل تميّزاً منها، هي شجرة الحياة: «وأنبت الرّب الإله من الأرض كل شجرة بهجة للعين وطيبة للأكل، وشجرة الحياة في وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشر». لاحظوا معي أن الخالق لم يمنع عن البشر الأوائل ثمر شجرة الحياة، ضف إلى هذا أنه كان قد أعلن أن الإنسان يستطيع أن يأكل من ثمر أي شجرة شاء، إلاّ ثمر شجرة معرفة الخير والشرّ. وكم كنّا نتمنى أن نعرف ما كان سيكون عليه مصير البشرية لو استخدم آدم وحواء الحق الذي منح لهما في أن يكونا خالدين.

إن أصوات الحنين إلى الخلود المفقود لا تُسمع في أساطير العصر الذهبي وحده. فعندما صنع إله الداغونيين الأفارقة أمّاً للعالم، لم يكن للموت وجود بعد. وكان الناس يعيشون طويلاً جدّاً، إلى أن يشيخوا ثم يتحولوا إلى ثعابين. وكان هؤلاء الأسلاف الثعابين يطوفون ليلاً بين مساكن البشر لكي يأكلوا ويشربوا.

إذن تُسمعنا الأساطير فكرة أن الإنسان خالد من حيث المبدأ، أي أن الخلود ماهيّة كامنة فيه، ولكن الإنسان هذا نفسه أدخل الموت إلى الكون.

ولهذا بالذات ترتبط فكرة خلق الإنسان في أكثر الميثولوجيات بفكرة انتهاء الزمن الميثولوجي البدئي، ويفد إلى هنا أيضاً محور موت الإنسان والموت على وجه العموم. إذن مع ظهور الإنسان الأول، أي الفاني الأول، ومع موته ينتهي الزمن الميثولوجي الذي لم يعرف

الأحزان. وبهذا يكون خلق الإنسان قد مثل حداً مهماً في الزمن المرتبط بظهور الموت والكوسموس المجهز بأسباب البقاء.

كما يتداخل موت الإنسان الأول مع المحاور الكوسموغونية عندما يتحول جسد السلف الأول إلى عناصر يتكون العالم منها ولكن هذا أيضاً ليس كل شيء: يتحد محور خلق الإنسان ومحور الموت مع محور آخر، هو محور القربان، الذبيحة. وتتداخل هذه كلها في الأساطير تداخلاً تبدو معه كأن سراً مشتركاً ما يخترقها كلها. ففي الأسطورة الهندية القديمة يُصنع العالم كله، بما فيه الإنسان من جسم الإنسان الأولّ بوروشا الذي قدم نفسه قرباناً لنفسه، ويعد هذا الاندغام اندغاماً يصعب تحقيقه، لكنه مشبع بفكرة عميقة.

فنحن نقف في أساطير الموت على بعض المفارقات التي يبدعها الفكر الميثولوجي، إذ يقرّ هذا الفكر المتخيّل واقعاً موجوداً، ويجعل من المفاهيم المجرّدة أشياء محسوسة، ندركها بالحواسّ. ومعنى هذا أن الفكر الميثولوجي المبدع لا يعرف المادّة الميتة، بل يرى العالم حيّاً من أقصاه حتى أقصاه. ومعنى هذا بدوره أن هذا الفكر لا يغادر مجال المحدّد، ويؤول مفاهيمه واقعات لها وجودها المستقل استقلالاً كاملاً.

وتترك الأساطير انطباعاً يوحي بأن الموت لم يكن بالنسبة للقدماء حدثاً يتأثر به أفراد، أو عائلات، أو دولة، فلم يكن ثمة فعل أو حدث واقعي اسمه الموت بالمعنى الذي تعطيه المعاجم لهذه الكلمة. فالموت كان بهذه الصورة أو تلك، واقعاً ملموساً، وكان له في الآن عينه واقعة، وجوده المستقلّ استقلالاً تامّاً. وثمّة في «نصوص الاهرامات» المصرية القديمة نصوص على شاكلة: «عندما لم تكن السماء قد ظهرت بعد، عندما لم يكن البشر قد ظهروا بعد، عندما لم يكن الآلهة قد ظهروا بعد، عندما لم يكن الموت قد ظهر بعد...».

ومثل هذه الرؤية للموت حاضرة أيضاً في ملحمة جلجامش، إذ يتبدّى الموت فيها شيئاً شبه شيئيّ خلق لغرض خاص وليس عبثاً قالت المرآة الساقية الخمر، صاحبة الحانة سيدوري لجلجامش: «ما الذي تسعى إليه يا جلجامش؟ لن تجد الحياة التي عنها تبحث! فعندما خلق الآلهة الإنسان، خلقوا له الموت. وأمسكوا الحياة بأيديهم».

لنلاحظ هنا أن الحياة وضعت هنا مباشرة في مواجهة الموت، ولكن بطريقة بدت فيها الحياة نفسها كأنها كامنة ولا نهائية إذا لم تتدخل فيها ظاهرة كظاهرة الموت فتقطع جريانها، استمرارها. ضف إلى هذا أن للحياة طابعاً شيئياً تاماً، فقد «أمسك الآلهة الحياة بأيديهم». وينبغي ألا نظن أن لهذا التعبير المعنى المجازي عينه الذي للتعبير الذي نستخدمه نحن اليوم: «حياتي بين يديك» بل يتضمن فكرة محددة تماماً.

فجلجامش نفسه أخذ يفكر في الموت لأول مرة عندما أحزنه موت صديقه انكيدو. هل يُعقل أنه سيموت هو أيضاً كما مات انكيدو؟ هل سيتحلل جسده إلى رماد يختلط بالتراب؟ قد يكون ممكناً ألاّ نموت ونعيش أبداً؟ وربما يكون بالإمكان طرد الموت من مدينة أوروك؟ هكذا قرر جلجامش أن يكتشف سرّ الخلود مهما كلفه ذلك.

وطفق جلجامش يسأل كل من يراه عمّا إذا كان يعرف أسرار الخلود. وأخيراً روت له عجوز قصة اوتنابيشتي الذي يعيش على أطراف الكون بعد أن نجا من الطوفان، فلهذا الإنسان وحده وهب الآلهة الخلود، وهو يعرف أسراره. وهكذا بدأ جلجامش طريقه الطويلة إلى آخر الكون عبر البوادي المقفرة، والغابات، والجبال الخطرة، والوديان، والبحار الصاخبة، والأنهار. وقد صادفته في طريقه كثرة من المخاطر والأهوال: هاجمته الأسود الضارية، ولدغته العقارب السامّة. لقد داهمته الليالي وهو في طريقه. فكان يصلّي لإله الليل سين ويغفو قليلاً ثم يتابع طريقه. وبقي على حاله تلك إلى أن بلغ الأفق حيث يعلو شاهقاً الجبل الذي تستند قاعدته إلى قاع الحضيض وتطرق قمته سطح السماء. ولم يكن هناك سوى ممر ضيق يعبر منه إله الشمس شاماش الذي يصعد إلى السماء كل صباح. كما كان ثمة بوابتان ثقيلتان تغلقان الممر ويحرسهما رجل وزوجته: عقربان بوجهين بشريين.

وإذ عرفا إلى أين يمضي جلجامش أخذا يقنعانه بالعدول عن غرضه، فخلف البوابتين يمتد ممر طويل مظلم، وهناك تنتظره طريق مضنية يتعاقب فيها قيظ لافح وصقيع قارس رهيب. ولكن أي قوة في الكون لم تكن قادرة على إيقاف البطل ومنعه من متابعة طريقه. فدخل دياجير الممرّ. وبعد أن تجاوزها خرج من ذلك الممر المظلم إلى بحر لا قرار له، هو البحر الذي يحيط بالأرض كلها. وكان يقوم في آخر اللجّة البحرية قصر تعيش فيه سيدوري، التي كانت تقيم الولائم للآلهة.

فقصّ عليها جلجامش حكايته، وما يسعى إليه، وأخذت هذه بدورها تثنيه عن عزمه قائلة: اغتنم الأيام التي تفصلك عن لحظة الموت! أقم لنفسك كل يوم عيداً، اغتسل بالماء النقي، افرح لكونك حياً ومعافى! لكن سيدوري عجزت عن ثني بطلنا عما عزم عليه. فنصحته إذا كان هو عازم حقّاً على عبور مياه الموت، التي يقيم وراءها اوتنابيشتي، أن يجد النوتي اورشانابي الذي يحاول صيد الثعبان في الغابة.

فخف جلجامش إلى الغابة، وحطم الطلاسم التي تقطع الطريق داخلها، ثمّ خنق الثعبان الذي كان يحرس الدرب ووصل إلى النهر الذي يفيض بالماء فرأى اورشانابي هناك. طلب جلجامش من اورشانابي أن يساعده على الوصول إلى اوتنابيشتي، فأمره النوتي أن يقطع مئة

وعشرين صارياً. ثم أبحرا معا في النهر حتى مياه الموت. ومن هناك أبحر جلجامش وحيداً محاذراً أن تمس يداه الماء القاتل. فقد كان يركز الصاري في القاع ويدفع بالقارب دفعاً. ومن كان ينكسر الصاري يستبدل به آخر. وعندما تكسرت الصواري كلها أمسك جلجامش بالجلد الذي كان على وركيه ونشره كالشراع ثم أبحر متابعاً طريقه. فبان الشاطئ وخرج اوتنابيشتي نفسه. فدهش إذا رأى جلجامش. وعندما علم لماذا جاء إليه، أخذ يقنعه قائلاً: ليس في العالم شيء خالد، أبدي، تعبر المياه وكل شيء يتغيرّ. يتعب الإنسان من كثرة الأعمال ويغفو، يرقد، وهذا الرقاد هو الموت، والموت نفسه رقاد طويل. فكيف تريد أنت أن تتخلص من الموت، أن تتفادى الموت؟

وروى له اوتنابيشتي قصة الطوفان وكيف جعله الآلهة خالداً هو وزوجته وقد رغب جلجامش في أن ينعم الآلهة عليه بمثل ما أنعموا على اوتنابيشتي، عندئذٍ اقترح عليه هذا أن يتغلب على النوم. «حاول ألاّ تنام ستة أيام وسبع ليالي!». فوافق جلجامش، لكن التعب أرهقه فغفا. ولّما استيقظ كان شديد الغضب من نفسه وشرع يعدّ نفسه لرحلة العودة، وهنا أخذت زوجة اوتنابيشتي تتوسل زوجها أن يكشف لجلجامش عن السرّ المكنون. فحكى له هذا عن زهرة شوكية تنمو في قاع البحر وتخبّئ في جوفها عصيراً يمنح الشباب الأزلي. وفي اللحظة عينها ربط جلجامش إلى قدميه حجرين ثقيلين وغاص إلى قاع البحر وقطف الزهرة ثم أخذ طريق العودة. لقد كانت ساقاه كأنهما تحلقان به، لكنه توقف في الطريق عند ينبوع ماء، وأخذ يغتسل فابتعد عن الضفة، وفي اللحظة عينها تسلل ثعبان من جحره فخطف الزهرة وعضّ عليها، فسقط جلده الكهل عنه في الحال وتحول إلى ثعبان فتي لامع. خرج جلجامش إلى الضفة وأخذ يبكي بكاء مرّاً. لقد أدرك أخيراً عبثية جهوده، فلن ترحمه الشيخوخة الزاحفة، وحتمية الموت.

إذن لقد كان يمكن للبطل أن يحظى بالحياة الأبدية عن طريق أكله الحياة كمادة شيئية. وفي أسطورة أخرى، هي أسطورة آدابا الذي كان واحداً من الحكماء السبعة في الميثولوجيا الأكادية، حظي البطل أيضاً بإمكانية اكتساب الحياة الأبدية. فقد مضى آدابا إلى قصر آنو في السماء، وكان الإله إيا قد زوده بنصيحة: اجعل شعرك في الطريق شعثاً ولا تسرحه، وارتد ثياب الحزن. وقد أثار شكله هذا فضول حارسي البوابات السماوية تموز وجيشزيدا، وكان هذان فيما مض إلهين عاشا على الأرض. وجواباً على سؤالهما لماذا يرتدي آدابا ثياب الحداد، كان على هذا الأخير أن يقول: أنه يبكي إلهين اختفيا عن وجه الأرض. ثمّ يذكر اسميهما، ومكافأة له على ذلك شفع هذان له عند آنو الغضوب. كما زوّد إيا آدابا

بنصيحة أخرى: «حينما تمثل في حضرة آنو سوف يقدمون لك طعام الموت، فلا تأكل وسيقدمون لك ماء الموت، فلا تشربه». وهذا ما حصل فعلاً، لكن آنو لم يقدم لآدابا طعام الموت وماءه، بل طعام الحياة وماءها. بيد أن آدابا عمل بنصيحة أيا ولم يقبل الضيافة، ففقدت البشرية، تحديداً الأكاديون إمكانية اكتساب الخلود.

إذن يرتبط الفرق بين الموت والحياة الأبدية في هاتين الأسطورتين بتناول مأكولات محددة. ومهما كانت الحال فإن الأسطورتين تجعلاننا نتساءل: ألم يحظ الإنسان منذ البدء بهاتين الإمكانيتين معاً: الموت، والخلود؟



طرد آدم وحواء من الجنة

مازاتشو، ١٤٢٦م.

في الميثولوجيا المسيحية صارت «الخطيئة الأصلية» سبب الموت، وعقاباً إلهياً لآدم وحواء المطرودين من الجنة.

كيف ظهر الموت في هذا العالم؟

كيف ظهر الموت في هذا الخلق الإلهي البديع؟

كيف صارت البشرية الوليدة إلى خلق فان «هكذا على حين غرّة» كما قال فولاند بطل رواية م. بولغاكوف: «المعلم ومرغريتا»، وحلّت نهاية العصر الذهبي؟

لقد بقيت لدى شعوب الأرض كثرة من الأساطير التي تفسّر أسباب ظهور الموت.

فلنتذكر مرة أخرى قصة الخطيئة الأولى التي اقترفها آدم وحواء.

وحسب الاثنوغرافي والمؤرخ الإنكليزي جيمس جورج فريزر أن الأسطورة الأولى عن سقوط الإنسان في الخطيئة كانت أقدم من الأسطورة التوارتية، وهي تبدو على الشكل الآتي تقريباً.

بعد أن زرع الإله في وسط الجنّة شجرتين سحريتين ثمار أحداهما تحمل الموت وثمار الأخرى تحمل الحياة الأبدية، أرسل الحيّة إلى الناس وأوصاها أن تقول: «لا تأكلا شيئاً من شجرة الموت، لأنكما يوم تأكلان منها سوف تموتان بالتأكيد، ولكن كلا من شجرة الحياة، لأنكما إن أكلتما منها فسوف تعيشان إلى الأبد». لكن الحيّة الخبيثة حرفت الكلام الإلهي وقالت لحواء: «لقد أمركما الإله ألا تأكلا شيئاً من شجرة الحياة، لأنكما يوم تأكلان منها سوف تموتان حتماً، ولكن كلا من شجرة الموت، لأنكما يوم تأكلان منها تحظيان بالحياة الأبدية». أما الحيّة اللعينة الغادرة فقد أكلت من شجرة الحياة، ولذلك صار البشر منذ ذلك اليوم يموتون، والأفاعي خالدة. إذن المسألة كلها تتخلص في أن الحية نقلت رسالة الإله في صيغة محرفة.

ونحن كثيراً ما نقف على محور «الإخبار الكاذب» حاضراً في ميثولوجيات أخرى. فقد روى الهوتينتوت الأفارقة مثلاً، أن القمر أرسل الأرنب يوماً إلى البشر وحمّله إليهم رسالة مفادها أنهم سيكونون مثله: يموتون ثم يبعثون إلى الحياة من جديد. ولكن الأرنب نقل

الرسالة بصورة مختلفة: إمّا بسبب ضعف إدراكه، أو لأنه نسي النص الدقيق، أو بنيّة مبيّتة فقد قال: سوف يموت الناس كما يموت القمر ولن يعودوا إلى الحياة ثانية. ولّما وصل الخبر إلى القمر غضب غضباً شديداً ورمى الأرنب بعصا شقت له شفته، فأسرع الأرنب واختبأ ولا تزال شفته مشقوقة حتى يومنا هذا كما لا يزال يعدو راكضاً حتى الآن.

ويعطي مثل هذا النوع من الأساطير لظاهرة الموت تفسيراً يجعلها مجرّد سوء فهم مؤسف يرتبط بهذا الإخبار الكاذب. وتتلخص محاور هذه الأساطير بخطوطها العامة، في أن الإله أو كائناً ميثولوجياً آخر، يبعث إلى الناس برسول يبشّرهم بأن الآلهة يهبون الحياة الأبدية. لكن البشير ليس على عجلة من أمره، ولذلك يتأخر وصول الرسالة الإلهية. وفي غضون ذلك يغيّر الإله قراره ويرسل رسولاً ثانياً ليخبرهم بأن الناس سوف يموتون. وعادة ما يكون هذا النذير على عجلة من أمره، فيصل قبل البشير. وهكذا يكون الموت من نصيب الجنس البشري، والمذنب في هذا هو البشير الكسول الذي تأخر في نقل الإرادة الإلهية إلى الناس.

ويتمثل مثالنا على مثل هذه الأسطورة في القصة التي يرويها البوشمين. تقول القصة: رغب القمر يوماً بإبلاغ البشر أنهم سوف يكونون كائنات خالدة مثله، أي أنهم سيموتون ثمّ يُبعثون إلى الحياة من جديد. فحمّل القمر هذه البشرى للسلحفاة، لكن هذه كانت متثاقلة جداً، وبطيئة وكثيرة النسيان. فأثار ذلك منها غضب القمر الذي دعا إليه الأرنب المعروف بسرعة عدوه. فأخذ الأرنب طريقه مسرعاً، ولكنه في تعجّله اختلط الأمر كلّه عليه وقال للناس أنهم سيموتون إلى الأبد. وفي غضون ذلك كانت السلحفاة قد وصلت أيضاً ونقلت رسالة القمر إلى الناس. ولما سمع هؤلاء ما قالته السلحفاة غضبوا من الأرنب، ورماه أحدهم بحجر شق شفته العليا.

وعلى هذا الغرار عينه تقريباً يفسر بعض الميثولوجيات الأخرى ظهور الموت: يموت الناس لأنهم ناموا ولم ينتظروا وصول الخلود الذي وعدوا به. وليست المقاربة الميثولوجية للنوم والموت هنا من قبيل المصادفة.

وفي مجموعة كاملة من أساطير مختلف الشعوب يكمن سبب الموت إذا استخدمنا لغة المجاز، في «صندوق باندورا». ولكن قد يكون هذا الصندوق قِدْراً، أو قرعة، أو إناء

ما فيكسر الناس هذا الماعون إما بسبب الرعونة أو لأي سبب آخر، أو يفتحونه بدافع الفضول فتندفع الرزايا المحبوسة فيه خارجة، ومنها الموت.

وقد يظهر في بعض الأساطير، أن هشاشة المادة التي صنع منها الإنسان، هي سبب موته فلا يمكن أن يعيش إلى الأبد ما صنع من طين، أو غصن، أو أعشاب، أو خشب، أو خيوط عنكبوت أو ما شابه من المواد الهشة. ألم يقال للإنسان: «لأنك تراب وإلى التراب تعود» ؟ ومن المفيد أن نتذكر في هذا السياق اسم الإنسان الأول في الميثولوجيا الإيرانية، فقد دعوه هايومارت، ومعناه «الحيّ الميت»، «الحيّ الذي سيموت».

ولكن قد لا يقتصر الأمر على ضعف المادة التي صنع منها الإنسان، بل يمتد الضعف ليشمل صلاته بالكوسموس القريب منه. ويمكننا أن نرصد حضور مثل هذه المعتقدات في تقاليد التيبيتيين. فقد كان كلّ تيبيتيّ يشعر انه يرتبط بالمكان الذي يعيش، بالأرض والسماء ارتباطاً قوياً لا تنفصم عراه. وحسب رأيه أن هذه الصلة تتحقق بشكل محدد تماماً، بوساطة «الحبل مو»، بل كان معروفاً أن لهذا الحبل لون بنّي. وقد تخيلوه سلّماً أو خيطاً، عصفة ريح أو عمود دخان، جبلاً مقدساً أو شعاع نور. ووفق النبوءة أن هذا الحبل كان مربوطاً دوماً إلى يافوخ الرأس أو الخوذة لدى الأسلاف الخرافيين التيبيتيين. وعندما كان واحدهم يموت كانت روحه تصعد على الحبل إلى السماء مباشرة. ولكن الحبل قُطع بعد ذلك بمحض المصادفة، ولذلك بات الناس يموتون وتبقى أجسادهم على الأرض مما قضى بوجوب دفنها.

وثمة أساطير أخرى تعزو سبب ظهور الموت لتفادي الفيض السكاني على الأرض. ففي الأسطورة الهندية القديمة أن الناس في العصر الذهبي كانوا خالدين، والكائنات الحيّة تتكاثر على الأرض إلى ما لانهاية، فامتلأت بهم، حتى عجزت عن تحمل العبء، فتوسلت براهما الإله الخالق العالم. وفكّر هذا طويلاً في طريقة لتقليص كمّ لكائنات الحية، لكنه عجز عن إيجاد طريقة فامتلأ غضباً. وانطلقت ألسنة الغضب من مسامّ جسده كلّها وملأت أرجاء الكون كلّها، فبات الكون قاب قوسين أو أدنى من الهلاك. ولكّن الإله الآخر شيفا، أخذته الرأفة بالكائنات الحيّة، وطلب من براهما ألاّ يغضب، وقال: «إذا هلك جميعهم يخل العالم! فمن الأفضل أن يعيشوا ويموتوا، وألاّ ينقرض جنسهم!».

فخبت النار التي تلتهم العالم، وخرج الموت: ميرتيو، من جسد براهما. لقد ولد الموت من غضب براهما، ومن فكرته بتدمير العالم. ومنذ ذلك الحين وهو يجوب الأرض يحقق إرادة براهما: يقتل الصغار ولكبار، الفتيان والشيوخ، يفرّق الأقارب والأحبّة، الأبناء والوالدين، الأخوة والأخوات. فالموت لا يحبّ ولا يكره، ولذلك عدّوه ملك العدالة.

ولكن كائناً ما كان سبب ظهور الموت، فإنه مرتبط دوماً بأمر واحد: انتهاك النظام الأزلي الذي أقامه الآلهة، وتجاوز العرف الذي كرّسته الأزمنة والتقاليد. فبعد ذلك أخذت تقتحم حياة الناس الآلام، والأمراض، والرزايا، والموت.

وهكذا وفق الأساطير، صار البشر إلى كائنات فانية، خلافاً للآلهة الخالدين، ولن يقاسم البشر الآلهة مصيرهم قط. وحسب المعتقدات القديمة إن علاقة محددة قامت في عالم البشر بين الحياة والموت: مبدأ توازن ما يحلّ فيه حيّ «محلّ» كلّ ميت.

ويتضّح هذا المبدأ وضوحاً خاصاً في أسطورة ايدزانامي وايدزاناغي اليابانية التي تحدثنا عنها سابقاً. فقد أخرجت ايدزانامي إلى النور مختلف الآلهة الذين ملأوا العالم: الجبال، والبحر، والأمواج، وما إلى ذلك. وقد سارت الأمور على ما يرام إلى أن ظهر إله النار الذي لفح ايدزانامي فمرضت وماتت. وعزم ايدزاناغي على زيارتها في بلاد الديجور حيث بنت لنفسها قلعة فيها. وهناك حاول جاهداً ليقنعها بالعودة إلى العالم العلوي، فثمة أعمال خلق كثيرة لمّا تنته بعد! لكنها أجابته بأن الأمر بات متأخراً جداً، وأن العودة باتت مستحيلة، لأنها أكلت من طعام بلاد الديجور وانتهى الأمر. وإذ فقد ايدزاناغي صبره، كسر سناً من مشطه وأشعله ليتبين السبب الذي جعل ايدزانامي تتباطأ، ما الذي يبقيها في بلاد الديجور. فاكتشف أن زوجته المحبوبة قد تعفنت كلّها تقريباً، وأن الديدان تغزو جسدها الذي أخذ يتحلل. فراعه المشهد وأطلق ساقيه للريح هارباً. ولكن ايدزانامي غضبت غضباً شديداً لأن أحداً رآها على تلك الحال التي لا تليق بعظمتها، فأطلقت ساحرات بلاد الديجور خلف ايدزاناغي. وبينما هو راكض أخذ ايدزاناغي غطاء رأسه ورماه فتحول إلى عريشة عنب، لكن الساحرات التهمنها وواصلن مطاردته. فرمى مشطه الذي تحول إلى دغل من نباتات الخيزران أعاق تقدم الساحرات. كما صفى ايدزانامي الحساب مع الجند الذين أطلقتهم خلفه زوجته الحانقة. وأخيراً عثر

ايدزاناغي على ثلاث دراقات عند المعبر الذي يصل بين عالم النور وعالم الديجور، فرمى بها مطارديه وأغلق المعبر بصخرة مهولة. ورداً على الإهانة التي وجهّت لها وعدت ايدزانامي أن تنتقم فتقتل ألفاً من سكان عالم النور كلّ يوم، لكنّ ايدزانامي ردّ بأنه سوف يمنح عالم النور ألفاً وخمس مئة ساكن جديد كل يوم: هكذا تحددت نسبة التوازن بين الولادات والوفيات.

تلكم كانت على وجه العموم أسباب ظهور الموت كما عرضت لها أساطير مختلف الشعوب. ومن الواضح أن الموت لا يفسر هنا بحصول عمليات فيزيولوجية محدّدة، مثلما اعتدنا نحن أن نفعل. فالموقف القديم من هذا الحدث كان مختلفاً وهو يتلخّص في السؤال التالي: لماذا مات هذا الشخص هكذا بالضبط، وفي هذه اللحظة عينها؟ ولم يكن يحدّد سبب الموت وفق تشخيص يقاس عليه، بل وفق كلّ حالة بعينها. ومن هنا جاء اختلاف المواقف من الموت: هو في قصة جلجامش شيء، مادّة شيئية، وقد يكون في حالة أخرى نتيجة لإرادة من الإرادات. وهناك أيضاً تنويعات أخرى.



إله الموت على هرم الشمس الاستيكي

مثلهم مثل المصريين بنى الهنود الحمر أصحاب الثقافات الأمريكية القديمة المتقدمة، أهرامات عملاقة، كان الغرض منها أيضاً خدمة عبادة ملوكهم بعد موتهم.

لكن أهرامات الهنود الحمر تختلف عن أهرامات المصريين من حيث الشكل، فهي تتألف من عدد من الحواف العملاقة البارزة التي تبدو كأنها تقسم الكتلة المتماسكة إلى طبقات.

وتتمة على أحد جوانب الهرم سلَم واسع يؤدي إلى المعبد القائم في أعلى الهرم.

حسب الأسطورة الهندية التي سقناها أن الموت- مريتيو قد خرج من جسد براهما في صورة إله على رأسه إكليل من زهور اللوتوس، ويرتدي ثياباً حمراء- داكنة، فاللون الأحمر في الهند هو رمز الموت.

ولحظة ظهوره اتجه مريتيو جنوباً، لأن الجنوب عندهم بلاد الموت. وعندما أمره براهما أن يقتل الكائنات الحيّة، أخذ يبكي ويتضرّع إليه ليعفيه من هذا العبء المرير. ولكن براهما كان صارماً في موقفه.

أمّا دموع الموت- مريتيو فقد جمعها في كفّه، وتحوّلت إلى أمراض تقتل البشر في الموعد المقرّر.

ويقيم إله الموت الإغريقي الصارم الذي لا يرحم، تاناس، على مقربة من هاديس في مملكة الديجور.

وهو يهبط على الناس بجناحين مهولين مرتدياً رداء أسود، فيقطع ضميمة شعر من رأس الشخص ثمّ يسلبه روحه.

ويبدو الموت في الأمثلة التي سقناها، والأمثلة المشابهة لها، يشبه الإنسان صورة. وهو يظهر إلهاً مستقلاً، أو روحاً، أو عفريتاً على شاكلة السومري نامتار «قاطع المصير»، الذي قالت عنه الملحمة الأكادية:

... هـو مـسّني فحـّولني إلى رمـاد،

جناحين كجناحي الطير ألبسني على كتفيّ:

حـّدق وقـادني إلى بيـت الـديجور...

إلى البيـت الـذي لا يخـرج منـه الـداخل إليـه،

في الطريـق الـذي لا تخـرج منـه القهقـرى...

كما يمكن للموت أن يؤدي عمله بواسطة الإلهة المحاربة، فارطميس «بسهمها المطيع» تحمل الموت، والفالكيريا السكندينافية تحمل الموت للجنود المقاتلين.

وفي العادات الروسية يظهر الموت في صورة «عابر سبيل» ويوصف بكونه «جائعاً»، «بليداً»، «غبياً». كما يسمّونه أيضاً «أفعى ضارية»، و «مصاص الدماء الشره». وهو يأتي دون استئذان، ولا يطرق الباب أبداً، فيسطو خفية كأي لصّ.

وتتحدث عنه الحكايات الروسية القديمة حديثها عن امرأة فتقول:

«امرأة تسير في الطريق. بيت فلاحيّ مضاء، وهناك يستلقي أحدهم مريضاً. وما أن تدخل المرأة البيت حتى يتعالى العويل: لقد مات. ويتحدّثون هناك قائلين: لقد كان الموت هنا. خرجت الروح».

ولكن الأساطير القديمة الأولى لم تقدّم لنا كقاعدة، أي صورة للموت.

ففي واحدة من أساطير القبائل الاسترالية أنهم منعوا الرجل الأول والمرأة الأولى الاقتراب من الشجرة التي كان يعيش عليها الخفّاش. لأن انتهاك سكينته كان محرماً. ومع ذلك فإن المرأة اقتربت يوماً من الشجرة بينما كانت تجمع العيدان الجافّة للنار، فطار الخفّاش. وخرج الموت من مسكنه ومات كثير من البشر بعد ذلك.

ويروى في أسطورة أخرى أن الحيوانات كلّها كانت في الأزمنة الغابرة رجالاً ونساء، وحينما كان يموت أحد منهم، كان الإنسان- القمر يقول له عادة: «انهض». ولكنّ شيخاً عجوزاً قال له مرّة: «دعهم موتى». و.. منذ ذلك اليوم لم يعد إلى الحياة أحد، ما عدا القمر الذي استمّر يبعث بعد الموت.

إذن يوصف الموت مرّة بأن له صورة واضحة مميزة، ومرّة أخرى بأنه قوة غير مرئية، لا شكل لها، ولا يمكن رصدها. عداك عن هذا أنه يستطيع أن يبدل صورته إذ يتجسد في شتىّ الكائنات، كما في النص التالي:

جاءت الميتة على عجل،

فدخلت بناءنا الأعرج،

لقد طارت إلينا غراباً أسود،

وحطّت على جناحي عصفورة صغيرة،

وطارت عبر النافذة حمامة زرقاء...

لقد نوّهنا سابقاً في فقرة «كيف ظهر الموت»، إلى أن هذا الأخير يتماثل لدى مختلف الشعوب مع الهلال- القمر أو مع الأفعى. ويمكننا أن نتتبع تماثل الموت هذا مع القمر المتناقص الذي يبعث دائماً من جديد، منذ اقدم الأزمنة، كما في الأساطير الطوطمية على سبيل المثال.

فقد روى استراليو إحدى القبائل أنه عاش في زمن الأحلام شخص طوطم أوبوسوم. وقد مات هذا ودفن، لكنّه سرعان ما خرج من القبر في صورة فتى. وبقي هكذا، يموت ثم يعود إلى الحياة في السماء من جديد.

وهناك مجموعة أخرى من الأساطير يتماثل الموت فيها مع الأفعى.

ويبدو على أرجح تقدير أن هذا التماثل يستند إلى كون الثعابين تبدل جلدها كل عام، كأنها تولد من جديد. ويقول بعض أساطير اوقيانوسيا، إن الناس أيضاً كانوا يبدلون جلودهم في زمن ما، إلاّ أنهم فقدوا هذه الخاصة بعد ذلك، وصاروا يموتون.

ويحضرني في هذا السياق بيت من الشعر ورد في إحدى قصائد ن. غوميليف:

وحـــدها الأفـــاعي ترمـــي جلودهـــا ونحـــن نبـــدلّ الأرواح لا الأجـــساد

وتروي أساطير الداغونيين الأفارقة المرتبطة بعبادة السلف ليبيه، أنه كان لليبيه هذا ولدان صارا إلى سلفين لقبائل الشعب الداغوني الأربع. ولم يكن الناس في تلك الأزمنة يموتون، بل يتحولون إلى ثعابين وأرواح. ولكن حدث أن مات آرو ابن ليبيه في هيأة ثعبان. فأسسوا لهذا الميت عبادة وضعت بداية ظهور مؤسسة الأقنعة. ومنذ ذلك الوقت عينه ظهر الموت بين الناس، وكان آرو أوّل فان. ثمّ مات بعد ذلك والده ليبيه ولكن في جسده البشري، فوضعوا جثمانه في الأرض. وعندما ترك الداغونيون. بلادهم ماندا، واستوطنوا الامتداد الصخري بانديا غارا، أرادوا أن يحملوا معهم عظام ليبيه، ولكنهم عندما فتحوا القبر لم يجدوا فيه بقايا رفات بشرية، بل رأوا هناك ثعباناً حياً. وقد سار الثعبان خلف الداغونيين لقد كان هذا هو جدهم الذي عاد إلى الحياة في الصورة التي كان عليه أن يتخذها فيما لو لم يحدث ظهور الموت خللاً في النظام الكوني القائم.

ولكن لماذا هذا الإلحاح كلّه على أبراز هذه التماثلات؟

وما الذي كانت تقدّمه لهم صلة الموت بالأفعى، وبالقمر؟

وما الذي كان يمكن أن يقرأه الإنسان في إيقاعات حركة القمر؟ خلال مراقبته لأطوار القمر: ولادته، موته، ثم انبعاثه، كان يمكن للإنسان أن يفهم هذا على أنه أسلوب وجوده هو نفسه في النظام الكوني، وأنه ثمة إمكانية تتوفر له لكي ينجو ويبعث من جديد. لقد مكنت الرمزية القمرية، الإيقاعات القمرية، الإنسان من أن يضع في سياق واحد مجموعة عريضة من الوقائع التي لا تربط بينها صلة ظاهرة وتبدو كأنها متنوّعة:

الولادة والموت، والتغير، والبعث، والمياه، والنباتات، والنساء، والخصب، والخلود. والظلام الكوني، والحياة قبل الولادة، والحياة بعد الموت التي تليها حياة جديدة (= «النور المنبثق من الظلام»)، والمصير، والزمن.

قصارى القول إن أكثر الأفكار التي تتمحور حول المعاودة الدورية، والثنائية، والقطبية، والمواجهة، والصراع، وتوافق الأضاد قد اكتشفت أو تمت صياغتها اعتماداً على الرمزية القمرية.

وليس من قبيل المصادفة أن يشبّه «قانون غروب الروح» المسيحي، الموت بليلة غاب قمرها هبطت على عابر السبيل على حين غرّة. وينبغي أن نشير إلى أن الموت يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمصير، بالقسمة.

فعند السكنديناقيين، والإغريق، والرومان أن النورنير أو الباركي يغزلن خيوط مصير الإنسان ويقطعنها.

إذن كان يمكن أن يكشف القمر للإنسان القديم وحدة الموت والحياة، وليس هذا وحسب بل إن هذه الحياة ليست الحياة النهائية، وأن ثمة حياة جديدة سوف تأتي فيما بعد. لقد صالحهم القمر مع الموت، فالموت بات بالنسبة إليهم أوّل شروط البعث. وقد أعطى هذا كلّه للموت قياساً آخر فقدته الثقافة المعاصرة: كما أن الحياة تتصف بالكونية، أي لها بنية تتجاوز البنية البشرية، كذلك الموت أيضاً لم يدرك بصفته نهاية مطلقة ومأساوية، فقد كان مفتوحاً في الكوسموس (= النظام الكوني. م.)، ولذلك بدا كأنه مجرّد تغيير في خطة الحياة.

وهكذا بينت الأساطير أن كلّ وجود كوني محكوم بالتحولات، بالانفلات كما القمر، وكما الشمس تظهر من الديجور وتعبر إلى النور، كذلك المعلم الميثولوجي يعبر من العدم، من اللا وجود إلى الوجود ثمّ يعود ثانية إلى العدم. ولذلك تؤدي رمزية العودة إلى الرحم دوراً كبيراً في أساطير الموت، وهي تتمتع دوماً بمغزى كوسمولوجي.

يجب العودة إلى الليل الكوني لكي تحدث عملية الخلق من جديد، لكي يحصل البعث ثانية.

تمثال ايمحوتيب معماريّ الفرعون زوسر



كان ايمحوتيب أول من ابتكر بناء مرقد للفرعون على شكل مدرّج كبير يصعد نحو السماء، ولكي يبقى المرقد قائماً إلى الأبد بنوه من الحجارة لا من الآجر كما كانوا يفعلون في الأزمنة البدائية، كما أن ايمحوتيب هو من ابتكر وسيلة قطع الحجارة لنحت التماثيل، وصاغ طرائق نقلها وتنسيقها. ولم يكن ايمحوتيب معمارياً فذاً وحسب، بل كان ساحراً، ومداوياً، وفلكياً، ومنجّماً، وكاتباً، وفيلسوفاً.

تعدّ بلاد الموت واحداً من أهم أجزاء البناء الكوني. وقد اعتقد المصريون القدماء أن فيها سماء، وأرضاً، ودوات، وماء وجبالاً. والدوات أو الدات، أي بلاد الأموات بلاد عميقة جداً، ومظلمة تماماً، ولا نهائية. فالهيروغليف الذي كتبوا به هذه الكلمة عبارة عن دائرة مغلقة في داخلها نجمة. ومن الواضح أن الدوات لا تقع دائماً في العالم السفلي. إذ يقول أحد النصوص الجنائزية القديمة إن هذه المنطقة تقع في الشطر الشمالي من السماء. كما تتوضع هناك أيضاً النجوم التي تدور في فلك نجم القطب. ودعا المصريون هذه النجوم بالنجوم «التي لا تعرف التعب»، و «لا تعرف الاندثار»، لقد زرعت فيهم الأمل بحياة أبدية.

وعلى وجه العموم فإن المصريين أنشأوا لوحة غنية جداً عن العالم الآخر والوجود بعد الموت. ويعدّ عالمهم الآخر هذا تنويعة محسّنة للحياة الدنيا. فإلى هناك يمضي الصنو الروحي لكلّ ميت قوي على اختبارات محكمة اوزيريس: «أنت أيها الميت تدخل وتخرج بقلب فرح، تغوص إلى الأعالي... أنت سليم معافى وراض في قارب الغرب، وقلبك يسعد في قارب الشرق. أوعية جسدك تمتلئ، وروحك مسكوب فيها النور، واسمك يعيش إلى الأبد. هكذا تكون خارج الهلاك دوماً إلى الأبد». أمّا في «محاورة خائب الأمل مع روحه» فثمة إعلان صريح: «إني أرى أن الموت هو الآن منزلي الحميم». والعالم الآخر بلاد عادلة وفيها النعيم نفسه، إذ «لا مكان للخوف فيها»، و «سكانها يتقزّزون من الدسائس»، و «لاشيء يخافه الأقارب، لأنه لا وجود للعداوة في هذه الأنحاء».

ويظهر العالم الآخر في كثير من الأساطير القديمة، نسخة محسّنة عن هذا العالم. وقد يتوضّع في غضون ذلك إمّا وراء هضبة قريبة، أو على أطراف الأرض، أو في السموات. ويمكن أن يتألف من أجزاء مختلفة: الجنّة وجهنّم مثلاً. وكان الهنود القدماء من بين باقي الشعوب التي آمنت بالوجود النعيميّ بعد الموت. ولكن غنيّ عن البيان أنه لم يكن متاحاً لجميعهم أن ينعم به، فقط للصديقين الأنقياء، أمّا الآثمون فقد كان ينتظرهم مصير مختلف. فعندما وصل الحكيم نارادا إلى مقرّ ياما، أي إلى بلاد الموت، رأى هناك نهر الدّم فايتاراني الذي كان يعوم الآثمون فيه ويطلقون عويل الاستغاثة. وكان هناك آثمون آخرون على ضفة

النهر عينه غارقون في رمال ملتهبة. وكانت تنمو هناك أشجار عليها بدل الورق أشواك وسيوف تخز أجساد الآثمين وتقطعها إربا. كما كان خدم ياما الضواري القساة القلوب يضنون هؤلاء التعساء بالنار والسيوف، وكانت الكلاب تعضهم، والديدان ترعى أجسادهم، والجوع بعضّ بطونهم بضراوة، والعطش يشقق شفاههم فيئنون من فرط الألم. أمّا أرواح الصالحين فقد كانت تستمتع في أثناء ذلك بموسيقى رائعة وهي مستلقية في مخادع ساحرة، يقدّم إليها الرزّ، واللبن، وشتى صنوف الطيبات، وتداعبها عذراوات ساحرات آسرات.

ولكن مملكة الأموات تبدو مختلفة بعض الشيء في الميثولوجيا اليهودية. فشيول هي بلاد الصمت والنسيان. وهي كائن حيّ يذكرنا بالوحش الاكادي تيامات. بطنه لا تشبع، يبتلع الأموات دوماً ويطبق عليهم فكين مهولين. وهو يقارن بالسيف الناري الذي يحرس طريق شجرة الحياة من تطاول الكائنات الدّنسة، فيمنعها من الوصول إليها ومن التواصل مع الحياة الأبدية. وأحياناً ما تذكرنا شيول بالجحيم، واللجّة النارية التي تجري فيها أنهار اللهب. وتقع شيول تحت الأرض أحياناً، وفي فضاء آخر أحياناً أخرى، «وراء جبال الظلام»، بحيث تظهر الجنّة من هناك بوضوح.

وليس ثمة فرق بين الجنّة وجهنم في المعتقدات الوثنية السلافية. فكلمة فيري كانت تعني عندهم العالم الآخر ككلّ. وقد رأوا فيه المكان الذي تختبئ الطيور والثعابين فيه خريفاً ومنه تخرج ربيعاً. وهذا يعني أن فيري (أو إيريي) يقع في السماء وتحت الأرض، في الأرض عينها، ولهذا رأوا في درب التبّان نهراً من أنهار العالم السفلي ودرباً تقود إلى العالم الآخر. وفي الحكايات الروسية التي يحكى فيها عن زيارة الروح إلى العالم الآخر وهي في حالة ذعر، يظهر العالم الآخر غابة أحياناً، ومنزلاً فيه ممرّ طويل، له جدران وليس له أبواب أحياناً أخرى، ومرجاً أحياناً ثالثة.

ووضَع الأين، كما فعل كثير من الشعوب الأخرى، بلاد الموت تحت الأرض. فقد دعوها هكذا «البلاد التي تحت»، وكانت من حيث جوهر الأمر استمراراً للعالم الأوسط، عالم البشر، وإضافة عليه. فهي تشبه العالم الأرضي شبهاً كبيراً: ينمو فيها الشجر، وتصخب البحار والأنهار، وتتراكض الحيوانات، وتغرّد الطيور، ويلمع السمك. ولكن كل شيء في «البلاد التي تحت» كان مبنياً بالمقلوب: تسير الناس على رؤوسها، وينمو الشجر جذوره إلى فوق وأغصانه إلى تحت، ... ومثله مثله العالم العلوي، أي العالم السماوي، فقد انقسم العالم السفلي إلى ستّ طبقات. وكانت تقيم فيه أرواح الأموات من البشر وكذلك الأرواح الشريرة. لقد كانت أرواح الموتى تنتقل مجرّد انتقال عادي من العالم الأوسط إلى العالم السفلي فتغدو في «مكان عيشها»

الدائم بعد الموت. واعتقدوا أن هذا الانتقال كان يجري عبر فتحة في الأرض موجودة في الغابة واعتقد الأين في الوقت نفسه بوجود البلاد السماوية التي يقيم فيها الأموات أيضاً.

ولنلق الآن نظرة على الأساطير الإغريقية. فحسب هذه الأخيرة أن هاديس الصارم المتجهّم الذي لا يعرف الرحمة، هو الذي يسود في العالم السفلي، وهناك تقوم مملكة الأموات، ولا يدخل شعاع الشمس يوماً إليها. وتمتدّ الطريق إلى هذا الجحيم من سطح الأرض عبر مهاوي سحيقة. وتفصل عالم البشر الأحياء عن مملكة هاديس الديجورية ثلاثة أنهار. هي: نهر أهيرون الذي ينقل النوتي كارون أشباح الأموات عبره، ونهر ليتا الذي يمنح النسيان: كلّ من يشرب من مائه ينسى أي شيء في العالم، بما في ذلك اسمه، ونهر ستيكس الذي يحيط بمملكة الأشباح من الجهات كلّها.

وتتيه في حقول مملكة هاديس أشباح الأموات، ويتناهى فيها أنين خافت كحفيف الورق المتساقط. وليس ثمة طريق للعودة من هناك، فمن يصل إلى مملكة الأحزان هذه، لن يرجع إلى الأرض أبداً. ويقف عند مدخل العالم السفلي كلب ضار له ثلاث رؤوس، يدعى كيربيريوس، ويخرج من أشداق كيربيروس الثلاث لعاب زعاف قاتل يقطر على الأرض، وتلتف حول عنقه أفاع سامّة تشكّل كتلة واحدة مكورّة.

وفي أعماق العالم السفلي يقوم قصر هاديس مكفهّراً، وهناك في القصر يجلس ربّ العالم السفلي على عرش ذهبيّ تحيط به إلهات الانتقام: الهيريرينيس، حاملات بأيديهنّ السياط والثعابين، فيلسعن كلّ ذا ضمير خبيث ويلدغنه. ويخدم هاديس هناك خادمه الأمين المطيع تاناس، إله الموت، كما يستقرّ غير بعيد عنه شقيقه هيبنوس إله النوم، إله الرقاد...

وهكذا يظهر العالم الآخر، بلاد الموت، في مختلف التقاليد في صور متباينة، ولكنه يتضمّن تماثلات مدهشة تصل إلى حدّ التفاصيل و الجزئيات. ولكن المعتقدات التي وصلت إلينا عن الحياة بعد الموت، والتي نحاول صياغتها هنا في منظومة عناصرها متناسقة، هي من حيث الجوهر تصورات مبهمة ومتناقضة حتى في أساطير الشعب الواحد، ضف إلى هذا أن رؤى مختلف العصور تراكم بعضها فوق بعض في هذه الأساطير فأنجبت لوحة غريبة الشكل متقلّبة الأهواء. فلنأخذ الميثولوجيا السكندينافية على سبيل المثال: بعد الموت يواصل الإنسان العيش في روح من غير جسد، أو في «ميت حيّ» له جسد عادي تماماً يعيش في والهالا أو في هيل، اللتين ليس من غير الواضح أين تقعان: إما في جوف الجبل الذي عاش فيه أسلاف المتوفى، أو في مساكن إلهة البحر ران (إذا ما توفّى غرقاً)، أو في قبر، أو في حفيده. ومن المهمّ أن نشير أيضاً إلى أمر آخر: لقد كان الإيمان بالحياة بعد الموت مرتبطاً عندهم بتصورهم عن ثبات الزمن ورسوخه.

الطريق إلى «بلاد الأبد»



رسم لموكب جنائزي

في مصر القديمة

لم تكن الجنازات عروضاً كئيبة بقدر ما كانت عروضاً احتفالية بهية تذكر بمسيرات الأنتقال من منزل لآخر.

فقد كان خدم الدفن يحملون عادة الورود، والفطائر، والدوارق، والإصص، والأسفاط، وأدوات العمل، والمقاعد، والأسرّة، والخزائن، والمركبات المفككة.

كما كانوا يحملون أيضاً الأشياء الشخصية للميت، بما فيها الأشياء الثمينة وأشياء الزينة.

وفي غضون ذلك كان أهل الميت ينتحبون وتساعدهم على إظهار عمق حزنهم ندّابات محترفات.

بما أن بلاد الأموات تعدّ جزءاً لا يتجزأ من بناء الكون، ولها مكانها في اللوح الميثولوجية للعالم، فإن الوصول إليها بهذه الوسيلة أو تلك أمر ممكن.

وقصّة اورفيوس الذي نزل إلى دياجير هاديس خلف زوجته إفريديكي معروفة جيّداً، الأمر الذي يعفينا من ضرورة إعادة سردها هنا.

ولكن ثمّة محاور شبيهة تنتشر في كثير من الميثولوجيات الأخرى، وهي حسب رؤيتنا المعاصرة ليست أقلّ مأساوية من المحور الإغريقي.

ففي الميثولوجيا السكندينافية يتوضّع مثوى الأموات في الشمال وتحت في الأسفل وتستقرّ ربته الضارية هيل، ابنة الإله لوكي، عند جذور شجرة الدردار ايغدراسيل. منظرها يثير الهلع في النفس: قامتها مهولة، وقوتها خارقة، زد على هذا أن نصفها أزرق اللون، ونصفها الآخر بلون اللحم.

وعندما مات بالدر إله الربيع الفتيّ وابن الإله الأعلى اودين من زوجته فريبا، انبرى هيرموند الابن الأصغر لاودين، والذي لم يكن قد أتمّ الثامنة عشرة من عمره بعد، ليمضي إلى هيل ويعرض عليها فدية لبالدر. امتطى هيرموند صهوة جواد اودين، سليبنير ذي الأرجل الثماني، وأخذ طريقه.

وعلى مدى تسعة نهارات وتسع ليال كان هيرموند يرمح بجواده تحت الأرض دون توقّف عبر الممّرات والكهوف إلى أن وصل إلى نهر هيول الذي يفصل بين بلاد الأحياء وبلاد الأموات. وكان هناك جسر ذهبي دقيق يصل بينهما عبر النهر، وكانت العملاقة مودهود خادمة هيل تحرس ذلك الجسر.

وقد دهشت هذه دهشة كبيرة إذا رأت بدل الشبح فتى أهيف يرتّج الجسر تحته ويتمايل: أمس فقط مرّ فوق الجسر خمس مئة مقاتل ولم يتمايل بهذه الشدّة.

فقال لها هيرموند أنه ليس شبحاً، وإنه جاء إلى هيل ليعرض عليها فدية أخيه بالدر. فأشارت له مودهود نحو طريق الشمال حيث يقوم قصر ربة عالم الأموات

تحت نيفلهيم. وأضافت تقول: «ولكن احذر أيها الشاب، فإني لا أظن أنها ستتركك تعود».

وعند نهاية اليوم العاشر وصل هيرموند القصر العالي المحاط بقفص حديدي كانت حرابه تغصوص في الديجور الرهيب. ولكن سليبنير لم يجد صعوبة في أن يرمح عبر القفص ليهبط أمام مدخل القصر.

ومثل الفتى أمام الرّبة السفلية وشرح لها سبب حضوره إلى مملكتها، ثمّ أضاف أن الأسات على استعداد لدفع أي فدية تطلبها لقاء استرداد بالدر.

فضحكت هيل، لأن الذهب عندها أكثر مما لدى الأسات، فما الذي يمكن أن يعرضوه عليها؟ كلاّ، لا تريد أي شيء.

ومع هذا وافقت على أن تطلق سراح بالدر بشرط واحد، هو أن يجوب الآلهة كلّهم العالم كلّه، وإذا رأوا الناس كلّها تبكي بالدر، وأنهم يحتاجونه فعلاً، عندئذٍ فليعد إليها هيرموند بهذا الخبر، وهي ستطلق شقيقه.

ثمّ أطلقت هيل الفتى ليعود إلى دياره، وكان هذا أوّل كائن يرجع من عندها إلى بلاده. فأوصى بالدر أخاه أن يحمل معه الخاتم دراو بنير الذي كان اودين قد أعطاه له يوماً، لكي يكون دليلاً على أنه كان في هيل فعلاً.

بيد أنه لم يكن مقدراً لبالدر أن يرجع إلى الآلهة، على الرغم من أن كلّ حيّ وميت كان يبكيه ويأسى له.

ولكن كان ثمّة كائن فرح جذل: إنها العملاقة توكّ التي تقيم في كهف يوتونهيم. وليس من الصعب طبعاً أن نخمن، أن تلك العملاقة لم تكن سوى لوكي الغدار الذي كان قد اتخذ هيأتها، والذي كان لا يزال قادراً على أن يأتي بمثل هذه الأفعال الشنيعة.

وهناك محور آخر هو أكثر جاذبية من محورنا الاسكنديناي في هذا، إنه قصة «نزول إينانا إلى المملكة السفلية»، التي وردت إلينا في الميثولوجيا السومرية.

ومن المعروف أن إينانا «ملكة السموات» وإلهة الحب والخصب، هي الشخصية الأنثوية المحورية في مجمع الآلهة السومري. لقد صارت إينانا زوجة الراعي دوموزي (= تموز. م.)، الذي

مات؛ وفي الأساطير روايات مختلفة حول موته. لكنه على أي حال وصل إلى العالم السفلي. إلى مملكة الأشباح.

حيث له فيها حصة من القوت، الذي ليس بقوت

ونصيب من الماء، الذي ليس بماء قط،

هناك حظائر للقطعان،

وهي ليست قط حظائر القطعان، ...

كانت إينانا تسكب دموعاً حرّى على زوجها الشاب، واندفعت من أعالي السماء قاصدة عمق مملكة العالم السفلي، «بلاد الأبد» التي لا رجعة منها، وقد ارتدت أبهى الحلل وتزينت بأجمل الحلي.

وكانت ملكة المملكة السفلية هي أختها الرهيبة اريشكيجال، إلهة الموت والديجور. ويبدو أن إينانا قد أخذت بالحسبان أنها قد لا ترجع من هناك، لذلك أوصت خادمتها نينشوبور، إنها إذا لم تعد بعد ثلاثة نهارات وثلاث ليال فيجب أن يبدأ مجلس الآلهة يبكيها. ثم طلبت منها أن تجول بعد ذلك على الآلهة وتطلب عونهم.

وبعد الإجراءات الاحترازية أخذت إينانا طريقها إلى المملكة السفلية، وها هي تقترب من معبد اريشكيجال اللازوردي. فيستقبلها البواب نيتي، ويعرف من هي، ثمّ يمضي ليخبرا الإلهة. ولم تسرّ هذه للنبأ، لكنها أمرت أن تفتح أمام إينانا سبع بوابات كان ينبغي على الإلهة أن تنضو عنها أمام كل بوابة حلّة من حللها الجميلة بحيث تصل إلى مقرّ اريشكيجال عارية تماماً.

فتلك هي قوانين «بلاد الأبد»، التي ينبغي على كلّ من أن يأتي إليها عارياً.

بهذا تكون إينانا قد باتت مثلها مثل أي ميت آخر، لكنها لم تكن في سلوكها أمام أختها الفظيعة، كائناً فانياً أبداً. فقد دفعت بإريشكيجال عن العرش وجلست هي عليه. لكن مجلس الآلهة- الانوناكي اجتمع وحكم على إينانا بالموت، لأن انتهاك قوانين العالم السفلي كان أمراً محرماً تحريماً صارماً.

فتحوّلت إينانا الميتة إلى جثّة لحمية مخضرّة تغطيها البقع، وعلّقوها على خطّاف في الجدار.

وفي تلك الأثناء كانت نينشوبور تنتظر كما أمرتها سيدتها ثلاث نهارات وثلاث ليال. ومع انتهاء المدّة أخذت تبكي سيّدتها إينانا فخدشت فمها، وعينيها، وبطنها، وأعلنت الحزن الذي حلّ بها.

وجالت على الآلهة واحداً واحداً طالبة منهم إنقاذ إينانا.

ولكن لم يجبها سوى انكي، الذي يعرف «قوت الحياة»، و «ماء الحياة».

فأرسل ندّابين محترفين، هما كورغار وكالاتور بعد أن علّمهما ما ينبغي عليهما فعله وقد فعل هذان كلّ ما يلزم، وها هي إينانا العائدة إلى الحياة تستعدّ لمغادرة العالم السفلي. لكن الانوناكي يتدخّلون ثانية في الأمر: ليس بمقدور الإلهة أن تذهب هكذا بكلّ بساطة. ينبغي عليها أن تترك بديلاً يحلّ محلّها.

ومضت إينانا برفقة رسل العالم السفلي من العفاريت الصارمين الذين لا يعرفون الرحمة، وكان هؤلاء ينتظرون البديل الذي ستختاره إينانا.

بيد أنّ إينانا لا تستطيع أن تترك بدلاً عنها لاخادمتها المخلصة، ولا الآلهة الحارسة المدن التي تعبرها، لأن هؤلاء بكوها بحسرة، وزحفوا معفّرين بالتراب مرتدين الاسمال.

وعلى هذه الحال وصلت إينانا إلى مدينة أوروك فرأت هناك زوجها دوموزي الذي كان واضحاً أنه يستمتع بحياته بدل أن يأسى ويبكيها، ولم يكن يرتدي اسمالاً معفرة بالتراب، بل رداء ملكياً مزخرفاً.

فحدّقت إينانا فيه ورمته «بنظرة الموت»، فحمله الرسل المرافقون إلى مملكة الموت. ولكن جشتينانا شقيقة دوموزي المحبّة أضناها عذاب فراق أخيها، فرقّت لها إينلنل وخففت الحكم: سيتناوب دوموزي وجشتينانا الإقامة في العالم السفلي.

وهكذا يتداخل الموت والحياة في هذه الأسطورة تداخلاً غريباً: كان إحياء إينانا هو السبب في موت دوموزي، أمّا بعث دوموزي فقد كان مرتبطاً بموت جشتينانا التي كانت تقاسم أخاها مصيره في العالم السفلي.

وكما أكثر الأساطير الأخرى فإن هذه الأسطورة أيضاً يمكن فهمها وتأويلها بطرق مختلفة. فيعتقدون عادة أنها ترتبط بفكرة الإله الذي يموت ثمّ يبعث حياً، أمّا هلاك دوموزي فقد ربطوه بجفاف فصل الصيف عندما يقضي القيظ اللافح على كل حيّ. كما افترض

بعضهم أن دوموزي، هو الطاقة الكامنة في البذرة، و في الجعّة التي تصنع منها، أما جشتينان فهي تجسيد لقوة عريشة العنب والنبيذ. وأولوا شخصية إينانا في غالب الأحيان. على أنها تجسيد لقوى الطبيعة القادرة، ففيها تبدو سماتها الشمسية واضحة: لقد أجابت البواب عندما سألها من أنت، قائلة: «أنا نجمة الصبح».

ولكن هناك تأويلات أخرى ممكنة لهذه الأسطورة: يمكن أن نرى في الرحلات المدهشة التي قامت الإلهة بها، وكذلك في رحلتها الخطرة إلى دياجير العالم السفلي، تيهاً للروح في منعطفات التيه الذاتي الداخلية عندما تصفو المشاعر وتسكن.

وفي هذه الأسطورة، كما في أساطير أخرى كثيرة، لم تكتف الأساطير بتفسير العالم وبنيانه، بل قدمت للناس عوناً عبر الرمز والصورة، لحلّ المعضلات النفسية العميقة.

الطقس الجنائزي



رسم رأس عيلامي متوفى

«وادي الرافدين»

منذ العصر الحجري القديم والناس تكن احتراماً خاصاً للأموات أو لبقاياهم.

وعلى الرغم من رغبة الأحياء في الحفاظ على الصلة مع الأموات، إلا أنهم بقوا يتوجسون خيفة من الأذى الذي قد يسببونه لهم، ولذلك يحاولون استرضاءهم في أثناء إقامة الطقوس.

وقد رأى كثير من الشعوب الزراعية في الأموات حراساً ميثولوجيين للأرض، ودعوهم «ليشاركوا» في طقوسهم.

تحضرنا في هذا السياق قصة انتقام الأميرة اولغا، وهي أوّل امرأة تعتلي عرش إمارة كييف العظمى. لقد قتل النبلاء زوجها الأمير إيغور. فجاء انتقامها له مبتكراً ومحسوباً بدقّة، ولكنه يذكرنا في الوقت نفسه بتأدية طقس ما. فوفق الحوليات أن الدرفليان أرسلوا إليها بعد أن صفّوا حسابهم مع الأمير إيغور مباشرة، سفارة تعرض عليها الزواج من أميرهم مال. وقد يبدو هذا العرض غريباً جداً بالنسبة للإنسان المعاصر، إلا أنه كان يتوافق تماماً مع أعراف تلك الأزمنة وعاداتها، ولذلك لم يكن غريباً أن تعطي الأميرة اولغا موافقتها.

ولكن كيف تصرفت اولغا؟ لقد استقبلت السفراء وقررت أن «تكرّمهم» إذ عرضت عليهم أن يحضروا إليها لا على جيادهم، ولا مشياً على الأقدام، بل محمولين في زوارق. وحمل خدم القصر الأميري الرسل في الزوارق، ثمّ رموا بهم في حفرة معدّة مسبقاً ودفنوهم أحياء بعد ان سألتهم الأميرة: «هل التشريف مناسب؟». ويفترض العلماء أن اولغا قد أقامت في واقع الأمر طقساً جنائزياً، فالسلاف القدماء اعتادوا أن يدفنوا موتاهم في زوارق.

وعندما جاء اولغا في المرّة الثانية أفضل رجال الدرفليان وعرضوا عليها العرض عينه، أمرت أن يقفل عليهم الحمّام، وأحرقوا هناك أحياء. ولكن هل فعلت اولغا ذلك لتطفئ نار الانتقام في قلبها؟ كلاّ، بل كانت تواصل تأدية طقس الدفن: كان السلاف القدماء يسخّنون الحمّام لأسلافهم الموتى.

وعندما أقامت اولغا المأتم وبكت زوجها في أرض الدرفليان، أمرت حرسها الشعبي أن يقطع الدرفليان السكارى أثناء الوليمة إرباً، و «أبادوا منهم خمسة آلاف». هكذا أقام الدرفليان مأتم إيغور القتيل ومأتمهم هم أنفسهم. وأخيراً عندما استولت اولغا على معقل الدرفليان وأحرقت المدينة، إذ أمرت أن تعلّق محارق إلى أطراف الطيور المنزلية التي أُخذت من السكان، تكون قد أدّت بذلك طقس القربان الختامي، التزاماً بالعادة السلافية القديمة القاضية بتقديم الطيور قرابين للآلهة.

وهكذا تكون الأميرة صاحبة الابتكارات في وسائل الانتقام، قد أدت في حقيقة الأمر طقساً جنائزياً قديماً يصعب تبينه في الحولية من القراءة الأولى، خاصة أن القصة لم تصل إلينا في الصياغة الوثنية للحولية.

ولكن لماذا رشحت في الحولية أصداء الطقوسية الجنائزية الوثنية القديمة؟ على أغلب الظن لأنها كانت لا تزال حاضرة في واقع أولئك الذين صاغوا الحولية. فالموقف من الموت يعد سمة من أهم سمات الوعي الجماعي، فهو يُظهر أعمق أسرار النفس الإنسانية، ويُخرج مكنونات الثقافة التقليدية. ولذلك فإنه من الطبيعي تماماً أن تشغل معتقداتهم عن الحياة والموت، وعن الوجود بعد الموت، وكذلك شعائر الدفن وطقوسه المرتبطة بتلك المعتقدات، مكاناً بارزاً في رؤى أي شعب، وليس سوى الأساطير وعاء يرسّخ هذه التصورات والمعتقدات كلّها وينقلها عبر الأجيال. ويعدَ الطقس الجنائزي آخر فعل دراميّ في حياة الإنسان، وفيه تتلامس الحياة مع الموت وتتقاطع، ويتجلى مغزاهما بأعمق مظاهره. ففي هذه اللحظة بالذات يمكن أن نشعر مع ل. ن. تولستوي أنه «إذا كانت الحياة نعمة، فإن الموت بدوره نعمة أيضاً، وانه يشكل الشرط الضروري للحياة».

وعلى صعيد آخر تبين أعمال السبر الآثاري أن أكثر المجمّعات غنى بالموجودات المادية، هي مواقع الدفن تحديداً، ويظهر في غضون ذلك أن الموقف من الأموات لم يكن موقفاً واحداً ثابتاً عبر القرون. وتؤكد أعمال الرصد الاتنوغرافي بدورها على صحّة المعطيات الآثارية: لقد لوحظ تحول واضح في موقف شعب مبييري الإفريقي (وسط كينيا) تجاه موتاه، من اللامبالاة التامة تقريباً، إلى توثيق الصلة معهم. فعلى مرأى من الباحثين جرى هنا تمليك الأرض لمشاعات كانت من قبل مشاعات بدوية متنقلة. فيما مضى كان المبييري يبعدون جثامين الموتى في الأدغال، فقد كانوا يخافون منها، ولذلك حاولوا استرضاء الأموات بالقرابين لإبعادهم عن الأحياء، لكنهم لم يقيموا طقوساً منتظمة تكريماً لهم. وبعد أن ملّكوا الأرض للأموات تغيّر موقفهم منهم. فقد بات دفن الرجال في أرض عشائرهم يُعد ترسيخاً لصلة العشيرة المعنية بالأرض. ونشأ في هذا السياق اعتقاد مؤداه أن الأموات يتألّمون إذا ما أُعطيت الأرض التي يدفنون فيها للآخرين. وثمة حضور لمثل هذه الصلة بين الأموات وأرضهم الأم، وبينهم وبين مكان إقامتهم، في معتقدات شعوب كثيرة وتصوراتها. ومن هنا تأتي السمة الهامّة لشعائر الدفن، إذ يغدو الأموات شركاء كاملين في إقامة طقوس الأحياء، وهذا ينسحب خاصة على طقس الدورة الزراعية وشعائرها. ولهذا صارت

أرواح الأموات في غالب الأحيان موضع عبادات عائلية، كما كانت عليه الحال عند الرومان مثلاً، إذ عبد هؤلاء أسلافهم. فقد اعتقدوا أن بإمكان الأسلاف منح العافية، والخصب، والبحبوحة.

بل ساد عند المصريين تقليد توجيه رسائل مكتوبة إلى الأموات، وقد دوّنوها على كؤوس، أو قدور، أو تماثيل صغيرة، أو ما شابه من المواد، وكانت هذه عبارة عن نصوص مثل: «اعمل كي يولد لي ولد ذكر، سليماً معافى، لأنك أنت روح كامل». وكانوا يعللون طلباتهم هذه بضرورة وجود وريث يرث الثروة التي يكون للمتوفى علاقة مباشرة بها.

من الواضح إذن أنهم في المجتمع القديم لم يؤمنوا بالحياة بعد الموت وحسب، بل ربطوها بالحفاظ على ماهية مادّية ما، كالعظام على سبيل المثال، وهي «جزء من الإنسان لا يفنى». لقد كانت هذه المعتقدات معروفة لدى سكان وادي الرافدين، إذ رأى هؤلاء أن الحفاظ على العظام، وهي أساس الجسم، أمر ضروري للعيش في العالم الآخر عيشة سوية. ولم يكن ثمة عار بالنسبة للخلف أعظم من تدمير عظام أسلافه. وهذا ما يفسر إصرار الآشوريين على تدمير رفات أعدائهم. فقد أمر آشور بنيبعل أبناء عدّوه المهزوم بسحن عظام والدهم. وعند كثير من شعوب سيبيريا كان الحفاظ على العظام سليمة من أي أذى شرطاً ضرورياً للبعث بعد الموت. وعرف سكان وادي الرافدين تقليد صناعة تماثيل لموتاهم. فقبل أن يواري جلجامش جثمان انكيدو في «مكان سكينته» أمر أن يصنع له نصب. أليست هذه هي جذور تقليدنا المعاصر بإقامة التماثيل؟

وليس من قبيل المصادفة أيضاً أن تتحايث المقابر في المجتمعات القديمة مع أماكن السكن. ويمثل الطقس الأيني الذي رصد مؤخراً مثالاً ملائماً في هذا السياق: لقد وضعوا الطفل المتوفى في قِدر من الفخار، ووضعوا القدر مقلوباً أمام مدخل المسكن، وكان القدر يمثل جوف الأمّ، كما كان التردد إلى المكان الذي دفن الطفل فيه بمثابة اتحاد زواجي. ومن الواضح تماماً أن الغرض من طريقة الدفن هذه، هو بعث الطفل الميت.

وعلى وجه العموم إذا ما حكمنا على الأمور وفق شهادات علم الآثار، فإنه يمكننا القول إن الحقب القديمة عرفت أشكالاً مختلفة لدفن الموتى: أبقوهم في المنزل نفسه، أو رموهم هكذا في العراء، أو أنزلوهم في الماء على متن زورق أو قارب، أو دفنوهم في الأرض، أو

في كهف، أو أحرقوهم، أو حنطوهم، أو أكلوهم. كما كانت هناك أشكال مختلطة أكثر تعقيداً.

ولكن في الأحوال كلها كان يجري تقريب الموتى إلى الأحياء حتى الحدّ الأقصى: اعتقدوا أن هؤلاء تركوا أقاربهم ولكنهم يترددون إليهم بين الحين والحين في صور أخرى. وفي المجتمع الطبقي ظهرت الصورة الواضحة الدقيقة لعالم الأموات، وكان هذا في الحقب البدائية عالماً قريباً جداً يتوضع في مكان على مقربة.

فبعد الموت كان الميت ينتقل إلى العالم الآخر، ولم يتغير بذلك وضعه فقط، بل أهليته أيضاً. وهكذا كان الإنسان ينتصر على الموت بتحويله إياه إلى طقس انتقال. والذي يحصل نتيجة لذلك أن الموت يحصل لشيء ما ليس أساسياً، أي أنه لم يكن موتاً كاملاً. فالإنسان يموت بالنسبة للحياة الدنيا، للحياة العادية، ويبعث في العالم الآخر، وبات هذا الظرف يؤدي الدور الجوهري في كثير من الديانات.

لقد اعتقدوا أن الميت يجب أن يعبر بعد الموت سلسلة من الاختبارات التي يرتبط بها مصيره بعد الموت. كان عليه أن يدخل جماعة الأموات ليغدو واحداً من الأسلاف. ويعدّ طقس الدفن وحده القرينة الحقيقية على واقعة الموت لدى كثير من الشعوب: من لم يدفن وفق ما تقضي العادات به لا يعدّ ميتاً. ولكن كيف يبدو طقس الدفن هذا؟

لقد كان طقس الدفن يدخل مع معتقداتهم عن الموت، اللوحة العامّة للحياة، ولذلك كان يتضمن سمات واضحة من بناء العالم. ولا تعدّ شعائر الدفن انتقالية من حيث محتواها فقط، بل من حيث تنظيمها المكاني أيضاً: لقد عدّوا الطريق الأخيرة من البيت إلى المقبرة بمثابة مدخل إلى العالم الآخر. وكان القبر هو المكان الأهمّ في هذا كلّه، فمنه تمتدّ الدروب إلى العوالم كلها، ولذلك كانت مواقع الدفن تمثل في كثير من الأحيان نموذجاً عن العالم. ومن هذه على سبيل المثال: الحجارة الطويلة، والنصب الحجرية، والأوثان الحجرية، وهي مواقع بسيطة، والأجران البوذية أو الزبورغانات التيبتية، وهي مواقع أكثر تعقيداً. فهذه كلها لا تمثل المحور الكوني الذي يصل بين العوالم وحسب، بل تمثّل كذلك نصباً حدودياً يقوم على الحدود بين عالمي والعالم الآخر. وكان بناؤها بمثابة تكرار للفعل الكوسموغوني.

وكان الذهاب إلى العالم الآخر يترافق إما بدخان النار الجنائزية، أو يتم بمساعدة وسيلة «نقل» (قارب، زحافة، أو ما شابه)، كانوا يضعونها في القبر. ووفق المعتقدات القديمة أن أي شيء يمكن أن يرافق الإنسان إلى العالم الآخر شريطة أن يتحرر من إطاره المادّي.

فكيف كان يتحقق هذا؟ بإتلاف الشيء: يكسر القدر، ويثقب الوعاء بمسمار، وتمزق الملابس، والشراشف. وبذلك تكون الأشياء قد ماتت وبات يمكن للميت أن يستعملها. وهذا بالضبط ما كان يفعله شعب الأين.

وفي بعض الأساطير القديمة وصف دقيق ومتكامل لطريق العالم الآخر. فقد يبدو هذا كالتيه مثلاً، يحفرونه على شجرة أو بجانب القبر. وقد اعتقدوا أن الميت نفسه قد يرغم أحياناً على أن يرسم التيه، تنفيذاً لأوامر الحارس الذي لا يسمح له بالدخول إلاّ بعد تنفيذ الرسم. ويروى في أساطير الهاواي أن درباً من الأرواح تقود إلى العالم الآخر، وأن شجرة الأموات تنمو على مدخله، وعليها غصنان عفنان يتجه أحدهما غرباً والآخر شرقاً. وينبغي على الميت أن يصعد إلى أعلاها ليسقط مع الغصن الذي ينكسر في البحر. وهكذا يصل إلى العالم الآخر. وحتى إذا كان عالم الأموات لا يتوضع بعيداً عن قرية الأحياء، فإن الطريق إليه معقدة على أي حال، وهذا ما تؤكده الأناشيد والابتهالات التي يؤيدها الكهنة، وليس نادراً أن تعاد تأدية الأسطورة الكوسموغونية كلّها أثناء إقامة شعائر الدفن.

وقد تكون الطريق إلى «بلاد اللا عودة» نهراً، تعوم الروح فيه على متن قارب. ويذكرنا هذا العوم برحلة الشامان في النهر الكوني، وفي بعض الأحيان تسترجع تلك الطريق في الرسومات بتفاصيلها. وتبنى خيمة شامانية خاصة لمرافقة الروح. وقد يكون للمتوفى أكثر من روح واحدة، وبالتالي قد يكون لكلّ منها مصير مختلف بعد الموت، وهذا ما يجعل لوحة ترحال الروح شديدة التعقيد. ولكن بصرف النظر عن المسالك المعقدة التي تسلكها الروح، وتنوّع طقوس الدفن، إلاّ أنها في أكثر التقاليد، ترسّخ كلّ السمات العامة للبناء الكوني. وقد بات سبب ذلك معروفاً لنا: لقد أُدخلت الحياة الإنسانية دائرة الإيقاعات الكونية العظمى للعالم المحيط بنا، ولذلك كان موت أحد أبناء المشاعة يثير سلسلة من التداعيات، ويضع العيش الطبيعي للمشاعة كلّها تحت الخطر، فقد سقطت حلقة من حلقات السلسلة، ومهما كانت أهميتها متواضعة، إلاّ أنها إحدى الحلقات على أي حال. وإذا ما أخذنا بالحسبان أن سبب الموت كان يعزى في أحيان كثيرة إلى القوى الشريرة، فإنه بحدّ ذاته يُعد دليلاً أكيداً على تسلل العالم الغريب إلى عالمنا الخاص واختلاطه مع الخراب المحدق، ولهذا كان بعض الشعوب يلغي المحرّمات المعتادة، أثناء فترة الحداد لصاقاً حتى استعادة حالة الكاوس نفسها: كان أقارب المتوفى يقطعون الأشجار المثمرة ويرمون جذوعها على الدروب التي تؤدي إلى القرية، و...

بيد أنه كان ينبغي الخروج من الأزمة بأي حال من الأحوال، فالحياة يجب أن تستمر. وكان المخرج يتمثّل في العمل بدأب على الفصل بين عالمي والعوالم الغريبة، وإبعاد كلّ شيء ينتمي إلى العالم الغريب، وكان هذا كلّه ينتهي عادة بإيداع المتوفى نهائياً بين يدي العالم الآخر. ولا يحدث هذا إلا إذا اكتسب المتوفى أهلية السلف. وإذا لم يحصل هذا كلّه فإن الميت يمكن أن يعود، وحينئذٍ يغدو خطر وقوع الكاوس (= الخراب. م.) واقعاً لا رادّ له. وبعد انتهاء المأتم والمحرّمات المرتبطة به، كانوا يؤدّون الطقوس التي تعيد الأحياء إلى الانخراط في مجرى الحياة الطبيعي، ويبرزون فيها المغزى الرمزي للقرية بصفتها مركز العالم، أما مركز القرية فهو عندهم مسكن تنطلق منه دروب العوالم كلّها.

وبما أن الجماعة البشرية، والمشاعة كانتا مهتمتين بأن يكون لهما حضور هناك في العالم الآخر، لذلك لم تكن الصلة مع المتوفى تنقطع نهائياً بعد إتمام الشعائر، بل كانت تتجدد دورياً في الأعياد إذ كان بمقدور أرواح الأموات أن ترجع. ولكن لماذا كان وجود «ممثلين» للجماعة في العالم الآخر أمراً ضرورياً؟ لأنه بمساعدتهم كان يمكن للمشاعة أن تدخل إلى حياتها اليومية عناصر الطبيعة التي لم يكن الإنسان قد أخضعها بعد، وتضعها في خدمة الجماعة. وبذا يكون للأسلاف مشاركتهم في ميادين حياة المشاعة كلها، ويمثّلون في الوقت عينه حلقة اتصال مهمّة بين هذا العالم وذاك، حلقة تحقق التفاعل بين مختلف أجزاء النظام الكوني في العمل اليومي لهذه الأخيرة.

وإذا كانت بلاد الأموات تقع في بيت البناء الكوني عينه، حيث يوجد كلّ ما هو حيّ، وإذا كان كلّ ما في الأمر هو أن الأموات يغيرون بموتهم خطة وجودهم وحسب، فإن التواصل بين الأحياء والأموات من الأسلاف يغدو أمراً حتمياً. وكان يحصل هذا التواصل عادة في أيام احتفالية خاصة. ففي روما القديمة والمدن اللاتينية الأخرى، كان يؤدى طقس له جذور مغرقة في القدم. لقد كان ثمّة في وسط الميدان المركزي (وهذا يذكّرنا بالمركز المقدس) شيء ما يشبه البئر (ربما كانوا قد أخرجوا منه في يوم ما حجراً نيزكياً)، عَدوه مدخلاً إلى الحضيض، وإليه كانت تنتقل أرواح الأموات. ولذلك كانوا يرفعون الصفيحة الحجرية التي تغلق باب البئر كي تتمكن أرواح الأموات من الرجوع إلى عالم الأحياء. وكان يمنع على النساء والأطفال الخروج من المنزل في الأيام المعنية، كما منع عليهم أيضاً رفع التمائم السحرية التي يحملونها على أعناقهم، وغالباً ما كانوا يرددون في أثناء ذلك

مختلف نصوص التعاويذ، لأن الماني، أي أرواح الأسلاف لم تكن حسنة النوايا دوماً، فقد تنتقم لإهانة قديمة لحقت بها. وفي نهاية الاحتفالات كانوا يرمون في البئر بالألبسة القديمة، والمأكولات، والنقود، ثم يضع ربّ العائلة ثلاث حبات من الفاصوليا السوداء في فمه ويتلو التعاويذ متوسلاً السكون الأبدي لأرواح الأسلاف، ويتفل بعدئذٍ الحبات الثلاث في البئر، ويغلقه ثانية بالصفيحة الحجرية. لقد كانت مثل تلك الآبار بمثابة أنفاق مقدسة تقود إلى العالم الآخر.

الباب الحادي عشر

يوماً بعد يوم نتذلّل

الوحش الذي يموت و يبعث حياً





رسم الدبّ عند الهنود الحمر

الهايدا و السيمشيان

يؤدي الدبَ في أساطير بعض الشعوب دور السلف الأول أحياناً، أو دور البطل الثقافي أحياناً أخرى، أو دور الروح الراعي أحياناً ثالثة، وقد يؤدي كذلك دور الإله الذي يموت ثم يبعث حياً.

وقد يكون متحولاً، وصنواً وحشاً لإنسان، وحيوان ذبيحة.

وعلَة هذا كله أنهم رأوا فيه شبيهاً للإنسان.

لقد كان كثير من الشعوب القديمة الصيادة يؤمن بأن الوحش الذي يقتلونه يعود إلى الحياة من جديد ويأتي إلى الناس في صورة طريدة.

وكانت مثل هذه المعتقدات قد تشكلت بوضوح خاص في سياق التعامل مع الدبّ، والحوت، وبعض حيوانات الصيد الكبيرة الأخرى.

ونحن نوّهنا سابقاً إلى أن الدبّ عُد في شمالي يوراسيا وشمالي أمريكا كائناً ينتمي إلى القوى الخارقة، لكنّه عُد في الوقت نفسه من أقارب الإنسان، أو حتى إنساناً متحولاً، ولذلك كان له دور ملحوظ في الحياة الروحية لكثير من الشعوب الشمالية.

ثم تجمعت المعتقدات والتصورات المرتبطة بالدبّ وشكلت ديانة عرفت منذ العصر الحجري.

وكان طبيعياً أن يتحول الدبّ إلى «بطل» ميثولوجي مهمّ.

فعده بعض الشعوب طوطمه السلف.

ومنهم الهنود الحمر الكواكيوتل الذين اعتقدوا أنهم خرجوا من زواج سلفهم الأول بدبة.

وحسب خرافة الأين أن إله الجبال كان يتردد في الليالي في إهاب دبّ إلى امرأة تعيش وحدها، فأنجبت هذه منه ولداً غدا مؤسس شعب الأين.

وعند الاوغريين الاوبيين والمانسي يتميّز الآلهة الذين خلقوا العالم بسمات دبية واضحة.

كما تنتمي أساطير زواج الإنسان بالدبّ إلى أقدم المعتقدات الطوطمية أيضاً، وقد جاءت هذه الأساطير نتيجة حتمية لإيمانهم الراسخ في التجسّد الأبدي للأسلاف الطواطم في أحفادهم. وأشتهر هذا الاعتقاد شهرة واسعة عبر المحور الفولكلوري الذي يروي قصة اختطاف الدّب لامرأة.

وهو حاضر في الحكايات السحرية لدى كثير من شعوب العالم.

فيروي الأتاباسك الأمريكيون أن فتاة كانت عائدة من الغابة يوماً حاملة معها الثمار التي جمعتها من هناك، فوطئت في طريقها براز دبّ وتزحلقت، فدفعها غضبها إلى شتم الدب وبعد ذلك مباشرة لاقاها في الغابة فتى جميل الشكل وتزوّجها.

ثم تبين بعد ذلك أن الفتى كان دباً قادراً على اتخاذ صورة بشرية، وقد خطف الفتاة، عقاباً لها على شتيمتها له. وعندما حلّ الربيع أنجبت الفتاة ولدين أو ثلاثة أولاد.

ولكن الإنسية زوجة الدبّ اشتاقت للبشر، وباتت تحلم بالعودة إليهم. ولكن أخوتها كانوا صيادين.

ولّما كانت تعرف أنهم قد يصيدون في الأنحاء التي تعيش فيها مع الدب، فقد وضعت على الوجر علامة فارقة.

ولاحظ أخوتها العلامة، فقتلوا الدبّ وأخذوا الفتاة وأبناءها إلى ديارهم. وهناك اطلعت أخوتها على وسيلة سحرية تجعل الصيد وفيراً دوماً.

ولم تكن الوسيلة سوى طقس كان يجب الالتزام به قبل الخروج إلى الصيد وبعد قتل الدبّ، كي لا تنتقم عائلة الدب من الصيادين، بل تساعدهم.

وكان من بين مراسم ذلك الطقس، وهي إجراءات التزم بها الاتاباسك فعلاً، سلخ جلد الطريدة، وقطع أطرافها، وحرق عظامها، وتزيين جمجمتها بالريش، أو تعليقها في الغابة، ودفن العينين في حفرة مستقلة و..

ولكن دعونا نعود إلى المحور الفولكلوري الذي ترجع أصوله إلى الأساطير الطوطمية.

فقد سارت الحياة في القرية التي رجعت زوجة الدبّ إليها سيرها المعتاد، إلى أن أدار الأخوة يوماً لعبة الصيد، وأرغموا المرأة على ارتداء جلد الدبّ.

وكان ذلك وحده كافياً لكي تحسّ هذه بنفسها دبّة حقيقية، فانقضت على أخوتها وقتلتهم ثمّ رجعت إلى الغابة.

ويعرف الاثنوغرافيون كثيراً من التفاصيل المدهشة عن موقف الصيادين من الدبّ في المجتمعات التي لا تزال تحافظ على تقاليد الصيد القديمة.

فالكيتيون والسيلكوب يربون صغار الدببة في أقفاص أو في منازلهم، ويعتنون بهم اعتناءهم بأطفالهم، بل كانوا ينادونهم يا بنيّ أو بنيتي.

وكانت النسوة الاينيات يرضعن صغار الدببة صدورهن، ولم يكن لديهم أدنى ريب في أن هؤلاء يفهمون اللغة البشرية.

لقد كانت عبادة الدبّ مرتبطة بكثير من الجوانب الأخرى لحياة الإنسان الروحية: بعبادة النار مثلاً، ولذلك كانوا يحرّمون أيّ كلام عن الدّب قرب النار، إذ اعتقدوا أن النار تنقل الكلام له في الحال.

وحاولوا جهدهم استرضاء الدّب الذي يقتلونه أثناء الصيد، كأني بهم يتوسلونه الصفح، فيحضنون رأسه، ويستلقي العجائز على جسده، ويداعبونه ويحضنون جسده، ويطلبون السماح.

وكان الصيادون الأينيون يدفنون رأس الدب المقتول في احتفال مهيب يقيمونه في الغابة حيث يدفنون رؤوس أمثاله من الدببة، كما كانوا يضعون رؤوس الدببة المصادة فوق سياج خاص مقدس.

وكان الغرض من إقامة هذه المراسم كلّها واحد، هو أن الحفاظ على رأس الدب وباقي أجزاء هيكله العظمي يجب أن يمهّد طريق انتقال روح الدبّ، أو بمعنى أدقّ صنوه الروحي إلى دبّ آخر جديد.

لقد آمن الصيادون إيماناً عميقاً بولادة الوحش مرّات أخرى. ولا يمكن للأمور أن تسير على غير هذا المنوال، لأنّ الدبّ ابن الإله الجبلي، وقد أرسله هذا إلى الناس، ويجب عليه الآن أن يرجع من حيث أتى بعد أن أعطى الناس الجلد واللحم.

ولكي يحصل البعث بالتأكيد كانوا يقيمون طقساً احتفالياً يدعى عيد الدبّ.

كما كانوا يحتفلون بهذا العيد عندما يقتلون الدبّ في الصيد، وعندما كانوا ينحرون الدبّ الصغير الذي يربونه في منازلهم.

وأطلق الأين على هذا العيد اسم «التشييع» أو «تشييع الإله». لقد كانوا يعتقدون أنهم يرسلون روح الدب إلى «بلاده الأم» حيث يعيش أقاربه، وحيث سيسكن سيد الوحوش هذه الروح في جسد جديد يرسله مرّة أخرى إلى الصيادين.

ومن البدهي أن هذا المغزى لم يكن المغزى الوحيد للعيد، مع أنه كان مغزاه الرئيس.

ففي أيام الاحتفال بالعيد كانت تقام أيضاً، الصلات بين عالم البشر وعالم الأرواح عداك عن هذا أنه كان يتجمّع للاحتفال بالعيد كل الأقارب والجيران، والأصدقاء والمعارف من القرى القريبة والبعيدة، الذين كان موسم الصيد يبعثرهم في مختلف الأرجاء. وكان من يقيم الاحتفال يحظى بكثير من الشرف والاحترام، يتزايدان كلما أكثر من إقامة الاحتفالات.

وكانوا يلتزمون أثناء العيد بالعادة القديمة القاضية بتبادل المساعدة، إذ كان اللحم يوزّع على المشاركين بالتساوي، مع أن القطع الطقوسية كانت دائماً من نصيب الصيادين أو أصحاب الاحتفال. وكان الاحتفال بالعيد يترافق عادة بكثير من المرح الصاخب الذي كان يتخلله مختلف الألعاب والتمارين والرقص.

أمّا اليوم الرئيس من أيام عيد الدبّ، فهو يوم نحر الدبّ الذي ربيّ في القفص أو في الزريبة. فقبل بدء الاحتفال بسبعة إلى عشرة أيام تبدأ النسوة بغلي المشروب الكحولي، بينما يشتغل الرجال في تلك الأثناء بإعداد العصيّ المقدسة إيناو، والسهام.

وفي اليوم المحدد يتوافد جميعهم إلى منزل صاحب العيد، ثم يبدأ الرقص، ويقلد الرجال في غضون ذلك خوار الدبّ، بينما ترقص النسوة لوحدهن حيث يستعدن أسطورة زواج الدب والمرأة. وتقدم القرابين للآلهة.

وعشية العيد كان النوم محرماً على المشاركين فيه، وكان جميعهم يحاول أن يلتزم التزاماً صارماً بنقاء العادات القديمة.

وفي يوم العيد يأتي جميعهم إلى قفص الدبّ الضحية، فيبكونه. وكان هذا اليوم يدعى «يوم إخراج الإله». فعندئذٍ بالضبط كان يؤدى الإجراء الأكثر احتفالية في العيد كله: نحر الدبّ. إمّا يخنقونه بحصر عنقه بين جذعين والضغط عليهما، أو يرمونه بسهم، أو يطعنونه بسكين في قلبه. وعدّوا دماء الدّب دواء إلهياً يمنح قوى سحرية، ولذلك كانوا يجمعونها في إناء مقدس، ويشربها أكبر أفراد المشاعة سناً.

كما كان الرجال يلطخون ثيابهم بدماء الدب، لأنهم اعتقدوا أن ذلك يجعل صيدهم المقبل موفقاً.

وفوق جثة الدّبّ المقتول كانوا يتلون الصلوات ويندبونه.

بعد ذلك يسلخ العجائز جلده، «يعرّون» الدّبّ. ويحاولون في أثناء ذلك ألاّ يكسروا عظامه كي لا يعيقوا عودته إلى الحياة من جديد.

ثمّ يحملون الجلد والرأس إلى المنزل فيدخلونها إلى الداخل عبر نافذة خاصة، أما باقي الجثة فيدخلونه عبر الباب أو عبر ما يدعى عندهم بالنافذة الشرقية للآلهة.

وفي المنزل يضعون على رأس الدّب وجلده الحليّ والنفائس، وقطعة سمك في شدقه المفتوح، أمّا القطعة الأخرى من السمكة فيضعونها مع كأس من النبيذ أمام سحنة الوحش ويعبّرون عن احترامهم له مرة أخرى ويؤدون المراسم المتعارف عليها بدّقة وصرامة.

وفي نهاية الاحتفال بالعيد يحملون جمجمة الوحش وعظامه، وعينيه، وأذنيه، وخشمه، وشفته العليا، وأوّل فقرتين من عموده الفقري، قصارى القول كل ما هو ضروري لبعثه إلى الحياة من جديد، يحملونه إلى الغابة حيث كانت تقوم هناك مقبرة الدببة، أو يضعون هذا كله في كهف. وهناك كانوا يوارون رفات الدبّ الثرى في احتفال مهيب.

وإذا ما كانت تأدية طقس العيد قد تمت بشكل صحيح فإن أحداً لم يساوره شك في حتمية بعث الوحش من جديد وعودته إلى الناس.

الإله الذي يموت و يبعث حياً



رسم الإله أوزيريس الذي يرمز إلى الحياة الأبدية

إله الأموات وملك العالم الآخر أوزيريس عدّ قاضي ذلك العالم يتمثل أمامه كل ميت، فيضعون قلبه في كفّة الميزان، وتمثال الهة العدالة معات في الكفّة الأخرى.

تعدّ أساطير الوحش الذي يموت ويبعث حيّاً أقدم تنويعات أساطير التقويم السنوي، ففيها انعكست فكرة التعاقب الدوري للزمن بأكمل وجوهها. ومن أحدث أمثلة هذا الضرب من الأساطير وأوضحها، أساطير الإله الذي يموت ويبعث حياً، ومن هؤلاء الآلهة الإله دوموزي (= تمّوز) الذي تعرّفنا إليه قبل قليل.

كما عرف المصريون القدماء مثل هذا الإله معرفة جيدة: في شخصية الإله أوزيريس. وما يثير الفضول أن أوروبا عرفت أساطيره على امتداد ألفي عام، بل لم تعرفها وحسب، وإنما اشتهرت فيها شهرة واسعة. وفي واقع الحال هل يمكن لأحد أن يبقى لا مبالياً حيال قصة الحاكم النبيل الذي يقتله حاسدوه، فتخفي زوجته المخلصة ابنها عن العالم إلى أن يكبر ويشتدّ عوده وينتقم لوالده؟ وفي الصياغات الكهنوتية المتأخرة لسلسلة أساطير أوزيريس، ارتبطت هذه الأساطير بتعاليم عن آلام النبيل وهلاكه، ثمّ قيامته من بعد موته، وانتصاره على قوى الشرّ. ومن الواضح أن هذه التعاليم قد تركت تأثيرها على صياغة العقائد المسيحية.

ولكن الأسطورة المصرية القديمة كانت ذات مغزى مغاير. بيد أنه ينبغي علينا قبل أن نشرحه أن ننوّه إلى أن المصريين أنفسهم لم يدونوا أسطورة أوزيريس في صيغة رواية متكاملة، عناصرها مترابطة؛ فالنصوص المصرية تضمّنت أساساً مشاهد مرتبطة بطقوس معيّنة. وعلى وجه العموم كان الإغريق أوّل من صاغ رواية هذه القصّة.

والقصة هي أن أوزيريس الابن الأكبر لإلهة السماء نوت وإله الأرض جب، وملك مصر الذي حكم البلاد في أزمنة خارج الذاكرة البشرية، حينما لم يكونوا يحسنون زراعة الحقول، وجمع المحاصيل، وتربية الحيوانات، ومداواة الأمراض. وعندما اعتلى أوزيريس العرش بمساعدة إله الحكمة توت، علّم المصريين هذا كلّه، وأعطاهم الشرائع، والعدل، وعلّمهم عبادة الآلهة وتبجيلهم. وكان ذلك الزمن في تاريخ مصر، هو عصرها الذهبي الفعلي.

لكن ست، إله الصحارى الشرير وشقيق أوزيريس الأصغر، ملأ الحسد قلبه وعزم على قتل أوزيريس بالحيلة. ومرّة بعد أن عاد هذا من رحلة عبر الكون، منح خلالها نعم العمل الزراعي واكتسب آيات التكريم الإلهي بصفته واهب البشرية الخيرات، أقام وليمة للمناسبة. وكان ست قد أعدّ نعشاً بهيّاً طعّمه بالذهب والحجارة الثمينة وحمله وجاء به إلى الوليمة، وأعلن أن النعش سوف يكون لمن يتوافق مقاسه مع أبعاده؛ وكان ست قد أخذ مقاسات أوزيريس من قبل. ولمّا جاء دور أوزيريس واستلقى في النعش أغلقوا غطاءه فوراً وسكبوا فوقه الرصاص ورموه في النيل.

فارتدت ايزيس ونفطيس ثياب الحداد، وبدأتا تبحثان عن جثمان أوزيريس إلى أن عثرتا عليه بين نباتات البردى، فبكتاه وفق ما تقضي به العادات. وغدت المناحة التي أقامتاها له نموذجاً بنيت عليه كلّ القراءات التي صار المصريون يقرأونها على موتاهم بعد ذلك. وباتت تأدية الطقس الذي أقامته الأختان لأوزيريس، لزاماً على كلّ من يدفن ميت، لأن المصريين اعتقدوا اعتقاداً راسخاً أن تلك الشروط ضرورية للعيش في العالم الآخر إلى الأبد.

لنعد الآن إلى الأسطورة. فقد نجحت ايزيس الحزينة أن تحمل من أوزيريس الميت بطريقة عجيبية، وأنجبت حورس الذي أرضعته وربّته في دلتا النيل. فكبر حورس وصار رجلاً، وعزم على أن ينتقم لأبيه.

وفي غضون ذلك كان النعش الذي يحوي جسد أوزيريس قد أبحر مع مجرى النيل حتى قذفته أمواجه قرب مدينة بيبل. وفي المكان الذي حطّ النعش فيه على ضفّة النهر نمت في الحال شجرة أخفت جسد أوزيريس في جذعها. لكنّ حاكم المنطقة أمر أن تقطع الشجرة التي أدهشه كبر حجمها، ويُصنع منها عمود يدعم به سقف بيته. ولمّا سمعت ايزيس بهذا قامت من توّها وتوجهت إلى بيبل حيث نجحت في أن تصبح مرضعة ابن الملك. وكانت تطير حول العمود الذي يضمّ جثمان زوجها الميت، وهي في صورة سنونو، بيد أن الملكة كشفت أمرها، فكان على ايزيس أن تخبرها بحقيقتها. وألحّت عليها حتى أعطتها العمود ففتحته وأخرجت منه جسد أوزيريس وأخفته ثم ذهبت لتطمئنّ على ولدها. وفي غضون ذلك جاء ست عند انتصاف القمر وعثر على أوزيريس الميت فقطعه إلى أربع عشرة قطعة بعثرها في مختلف أرجاء الكون. وكان على ايزيس أن تبحث في كلّ أخوار النيل المستنقعية، وكلّما كانت تعثر على قطعة من جسد زوجها كانت تدفنها في المكان عينه، ولذلك باتت قبور أوزيريس في مصر كثيرة.

في تلك الأثناء كان حورس قد كبر وصار رجلاً، فطلب ست للمبارزة. وكانت نتيجة القتال هي هزيمته أمام خصمه، إذ انتزع ست عين حورس وقطّع جسده إلى أشلاء صغيرة نثرها في أرجاء البلاد كلّها. ولكن الحكيم توت جمع تلك الأجزاء ووحّدها وأعادها إلى الحياة وردّ العين سليمة تامة حادة البصر وسحرية: إذا أعطيت هذه العين لقتيل يبتلعها فإنه يبعث إلى الحياة من جديد. فأعطى حورس عينه لأوزيريس. فعاد إلى الحياة. ولكنّه عزف عن العودة إلى الأرض وصار ملك المملكة السفلى، مملكة العالم الآخر.

أما حورس فقد خاض معارك كثيرة ضد ست، وكان دائماً أقوى منه. لكن ست كان يهرب منه: في اللحظة الحاسمة كان هذا يتحوّل إلى ثعبان، أو تمساح، أو يغور تحت جذور الأشجار، أو يغوص إلى قاع النيل. وأخيراً اتفق حورس وست على أن يحتكما إلى الآلهة ليحكموا بينهما بالعدل. وكانت إيزيس تساعد حورس في كلّ شيء: يجب على الآلهة أن يمنحوه عرش أوزيريس والسلطة على البلاد بصفته الوريث الشرعي لوالده أوزيريس! بيد أن ست أصرّ على استبعاد ايزيس من عضوية المحكمة، ومضت المحاكمة من غيرها.

فقد اجتمع الآلهة في إحدى الجزر، وأعطيت الأوامر للنوتي ألاّ ينقل أي امرأة تشبه ايزيس. عندئذٍ اتخذت الإلهة صورة عجوز وطلبت إلى النوتي أن ينقلها، وما إن دخلت قاعة المحكمة حتى تحوّلت إلى فتاة فاتنة الحسن. فأغرم ست بها وسألها لما هي حزينة هذا الحزن كلّه. فقصّت عليه ايزيس قصّة ابن الراعي الذي زعمت أن أجنبياً أهانه وسلبه القطيع الذي يملكه والده. فمات الأب ولم يستطع الابن إن يرث ثروة والده بسبب ذلك الأجنبي. فأثارت القصة غضب ست وأعلن فوراً أن الأجنبي انتهك الشرائع وينبغي أن يعاقب بالعصيّ! وهنا أظهرت إيزيس صورتها الحقيقية وأعلنت: ليس ست بأفضل من ذلك الأجنبي! إنه هو الذي سلب حورس سلطة والده أوزيريس، والآن حكم على نفسه بنفسه أمام الآلهة. وأدرك ست أنه وقع في الفخّ، واقترح إقامة مباراة لاختبار القوى بين المتنافسين. فعرض على حورس حفر قوارب حجرية وإجراء سباق بالزوارق. وفي هذه المرّة عزم حورس على أن يكون أحسن حيلة من ست: صنع قاربه من خشب وطلاه بالجبس فبدا كأنه قارب حجري. أمّا ست فقد انتقى قطعة صخرية وصنع منها زورقاً أكبر من زورق حورس، وأحسّ بطعم النصر فوراً. وليس صعباً أن نخمّن طبعاً أن زورق ست غاص إلى قاع النهر. وتحوّل هو

نفسه إلى جاموس نهريّ استلقى منذ ذلك اليوم في قاع النيل سعيداً لأنه بقي على قيد الحياة.

أمّا أوزيريس فإنه لم يبعث من الموت سوى رمزياً فقط. ولكنه من حيث جوهر الأمر بقي ميتاً: من تحت الأرض أخرج من جسده النباتات والخصب، لذلك رسموا جسده باللون الأخضر في غالب الأحيان، وشجرة نامية عبر نعشه، أو غلالاً نامية من موميائه. وقد قاسمه مصيره هذا جزئياً بالدر السكنديناڤي، الذي لن يُبعث حتى نهاية العصر الكوني الراهن.

وقد تكون المحاور المرتبطة بهذه الشخصية الميثولوجية أكثر دراماتيكية. فإله الخصب الكنعاني بعل، هو أيضاً إله يموت ثم يُبعث حيّاً، ويصارع إله الموت والعالم السفلي موتو؛ وتساعده في هذا الصراع أخته ومعشوقته العذراء المقاتلة عنات. فموت يريد أن يسلب بعلاً السلطة على العالم والآلهة، وقد نجح في سعيه هذا؛ وهلك بعل. فشرعت عنات الحزينة تبحث عن جسده إلى أن عثرت عليه ودفنته، ثمّ قتلت موتو وقطّعت جسده إلى أجزاء وأحرقتها، وطحنتها كما تطحن الحبوب، ونثرتها في أرجاء الحقل. فبعث بعل واستردّ سلطته، لكنّ موتو ظهر من جديد وأخذ يصارع بعلاً. وهكذا يتجدد الصراع بينهما، فيؤدّي هلاك بعل إلى حصول الجفاف وذبول الطبيعة؛ وتحمل قيامته من الموت الازدهار لقوى الطبيعة كلّها.

ولكنّ موت إله النّماء ليس حتمياً؛ فقد يختفي لبعض الوقت وحسب، كالإله الحثّي تيليبينوس مثلاً، أو الإغريقية ديميترا. فيروى في أسطورة هذه الأخيرة أن الفتاة بيرسيفوني ابنة إلهة الأرض ديميترا كانت تجمع الزهور يوماً فرأت على شاطىء المحيط زهرة غريبة. وما إن قطفتها حتى ظهر أمامها هاديس في مركبته التي تجرّها جياد سوداء اللون. فحملها معه وانطلق إلى مملكته السفلية.

ومضت ديميترا المفجوعة تبحث عن ابنتها، بيد أن أحداً لم يستطع أن يقول لها أين اختفت. وأخيراً رقّ لها هيليوس إله الشمس وأخبرها بمصير ابنتها. فغضبت ديميترا واعتزلت جميعهم واختبأت في كهف. وسرعان ما ذوت المزروعات، وأجدبت الأرض، ولم تنبت أي خضرة؛ فانتشرت المجاعة. عندئذٍ أمر زيوس بإعادة بيرسيفوني لأُمّها. ولم يستطع هاديس إلاّ أن يمتثل لأمر زيوس، ولكنه قبل أن يطلق الإلهة الحسناء أعطاها لتأكل رمّانة، رمز الخصوبة والإنجاب الذي يُظهر أن الحياة تنطوي على الموت. وهكذا باتت بيرسيفوني مرتبطة بالعالم السفلي إلى الأبد. فقد كان عليها أن تقضي فيه ثلاثة

أشهر من كل عام، وعندما كانت ديميترا تفارق بيرسيفوني، كانت إلهة الأرض تغرق في أحزانها فيموت كل ما في العالم. وعندما تعود ابنتها إليها يفرح قلبها ويزدهر كل شيء من حولها.

لقد تمثلت في هذه الأساطير والطقوس المرتبطة بها، الرمزية المعقّدة للنماء الذي يموت ثمّ يبعث من جديد، بل بمعنى أعرض: أزلية دورة الحياة والموت وتناغم وحدتهما.



تمثال

إلهة فريجية

لقد شغلت الإلهة الأمّ مكانة بارزة في أنماط العالم الميثولوجية، كلها، بفضل وظيفتها الإنمائية.

في غالب الأحيان تكون الإلهة الأم، هي زوجة الإله الذي يموت ثم يبعث حيّاً، وهي في الوقت عينه عذراء: إيزيس لاوزيريس، وعشتار لتمّوز، وكيبيلاً لأتّيس. وتمثل الإلهة قوى الأرض المنتجة، بينما يرتبط الإله بتجدد الطبيعة في الربيع، بالتعاقب الدوري للفصول. وتعدّ الإلهة الأم في أكثر الميثولوجيات الشخصية الإلهية الأنثوية الرئيسة، ففيها بالذات يتجسد عنصر الخلق في العالم. وفي مختلف الميثولوجيات المتقدمة جَمت الإلهة الأم في ذاتها كثيراً من شتّى الشخصيات الإلهية الأنثوية: بدءاً من أقدم إلهات الأرض، حتّى الأشكال المجردة التي ترمز إلى الحكمة الاسمى، مثل براجنيا باراميتا في الميثولوجيا والفلسفة البوذيتين.

وعلى امتداد زمن طويل كان لكلّ شعب تقريباً إلهته الأم المبجّلة التي كان لها كثرة من الأقانيم في شتى القرى. ولم تبق هذه الشخصيات ثابتة لم تتغير على مرّ القرون، لكنها كانت في الأحوال كلها مرتبطة بالطاقة الأنثوية الخلاّقة التي تجلّت حتى في أثناء خلق العالم، وخلق النباتات، والحيوانات والبشر، والآلهة، وفي التجدّد السنوي للطبيعة. ففي طور الحضارة والحياة المدنية كانت الإلهات الأمهات حارسات للمدن، والحياة المدينية، والثقافة المدينية، والحرف، والمعارف والشرائع المكنونة. وعدّت المدينة بدورها في الحقب القديمة، رمزاً للأُمّ، فهي أيضاً حمت وراء أسوارها السكان، كما تحمي الأمّ أطفالها.

ومن أقدم أمثلة هذه الدائرة من الشخصيات، شخصية الأم الأولى الأسترالية إينغانا. فقد عرُفت هذه الشخصية الميثولوجية لدى الأبوريغين بأسماء متعددة: كونابيبي أوغونابيبي، وغالاودي أوغاديري، و... كما يدعونها أيضاً بالمرأة المسنّة، ويدغمونها أحياناً بأخوات واوالاغ اللواتي يرتبطن بدورهن بابنتيها الاثنتين المدعوتين باسم مونغا مونغا. ولكن بصرف النظر عن أسمائها وأشكالها التي ظهرت فيها كلها، إلاّ أنها هي التي خلقت في أزمنة الأحلام، في الأزمنة الميثولوجية، البيئة الجغرافية المحيطة، والبشر، وأقامت الطقوس والعادات.

ومن أبرز أمثلة الإلهة- الأم في الميثولوجيات المتقدمة، إلهة آسيا الصغرى كيبيلاً. وكان المؤلفون الإغريق قد دعوها بالإلهة الفريجية العظمى، منوهين بذلك إلى منشئها: لقد جاءت كيبيلا إلى العالمين الإغريقي والهلنستي من فريجيا. وكانت المملكة الفريجية قد قامت على أنقاض الإمبراطورية الحثية، وبلغت أوج عظمتها في القرن ١٨ ق. م. ثم خضعت منذ القرن ١٧ ق. م. للمملكة الليدية، وتحوّلت منذ القرن ٢ ق. م. إلى جزء من مقاطعة آسيا الرومانية، فانتقلت عبادة الإلهة الفريجية من أسيا الصغرى إلى روما. وقد أدخل الإمبراطور كلاوديوس إصلاحات على عبادة كيبيلاً، وكان أباطرة روما كلهم ابتداء من أغسطس، كبار كهنة العبادة الرومانية: البونتيفيك الأعظم.

وبهذا تكون فريجيا قد أدّت دور حلقة وصل مهمّة بين إقليم غربي آسيا والإغريق. ثم جمّت كيبيلاً في شخصيتها سمات الإلهة القديمة وسمات شبيهاتها الإغريقيات والرومانيات: ريا، وجيا، وديميترا، وسيريس، و... لقد كانت شخصية كيبيلاً قريبة ومفهومة، ولذلك اندغمت بكثرة من العبادات المحلّية.

وتنبثق الشخصية الأصل الأقدم لهذه الإلهة من عتمة القرون، لتبرز كائناً اندروجينياً جباراً تمثل في أغديستس الثنائي الجنس الذي ولد من صخرة. ومن الواضح أن هذا يعبّر بصفته اندروجينوس عن استقلالية الطبيعة ووحدة المتناقضات البدنية كلّها. ثمّ ظهر بعد ذلك تابع ذكر للإلهة، وهو الإله أتيس، معشوقها وابنها في الآن عينه. أمّا الصخرة أغدس، فهي نفسها الصخرة التي رست عندها سفينة ديفكاليون وبيرّا لكيْ يعيدا من جديد إنجاب الجنس البشري الذي كان قد هلك في الطوفان، وحجارة هذه الصخرة هي «عظام الأرض» التي قذفا بها إلى الخلف منهما لكي يظهر البشر منها.

لقد كانت كيبيلاً ربّة للوحوش، ولذلك كانت الأسود تابعاتها دوماً، كما كانت هذه الأخيرة العلامات الرمزية التي حملتها المسكوكات النقدية بدءاً من المسكوكات الليدية الأولى وانتهاء بالمسلوكات الرومانية في العصر الإمبراطوري. ودعيت كيبيلاً نفسها مروّضة الأسود ومطعمتها، والجالسة على الأسود، و...، وتنتمي هذه المعتقدات كلّها إلى الطور الأقدم السابق على طور الزراعة.

وعلى هذا الغرار نفسه كانت صلة الإلهة قديمة بالجبال أيضاً، وهو ما تشهد عليه قبل كلّ شيء، أسماؤها: يدعونها أمّ دينديمين العظمى، ودينديمين هو جبل من جبال فريجيا. ويغدو مغزى هذه الصلة وأهميتها أكثر وضوحاً عندما نتذكرّ معاً أهمية الجبل الكوني في

الميثولوجيا. فكما كان الجبل يصل السماء والأرض ليربط بين العالم السماوي والإنساني، كذلك حملت الإلهة الحياة والنور، والموت والظلام في الآن عينه. وكما أن الجبل يجسّد متناقضات مختلفة ويوحّد بينها، كذلك يمكن أن تكون الإلهة خالقة وطيّبة، ومدمّرة وصارمة ومتوحشة متهورة في الوقت نفسه. فهي قد تهب الإنسان الثروة وثمار الأرض، وقد تبتليه بالرزايا وتحكم عليه بالهلاك، وقد تكون منقذة، لكنها قد تنزل العقاب؛ ولذلك ليس من قبيل المصادفة أن تدعوها المصادر الإغريقية: «الإلهة التي تبعث في النفس الرعب». قصارى القول إنه لا يمكن تخمين السلوك الذي يمكن أن تسلكه كيبيلاً، فهي غامضة كتومة كالطبيعة نفسها.

ولكن الجوهر الرئيس الأعمق لهذه الشخصية الإلهية يكمن في اسمها: إنها الأمّ الإلهية، أمّ كل شيء، الأمّ الكلية؛ وهي تجسّد عنصر النّماء الأنثوي في الطبيعة، الأمومة الكونية، إنها صانعة الحياة وحافظتها. وتجسّد الإلهة العظيمة في ذاتها قوى الإنتاج الجبّارة، وتسود على الطبيعة، وتهب الخصب للحقول، والحيوانات لكلّ ما هو حيّ. وكما كتب المؤلف القديم ابوللونيوس الرودوسي،

... ظهرت المعجزة في وقتها المناسب.
طرحت الأشجار ثمراً لا عدّله، واشتعلت الأرض
تحت الأقدام بأعشاب طريّة، نزولاً عند إرادتها.
وتركت الحيوانات البرّية أكنانها وأو جارها،
وخرجت تهزّ ذيولها. ولكن الإلهة صنعت
معجزة أخرى. فقبل ذلك الحين لم يكن ثمة
أيّ ماء في دينديمين، أما الآن فيهدر من
القمّة ينبوع عذب يروي الغليل...

لقد اعتقدوا أن الخصب ينتشر من بلاد كيبيلاً بالذات، ولذلك عملوا على تقديم القرابين لها في موعدها لكي «يميل قلب الإلهة نحوهم». وكان المركز الرئيس لعبادة الأمّ العظمى كيبيلاً يقع في المدينة القديمة بيسينونت القائمة على نهر هالوس في المكان الذي تقوم فيه مدينة أنقرة المعاصرة. وحسب المؤلفين القدماء أنه كان محرّماً تحريماً قاطعاً أن تلمس يد إنسان صورة الإلهة المحفوظة هناك في المعبد، وسرت إشاعة مؤدّاها أن الصورة أنزلت إلى مكانها من السماء مباشرة. ويبدو أن الأمر كان هكذا فعلاً، لأن صورة الإلهة تمثلت

هناك في حجر نيزكي. وعلى أي حال فقد سخر المؤلف القديم الآخر ارنوبيوس، من الرؤى الوثنية الساذجة، ووصف القدس الفريجي هذا بأنه عبارة عن حجر غير كبير وغير مستو، لونه أسود، زواياه ناتئة، فظ وغير مصقول.. ويتوافق هذا الوصف توافقاً تاماً مع تقليد آسيا الصغرى القديم في عبادة الحجارة المقدّسة.

وليس من قبيل المصادفة إن تكون الجبال، والكهوف والمغاور، هي الأماكن المفضلة لإقامة طقوس عبادة كيبيلا؛ وإن تكون صفتاها: «المتشرّدة في الجبال»، و «المولعة بالجبال». وصاروا يرسمون كيبيلا فيما بعد في صورة امرأة ترتدي رداء يغطي جسدها حتى القدمين، وعلى رأسها تاج يشبه البرج؛ وقد دعوها هكذا: «الأمّ الحاملة البرج».

ومع الزمن باتت الأمّ- الأرض التي تلد كلّ شيء، وفيها ينبت كلّ شيء، وإليها يرجع كل شيء، باتت تؤدي دوراً آخر، دور حارسة المقابر. ولذلك كان كلّ قبر يمثل عند الفريجين معبداً من معابد كيبيلا، و كل مدفون تقدمة للإلهة. ومعنى هذا أن الفريجيين آمنوا بأن الذين يموتون يرجعون من جديد إلى حضن أمهم الإلهية الأولى، والدة كلّ شيء وحاوية كلّ شيء. واعتقدوا أيضاً إنه بإمكانهم أن يتجاوزوا ماهيتهم الأرضية ويندغموا بماهيتها الإلهية. وقد أدّت صلة الإلهة الأم بالموت إلى اكتساب عبادتها طابع المسرحيات الدينية، وهو ما سوف نتحدث عنه بعد قليل.

وارتبط في الأساطير والطقوس ارتباطاً وثيقاً بكيبيلا، الإله أتيس، إله الخصب القديم الذي توافق في آسيا الصغرى مع شجرة الصنوبر الدائمة الخضرة. وفي الربيع كان الفريجيون وسكان آسيا الصغرى الآخرون يحتفلون بعيد استيقاظ الطبيعة، ويكرّمون أثناء الاحتفالات أمّ الآلهة كيبيلا ومعشوقها. فيقدّمون للإلهة قرابين كثيرة، ويدفنون الصنوبر رمزياً، ويغسلون صورة الإلهة بمياه النهر.

ثم لا يلبث الاحتفال أن يتحوّل إلى حفل تهتكيّ، ولذلك كتب المؤلفون القدماء بسخرية أحياناً وباستهجان أحياناً أخرى، إن كلّ ما كان يجري في ذلك العيد «صخب بصخب، وصراخ بصراخ، وجنون بجنون». وقد وصفت مؤلفات الإغريق والرومان كاهن كيبيلا بأنه شخص مهووس، شعره طويل منفوش متطاير، ورأسه في اهتزاز دائم، وثيابه رثّة ممزّقة، يجلد نفسه بالسوط، ويرقص حتى الإعياء رقصة دائرية على أصوات الدّفوف، والصنوج، والمزمار منشداً أغانيه الخاصة. وكانت الفوارق الاجتماعية في أثناء ذلك تتراجع، ويعود الإنسان إلى حضن الطبيعة.

وما يجدر أن ننوه إليه في هذا السياق، هو أن حالة الجنون المقدس كانت تمثل بالنسبة إليهم علامة من علامات الهوس الإلهي، وكانت جزءاً لا يتجزءاً من الممارسة الدينية. وقد رأى أفلاطون إن الناس تشارك في الاحتفالات التهتكيّة لأن الروح الإنسانية تنطوي على حركة داخلية مخيفة وعنيفة، وقد تكون تجلياتها مدمّرة، ولذلك يجب تحييد عنصر الفوضى بالحركات الخارجية، واستعادة توازن الروح البشرية المنقسمة دوماً والمعذبة. وربط أفلاطون في «ثيدراه» بين العنف الطقوسي والتطهّر، والتكريس في الأسرار الدينية. فقد كان كاهن كيبيلاً على ثقة لا تتزعزع إنه يستطيع إبّان حالة استغراقه في النشوة الروحية أن يجمَ الماهية الإلهية في ذاته ويتحد مع الإله.

استرتا

إلهة الحب والخصب

الكنعانية القديمة

فـــي وادي الرافـــدين وافقتهـــا عشـــتار.

وفـــي العـــصر الهلنـــستي ادغموهـــا بالإغريقية أفروديت.

ثم بالرومانية جو نو.

لقد كان طقس الزواج المقدس، أو الهيروغاميا، واحداً من أهمّ الطقوس لدى الشعوب الزراعية القديمة. ولم تكن ثمة حاجة لشرح مغزاه وأهميته لأحد، فالدور الحاسم للعنصرين الذكري والأنثوي واضح وضوحاً تاماً في أساطير خلق العالم وتنظيم بنائه. وكان هذا الزواج الإلهي بين الأرض والسماء يستعاد دورياً في الطبيعة: في صورة الأمطار والبروق مثلاً، ويضمن لها انبعاثها الفصلي. وقد كرره الناس أيضاً لأنهم استرشدوا بسابقة جاءت في واحدة من المؤلفات الهندية القديمة: «هكذا فعل الآلهة، وكذا يفعل الناس».

ولكنّ مثل هذه الطقوس كانت أسراراً، ولذلك كان انعكاسها في النصوص التي وصلت إلينا ضعيفاً جداً ولا يتناسب أبداً مع أهميتها. ولربما كان طقس زواج إلهة مدينة أوروك إينانا وتموز، يمثل الاستثناء الوحيد في هذا الشأن. فقد شكل طقس الزواج المقدّس هذا جزءاً لا يتجزّأ من طقس تتويج ملوك سومر وأكاد، ولذلك ورد الحديث عنه في الأغاني التي وصلت إلينا من هناك. كما كان طقس الزواج المقدّس يؤدى أثناء الاحتفال بالعام الجديد، وكان الغرض منه هنا هو تجديد الزمن، وتحفيز عمليات التكاثر في الطبيعة، ومضاعفة قوى الإخصاب.

وقد تحدّثنا سابقاً عن أن العام الجديد كان بالنسبة للقدماء، كما هو بالنسبة إلينا اليوم، حداً مهمّاً يقتضي عنده تجديد الزمن، لأن قوى الدمار والخراب تبدأ تسيطر على العالم مع نهاية كلّ عام. ولكي يمكن تفادي تأثيرها المدّمر، كانوا يؤدّون شعائر خاصة، بما فيها شعائر الزواج المقدس. ومع أن بداية العام اختلفت بين بلد وآخر، إلاّ أن المغزى الطقسي للعيد بقي هو نفسه.

لقد آمنوا بأن الاتحاد الإلهي المقدّس يضمن خصوبة الأرض والرخاء الناس، ممهداً سبيل انطلاق قوى النماء. ضف إلى هذا أنه تطابق مع اتحاد عناصر البيئة: تحتضن السماء زوجتها (السماء عندهم مذكرّ. م) الأرض وتسكب فوقها المطر المخصب. ولذلك كان السومريون يحتفلون يوم رأس السنة الجديدة بعيد اتحاد عناصر البيئة أيضاً. كما بقي مثل هذه المعتقدات حاضراً حتى وقت متأخراً. فقد كتب الإغريقي اسخيليوس يقول: «السموات المقدّسة تملؤها الرغبة لتدخل جسد الأرض».

كان الحاكم والكاهنة هما اللذان يؤدّيان دور الآلهة أثناء إقامة شعائر طقس الزواج المقدّس. وكانت أسرار هذا الطقس تؤدى كلها داخل المعبد في مكان خاص، في المخدع الذي يقوم فيه سرير الإلهة. وكانت كلّ حركة من حركات هذا الطقس، وكلّ وضع من أوضاع فعل التزاوج معلّلاً بسابقة ترجع جذورها إلى الأزمنة الميثولوجية، عندما أداه الآلهة لأول مرّة، ولذلك لم يبد الطقس غريباً بالنسبة لأيّ منهم. ففي أحد الأشكال المرسومة التي وصلت إلينا، تظهر الإلهة وفي فمها قصبة تدخل إناء موضوعاً على الأرض مباشرة: من الواضح أنها تمنح الأرض الخصوبة.

لقد اعتقدوا أن العالم يتجدد في كلّ مرّة يؤدّى فيها طقس الزواج المقدس. وكأني بهم يدّمرون الزمن القديم الذي تداعى ولم يعد به نفع، ويزرعون في رحم الخلق الجديد بذرة حياة جديدة.

وألقوا بلسان الإلهة، أو بمعنى أدقّ، بلسان الكاهنة التي تؤدّي دورها، شعراً غزلياً:

يا زوجي الذي يحبّه قلبي،
حسنك فاتن وحلو كالعسل.
أيها الأسد الذي يحبّه قلبي،
حسنك فاتن وحلو كالعسل.
أخضعتني أنت، فلأرتجف أمامك أنا،
أيها الأسد، اخطفي واحملني إلى عرينك.

أيها الزوج الحبيب، اجعلني لطيفة معك، ناعمة،
فمداعباتي يمكن أن تكون أحلى من العسل.
سوف نسعد في مخدعك العسلي،
ونسكر في طيب ملاطفاتك؛
أيها الأسد اجعلني لطيفة معك، ناعمة،
فمداعباتي يمكن أن تكون أحلى من العسل.

وفي ختام الطقس «تقرر» إينانا «مصير» زوجها، كما فعلت في زمن ما مع دوموزي إذ قررت «أُلوهيته» على الأرض. وكان زفاف الآلهة يترافق بألعاب تشبه تلك التي نراها في

كرنفالات اليوم، ومواكب مرح، وحفلات تنكر، وتهريج يشارك فيها الأقزام والمشوهون والخصيان؛ كما كانت تقام مباريات، ومنافسات، ومعارك طقوسية، وعروض يشوه المشاركون فيها أنفسهم. ونحن ينبغي علينا ألاّ نرى في هذه الاحتفالات مهرجانات تهتكية مستهجنة، فما يجب أن نتذكره دائماً أن القدماء اعتقدوا اعتقاداً راسخاً في أن أفعال الناس يجب أن تعطي القوة لأفعال الآلهة بطريقة سحرية.

وعلى هدي هذه المعتقدات نفسها كان السلتيون القدماء يقيمون في المرج المقدس حفل زفاف الملك الجد طقوسياً على المهرة البيضاء. وبعد «مراسم الزفاف» هذه يقطع الملك حنجرة المهرة، ويضعونها لتُطهى في مرجل كبير، وبعد أن يستحمّ الملك في مرق المهرة، يقيمون وليمة يأكلون فيها لحمها. وسوف يغدو مغزى هذا الطقس مفهوماً لنا بصورة أوضح، إذا ما أخذنا بالحسبان إن الإلهة - الأم كانت تحمل عند السلتين القدماء اسم إيبونا، أي «الفرس»، وغالباً مارسموها في صورة الفرس. وهكذا كان يمكن أن ترمز مراسم الزفاف هذه إلى زواج الحاكم بالأرض الواقعة تحت سلطته، أما قتل الفرس وأكل لحمها فيرمزان إلى التواصل مع جسد الإلهة.

المسرحيات الدينية القديمة



مشهد من مسرحية دينية إيليفسينية:

تريبتوليموس، وديميترا، وبرسيفوني

لقد أهدت ديميترا إلى تريبتوليموس ابن ملك ايليفسينا مركبة ذهبية، وأعطته بذور القمح لكي يزرع الأرض ويعلم الناس الزراعة.

من المتفق عليه أن مصر هي الوطن الأُمّ للمسرحيات الدينية. وقد ارتبطت هذه باسمي اوزيريس وإيزيس، وتلخّصت أساساً في عبور المكرّس عدداً من الاختبارات التي ترمز لموته وبعثه من بين الأموات. وكان المتجدد يماثل في أثناء تلك الاختبارات بالإله محاولاً إن يدرك أسراره. وكان هيرودوت أوّل من أطلعنا على المسرحيات الدينية المصرية، لكنه لم يذكر اسم الإله في روايته، مع أنه كان على علم ببعض تفاصيل الطقس. وما يؤسف له أن التفاصيل المعنيّة ليست كثيرة بالقدر الذي كنّا نتمنّاه. وما نعرفه أنهم كانوا يصنعون من التراب شكلاً يشبه شكل أوزيريس، يرويه الكاهن بالماء، وفي الوقت المحدد تكون الأعشاب الجديدة قد غطت الشكل. وقد ارتبطت بهذا الطقس شعيرتا «حفر الأرض» للبذار الرمزي. و «قوْد العجول»: كان الفرعون الملك الكاهن يقود أربعة عجول يدور بها أربع دورات حول المعبد؛ فتطأ العجول الأرض وتغطي بذلك مكان قبر أوزيريس حتى لا يستطيع الخصوم العثور عليه فيمنعوا الإله من العودة إلى الحياة.

كما كانت لشعيرة «عوم أوزيريس» مكانه مهمّة في المسرحيات؛ ففي ليلة معينة من ليالي شهر فيضان النيل، كانوا يحملون مومياءه الرمزية إلى المقبرة على زوارق تضيؤها ثلاث مئة وخمسة وستين مصباحاً. وفي اليوم التالي يقيمون شعيرة بكاء اوزيريس وندبه، كما فعلت في زمن ما ايزيس ونفطيس؛ وبعد ذلك يبدأ الاحتفال الرئيس، ولم يكن العيد عيد المكرّسين فقط، بل كان عيداً للمصريين كلّهم. فيخرجون تمثال أوزيريس من المعبد، ويطوفون به حول هذا الأخير، ثم يتوجهون إلى مقبرته، ويعودون إلى المعبد، وفي ختام العيد يرفعون العمود النصب الذي كان يرمز إلى بعث الإله من الموت.

في القرن ٢ ق. م كُرس الكاتب الروماني ابوليوس في مسرحيات إيزيس الدينية، وألمح في النص الذي تركه لنا، إلى المغزى المكنون لأسرارها: «لقد بلغت حدود الموت، وتجاوزت عتبة بروزربينا (إلهة العالم السفلي عند الرومان) ثم رجعت القهقرى عابراً العناصر البيئية كلّها؛ فرأيت الشمس ساطعة في منتصف الليل، ومثلت أمام آلهة العالم السفلي وآلهة السماء، وسجدت لهم عن قرب». وذكر ابوليوس أردية التكريس الاثني عشر: يبدو على أغلب الظنّ أن

كلّ رداء منها كان يعني التواصل مع أسرار مجال من مجالات دوات، أي بلاد الأموات، او الحضيض.

لقد كانت عبادة إيزيس شائعة جداً في العالم القديم، وبقيت حاضرة حتى في طور ولادة المسيحية؛ وانتقل بعض سماتها إلى عبادة أم الإله، العذراء ماريا.

ولا ريب في أن المسرحيات الدينية المصرية قد أثرت على شعائر المسرحيات الدينية الإيلفسينية وأسرارها ومغزاها؛ ومن المعروف أن الإغريق القدماء كانوا يقيمون هذه المسرحيات على شرف ديميترا و بيرسيفوني. وبعد أن خضعت ايليفسين لأثينا باتت تلك الاحتفالات أعياداً وطنية. فقد كانت تزرع في النفوس الإيمان بطيب العيش بعد الموت، بينما كانت ديانة المدن الإغريقية القديمة تتوجه نحو الشؤون الزمنية.

وعلى أي حال نحن لا نعرف عن المسرحيات الإيلفسينية إلاّ الشيء اليسير أيضاً، فقد كانت تلك معارف سرّية، وكان الموت هو الجزاء الوحيد لمن يجرؤ على هتك سريتها وإطلاع غير المكرسين عليها. ومرة كاد إسخيليوس أن يدفع حياته ثمناً لمجرّد تنويه بتلك الأسرار أتاه في مأساة «بروميثيوس المقيد». أما الدخول عبر فناء ذلك القدس فإن جزاءه الموت وحسب.

وكان الطور الأول من التكريس يتمثّل بالمشاركة في الموكب الليلي الذي كان يجري عشية الانقلاب الشتوي، كما كان على المكرَّس أن يشارك أيضاً في إنشاد الأغاني وتأدية الرقصات أثناء الاحتفال بالأيلفسينات العظمى. ومن يتجاوز من المكرسين الطور الأول يمكنه بعندئذٍ أن يشارك في المسرحيات، وكانت هذه تقام في معبد ديميترا نفسه؛ وتعرض فيها مشاهد من حياة ديميترا وابنتها بيرسيفوني التي تنزل كلّ شتاء إلى زوجها هاديس في العالم السفلي، ثم تعود من هناك مع بداية فصل الربيع. وهكذا أيضاً كان المتواصلون مع أسرار ديميترا يأملون بأنهم هم أيضاً سوف يواصلون العيش بعد الموت.

ومن البدهي أن المسرحية الدينية لم تقتصر على تأدية الأسطورة، فالأمر الأساس فيها هو مكابدة الموت والبعث في أثناء عملية التكريس، ولا ريب في أن ذلك كان يترك انطباعاً لا يمحى.

لقد كانت المسرحيات الايلفسينية تتكوّن من ثلاثة أجزاء رئيسة، هي «ما يقال»، و «وما يفعل»، و «ما يظهر»، وليس من الصعب أن نخمن أن هذا الجزء الأخير كان هو الجزء الأهم. فمن المفترض أن يكوّن المشارك في أثنائه تجربته الدينية الخاصة بعد أن يكون قد تجاوز حلقة تطهّر عميق: لا يمكن الحصول على المعرفة الحقيقية إلا بالتجربة الشخصية، وليس بالتلقين أو عبر المؤلفات المكتوبة. وكانوا يقدمون القرابين أثناء تأدية المسرحيات،

ويقيمون حفلات الرقص الليلية، ويصوم المكرسون؛ ثم يشربون مشروباً خاصاً يدعى مشروب ديميترا، الكيكي، وكان يحضّر من النبيذ، والجبنة المبروشة، والجريش، و... ثم يفتحون أمام المشاركين خزائن المعبد ليروا الأشياء المقدسة المخزونة فيه، وكان على كل منهم أن يردد: «لقد صمتُ، وشربت الكيكي، وأخذت من الخزائن، وفعلت ما فعلته ثم أعدت كلّ شيء إلى مكانه في الخزائن».

كما كان يقام عرض سرّي ما يبدأ بديجور ثقيل على الروح، وبكاء وعويل يتردد من مختلف الاتجاهات، وكانت حزم ضوء ساطع تتخلل من وقت لآخر تلك الظلمة الثقيلة.

واشتهرت كذلك مسرحيات ديونيسيوس التي ارتبطت بعبادة ديونيسيوس إله الخمر والثمالة المقدسة، والفرح؛ وارتبطت بهذا الإله أيضاً فكرة خلود الروح البشرية. لقد كان ديونيسيوس إلهاً تراقي الأصل، ولم يرسخ مواقعه في المجمع الإغريقي إلا بعد وقت، إلاّ أنه ما لبث أن صار يقارن بعد ذلك بابوللون نفسه. وكانت المسرحيات تقام على شرفة مرّة كلّ ثلاث سنوات في دلفي: كان الكهنة يؤدّون شعيرة قيامه الإله من الأموات، فيجمعون رمزياً أشلاءه المبعثرة المصنوعة من الشمع أو الخشب، وتوقظ الباخوسيات الراقد بالرقص حول المعبد وصيحات الفرح بقيامته من جديد.

لقد قسم كهنة دلفي السنة الطقسية البيئية إلى قسمين: القسم الابوللوني، والقسم الديونيسي؛ ووافقوهما مع حركتين متعاكستين، هما العنصر الابوللوني الهادئ المتوازن الذي يرسخ القانون والمعيار؛ والعنصر الديونيسي الجامح الذي يحتدم غيظاً ويدمر كلّ نظام ومعيار.

الباب الثاني عشر

من يعرف طريق الآلهة البداية والنهاية؟

هلاك البشر



موت اللاكون وأولاده - ٥٠ ق.م

كما تعوم الأرض في المحيط، في المياه البدئية، كذلك الكوسموس، هذا البناء الكوني المزوّد بأسباب البقاء كلّها، حاوي الحياة نفسها، محاط بالكاوس الرهيب. والكاوس أزليّ ولا متناه، أمّا الكوسموس فمحدود في الزمان والمكان.

ويمتد الكاوس خارج حدود الكوسموس، في مكان ما على أطرافه، بل إنه يحيط به كما تحيط الشرنقة بدودة الحرير.

وبما أن الكوسموس كان قد ظهر يوماً ما من قلب الكاوس، أي أن له بداية، فقد تكون له نهاية أيضاً. وقد تعلّل هذه النهاية بأسباب مختلفة، بدءاً من «شحّ» عنصر الإحياء الكوني الذي يحدث دورياً، عند نهاية العام مثلاً، وهو ما تحدثنا عنه سابقاً، مروراً بمختلف القلاقل الكونية، وصولاً إلى الكوارث الكونية نفسها.

وغني عن البيان أن المقصود بكلمة كوني هنا ليس المغزى المعاصر للكلمة، بل حدود المكان الذي كان يقطن فيه شعب ما من الشعوب القديمة.

وبذا يكون خلق العالم مسألة مرتدة، فالكاوس الرابض على الحدود يحمل في ثناياه خطر تدمير العالم القائم: قد يتحوّل هذا الأخير في أي لحظة إلى كتلة هلامية لا شكل لها، قد تبتلعه لجّة، أو يهوي إلى هاوية، أو يبتلعه وحش أو..، ثم يبعث إلى الحياة من جديد.

وهلاك العالم هو الفكرة الرئيسة التي تدور حولها الأساطير الإسخاتولوجية (= أساطير نهاية الكون، الأساطير الآخروية. م).

وقد كان لهذه الأساطير دور شديد الأهمية في حياة البشرية، ولذلك فهي تستحق دراسة مستقلّة.

ويبدو أنه كانت تتوفر لميرتشا إيليادي أسس ما لكي يؤكد على أن الاستخاتولوجيا (= نهاية العالم. م) تفهم بصفتها كوسموغونيا (= نشوء الكون) المستقبل، أي أن نشوء العالم يمكن ألاّ يحدث في الماضي الميثولوجي البعيد فقط، بل في المستقبل البعيد كذلك.

وليس الآلهة براء من قوى الكاوس، وإذا صدّقنا الأساطير فإنهم كانوا يطلقونها من عقالها كما يطلق الكلب من رباطه. وقد تكون آثار الرزايا في غضون ذلك متباينة بدءاً من الخسائر البسيطة التي يمكن تجاوزها بسهولة، وانتهاء بالكبيرة والكارثية.

ونحن نستطيع أن نقف على مثل هذه المشاهد حاضرة في مختلف الميثولوجيات وهاكم بعضاً منها.

في الميثولوجيا الكاريلية- الفلندية أن الساحرة الشريرة لووخي، سيّدة بلاد بوهيولا الأزلية الديجور، قد سرقت الهلال الذي كان يستقرّ وادعاً على شجرة البتولا، كما سرقت الشمس التي كانت تستطع جذلى، وحملتهما معها إلى بوهيولا، ثم أخذت معها في طريقها إلى هناك نار المواقد كي تخلو مساكن الناس من النور.

فعمّ الأرض والسماء ظلام لا مثيل له، فتحسرت الحيوانات والناس، وصمتت الطيور ولكن سرعان ما أُعيد فرض النظام الإلهي.

وفي يوم من الأيام ندم الإله رع، الإله الخالق عند المصريين القدماء، لأنه خلق الناس الذين أخذوا يحوكون الدسائس ضده الآن. لقد شاخ رع و «باتت عظامه من الفضّة، وجسده من الذهب، وشعره من اللازورد النقي»، وعزفت الناس عن تبجيله كما يليق به.

وعند ذاك قرر أن يفني الجنس البشري عن بكرة أبيه، فأرسل ضده ابنته الحبيبة، عينه في صورة الإلهة- اللبوة سخمت، إلهة الحرب الجبّارة، وإلهة الشمس الحارقة.

فأقامت هذه مجزرة دموية، دمرّت الناس، وتسكعت في دمائهم سكرى بها، مستمتعة متعة لا تماثلها متعة.

لكنّ رع عاد إلى رشده، ربما بتأثير مشهد جموح ابنته، وعزم على أن يضع حداً لعملية استئصال البشرية، فيلجأ إلى الحيلة: سكب في طريق سخمت عدة آلاف من دوارق النبيذ الأحمر (كان المصريون القدماء من أكثر الشعوب مهارة في صناعة هذا الصنف من المشروبات)، وشرعت الإلهة تشرب متشهية ظناً منها إنها تشرب دماً بشرياً.

لكنها سرعان ما سكرت وأوقفت أعمالها الدموية. وصعد رع إلى ظهر البقرة السماوية وواصل إدارة شؤون الكون من هناك تاركاً على الأرض من يمثّله.

ويهيأ لنا أن العلاقة بين الآلهة والناس في وادي الرافدين لم تكن في مرحلة معينة بأفضل مما كانت عليه في وادي النيل.

وعندما خلق الآلهة الناس هناك لكي يقوموا على خدمتهم، أخذ هؤلاء يتكاثرون بوتائر سريعة حتى بات صخبهم بعد ألف ومائتي عام فظيعاً لا يطاق، «فخارت الأرض كالثور

البَري». وقرر اينليل الغاضب أن يرسل على الناس الوباء، لكّن أتراحاسيس العاقل تمكنَ من درئ هلاك الجنس البشري، إذا قدّم في الوقت المناسب القربان لإله الوباء نمتار.

لكنّ الوضع عينه عاد ونشأ ثانية بعد مضي الف ومائتي عام أخرى. وتقرر إفناء البشرية الصاخبة هذه المرّة بالجفاف، ومرّة أخرى أنقذها اتراحاسيس باسترضائه إله العواصف أداد.

لكن صخب الناس تواصل، وحرم اينليل النوم. عندئذٍ اضطر الآلهة إلى اتخاذ إجراءات قصوى تمثلت في منع نعم الطبيعة، وهو ما لم يكن بالإمكان تفاديه قط. وحينئذٍ قرر انكي الداهية أن يهيل الطوفان على البشر. (وسوف نتحدث عن ظاهرة الطوفان بعد حين).

وهناك أيضاً في بلاد ما بين النهرين نقف على شخصية إيرّا الشرير، إله الحرب والوباء في الميثولوجيا الأكادية، الذي يشبه نرجال السومري ربّ المملكة السفلى شبهاً كبيراً. وأحياناً ما يندغم هذان الإلهان في شخصية واحدة، وفي الأحوال كلّها كان معبدهما واحداً في شمالي وادي الرافدين. وثمة في إحدى الأساطير وصف لا يرّا «الماحق الرهيب»، وهو يفكر متكاسلاً، في ابتكار أشنع عمل يقوم به ضد الناس: إنه الميدان الوحيد الذي يجد سعادته وسكينته فيه. ويحرّضه على ذلك تابعوه الذين يغيظهم تباطؤه:

قم وسر إلى الأمام يا ايرّا،
مالك تجلس في المدينة ككهل شاحب،
كوليد باك تجلس أنت في البيت...

....

انهض أيها البطل واخط في السهوب،
جندل الإنسان والوحوش،
فيسمع الآلهة ويرتعدون،
ويسمع الملوك ويرتجفون فرقاً،
وتسمع العفاريت فتذعر،
ويسمع الجبار فيرتعش،

وتـــــسمع الجبـــــال فتهتـــــز،

ويـــــسمع البحـــــر فيختـــــلج...

ولكـن إيـرّا الغـدّار الـسيء لطويّـة لا يحتـاج وقتـاً للاقتنـاع بارتكـاب أي عمـل شـرير. فقـام مـن تـوه وجـاء إلى الإلـه مـردوك الـذي يحكـم في بابـل، ونجـح في خداعـه وإقناعـه بـأن يـذهب ويتطهـر بالنـار، وسـوف يهتمّ هـو إيـرّا أثنـاء غيابـه بشؤون المدينـة، والناس، وكلّ ما هو حيّ.

وقد ابتلـع مـردوك الطعّم وتـرك عرشـه لـبعض الوقت ونـزل إلى المملكـة السفلية. وعندئذ أمر إيرا معاونه إيشوم أن يفتح البوابات لأنه يحترق شوقاً إلى الدمار:

عنـــدما انطـــق ترمـــي الـــشمس أشـــعتها،

وأغطّـــي وجـــه النهـــار بالـــديجور،

والمولـود في يـوم مـاطر، يُـدفن في يـوم الجفـاف،

والـذاهب في درب رطبـة، يرجـع في طريـق غـبراء..

وارمـــي قـــرى النـــاس بالهـــضاب،

وأخـــوي المـــدن، وأعيـــدها ركـــام،

وأجـــرف الجبـــال، وأفـــني قطعانهـــا،

وأجفـــف البحـــار، وأدّمـــر ثرواتهـــا،

واجتـــثّ النباتـــات، وأســـحق الجبـــابرة،

وأُجنـــدل البـــشر، وأُهلـــك كـــل حـــيّ.

ودّمر إيرا من جملة ما دمّر، دمرّ بابل البديعة، ودمرّ سكانها، وأسوارها، وضواحيها. ولكن منظر الدمار جعله أكثر هياجاً وتعطشاً لمضاعفة «القتل والانتقام»، الأمر الذي جعل إيشوم يبذل جهوداً كثيرة لتهدئته وإيقافه.

من الواضح أن سلوك الآلهة لا يظهر في الأساطير التي سبق الحديث عنها في أحسن صورة، إنه في الأحوال كلّها يشبه السلوك البشري شبهاً كبيراً، لكنه يرغمنا مع ذلك كلّه على أن نمعن الفكر فيه.

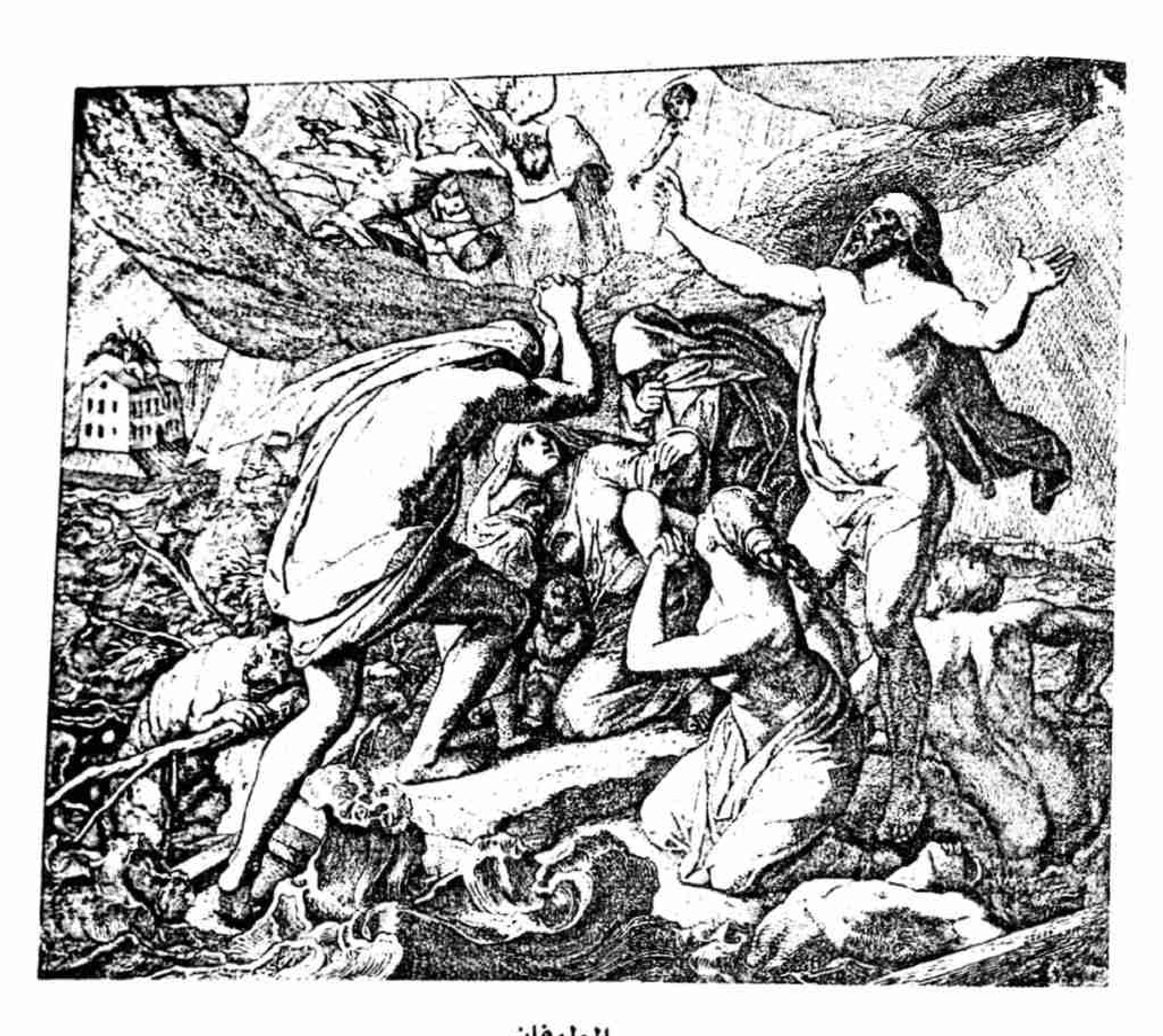
وتشهد المعارف الأبدية المتكاملة التي حفظتها الأساطير لنا، على وجود قانون للحياة ثابت وأزلي في مظاهره كلّها، وهذا القانون طبيعي بالدرجة عينها التي رسخته

الحياة فيها. وأيّ انتهاك له في أي جزء من الكلّ الطبيعي يسبب الضرر للجسم الكوني كلّه ويؤدي بالضرورة إلى هلاك من يزرع الخراب.

وتستخلص من هذا خلاصة مهمة: ليس الفرد مسؤولاً عن تصرفاته أمام فرد آخر، أو أمام الآلهة وحسب، بل هو مسؤول عنها أمام الكلّ الكوني كلهَ.

وقد طورَ مختلف الأديان هذه الفكرة فيما بعد.

الطوفان الكوني



الطوفان

يو. ش. فون كارولسفيلد

١٦٨٠م.

دعونا ننظر إلى القمر: أطواره الرئيسة هي ظهوره، ونموهُ، وتناقصه وغيابه ثمّ ظهوره. ومن المعروف أن هذه الأطوار أدّت دوراً كبيراً في صياغة فرضيات الدورات الزمنية. ونحن يمكننا أن نعثر على هذه الأخيرة في أقدم الرؤى والأساطير التي تحدّثت عن أصل الإنسان. فيروى فيها أن الجنس البشري عندما يُستهلك ويغدو غير ذي نفع (آثماً، كما نقول نحن الآن)، تضع حداً لوجوده كارثة ما: طوفان، أو فيضان، أو حريق وسوى ذلك من الظاهرات، ثمّ يولد جنس بشري جديد، من جدّ ميثولوجيّ ما عادة، يكون قد نجا من الكارثة بتدخل من العناية العليا.

ويُعد الطوفان من أشهر تنويعات الكارثة وأكثرها شيوعاً. فعد عن الطوفان التوراتي المعروف، دمرّ الطوفان الكون حسب الأساطير، في الهند القديمة وسواها من بلدان آسيا، وفي أمريكا، واستراليا، وجزر غينيا الجديدة، وبولينيزيا، وميكرونيزيا، وميلانيزيا. قصارى القول، إن أساطير الطوفان اشتهرت في كل مكان ما عدا إفريقيا التي لم تتعرّف إليها إلاّ في وقت متأخر وتحت تأثير حركة التبشير المسيحي. وإذا صدّقنا الأساطير فإن هذا كلّه تكرر مرات كثيرة.

فلنمض أولاً إلى الرواية السومرية، وهي رواية تثير الاهتمام من جوانب مختلفة، خاصة أنها كانت الأصل الذي بنيت عليه قصة الطوفان التوراتية، عبر الرواية البابلية التي لم تبقِ على قيد الحياة من البشر سوى أوتنابيشتي، الذي حاول جلجامش أن يعرف منه سرّ الخلود. لكن النص السومري الأصل لم يبق لنا كاملاً، إلاّ أنه يتضح من بقاياه أن الآلهة عزموا على إرسال الطوفان على الأرض وإفناء الجنس البشري. بيد أن زيوسوردا، وهو الأصل الأكادي الذي أخذت عنه شخصية نوح التوراتي، ومثله أيضاً اتراحاسيس الذي نوهنا إليه سابقاً، كان ملكاً تقياً ورعاً، ولذلك أحيط علماً بالقرار الذي اتخذه الآلهة: لقد سمع صوتاً إلهياً يناديه بينما كان واقفاً قرب أحد الأسوار. قال الصوت:

انتبـــه جيـــداً لمـــا ســـأقوله!

ســـوف يجتـــاح الطوفـــان العـــالم كلّـــه،

«لـــــــــــــيفني بــــــــــــــذرة البــــــــــــــشر»

ذاك هـو القـرار النهـائي الـذي اتخـذه المجلـس...

ثمّ تلقى زيوسوردا تعليمات تفصيلية: لقد أُمر ببناء سفينة كبيرة لينجو بها من الهلاك، وهو ما يجب أن نتوقع أنه فعله. وعندما انهال الطوفان على البلاد «تجمعت العواصف والزوابع الغضوبة كلّها، واجتاح الطوفان كلّ العواصم»، لقد أرغى وأزبد سبعة نهارات وسبع ليال، وفي النهار الثامن ظهر إله الشمس اوتو وسكب أشعته الثمينة على الأرض. فسجد زيوسوردا له وقدّم الذبائح من ثيران وشياه. ومثله مثل اوتنابيشتي نال زيوسوردا حظوة لدى الآلهة: نال «حياة كحياة الإله» ،وتنفساً أبدياً، ثم نُقل إلى ديلمون. إلى «المكان الذي تشرق الشمس منه».

وفي مثيولوجيا التائيين البورميين كان ليتلونغ هو الإنسان الذي نجا من الطوفان. وكما هي الحال في الأساطير الأخرى كذلك هنا حذّر الآلهة ليتلونغ من الكارثة المحدقة وامروه أن يبني طوفاً يأخذ معه عليه الجاموس فقط. ثم انهال الطوفان بعدئذٍ واستمر إلى أن أوقفه إله التيارات المائية الذي ركب سحابة ونزل عليها إلى الأرض. ولكن سرعان ما شبّ على الأرض التي جفت عنها لتوها مياه الطوفان، حريق. وهنا بالذات ظهرت حاجة ليتلونغ للجاموس: لقد شق بطن الجاموس واحتمى من الحريق في داخله. وفي معدة الجاموس عثر ليتلونغ على بذرتين من نبات القرع أخذهما، وزرعهما فخرجت منهما قرعتان مهولتان خرج منهما الجنس البشري الذي استوطن الأرض، كما خرجت منهما أيضاً الحيوانات والطيور، والنباتات، وكل ما هو ضروري للعيش.

غني عن البيان أن أساطير الطوفان لدى شتى الشعوب وفي مختلف الأمداء تتميّز بصبغة محلّية. فالصينيون القدماء مثلاً، تركوا حكايات عن تنين يدعى كون- كون، ضرب السماء برأسه ضربة تهاوت من شدّة قوّتها أعمدة السماء كلّها. فانهارت السماء على الأرض وغمرتها بالمياه. وحسب الخرافات الاندونيسية أن الأرواح الشريرة هي التي تسببت بالطوفان بمكائدها. فبسببها حدث مدّ عال لم يعرف له مثيل من قبل غمر الأرض كلّها. ولم ينج منه سوى امرأة واحدة علقت جدائل شعرها بشجرة، ولذلك لم تحملها الأمواج إلى المحيط. لقد كانت وحيدة وخائفة، فأخذت ترمي الحصى على الغرقى الذين كانوا يتأرجحون على أمواج الشاطئ، فدبّت الحياة في هؤلاء وعادوا أحياء.

وثمة خرافة استرالية يغيب منها القطع المأساوي غياباً تاماً، تقول إن ضفدعة هائلة ابتلعت يوماً المياه كلّها. فجفت البحار والأنهار، وأخذت الأسماك تتقافز على الرمال الملتهبة كالجمر. فعزمت الحيوانات على إنقاذ الوضع، وقد رأت أن الحلّ الأمثل للمعضلة يتمثل في إضحاك الضفدعة. بيد أن محاولاتها باءت كلها بالفشل. فالضفدعة لا تريد أن تضحك أبداً، وكلّ ما كانت تفعله هو نفخ وجنتيها وتعميش عينيها. بيد أن الحنكليس نجح حيث فشلت الحيوانات الأخرى كلها: لقد بدت تصعيراته للضفدعة مضحكة لدرجة أنها انفجرت بالضحك، وسالت دموع عينيها، واندفع الماء من فمها. وكان ذلك هو سبب الطوفان.

فالطوفان إذن تنويعة معروفة، بل يمكن القول إنها مبتذلة، فما الذي يمكن انتظاره بعد، إذا كان العصر الذهبي قد ولّى ومعه ولّت طيبات الجنة، والعالم يغدو أكثر فقراً وسوءاً، وتداعي الكوسموس أمراً حتمياً، والكارثة تضرب طوقها. لقد عرفت أساطير شتى الشعوب خيارات أخرى أكثر فعالية من الطوفان. يبدو أن الآلهة كانوا يتوفّرون على احتياطي غنّي من وسائل معاقبة الجنس البشري المنفلت من عقاله: الحريق، والهزات الأرضية، والأوبئة، وانهيار الجبال وسوى ذلك من الكوارث المدمرة. ومن الواضح أن هذه الكوارث كانت كلها ذات امتداد كوني، إذ كان المقصود بالكون هو المكان الذي يقيم فيه هذا الشعب أو ذاك.

نهاية العالم



يوم الحساب

هـ. ميوملينغ ، نحو ١٤٦٦-١٤٧١م.

لقد طوّر بعض النبوءات والتعاليم الفلسفية، والثقافية، والفن المعتقدات والتصورات الميثولوجية القديمة عن نهاية العالم، والكارثة الكونية وسوى ذلك من خلال الأحداث الأخروية

لقد حافظت الميثولوجيا الهندية على كثرة من تنويعات سيناريو نهاية العالم: بدءاً من التنويعات الخفيفة التي تأخذها الرحمة بالأرواح الضعيفة الهشة، وانتهاء بالتنويعات الرهيبة القاسية الصارمة التي تدبّ الذعر حتى في نفوس الأقوياء.

وتنتمي إلى التنويعات المخففة سلسلة أساطير نزول الإله فيشنو إلى الأرض.

ففي كلّ مرّة تزداد فيها قوة الشرّ ويحدق خطر الدمار بالكون، يخفّ فيشنو قبل أن تصل الأمور حدّ المأساة، «فيرتدي بزة» كائن ما يدركه العقل البشري (سمكة، سلحفاة، إنسان، بطل- ملك، و..)، وينزل إلى الأرض المتعبة بالآثمين ويعيد النظام فيها إلى نصابه. وفي آخر عصرنا المظلم هذا عندما تتزايد أعداد الأفاقين إلى حدّ غير مقبول، ويعشش الكفر وسواه من الأحاسيس السيئة في نفوس كثير من الناس، عندئذٍ يظهر فيشنو على الأرض مرّة أخرى ممتطياً صهوة حصان أبيض، فيسود العدل الأرض. وعلى أي حال هذا ما يؤمن به أتباع فيشنو إيماناً راسخاً.

أمّا الشيفيون أتباع الإله المدّمر شيفا، فهم يرون أن تدمير العالم أكثر الأعمال قدسية، لأن الفناء يتقدم بالضرورة كلّ بناء، ولا يولد الجديد أبداً قبل أن يموت القديم. وتتجسد هذه المعتقدات كلّها عندهم في شخصية شيفا الراقص الكثير الأيدي، الذي ينجب في إيقاع رقصه الهائج ويدّمر بقوة السحر، مظهر الأشياء كلّها في العالم، ثمّ يدمر الكون كلّه في آخر الدورة الكونية لكي يمهد سبيل بدء دورة كونية جديدة.

أمّا وصف الكارثة الكونية التي تتمّم دورة تامّة لتطوير العالم، فليس معدّاً لذوي الإحساس المرهف، لأن ذلك قد يجعلهم يغرقون في الكآبة. والواقع أن النصوص تصف بتعابير تصويرية بليغة ترهق النفس أن «عصر الدّمار سوف يكون رهيباً: لن تسكب الغيوم على الأرض مطراً طول مئة عام، ولن يجد الناس ما يقتاتون به، وإذ يضنيهم الجوع يأكل بعضهم بعضاً، ويقتربون من هاوية الفناء الرهيبة».

وعلى خلفية هذه اللوحة التي تتجمد الروح أمامها، يبدو الطوفان مجرّد لهو بريء. وعلى وجه العموم ثمة في تلك النصوص الهندوسية نفسها لوحة لهياج البيئات كلّها عندما

يعزف الطوفان اللحن الأخير. فبعد حقبة جفاف تطول سنين، تشتعل في السماء سبع شموس أو اثنتا عشرة شمساً تجفف مياه الأرض كلّها وتحرق الأرض حتى آخر ذرة من ترابها وتجتاح الأرض بعد ذلك ريح نارية حارقة لا تبقي شيئاً في طريقها. ويظهر في السماء كم من الغيوم تنيرها حزمة من البروق. ثم تنفرج السماء ويهطل المطر مدراراً طول اثني عشر عاماً إلى أن يغطي العالم كلّه، كما تتشارك الجوائح البيئية الأخرى في رسم لوحة فتل العالم المهولة هذه. ومن البدهي إنه لن يبقى أي أثر للجنس البشري البائس بعد هذا الدمار الرهيب. وعلى وجه العموم فإن كلّ شيء سيفنى بعد ذلك، وسيجمّ الإله الذي خلق ذاته، أيّ العلّة البدئية، سوف يجمّ الرياح كلها ويغفو. وبذا يكون قد حلّ ليل براهما، ويبقى كلّ شيء بانتظار لحظة استيقاظه أي لحظة بدء عصر الخلق الجديد.

فيتحول العالم إلى كتلة مائية مخيفة ليس فيها أي علامة من علامات الحياة. ولن يكون هناك سوى الثعبان المهول شيشو يتأرجح على سطح المحيط وفيشنو يغفو ناعماً على ثنياته، ولن يتجدد العالم إلى أن يستيقظ.

وفي الميثولوجيا الجرمانية- السكندنافية أيضاً، تبدو لوحة «هلاك الآلهة» مهولة تخلب اللبّ.

فهي تبدأ بسؤال يسأله كبير الآلهة اودين للمتنبّئة فيولفا، المرأة الحكيمة العارفة بالمصائر: أيّ قضاء ينتظره وباقي الآلهة؟ فتنذره فيولفا بأن هلاك الآلهة، روغناريوك، حتميّ. وأن «شتاء عظيماً»، «عصر السيوف والفؤوس» سوف يسبقه، وسيطول ثلاث سنوات. وتختفي الرحمة من نفوس البشر. وفي بلاد العمالقة ايتونهيم يصيح الديك الأحمر، ثمّ يصيح في العالمين الآخرين الديك الأسود- الأحمر، والديك الذهبي. وعند الكهف الجبلي الذي يقود إلى عالم الأموات، يبدأ الكلب هارم بالنباح فاتحاً شدقه الذي لا قرار له. فترتجف الأرض، وتتساقط الصخور، ويقتلع الشجر من جذوره، ويجتاح البحر الأرض. وترتعش وتئنّ، وترتجف شجرة الدردار ايغدرا سيل، محور الكون، التي تخترق العوالم كلّها، وينفخ حارس الآلهة هيمدال في بوقه. وتطفو من عالم الأموات السفينة ناهلثار المصنوعة من أظافر الأموات، حاملة من هناك الأموات الذين سيحكمهم الغدّار الشرير لوكي. ويهاجم عالم البشر والآلهة العمالقة الضواري الذين يذرو منهم صقيع كوني؛ وأبناء بلاد النار موسبيليا الذين يضرمون الحريق، فينهار قوس- القزح- الجسر بيفرست الذي يصل الأرض بالمأوى السماوي لاسغارد.

وفي الموقعة الحاسمة يدخل فريير صاحب الخنزير البرّي العجيب ساحة القتال ضد العملاق الناري سوت، وينفلت الذئب فرينير من قيده ويفترس العملاق اودين نفسه، ويسقط الإله الجبار، إله الرعود والصواعق تور صريعاً بسمّ الثعبان يرمو نفاند. وفي نهاية المطاف يقتل كلّ منهم الآخر، ويرسل سورت على الأرض ناراً يصل لهيبها إلى السماء ويحرق الكون كلّه. ويبتلع الذئب- ترول المتوحشّ الشمس، وتغرق الأرض في البحر، وتتساقط النجوم من السماء.. وإذا ما استرجعنا نحن هذه اللوحة في مخيلتنا، فإنه يمكننا أن نستذكر موسيقا فاغنر، وعندئذٍ نؤخذ بروح الحماس الذي تخلقه فينا المعركة الأخيرة فتتلاشى اللحظة المأساوية تلاشياً شبه تام.

كما تقدّم لنا الميثولوجيا الإيرانية القديمة لوحة مشابهة عن نهاية العالم، لكنها أقل جمالية. فحسب هذه اللوحة أن شتاء صقيعياً إلى درجة الوحشية سيحل في الكون قبيل نهاية العالم، وينطلق التنين الأقوى آجي- دهاكا من عقاله، ولهذا الوحش ثلاثة أشداق وثلاثة رؤوس، وكان الإله ترايتاون قد قيّده منذ بدء الخلق إلى جبل إيّما.

وكان من المهم لنا لو علمنا كيف كان شعور الهنود الحمر المايا وهم يتمعّنون في صورة نهاية عالمهم، هذه الصورة التي نقلها إلينا ما يدعى قانون درسدن الذي دوّنت فيه أطوار تحوّل الكواكب وحساب الدورات الكونية. ومن المفيد أن نسجّل هنا أن الطريق إلى دمار العالم توافقت عندهم مع أكبر الأرقام.

ويُظهر القانون أفعى ماطرة تمتد عبر السماء كلّها، وتقذف تيارات الماء من فمها، كما تنسكب تيارات أخرى مرعبة من الشمس والقمر، وتقلب الإلهة الشريرة العجوز حارسة الفيضانات والشآبيب، قدر المياه السماوية رأساً على عقب. على ردائها رسم الموت الحتمي: عظام متصالبة، ورأسها متوج بأفعى تتلوّى. وتحتها الإله الأسود وعلى رأسه بومة ترغي ورمح موّجه إلى تحت يحمل الفناء للكون.

كما كان عالم الاستيك ينتهي في كلّ مرة بعملية احتضار مريرة، وحسب السيناريو الميثولوجي بلغ العدد الكلّي لهذه النهايات خمس نهايات. وقد دعي كلّ ظهور جديد للعالم شمساً. وفي عصر الشمس الأولى ظهر العمالقة على الأرض، ولكن الإله الخالق تيسكا تليبوكا تحوّل ذات يوم إلى جاغوار وافترسهم جميعاً، فخلت الأرض من سكانها. أمّا عصر الشمس الثانية فقد انتهى بإعصار مريع دمّر كلّ حيّ تقريباً، ولم ينج سوى بعض البشر الذين ما لبثوا أن تحوّلوا إلى قردة. وفي المرّة الثالثة دمّرت الكون أمطار نارية. ومرة أخرى فني الجنس البشري إلاّ قلة تحولوا إلى طيور. وانتهى العالم في المرة

الرابعة بطوفان، وتحول الناس الناجون منه إلى أسماك. ونحن لا نعرف كيف كان سينتهي عالم الاستيك في المرّة الخامسة، لأن حركة الاستعمار الأسباني وضعت في هذه المرة حداً نهائياً للوجود الفعلي لعالم الاستيك. ولكن من المعروف أن الاستيك لجؤوا في ترقّبهم نهاية العالم إلى الوسيلة المجرّبة لديهم مرات ومرّات: إلى الطقوس، بما فيها طقوس تقديم الذبائح البشرية الدموية. لقد كانوا على ثقة راسخة بأن هذه الوسيلة لن تخيب أملهم، وربما كان الأمر هكذا فعلاً.

وكان لدى السلاف، بمن فيهم الروس، معتقداتهم الأخروية أيضاً. هل تتذكرون على ماذا تستقر الأرض حسب المعتقدات الكوسمولوجية الروسية القديمة؟ على «حوت ناري». وهذا الحوت عينه الذي يتمسك بنهر ناري، هو الذي يدّمر العالم: هذا ما أكدته دوماً الحكايات السحرية الشعبية. ويحدث الأمر هكذا: يتحرّك الحوت بقوة وعنف، فيتأرجح، وعندئذٍ ينهمر نهر النار وتقع نهاية الكون.

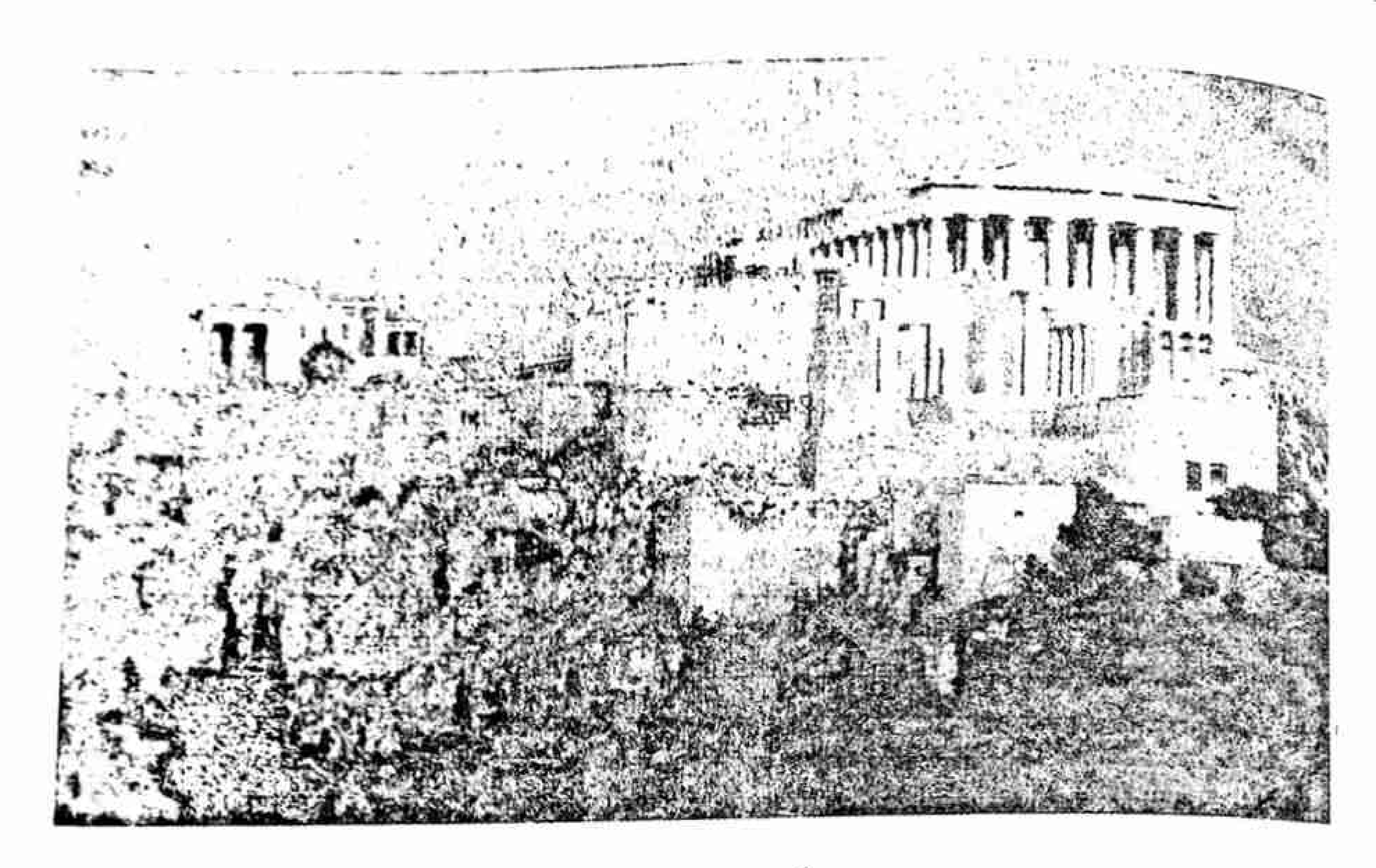
وتثير فضولاً خاصاً تلك التنويعات الابوريغينية المحدثة التي زرع المبشّرون بذورها. وليس نادراً أن تتلوّن هذه التنويعات بدوافع من خيبة الأمل بالكون المتعب. فالهنود الحمر الهولراني الذين تعيش بقاياهم في البرازيل، أخذوا منذ القرن الميلادي التاسع عشر يبحثون عن بلاد تكون لهم بمثابة الجنة الأرضية التي تتوضع وراء المحيط، لأنهم يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأن مياهاً ونيراناً سوف تدمرّ الأرض. لقد سمع زعماؤهم الشامانات كيف ترفع الأرض صلواتها شاكية الفيض الذي أضناها على أرجح تقدير بعد أن أُرغمت على أن تبتلع كثرة كثيرة من الجثث. كما رفعت الصلوات نفسها إلى خالق المياه، والشجر، والطبيعة كلّها على وجه العموم.

ولكن على الرغم من هذه الدرامية كلها، إلا أن محاور الأساطير الايسخاتولوجية لا توحي بنهاية قاهرة كئيبة. ففي الميثولوجيا الإيرانية على سبيل المثال، ينجب زرفان، أي «الزمن اللا متناهي)، والإله الاندروجينوس الأزلي الجبار، ينجب اورمازدا (= أهورامازدا) الطيّب، وأهريمان السيئ الطوية. وهذان شقيقان توأمان، وقد ولد الثاني منهما من ارتياب زرفان في منفعة تقديم الذبائح التي بقي زرفان آلاف السنين يقدّمها.

لقد عزم زرفان على أن يعطي السلطة على العالم لأي من الشقيقين يظهر إلى النور أولاً، وكان أهريمان هو الذي رأى النور قبل اورمازدا، فقد علم بنيّة زرفان وشقّ بطنه وخرج، ثمّ تبعه اورمازدا ثانياً. ووجد زرفان نفسه مرغماً على أن يلتزم بعهده، وساد أهريمان على

العالم، ولكن اورمازدا يجب أن يعتلي عرش العالم بعد مضي تسعة آلاف عام، ويقصي سيئات شقيقه كلّها. وفيما بعد صيغت هذه المعتقدات في تيار ديني إيراني مستقلّ هو الزرفانية.

وربما يكون إحساس الإنسان الميثولوجي الذي نشأ وتربى على تلك الصور الساطعة، والذي كان معدّاً لقبول مثل هذه النهاية المؤثرة للعالم، ربما يكون إحساسه مختلفاً اختلافاً كبيراً عن إحساسنا نحن. فالإنسان الذي كانت الحياة والموت بالنسبة إليه حدّي ظاهرة واحدة مدخلاً ومخرجاً، لم يكن يخاف نهاية العالم، بل كان ينتظرها بهدوء وسكينة، فالموت تعقبه الحياة، والنهاية تعقبها بداية جديدة.



بدلاً من الخاتمة

لقد بات الحديث شائعاً الآن عن عودة الأسطورة بصفتها أهمّ سمة طبعت القرن المنصرم بطابعها. ولكن الأساطير على وجه الحصر لم تخرج من حياتنا في أي يوم من الأيام. وعلى الرغم من أن الإغريق كانوا قد عملوا في زمنهم على «فكّ السحر» عن العالم وإبعاده عن الأسطورة (كان هسيود أوّل من بدأ يصف الأساطير على أساس مبدأ العقلانية في «الثيوغونيا». واضعاً بداية لشتى التصنيفات والتحليلات، طارحاً في الوقت عينه واحدة من أهمّ مسائل نظريات الأسطورة على بساط البحث: العلاقة بين الأسطورة والواقع)، إلا أن سمات المعايشة الميثولوجية للواقع بقيت راسخة بقوة، وابتداء من القرن الميلادي التاسع عشر بدأت تعلن عن نفسها هناك حيث لم يكن يتوقع أحد أن يراها. وهكذا ساهمت الأفكار الميثولوجية عن بناء النظام الكوني مساهمة جدّية في تطوير الفكر العلمي المعاصر. فقد أبدى ف. إ. فرنادسكي مثلاً، اهتماماً كبيراً بأفكار القدماء ورأى أنها مهمة جداً بالنسبة للعلم المعاصر، خاصة الكيمياء الحيوية، لأنها أفكار تساعد على شمل المسائل الكونية، وأزلية الحياة، ووحدة الحيّ والجامد وتحوّلهما المتبادل. وقد يكون من الملائم أن نشير هنا إلى أن الاستشراقات العلمية على وجه العموم تحمل طابعاً ميثولوجياً، أكثر منه عقلاني:

لنتذكر على سبيل المثال لا الحصر د. إ. مندلييف أو ا. بوانكاريه اللذين ابتكرا ابتكارات في الحلم.

وباتت كلمة «أسطورة» نفسها شديدة الجاذبية بالنسبة لكثيرين: يتحدثون الآن عن أساطير سياسية، قومية، وتاريخية. والحقيقة أن الوضع نشأ إشكالياً ومتسماً بالمفارقة: في اللغات الأوروبية، بل في اللغات غير الأوروبية أيضاً، بدّلت كلمة «أسطورة» معناها تبديلاً معكوساً تماماً وباتت تعني الاختلاق، والترّهة، والتلفيق، أي كل ما ليس ممكناً وقوعه، بعد أن كانت تعني بادئ ذي بدء، الرواية الحقيقية عن الأحداث الأولى المقدسة، عن الأشياء البدئية. وإذا كان الناس في الأزمنة الأولى قد نظروا إلى العالم وفهموه عبر الأسطورة، تقريباً كما ننظر نحن عبر النظارات، فإننا الآن نحاول أن نفهم الأسطورة ونتساءل: هل يمكن أن نصدّق على وجه العموم ما جاء فيها، أيجب أن نفعل ذلك؟

ولكن أياً كان موقفنا من الأسطورة، علينا أن نقرّ بأنها معطى عنيد لا يدحض، مثلها مثل أساس المنزل الذي نعيش فيه. لقد بقيت الأساطير أساس ثقافتنا الراسخ الذي لا يتزعزع. ولم يكن من الممكن أن يكون الأمر على الضدّ من هذا، لأنها كانت الوعاء الذي احتضن مخزون قيمنا الراسخة التي تتواتر دوماً كأني بها خارج سلطة الزمن، هذه القيم التي عايشت حياتنا خلال عصور تاريخنا كلّها. وقد نوّه الشاعر راينر ماريا ريلكه بدّقة إلى أن الماضي يعيش معنا وفينا، وأن في هذا يكمن «مغزى كلّ ما كان يوماً في الماضي، مغزى كون الماضي لا يتحوّل إلى حمل ميت، بل يعود إلينا بطريقة عجيبية ويتجسّد عميقاً فينا». عداك عن هذا أن الميثولوجيا كانت نقطة الانطلاق لتقدّم الفلسفة، والأدب، والتاريخ وسواها من العلوم، كما كانت «التربة والمخزون» لنموّ وتقدم شتى أشكال الدين. وهكذا دخلت الأسطورة نسيج حضارتنا، ولذلك نراها تتحول فيها من وقت لآخر وبهذه الصيغة أو تلك.

فالمسيحية في واقع الأمر لم تبعد الأسطورة إلى أيّ مكان. وهذه ما تقطع به الدعاوى التي استمرت طويلاً ضد الساحرات: حتى النصف الثاني من القرن الميلادي الثامن عشر، زد إلى هذا الإيمان بالحوريات، ووحيد القرن وسوى ذلك من الكائنات: لقد تخلل الإحساس الميثولوجي بالعالم حقبة القرون الوسطى كلّها. أو ليست الأفكار الميثولوجية هي التي شدت الصليبيين الذين كانوا متعطشين لتحرير أورشليم بصفتها المركز المقدّس للعالم، وتوحيد الشعوب المسيحية حولها! أو ليس موقفنا من حكامنا موقفاً ميثولوجياً، عندما ننتظر منهم إحداث تأثير إعجازي على سير الأحداث ووضع العالم، وعلى حياتنا الشخصية؟ الا نؤمن نحن الآن كما آمن القدماء أن للحاكم قوّة سحرية يوشي بها زمنه الذي يحكم فيه؟ وما الذي

يمكننا أن نقوله عن آمالنا الراسخة بالمنقذ الوطني الذي سوف يخلصنا من الرزايا كلها ويحقق الرخاء الوطني الكلّي؟ أو ليست هذه هي الأسطورة نفسها التي تعيش في أعماق الوعي البشري الباطني والتي زرعت في ناس عصر التنوير الثقة بحتمية انتصار العقل وتحقيق التجديد؟ ألا نسمع في تعاليم كارل ماركس عن البروليتاريا أصداء تلك التصورات والمعتقدات الميثولوجية عينها التي كانت شائعة قديماً عن الديميورغوس؟ أو لا تُستعرض ميثولوجية العصر الذهبي عبر آمالنا الأبدية بالمستقبل المشرق، على الرغم من أن هذا الأخير يبقى دائماً بالنسبة لكلّ جيل شيئاً ما أشبه بالسراب؟ أو ليست القناعات الميثولوجية هي التي تجعل جماهير غفيرة من البشر تعيش بين زمن وآخر حالة انتظار نهاية الكون؟

وإذا ما ألقينا نظرة شاملة على الثقافة والتاريخ الأوروبيين، فإنه يتاتى لنا أن نعترف بعد ذلك بأن الوعي (أو التفكير) الميثولوجي متجذّر تماماً ولم يستأصل، وأنه ينجب نفسه في كل عصر. ولنأخذ على سبيل المثال أي دين من الأديان المعاصرة: لقد ولدت هذه الأخيرة كلّها في عين الدائرة السحرية للأساطير التي جرى الحديث عنها في هذا الكتاب. فإلى هذا الينبوع الذي لا ينضب من الرموز، والشخصيات، والأفكار توّجه معلّمو الروح الذين لا يشقّ لهم غبار: بوذا، وكونفوشيوس، ولاوتسزي، ومحمدّ، وزارادشت، وكثيرون آخرون. لقد استخدم هؤلاء «المحاصيل» الميثولوجية بالذات كوسائل مثلى للتعبير عن تعاليمهم الميتافيزيقية، ومعاييرهم الأخلاقية، وإنشاءاتهم اللاهوتية. فأساطير الخلق تدخل أساس الأديان كلّها تقريباً. والتفكير الديني يعالج الحدسيات عينها التي رسختها الأساطير الكوسموغونية.

ألا يكفي هذا للكفّ عن الشك في أن الشخصيات والرموز الميثولوجية مليئة بمغزى أبدي راسخ، وأنها تنطوي على وجدانيات تؤكد على ثبات القيم الروحية التي لا تشيخ، وتبقى على الدرجة عينها من الأهمية في مختلف حقب التاريخ البشري غير خاضعة لزمان أو مكان. ونحن يمكننا أن نوضح هذا بمثال مأخوذ من بحث ج. كيمبل الذي درس الأسس السيكولوجية لأساطير البطولة في أزمنة مختلفة ولدى شعوب مختلفة. لقد راجع كيمبل طقوس التكريس وتحدّث عن الختان الذي زعموا أن الثعبان الأب فرضه لحاجته لغلفة المختون، فوجد ما يوافق هذه اللحظة الشعيرية في اللا وعي، ثمّ ساق الوصف الذي رصده يونغ. فقد كتب هذا أن أحد مرضاه حلم يوماً بأن أفعى خرجت من الكهف وهاجمته ولدغته في منطقة أعضائه التناسلية. فاستنتج يونغ أن «أن هذا الحلم جاء في اللحظة التي اقتنع المريض فيها بصحة التحليل النفسي وبدأ يتحرر من قيود مركّب الأمّ». وعلى هذه الصورة كانت الرمزية الميثولوجية فعالة وحققت من جملة ما حققت لقاء لحظة الوعي مع لحظة اللاوعي لدى الإنسان ممهدة له سبيل

النضج ودافعة روحه إلى الأمام. ومن الواضح أن الرمزية الميثولوجية قد تواصلت في المثال الوارد على يد المريض عينه عندما كان في طريقه للتخلّص من الثوابت الطفولية. ومعنى ذلك إن هذه الرمزية تنطوي على شيء ما شديد الأهمية بالنسبة لسيكولوجيتنا، وإذا لم يأت هذا الشيء من الخارج بمساعدة الأسطورة أو الشعيرة، فإنه يأتي من الداخل من أعماق لا وعينا.

وربما لا نبالغ إذا قلنا إن الأساطير ومعها الشعائر غالباً ما قدّمت «عوناً روحياً» فعالاً يلبّي الناس في لحظات حياتهم الحرجة. ولا يفتقر المحللون النفسيون إلى الأسس عندما يفترضون أن كثرة حالات الانهيار العصبي في أيامنا هذه سببها غياب حاملي هذا الضرب من ضروب العون، ولذلك نبقى نحن طويلاً أسرى صور طفولتنا.

ومن المفيد أن نتذكر في هذا السياق الرأي الشائع الآن، الذي يرى أصحابه أن أمراض المجتمع المعاصر وأزماته ليست سوى نتيجة حتمية لغياب ميثولوجيا معاصرة فعالة، أو بمعنى أدق غياب التعبير المناسب لصيغها التي لا تشيخ. ولم يكن من قبيل المصادفة أن يعطي يونغ أحد كتبه العنوان التالي: «الإنسان المعاصر في رحلة البحث عن الروح»، وقد قصد بهذا إلى أن المجتمع الأوروبي دخل منذ عصر النهضة والإصلاح حالة بحث ممضّة عن أسطورة جديدة يمكن أن تغدو له معيناً روحياً لا ينضب، وتمكنه من تجديد قوى الإبداع فيه.

لنلتفت الآن إلى عالم الأدب، ومثالنا فيه عند الكاتب النمساوي المعاصر هـ. بروخ في أقصوصته: «فوق الأشرعة والنسيم هيّن». يعيش بطل هذه الأقصوصة معاناة موت أُمه، ويسمع على حين غرّة كأن أحداً يناديه بالاسم الذي كان ينادى به في طفولته. «ففكر في نفسه: لو لم يكن لي اسم، لما استطاعت أن تناديني، أمّا والأمر هكذا فإنه ينبغي أن أسير وراءها، يجب دائماً أن أسير خلف أمّي، كما علّمتني، أن أمشي وراءها حتى القبر». ثمّ يتابع مفكراً: «من لم يعد له اسم، يعيش خارج الحاضر، ولا يمكن أن يحدث له أي شيء بعد، لقد تخلّص من هذه التداخلات كلّها. ليس لي اسم ولا أرغب في أن يكون لي، حتى هنا يكفي، لقد حملت الاسم الذي دعيت به زمناً طويلاً جداً، والآن أضجرتني الأسماء كلّها». ومن البيّن أن معاناة البطل هذه تنطوي على مستوى ميثولوجي عميق مرتبط بالاعتقاد أن للكلمة على وجه العموم وللاسم على وجه الخصوص وظيفة سحرية. وهذا يجعلنا نفكر في أن الصيغة الإنجيلية المعروفة: «في البدء كان الكلمة». تكتسب مغزى عميقاً في حياة كلّ جيل. وربما كان مثل هذا الفهم يساعدنا على أن نبني حياتنا على أسس أكثر غنى. وكم كان م. ك. ماماردا شفيلي دقيقاً حين قال: «إن كثيراً من الظاهرات الأخلاقية والسياسية، هي جوهر لظاهرات ذات منشأ لغوي». وتذكّر ماماردا شفيلي نفاذ صبر ناس عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين في الاتحاد السوفيتي، حيث

أرغمتهم تلك الحالة أن يوجعوا رؤوسهم وينهبوا الأرض مسرعين نحو المستقبل المشرق. ورأى أن نفاذ الصبر ذاك كان بأكثره نتيجة لتحريض لغوي استخدمت فيه مفاهيم مقتبسة من الخارج ولم يجر فهمها واستيعابها داخلياً. وما كان يجري في حياة البلاد وقتئذ كان غريباً عن لغتها.

وليس عبثاً أن رأى الرومنسيون الألمان في الأسطورة بالذات فناً نموذجياً، وأخذوا على عاتقهم مهمة إنشاء ميثولوجيا جديدة تكون قادرة على أن تعبّر عن مكنون أعماق النفس الإنسانية. بل في العام ١٨٠٠م وضع العالم الألماني فريدريك شليغل برنامجاً لإنشاء ميثولوجيا جديدة ترتكز على وحدة الطبيعة والروح: انطلاقاً من أعماق الروح تعكس الميثولوجيا بالرمز الطبيعة أيضاً ولذلك فإنها هي وحدها التي يمكن أن تكون الينبوع البدئي للشعر الأصيل. ويهيأ لنا أن حلم شليغل هذا قد تجسد لدى الكاتب الألماني الرومنسي إي- ت- أ. هوفمان الذي بنيت مخيّلة الحياة اليومية عنده على تداخل المعتاد المبتذل مع السحري البديع، وتواجهت الطبيعة المَوتة مع الأشياء المفعمة بالحياة، التي تثور ضد العقلانية الخاوية روحياً. ولذلك صار هوفمان بالذات السلف المباشر للاتجاه العقلاني المحدث الذي جسدته أعمال ن. ق. غوغول، وللمذهب التعبيري الذي قاد إلى ف. كافكا، وللمذهب الميثولوجي في الأدب الأوروبي في القرن ٢٠م على وجه العموم. كما التفت إلى الميثولوجيّة والأساطير كلّ من جويس، وإيتس، وت. مانّ، وماركيز، وكثيرون آخرون.

لكن إدخال الصور والشخصيات الميثولوجية عالم الأدب لم يقتصر على الرومنسيين الألمان فقد ألمحنا سابقاً إلى أن الوعي الميثولوجي قادر على أن يجدد نفسه عبر أي موادّ كانت. ونضيف: وفي أي عصر كان. فمن المركّب البدئي للديميورغوس، السلف الأول، البطل الثقافي. تنطلق خيوط التعاقب والتوارث لتصل، إلى الأبطال الملحميين كلّهم: جلجامش، وراما، وغيسير، وبيوفولف. ويحضر «ورثة» هؤلاء بدورهم في الأزمنة كلّها، بعد إدخال التغيرات التي تلائم الأزمنة ومثلها طبعاً. ويكفي أن نستذكر في هذا السياق روايات الفرسان الذين ينتصرون دوماً على الأوغاد الذين استفحلت وقاحاتهم، وينقذون السيدات الحسناوات، وسوى ذلك من السمات الملازمة لهذا الجنس الأدبي. ومن الصعب جداً أن نرى تألّق المغزى نفسه في هاملت. وهو الشخصية المرهقة المثقلة بالتأمّل في بهتان أي عمل بطولي على خلفية الانهيار الأخلاقي. وكم يبدو دون كيشوت هزلياً! ولكن «الفارس المقحام النبيل» لا يمكن أن يظهر إلاّ هكذا في ظل الشروط التي أفضت إلى انتصار النثر الملتصق بالحياة. وقد امتدت خطوط التعاقب المتواصل هذا حتى وصلت زمننا هذا الذي سلب البطولة مجدها، وحوّل الوجوه إلى أقنعة من السهولة بمكان تبديلها، ولذلك ليس من السهل رصدها. فالشخصية الميثولوجية تتكاثر في طيف لا محدود من شتى الأجناس وصولاً حتى الشعر الهجائي المقطعي. وقد كتب شاعر إنكليزي مجهول:

قـــدّ يـــسنا جيـــورجي قتـــل التـــنين بـــالرمح،

وأنقـــــذ الفتـــــاة في زمـــــن الحلـــــم.

لقـد كـان التـنين مختلقـاً. والقـدّيس كـذلك.

ولكن قد تكون الفتاة عاشت في الدنيا على أي حال؟

وتتجذّر عميقاً في الشخصيات الميثولوجية للأخوة الديميورغوس، جذور محور المثائية الذي يتردد كالصدى في أدب مختلف القرون. فجويس على سبيل المثال، يبيّن عبر ميثولوجية الأخوة الأعداء، وموضوعة الإله الإنسان الذي يموت ويبعث حياً، «كابوس التاريخ»، «متسلّلاً» في غضون ذلك إلى أحلام أبطاله ليكتشف بذلك أعماق الذاكرة الجماعية اللا واعية.

أمّا فيما يتعلّق بالديميورغوس- البهلوان، المحتال والمشاكس، فإنه غدا السلف الأول لأبطال روايات الشطّار والعيارين، والهزليين الفطنين وسواهم من الشخصيات الأدبية المشابهة التي شاعت في عصر النهضة؛ كما خرجت منه الحيوانات التي أنيط بها دور البطولة في كثرة كثيرة من الحكايات والطُرف. وهل هناك طريقة أكثر ذكاء وفطنة للتجاوز على المعيار وتحويله، من اللجوء إلى هذه الشخصية!

ومن المهم أخيراً أن نرجع إلى التاريخ. ويكفي أن نسوق مثالنا في هذا الميدان من التقويم الذي مُنح لشخصية بطرس الأكبر بصفته الديميورغوس الذي حوّل روسيا «بإشارة واحدة من يده». فقد كتب م ف لومونوسوف عنه قائلاً: «إنه إله، لقد كان إلهك يا روسيا!» ؛ ولم يقل لومونوسوف هذا انطلاقاً من الإخلاص والانتماء، بل في الغالب أنه قاله متأثراً بالشخصية الميثولوجية البدائية الأصل الآسرة، التي لم يستطع كثير من المؤرخين أن يتخلّص منها.

ويكفي أن نطالع المؤلفات التاريخية التي وصلت إلينا حتى نتأكّد من أن سحر تلك الشخصيات الميثولوجية البدئية قد فعل فعله فيها. فارباب الزمن القديم العظام عدّوا أنفسهم أباطرة، وورثة للبطل الديميورغوس البدئي. وعندما كان فراعنة مصر يمضون للقتال، كانوا يماثلونهم بالإله الكلّي الجبروت رع، الذي هزم الثعبان؛ بينما شبّهوا أعداءهم بهذا الثعبان المهزوم. ولم يكن هذا التشبيه ينطوي على أي غرور كما يكتب بعض المؤرّخين، بل كان مجرّد مثلجة طبيعية معتادة للتاريخ. ولهذا السبب عينه عدّ الإمبراطور الفارسي داريوس نفسه فراتاون الجديد، وفراتاون هذا هو البطل الميثولوجي الإيراني الذي نسبت إليه الميثولوجيا الإيرانية قتل الوحش ذي الرؤوس الثلاث. وإذ عايش داريوس الأسطورة، أو بمعنى أدقّ عاش فيها، فإنه أحيا بذلك التاريخ الذي كما بينّا سابقاً لم يكن يشبه التاريخ الذي اعتدناه نحن.

زيادة إلى هذا ينبغي ألاّ ننسى أن الذاكرة الشعبية هي على وجه العموم ذاكرة لا تاريخية. فقد بيّن العلماء أن ذكرى حدث أو شخص حقيقي تحفظ فيها لقرنين أو ثلاثة قرون على أبعد تقدير. وتعليل ذلك في خاصيات الذاكرة الجماعية نفسها، فهي لا ترسّخ الأشخاص الأفراد والأحداث الخاصة إلا بصعوبة فائقة، إلاّ أنها تحفظ جيداً الشخصيات الميثولوجية الأصل والأعمال الميثولوجية الأولى. وهذا أمر طبيعي، فهي تتمسّك بما يمثل لها قيمة عليا، ومعايير الحياة التي أعطاها الآلهة هي الأعظم قيمة عندها. ولذلك غالباً ما تعيد الذاكرة الشعبية بناء سيرة الشخصيات التاريخية الحقيقية وفق النموذج الميثولوجي.

ويمكننا أن نسوق من هذه الأمثلة ما لا عدّ له. لكنّ ما سقناه هنا وحده يكفي لإقناعنا بأن الأسطورة تتداخل تداخلاً رائعاً مع الدين، والسيكولوجيا، والأدب، والتاريخ، بل مع التفكير السليم المزعوم أيضاً. والأكثر من هذا أن الأسطورة تستلقي في أعماق هذه العلوم، وتشكّل أساسها حاملة إياها ومغذية بإكسير الحياة كما يغذّي الينبوع النهر. ولهذا السبب فإن ثبات ما هو ميثولوجي في التاريخ والثقافة يثير الذهول حقاً. فالمغزى والصيغ الميثولوجية تعوم في بحر الثقافة كأسماك نادرة تخرج من أعماق لجج المحيط. وهي تظهر في ثقافتنا كظاهرات راسبية أحياناً؛ وكثمار لنهضة ما أحياناً أخرى؛ عن سابق وعي حيناً، أو بطريقة لا واعية حيناً آخر؛ في الوعي الفردي، أو الاجتماعي؛ عفوياً أحياناً، أو بتحريض من أسباب ما أحياناً أخرى.

ولهذا فإننا لا نستطيع أن نقرّ الرؤية السائدة التي تبسط حركة الثقافة البشرية، فتراها تبدأ من ميثولوجيّة عصرها الأول لتصل إلى طورها المنطقي- العلمي بصفته درجة أكثر تقدماً ورقياً. فمنذ البدء تداخلت في الثقافة بنى متناقضة: لا عقلانية وعقلانية. وقد «عملت» هذه معاً كيد يمنى ويد يسرى، وتبادلتا السيادة على توجيه الحركة الثقافية في مختلف العصور. ولا ريب في أن أسباباً عميقة كانت تكمن وراء تلك الحركة، وهي أسباب تنطوي عليها الخاصيات الأساسية لعمل الدماغ البشري، وتحديداً لا تماثل فصّيه. فعلماء الفيزيولوجيا يفسّرون جوهر تباين نوعيّ الوعي: الوعي العلمي والوعي الميثولوجي، بثنائية الكرة الدماغية واختلاف الإمكانات الوظيفية لكلّ من فصّيها. ويبدو اللا تماثل الوظيفي لهذه الكرة كما يلي: يعمل الفصّ الأيسر كعامل دؤوب يبرمج، ويحلل، ويتعامل مع المفاهيم الجزئية التي تتوافق مع طبقات كاملة من الموضوعات، ويقيم بينها علاقات منطقية. أمّا الفصّ الأيمن فيحقق الإدراك المتكامل المركّب الانفعالي للعالم. وقد أتضح أن المرضى بالانفصام الدماغي هم أشخاص ذوو شخصيات ازدواجية: لا تتصل تجربة الفصّ الأيمن عندهم أبداً بتجربة الفصّ الأيسر. وينسحب هذا الانفصال على الإدراك، والمعرفة، والإرادة، والتعلّم، والذاكرة.

وبناء على هذا كلّه يبدو أنه بات على القرن العشرين أن يعترف أخيراً بأن الأسطورة ثابت مبدئي في حياتنا مهما كان الموقف منها: سواء عشت فيها، أو آمنت بها، أو حاولت أن تتجاوزها. فالأساطير لا تعمل على إقناعك بأي شيء، إنها ببساطة كأي شيء آخر متوافقة مع الصيغ القديمة التي أدركنا العالم بها.

ومن المناسب أن نتذكّر هذا الآن، عندما بات كلّهم يتحدّث عن أننا نعيش مناخاً من الكاوس العميق، والأزمة المزمنة، والكارثة المحدقة التي لا رادّ لها. فكل ما كان حتى وقت قريب يدعى تقدّماً، أظهر الآن طابعه المدمّر، وقوى الإنتاج باتت في واقع الأمر قوى تدمير. ولم تواجه أي حضارة من حضارات الماضي خطراً بحجم الخطر الذي تواجهه الحضارة المعاصرة. إن علينا أن نواجه تحدياً من نوع مختلف تماماً.

وهذا ما يطرح كثرة من الأسئلة، ومنها السؤال التالي: هل يمكننا أن نعثر على خيط ما كخيط أريادني يخرجنا من هذا النفق المظلم؟ وما هي القيم التي ينبغي أن نسترشد بها؟ إنه لضلال عظيم أن نعتقد بأننا سوف نكتشف شيئاً ما جديداً تماماً ولم يعرف العالم مثله من قبل. وترى أفضل العقول أن طريق المتغطرسين هذه لا تقود إلاّ إلى الضلال. وينبغي دون أي تأخير إحياء القيم الأبدية المنسية، على الرغم من أن هذا التعبير بات تعبيراً باهتاً. ومع ذلك فإن هذه القيم بالذات قادرة على أن تساعدنا على تطوير وعي ذاتي أكثر كمالاً، وهذا ما يبدو لنا الأمر الملحّ في عصرنا هذا الذي أرهقته العقلانية. كلاّ لا يمكن للإنسان أن يحيا ككائن عقلاني صرف، ويرمي خارج الثقافة كلّ ما لا يدخل ضمن إطار العقل. فهذه القوى كالعفاريت، سوف تخرج من القمقم عاجلاً أم آجلاً وتودي بالبشرية إلى حروب مدمّرة، ورزايا وآلام لا حدود لأمدائها.

وهذا ما جعل قرننا الراهن يحثّ الخطى عائداً إلى الأسطورة، إنها الاستجابة الحتمية للتحدي القديم الذي طرحه عصر النهضة عندما أعلن أن الحقائق التي يدركها العقل هي الحقائق الوحيدة التي تستحق المعرفة. وطريق العودة هذه تقودنا إلى الميثولوجيا، لاسيما أن فهمها يماثل استذكارها. فمن الميثولوجيا بالذات يمكن أن ننتظر ومهما بدا هذا غريباً، أفكاراً جديدة، أي أفكاراً قديمة منسية تماماً، عن عالمنا وطرق تقدّمه. فالمادة الأساسية للأساطير هي الإنسان نفسه، وصلاته مع العالم، وهي موضوعة أبدية وليست موضوعة طارئة. والأساطير التي لا تشيخ مفتوحة دوماً لكلّ تطور جديد، ولكلّ فهم معاصر، ولكلّ تأويل يتوافق وشتى البرامج والمشاريع.

الفهرس

في بحث أزليّ عن الأصول

المطابقات السامقة

المسمارية معيار الكواكب

من منشورات دار علاء الدين

- في دوامة التاريخ النهاية والبداية وبحوث في نشوء الحضارات وانهيارها
  ليف غوميلوف
- اكتشاف خازاريا
  ليف غوميليوف
- أسرار الآلهة والديانات
  أ. س. ميغوليفسكي
- هرم ستونهينج الافتراضي
  أ. فريبوفيف أ.أ. زينوفيف
- أسرار الفيزياء الفلكية والميثولوجيا القديمة
  س. بريوشينكين
- تاريخ اليابان من الجنور حتى هيروشيما
  ادوين أولدفاذر ريشاور
- رموز ومعجزات دراسات في طرق والمناهج التي استخدمت لقراءة الكتابات واللغات القديمة
  ارنست دوبلهوفر
- المسيحيون الأوائل والإمبراطورية الرومانية
  أ. س. سفينسيسكايا
- التاريخ السري
  بروكوبيوس
- فتح بلاد الغال يوليوس قيصر
  بيتي راديس
- السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية
  جان كلود مارغرون
- أميرات سوريات حكمن روما
  جودفري تورتون
- أساطير في أصل النار
  جيمس فريزر
- الشعوب الإسلامية في القفقاس وروسيا وآسيا الوسطى
  مجموعة من المؤلفين
- الإله والإنسان وأسرار جنائن بابل
  د. ماجد عبد الله الشمس
- الحضارة والميثولوجيا في العراق القديم
  د. ماجد عبد الله الشمس
- في أصل العرب ومواطنهم
  د. ماجد عبد الله الشمس
- نقد النص التوراتي الكتاب الأول
  د. إسماعيل ناصر الصمادي
- التاريخ التوراتي.. والتاريخ الكتاب الثاني
  د. إسماعيل ناصر الصمادي
- التاريخ التاريخي ما بين السبي البابلي وإسرائيل الصهيونية الكتاب الثالث
  د. إسماعيل ناصر الصمادي
- اليوم الأخر ونهاية الزمان
  د. خالد صناديقي
- التشريعات البابلية
  عبد الحكيم الذنون
- بدايات الحضارة
  عبد الحكيم الذنون
- شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم
  مجموعة من المؤلفين
- الأسطورة في بلاد الرافدين الخلق والتكوين
  عبد الحميد محمد
- العادات والتقاليد في جبل العرب
  عطا الله الزاقوت

الأسطورة ـ التاريخ ـ الحياة



هذا الكتاب صعود إلى المنبع، وتجوال في الفضاءات البكر، وغوص في فكر الإنسان وخياله وتصوراته العجائبية لوجوده وللكون ولعالمه الداخلي، ورصد للتحولات الكبيرة في مسيرته وتطوره وتلمسه القيم الخالدة والحكمة الأزلية.

إننا نطالع فيه مختلف أنواع الأساطير، ونتعرف من خلاله على العلاقة بين هذه الأساطير والتاريخ وعلاقتها مع الحاضر ومع حياتنا المعاصرة. وهذه الأساطير لا تزال تعيش معنا وتؤثر فينا وتدخل في نسيج إبداعاتنا الفنية والأدبية، لأنها المنهل الذي لم ينضب في أي زمن من الأزمنة، حيث تنعكس فيه الموضوعات الكبرى والمسائل الأزلية.

يُعدُّ هذا الكتاب خير مرجع للدارسين والمختصين والباحثين عن المعرفة وجذورها، لأنه يساعدهم في موارية باب عالم الأساطير الساحر اللا نهائي.

يطلب الكتاب على العنوان التالي